

رواية

مصطفى فودة

الناشر

مكتـــب النيـــــل

١٢ شـارع عبده بدران

ميدان الباشا – المنيل

ت ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الايداع ١٣٦٨٨ /٩٩

الترقيم الدولى 977-5414-15-6

عودة لسيدى التايه:

نشأه أبوه نشأة ريفية خشنة رغم أنه وحيده وشاء له كعادة الريفيين أن يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة فدفع به إلى المدارس المدنية وفى الوقت نفسه ألزمه بحفظ القرآن على يد أكثر من محفظ بقريته والقرية المجاورة.. وما كان أثناء عطلة المدارس الصيفية يدعه يهنأ بها لعبا ومرحا مع أترابه وإنما كان يلزمه بمراجعة القرآن على الحفظة الذين يزج بهم الفقر هم وزوجاتهم وأخواتهم فى معمعة التناقض مع ما يجب أن يكونوا عليه كأهل قرآن وتجبرهم عليه حاجة البطن ويوما وجده أبوه مهددا بالقتل لما فضح زوجة محفظه مع مستغل فقرها وفقر زوجها. فعاقبها إخوتها بإرسالها إلى الآخرة بسرعة وأرادوا أن يلحقوه بها لينسى الناس بالقرية الفاضح والمفضوحة، فنأى به أبوه إلى العاصمة ليكمل تعليمه بها. ولمزيد من الحفاظ عليه أسكنه عند عمته بطاطاية بعيدا عن أن تطوله يد من فضح أختهم.

وما كان أبوه يدرى أنه فر بابنه من قضاء إلى قضاء إذ تلقفته لوزة التى تكبره بعشر سنوات على الأقل وتتفجر جمالا وصبا وإهمالا تاما من زوجها - عاشق غيرها لدرجة أنه ما فض بكارتها رغم أنه تزوجها من عدة سنوات وتتخذ منه لوزة بمكر الأنثى ودهائها مثيرا لغيرة زوجها أملا فى أن يحتويها كزوج. لكنه بدلا من أن يفعل يتربص به هو وصبيانه ليطحنوه لكن نشأته الخشنة تنفعه لما يلقفه - إمبابى - سيد حى الحسينية شومته فيطيح فى زوج لوزة وصبيانه. فيثير إعجاب امبابى الذى وجد فيه شبابه لما كان فتوة الحسينية. فيوثق صلته به ويختاره بمكر أولاد البلد لإحدى ابنتيه التى تكبره أيضا بسنوات أقل من أصابع اليد والتى هى مطمح ابن التربى أغنى أغنياء الحى لا لغنى أبيها ومركزه الاجتماعى ولا لجمالها الفياض الذى ينطفئ بجواره جمال جميلات الحى وإنما لغناها أيضا لأن أباها شجعها على

ممارسة تجارة التوريدات فحققت منها أرباحا جعلتها فى مصاف أغنياء الحى..

تحبه ابنة إمبابى فتشركه بلباقة فى تجارتها وتلقى على كاهله رعاية أرض اشترتها فى صحراء قريبة إلى حد ما من العاصمة لتقيم عليها مصنعا وتستصلح الباقى لتحوله إلى جنة فيحاء فيتعرض له ولها أعراب الصحراء الذين يعتقدون أن الصحراء إرثهم ومحرمة على غيرهم إلا بعد أن يشتريها منهم حتى ولو اشتراها من الدولة.

تدفعه نشأته الريفية التى ترفض الضيم مهما كان الخطر إلى رفض تهديد الأعراب والتصدى لهم فيتربصون به الدوائر ليقتلوه أو على الأقل يصيبوه بما يحبطه ويحبط ابنة امبابى فيرحلا حتى بغير خفى حنين. لكن خفة حركته وتدربه على لعبه (الكراتيه) تنفعه فيدفع ويطحن ويصيب المعتدين بإصابة خطرة ليجد يديه مزينتين بأساور الشرطة وتنظر إليه ابنة إمبابى وهو على تلك الحال فترقع بالصوت.

ناءت نفسي بالقيد الحديدى أكثر مما ناءت به يدى . مشيت بين يدى الضابط الذى قبض على مستسلما لقدرى ضبطت نفس تقول لى : «يافرحة أبوبيك بك . أرسلاك إلى أكبر المدن لتأتى بالتعليم من ذيله فعدت متهما بضرب مفض لموت » نظرت لابنه أمبابى الملتاعه بجوارى ولعنتها فى نفسى مع الأيام التى وضعتنى فى طريقها ، حقدت عليها : إلا أن حقدى لم يدم إلا لثوان وجدتنى بعدها أقول لنفسى : « وماذنبها هى ؟ لا تلم إلا نفسك فما كان يجب أن تستجيب لهذا التحدى الذى لست قده . ماضرلو سددت فم شيخ الغجر بما أراد من نقود ؟ أكان من اللازم أن تكون فلاحا أنفا ترفض الابتزاز ؟ وما فيها لوقبلته مرة لتمر عاصفة عاتيه لست قدها ؟

حملنا المقاول فى عربته ومعنا من عرفت أنه محاميه. الذى يبدو أنه استدعاه دون أن أفطن امتد معى التحقيق الى وقت متأخر من الليل وأحضر المقاول أناسا لم أرهم من قبل شهدوا بأنى كنت أدافع عن نفسى . احتجزت بمحبس المركز ولولا نفوذ المقاول لظللت به حتى الصباح أصرت ابنة امبابى على ملازمتى فى حجرة ضباط النوبه التى حجزونى بها بعد أن أخرجونى من محبس المركز إكراما للمقاول وعبثا ضاعت محاولة المقاول ومحاولتى اقناع ابنة امبابى أن ترتاح مع بنات المقاول فى منزله وظل هو ايضا معى حتى رحلت الى النيابة صباحا فأفرجت عنى بكفاله بعد تحقيق .

قبل أن أغادر مكتب وكيل النيابة قدمت شكوى فى الشرطه لانها لم تحمنا يوم أن شكونا الاعرابى ما ان علم المقاول بذلك حتى لامنى ، غير أنى لم أعبا بلومه .

أصر الرجل على عزومتنا فى بيته على فنجان قهوة، ذهبنا معه، وعندما نزلنا بعد قهوته لنأخذ عربتنا أزكمت أنوفنا رائحة السمك الذى تعفن لما أنستناه الحدثان فى حقيبة العربه .

اقترحت على ابنة امبابى فى طريق عودتنا أن تعود هى لبيت أبيها وتدع لى مهمة ملاطمة المشكلات فرفضت باصرار وقالت وهى تميل لتقبل كتفى :

– نموت معا أو نحيا معا . فما جدوى حياتى بدونك ؟

ابتسمت ناسيا تماما حقدى عليها وقلت :

– ماضر لو جعلت قبلتك أعلا قليلا ؟

أجابتنى بصكة خفيفة على ظهرى وهى تقول :

– استح ياولد والا شكوتك لأمى .

ضممتها وقبلتها فتأرجحت بنا العربه على جانبى الطريق .

من عجب أنى استأنفت مذاكراتى بقيه يومى وليلتى هادئ النفس برغم كل ما مر بى فاستوعبت كثيرا ثم نمت قتيلا .

فى الصباح حملتنى ابنة امبابى فخذ الجمل لإوصلها الى بيت أبيها قبل ذهابى لمدرستى .

* * *

عدت قبيل العصر الى الأرض وأنا أعانى من صداع لم تجد معه المسكنات .وضعت ابنة امبابى أمامى طعام الغذاء فعافته نفسى وقلت لها « سأنام أولا على أبرأ من صداعى » وطلبت اليها الا توقظنى الا للشديد القوى . ومع ذلك احسست بها توقظنى ولما أشبع نوما فقمت مغضبا فقالت تطامن من غلواء غضبتى :

– معذرة فهم زوار مهمون.

سببت لها ولكل ما ومن هو مهم فوضعت يدها على فمى حتى لايزيد صوتى فيسمع من فى الخارج وهى تقول « حذار فهو المأمور وضابط المباحث والمقاول» . وضعت رأسى تحت المياه البارده لأكمل يقظتى وخرجت مغيظا مرحبا، وجدت أمامهم أطباق فاكهه وبقايا شاى .

أخذ المأمور يجاذبنى أطراف الحديث حول دراستى وكيف أوفق بين هذا الذى أنا فيه والدراسة ثم انتقل ليستفسر عن قريتى وأسرتى، ما إن نطقت بهما حتى هب واقفا ووجه حديثه الى ضابط المباحث :

– ألم أقل لك . إننا جيران وأن والده صديق أخى وأن أرضنا لا تبعد كثيرا عن أرض أبيه.

دهشت ونظرت مستغربا.

أخذ يعرفنى بقريته وأسرته فتذكرت كثيرا من أفرادها وتذكرت أخاه الذى كان يتبادل مع أبى الزيارة فى الحقل والمنزل . سعدت بذلك وقدرت أنه ربما نفعنا بتعاطفه مستقبلا إن كان مايزال متمسكا بتقاليدنا الريفيه ولم يغيره المنصب .ولف بنا الحديث حول الاعرابى ورجليه وأبدى دهشه لتمكنى منهما وبخاصة أن الاعراب يجيدون استعمال الخنجر . لم أشأ أن أدل بالكراتيه . وعللت ذلك بستر الله لأننى لم أسع الى عراك . أخبرنى أن الاعرابى حالته سيئه وأنه يوجه لى اتهاما باصابته فتمتمت « يفعل الله مايريد » ثم عاد وأكد لى أنهم بينوا للنيابه بواسطة تقرير المباحث كذب الاعرابى فى اتهامه، فاكتشفت أنه هو الذى يكذب، لأن من بين للنيابة إنما هم شهود المقاول .

لم يعجبنى كل هذا اللف، ولكى أقطع تلك الجلسة التى أصابتنى بالملل والصداع ثانيه وضعت يدى على جبهتى وأطرقت فسألنى المقاول عما بى فبينت له أن الألم يمزقها من أمس، ولما رفعتها قال المأمور :

– ياأخى أليس عيبا أن تشكو ضباطنا للنيابه ؟

– وألم يكن عيبا ياسيادة المأمور أن تتقاذفانى فيما بينكما مجاملة للأعرابى . لو أنكم اتخذتم موقفا لربما منعتم شرا . اما كان يمكن يا سياد؛ المأمور ان اكون قتيلا امس .

– يا رجل لا تضخم المسائل . قتيل! أو نحن نلعب ؟ وهل كنا سنترك قاتلك يفلت؟

– وما يجدينى يا سيادة المأمور ان يفلت او لا يفلت بعد ان اقتل .

– أرجو بحق الجيرة ان تسحب شكواك لانها ستسبب ضررا للضابط .

– وماذا فى هذا يا سيادة المأمور ؟ أليس هذا افضل له ولرجاله حتى لا يجاملوا أحدا على حساب أحد مستقبلا .

– يا رجل ولا مجاملة ولا غيره كل مافى الأمر أن مثل هذه الشكاوى الصغيرة إذا أوليناها اهتماما لن نفرغ لما هو مهم . وكثير من هذه الشكاوى كيدى وقليل جدا منها هو المهم .

– والنار تتصاعد من هذا القليل إذا ترك . كالنار التى كادت أن تحرقنى أنا وخطيبتى.

– ولكنها مرت بخير.. وأرجو أن تقبل رجائى بسحب الشكوى

– أفكر.

تدخلت ابنة امبابى قائلة:

– سأسحبها أنا ياسيادة المأمور. فتشريفك لنا بالدينا كلها. ولو جئت على رقابنا لقدمناها راضين.

– ذلك عشمنا يا هانم. وخطيبك أيضا ابن رجل كريم ولولا أنه غاضب لقبل رجائى وأنا أقدر غضبه.

وهم واقفا وهو يقول:

– أرجو أن تزورنى فأنا بمنزلة عمك ومكتبى وبيتى مفتوحان لك أنت وأى إنسان من طرفك.

سلم علينا هو وضابط المباحث. وعندما هم بالركوب شيعته ابنه امبابى بحفاوة بالغة.

بعد انصرافهم قلت لها بحدة:

– لم تدخلت؟

رد المقاول:

– ذلك أفضل. لا تنس أن رجال الإدارة يجاملون بعضهم البعض. ولن تصل بشكواك إلى شئ. ثم إن عندكم سلاحا غير مرخص وعقوبة ذلك السجن. وحتى لو لم يكن عندكم فبإمكانهم تلفيق التهم بالباطل. وحلني على ما تثبت براءتك أو براءة رجالك، وساعتها تكون صرفت كثيراً وحفيت أقدامك فى المحاكم أكثر. مافعلته خطيبتك هو عين الصواب. حتى لا تشغلكم معارك جانبية لاجدوى من ورائها.

سألته عن عمر فأجابنى بأنه مازال فى حاجة إليه. بينت له أنى أيضا فى حاجة أشد إليه لأنه يساعدنى فى المذاكرة. ابتسم وقال:

– أعجبه الحال عندى واستطعت احتواءه واتفق معى على ألا يعود إليكم مطلقا. كسوته وأعطيته من النقود الكثير لأنه وفر لى ما هو أكثر. إنه لقيه لمن يرضى عنه. وربنا يستر ويظل عنى راضيا.

ذهبنا ثانى يوم عقب عودتى من المدرسة إلى مبنى النيابة فتنازلت عن شكواى فى ضابط الشرطة وعرجنا على المأمور الذى احتفى بنا فأبلغته بتنازلى عن شكواى فى ضابطه فشكر وأصر على أن نوافيه فى منزله بعد انتهاء نوبته مساء لنتعشى معه. فاستأذناه وخرجنا نبحث عن عمر إلى أن عثرنا عليه فى مأوى عربات المقاول. رأيناه من بعد يمارس دور الآمر الناهى وقد ارتدى حله عمل جديدة. ما إن لمحنا حتى جرى إلينا تاركا ما فى يده وغمرنا نحن الاثنين بقبلاته. وأمر من يحضر لنا شرابا باردا وسحبنا إلى حجرة بها مكتب فأجلسنا وجلس أمامنا خلف المكتب وهو منتفخ الأوداج وقال:

– بارك لأخيك على عمله الجديد ومكتبه الجميل. أنا الكل فى الكل هنا.. ولا حتى المقاول يصرف على أمرا. أنا الذى آمر والكل ينفذ.

ردت ابنة إمبابى:

– من أعطاك يعطينا يا ابن لوزة. الله يرحم القرافة التى أكلت من رجليك الحافيتين وشربت.. أتتركنا يا ابن الـ..؟

تجاهلها ونظر إلى وقال:

– خطيبتك هذه لسانها أطول من لسان أمنا لوزه مصيبتنا واحدة فى اللسان الطويل.. ربنا يعينك عليها.

ردت عليه:

- هكذا؟ لسانى طويل؟ يا خائن العيش والملح.. تترك أخاك ياقليل الأصل.. وتجرى وراء النقود لتصرها على قلبك ثم تعطيها لأمك. ياولد انت يامتنيل أخوك تعود على المذاكرة معك وتتركة!؟

لم يرد عليها عمر ونظر إلى بحنان وقام فقبلنى وأخذ يجمع أشياءه التى منحه المقاوله إياها وسبقنى إلى العربة. كان أمامنا وقت طويل حتى موعدنا مع المأمور فى منزله. تحيرنا أين نقضيه لم نجد أمامنا إلا مقهى الترعة ذهبنا إليه وما إن جلسنا حتى سألت ابنة أمبابى عن الصياد. طلبت منه طرحات على وجهى وأخرى على وجه عمر وبادلتها الرغبه فطلبت طرحات على وجهها. بدأ الرجل بها فكان رزقها واسعا ورزق عمر أكثر سعة وكنت أقل الأرزاق إلا أننا حصلنا على سلة متوسطة من السمك مختلف الأنواع والأحجام.

وجدت أننا يمكن أن نكون مستهدفين فى مكاننا - بسهولة - من جانب الترعة الآخر فانتقلنا إلى مكان يصعب منه أن ننال برغم معارضة ابنة امبابى التى لم أشأ أن أعلل لها مادار فى ذهنى حتى لا يصيبها الرعب.

لما اتجهنا إلى منزل المأمور مررنا بصائغ وكانت ابنة امبابى هى التى تسوق، وقفت وعادت للخلف حتى وازت المحل. ظننت أنها ترغب فى إضافة جديدة إلى تل مشغولاتها الذهبية. قلت لها:

- ياحبيبتى أنت طفلة أمام الذهب

- وهل هناك أمرأة لا يأسرها الذهب!؟

نزلنا وظل عمر فى العربة. دخلنا فاشترت خاتما نسائيا جميلا. وطاقما رجاليا مكونا من أزرار ودبوس. وعلى طريقتها فى المماكسه طلعت عينى الصائغ فيما أراد إضافته من مصنعية. ظننت أنها اشترت الطاقم الرجالى لى. إلا أنها ناولتنى إياه وقالت:

- ضعه فى جيبك وقدمه هدية للمأمور. أما أنا فسأقدم الخاتم لزوجته.

- قد يرفض.

- إن رفض هو فلن ترفض زوجة فالذهب آسر للنساء.

- ولم هذه الكلفة؟!

- توثيقا للمودة. فلا شك أننا سنحتاجه كثيرا فى مستقبل أيامنا.

- هبى أنه انتقل.

- سيوصى من يليه بنا خيرا. فنحن الرابحون على أيه حال.

حاولنا أن نثني عمر عن الصعود معنا. إلا أنه أصر. ما كان باليد حيله. قابلنا الرجل بحفاوه بالغة. ونادى زوجته وأولاده فعرفهم بنا وعرفنا بهم، وخاض بنا الحديث فى مضارب شتى. لاحظت أنه كان لاينى ينظر لعمر. حدثته عن أحواله بصوت لايسمعه عمر. بان الاشفاق على وجه الرجل. وقال:

– سأطلع على نشرات الغائبين وأوصافهم فقد نستدل على أسرته.

قمنا إلى المائدة فجلس معنا عمر وتناول طعامه مستعملا الشوكة والسكين برشاقة أدهشت المأمور. راح يحاذبه أطراف الحديث فدهش من ردوده أكثر. وامتدت بنا السهرة إلى قبيل منتصف الليل.

قدمنا هدايانا قبيل انصرافنا فقبلها الرجل وزوجته بعد تمنع. عندما ودعنا ربت على كتف عمر وقال:

– ربنا يوفقنى وأخدمك يامسكين

عدنا لتنشغل ابنة امبابى بسمكها على حين رحنا نشخر أنا وعمر.

فى الصباح وجدت المقاول فى انتظارى. اتفق معى على أن يكون عمر معه حتى العصر من كل يوم. نظرت إلى عمر فوجدت به رغبة طفل فى الذهاب معه. فضربته على ظهره وقلت له:

– فى داهية بس العصر تكون هنا وإلا سأخبر أمك بإهمالك لما أرسلتك من أجله معى وأنت عارف أمك. حذاؤها ثقيل وفرقعته عاليه.

رد المقاول.

– من الأفضل أن تأخذ طريق مدينتنا فى مجيئك إلينا لتعود به لأنه كثيرا ما يرفض أوامرى فضلا عن أنى قد أشغل فيتأخر فتضجر وذلك مالا أحبه.

عدت من المدرسه فعلا من طريق مدينة المقاول ورجعنا إلى الأرض أنا وعمر لنتناول سمك ابنة امبابى الشهى التى أولت به لرجالنا ومعهم المقاول القديم. واستأنفت المذاكرة أنا وعمر بهدوء وجد حتى غلبنا النوم فى وقت متأخر.

مر أسبوع على تلك الوتيرة أخذ البناء يرتفع فيه حول الأرض وإن لم يصل للحد الذى يحجب من بداخلها عمن هو خارجها وبخاصة إذا كان فوق تبة من التباب المحيطية بها واستعضت ما فاتنى من دروس وراجعت ماسبق وغلب على ظنى أن الأمور قد هدأت وأن الأعرابى لن يرينا وجهه ثانية وأننا خلصنا تماما من وجع الرأس الذى يسببه لنا.

قرب يوم جمعة فاقترحت ابنة امبابى أن نذهب إلى المأمور فنعزمه هو وأسرته ردا على

عزومته لنا. لم تجد منى ميلا. فسألتنى:

– لم؟

فأجبتها:

– استراحتنا غير مهيأة للقائهم فما فيها فراش ولا عندنا صحاف.

– ذلك هو المطلوب لأنه يكسر حدة رتابه الحياة التى ألفوها فيشعرون بالتغيير عندما يفترشون الأرض ويأكلون بأيديهم ولا تصك أبصارهم الجدر.

ظلت ورائى إلى أن وافقت وذهبنا إلى المأمور فى مكتبه فوجهنا له الدعوه. فقبلها. كان يجلس معه ضابط المباحث فأحرجت منه فوجهت له ولأسرته الدعوة أيضا بالرغم من أنى لا أحبه. تمنع إلا أن المأمور تحمل عليه فقبل.

خرجنا من عند المأمور لتتسوق ابنة امبابى أشياء كثيرة، مناشف. سكاكين. ملاعق صحاف. قصاع. أكواب. حصير. ملاءات. وغيرها مما ظنت كأنثى أنه لاغنى عنه لمثل تلك العزومة. ولما عدنا نادت رجلها الأول وطلبت إليه أن يشترى ماعزا مطبقة اللحم. أعطته النقود. سألتها:

– ولم الماعز؟

أجابت:

– بعض الناس لا يميل للحم الضأن لدسامته. ولا أريد أن يجوع ضيفانى.

استغرقت وعمر فى المذاكرة بقيه ليلتى وعندما هممت بركوب عربتى صباحا اقترحت على أن أمر على أسرتينا فأدعوهما حتى تكون فرصة الحديث مع ضيوفنا أوسع فلا يشعرون بالملل. ملت إلى أن أدعوا أسرتها فقط أما أسرة عمتى فلا، لأنى لا آمن لسان عمتى ولا أعرف إلى أى مدى هى غاضبة. وبينت لها أنى أفضل أن أبتعد عن لسان عمتى ما استطعت حتى ننتهى من مهمتنا. إلا أنها أصرت فأسلمت أمرى لله.

* * *

مررت على عمى امبابى فى مقهاه المفضل بعيد الظهر. فقابلنى مبديا شوقا وحدبا وحنانا. وأجلسنى بجواره وما كف لسانه عن الاستفسار عن الاحوال وكيف تسير الأمور؟ وإلام وصلنا؟ وهل برنا أمان؟ وماذا نحتاج؟ وهل تعرضنا لمتاعب؟ وإلى أى مدى كانت؟ كان يلقى أسئلته متلاحقة حتى إنى ما كنت أكاد أكمل إجابتى. ولما أخبرته بعزومتنا. قال:

– كنت سأعزم نفسى لأطمئن عليكم. أما وأنكم سبقتم بدعوتنا فسنحضر بالتأكيد

وبخاصة أن خالتك امبابية أبراج عقلها طارت من أجل ابنتها فهى لم تفارق حضنها مثل تلك المدة من يوم ولدتها وعمتك أيضا ستجئ من أجلك. خاصمتنا وصالحتنا ولوت عنا كشحا ثم مالت إلينا، وعمك بطاطة يتمعر وجهه عندما يرانى ولولا الملامة ماحدثنى. وابنة عمتك وجعت رأسى صباحا وظهرا بالسؤال عنك. والشيخ محمد لم يتورع أن يفسر فى وجهى أنه قرأ على عديه يسن لأنى حرمته من أرزاق كانت تنثال عليه منك. وكل هؤلاء كومة والطباخة وحدها كومة، عملت لنا فضيحة فى الحى لدرجة أنى أدعيت أن ابنتى زوجتك على سنه الله ورسوله لأخرس الألسنة أما لوزه فلولا الخوف لكانت أكلت زمارة رقبتى. سنحضر ياولدى كلنا. ومن الأفضل ألا تمر على عمتك لأنها إذا رأتك لا آمن أن تدعو كل أهل الحارة ليربطوك بكل ماعندهم من حبال فى وسطها حتى لاتفارقها ثانية. سأتولى أنا تلك المهمة عنك.

أثناء حديثة معى ماكفت يدى عن رد تحية الناس.

لما هممت بالانصراف دس يده فى جيبه وأخرج نقودا كثيرة. أصر على أن آخذها لابنته التى وصفها بأنها بنت كلب بخيله وقد تقصر رقبتى أمام الناس لأنها ممسكة ولا تصرف قرشا إلا بخلع الضرس.

عدت لابنته بالنقود، كانت تجلس وحيدة فى استراحتها. ألقيت بالنقود فى حجرها قائلا:

– خذى ياشيخة البخلاء.

– أنا يا ولد؟! طيب، والله لآكلنك بأسنانى. وقامت لتحاول. فهربت إلى باب الاستراحة.

– جبان.

أبوك هو الذى يصفك بهذا. ويأنك ممسكة أيضا ولا تنفقين قرشا إلا بخلع الضرس. وما على الرسول إلا البلاغ.

– أبى يصفنى بهذا؟ والله ما ممسك إلا هو، يخونه ربع البعير الذى أرسلته له. وماذا قال أيضا؟

– أنه أرسل لك هذه النقود حتى لا تقصرى رقبته ببخلك.

– كف يا ولد عن وصفى بالبخل وإلا فأنت لا تدرى ماذا سيحدث لك لما يدى تطولك. قلت وأنا أعود اليها لا تقدرين.

– أقدر ونصف.

– اكسر أسنانك.

- وما ولا يتك على حتى تكسر أسنانى.
- ولايه زوج لك على سنه الله ورسوله.
- ياليت.

واحمر وجهها خجلا ولتدارى خجلها. أمسكت بيدى وأخذت تعضها بحنان وأنا أبدى التأوه، فأردفت:

سآكلك حتي تكف.

- ولما تأكلينى تبقين بلا زوج.
- يا ولد انت اسكت وإلا أصابنى حديثك هذا بالجنون.

ولم يكن من المعقول أن أكف عن مداعبتى لابنة امبابى التى تتفجر جمالا وصبا إلى أن قالت بجد:

- وماذا أوحى لأبى بفكرة زواجنا الجميلة؟
- ليقطع بها لسان شائعات الطباخة عنى وعنك؟
- لكم أود تقبيل لسانها القبيح على تلك الشائعة.

* * *

كانت أسرتانا أول القادمين يوم الجمعة. جاءوا مبكرين تقلهم عربتا أجرة.ما إن ترجلت عمتى من إحداهما حتى احتوتنى بين ذراعيها تقبلنى ودمعها ينثال على خديها وأخذتنى فجلست بى الأرض كأن رجليها لا تتحملانها ثم قالت: والقبلات تغمرنى بين جمله وأخرى:

- يا ولدى ياحبيب عمتك. حرام عليك مافعلته بى . تتركنى ولا تسأل.. طيب تعال اجبر بخاطرى. ماذا صنعته بك لتهجر عمتك؟ بعد أن فتحت عينى أغمضتهما. وبعد أن رفعت رأسى نكسته وأضحكت الناس على. حرام ياولدى قصمت وسطى ووسط عمك بطاطة.. أنت الذى لنا فى الدنيا يا ولدى ولابنتينا . لم ياحبيب عمتك لم؟ ماذا تأكل؟ وماذا تشرب؟ وكيف تنام؟ وكيف تذاكر؟ حرام والله حرام. أشمتت بى الاعداء. وجعلتنى كل دقيقة أناجى ربى داعيه.

يا ساتر. استر. ولا تجعل أخي يحضر. ماذا لو حضر أبوك ولم يجدك؟ ماذا كنت أقول له؟ أأقول أضعتك. يافضيحتى. وياعيب الشؤم. وكيف كان عمك بطاطة يفتح عينية أمام أبيك ولحم أكتافنا من خير ربنا وخيره. حرام والله ياولدى. لن أسامحك أمام الله على فعلتك هذه.

جاء عمى امبابى ينتظر أن يسلم على لاحظت. هممت لأسلم عليه جذبتنى وقالت:

- أقعد حتى أشبع أنا أولا وترد روحى إلى.

قال لها إمبابى:

- ولن تشبعى يابطاطة.

- معك حق يا امبابى.. لن أشبع.. ماذا اعمل يا امبابى إنه ضناى وربنا أرسله لى عوضا، لأنه حرمنى الصبيان.

وجاء عمى بطاطه فقال لها:

ياوليه كفى. همدت الولد. وكتمت أنفاسه بذراعيك السمينتين.

ردت:

- قر على يابطاطة ونق. كله من خير أخى.

نظر لعمى امبابى قائلا:

انظر الوليه أم لسان طويل يا امبابى.

ثم قال لها:

- يابطاطاية كل الناس عارفه إنه خير أخيك. بس دعى الولد. ستخنقينه.

ردت:

- حرام عليكم. تأخذونه منى ياناس.

قلت لها

- ياعمتى..أسلم عليهم وآتى لنذهب بعيدا عنهم كلهم. الأرض واسعة. وسنجلس أنا وأنت فقط بعيدا عنهم.

تركتنى عمتى فرحت أسلم وأرحب ولما وصلت إلى زوجة امبابى قالت:

- ماكنت أعرف أنك عند عمتك فرخة بكشك هكذا!! لا يأخى لن أزوجك ابنتى لأن عمتك ستكون حماة صعبه جدا.

ابتسمت وقلت:

- ولكنى تزوجتها، وسلى عمى امبابى.

جاوبتنى بيسمة من الشرق للغرب.

تركنا النسوة ورحنا نتفقد الإنشاءات أنا وعمى بطاطة وعمى امبابى وكان رجلاه اللذان أمدنا بهما لحماية الأرض يتبعانه كظلة واستفسر عمى امبابى عن كل كبيره وصغيرة من المقاول القديم وأعطى توجيهات تنم عن خبرة كبيرة.

عدنا لأندمج فى حديث أسرى مع عمى بطاطة، على حين انفرد امبابى برجلية بعيدا وراحوا فى حديث فاستنتجت أنه يريد أن يطمئن منهما على أحوال ابنته معى. عاد منفرج الأسارير. ومال فقبلنى دون أن ينطق. أكدت لى هذه القبلة أنه كان فعلا يطمئن على ابنته، قلت له.

– هى فى الحفظ والصون ياعمى امبابى، فأنا فلاح يعرف العيب والواجب والأصول، عرضها عرضى مادامت معى وأموت ولا يمس.

بان الخجل على وجه الرجل فأراد ان يغطيه . قال:

– رحت بعيدا يا استاذ

– بعيدا أو قريبا من حقك أن تطمئن. وإن شئت أخذت أسرتى وانصرفنا فورا.

رد عمى بطاطة :

– لا تضخمها ياولدى. أنا فهمت، وذلك حقه. بل لو لم يفعل لسقط من عيوننا.

وعلق امبابى:

– قل له يابطاطه والنبى، لأنه حساس أكثر من اللازم فى هذه المسألة.

اندفع الينا صغيرا ابنته الكبرى كل يحمل زلطة كبيره نوعا يريد أن يريها الى جده.. انشغلنا بالصغيرين عن حديثنا وانضمت الينا النسوة فتشعب الحديث سألتنى عمتى عن ابنتها التى افتقدتها فلم أجدها لا هى ولا خطيبها خرجت مستطلعا فوجدتهما جالسين فوق ربوة عالية قريبه خفت عليهما من احتماليه طارئ خطر. أرسلت من يطلب إليهما ألا يتوغلا فى الصحراء تجنبا للمخاطر، وعنيت أحد الرجال لحراستهما عن بعد. وعدت فقلت لعمتى:

– سرحت هى وخطيبها يستكشفان المكان.

وجهت عمتى حديثها لزوجة امبابى:

– ايه يا امبابيه ابنك ماصدق الخلا ولعب بدماغ البنت. الشام جدار من ابنك يا امبابيه . بس لما تعود مقصوفة الرقبة.

– ياأختى يابطاطاية كفى عن الأولاد ولا تكونى حماه من الآن.

ناديت رجلنا الأول وطلبت إليه ان يذبح الشاة والماعز. إلا أن عمى امبابى أرجأ وصرف الرجل قائلا:

– أنا الذى سأذبح

ثم قال لى:

- يا أهبل. اصبر حتى يأتى المأمور فنذبح أمام عربته حفاوة به. فمثل هذه الأشياء الهينة تترك فى النفس أثراً لا يمحى.

لم يمض كثير وقت حتى هلت عربة المأمور وأسرته. أسرع عمى امبابى الى الذبيحتين فنحرهما أمامها ثم ألقى بالسكين وراح يرحب بالمأمور بشكل أدهشنى. إذا بدا لى كأنه صديق حميم غاب عنه كثيرا ثم لقيه. على حين راحت النسوة يرحبن بزوجته وأقامت ابنة امبابى تعارفا بينهم. تحلق أولاد المأمور الصغار مع أولاد ابنة امبابى الكبرى المطلقة حول رجلنا الأول وهو يقوم بسلخ الذبيحتين، لاحظت أن ضابط المباحث لم يأت مع المأمور. سألته فأجاب بأنه سيلحق بنا هو وأسرته بعد قليل. ولم يمض كثير وقت حتى كان ضابط المباحث وزوجته وأطفاله بيننا يلقون من الحفاوة الكثير. وبسرعة استطاع عمى امبابى بذكائه الفطرى ولباقته أن يحتوى ضيوفنا الرجال فاندمجوا فى حديث باسم وكأنهم يعرفون بعضهم من يوم ان خلقهم الله.

لما عرف المأمور أن عمتى موجودة طلبها وعرفها بنفسه وبأسرته فلقى منها ترحيبا أى ترحيب وراحت تسأله عن أغلب أترابها من نساء أسرته ومن هن أكبر منها ثم فى النهاية جعلت توصية بنا خيرا.

دخلنا ليل الشتاء القاتم بسرعه بعد أن طارد أمامه النهار على عجل وغلبنى إحساس بأن شيئا ما سيحدث لكنى كنت أطارد هذا الهاجس المبهم ويطاردنى ورحت أتمنى أن يرفض عقد ضيوفنا حدثت ابنة امبابى بهواجسى فضحكت منى وقالت:

- ومن يجرؤ والمأمور معنا.

- ومن أين أتاهم أنه المأمور؟

- ياليت يصدق حدسك حتى نتخلص بالحكومة من خصومنا ويرى رجالها بأنفسهم ما نتعرض له من متاعب وقلق.

هم ضيونا الرجال بالانصراف وأخذوا يعجلون النساء والأولاد الذين أتوا يسحبون اليهم ويكوا عندما حاول آباؤهم منعهم. فأصرت ابنة امبابى أن يأخذوها معهم وعندما كان رجلنا يقوم بوضعها فى خزينة العربه وكلنا متحلقون حولهما نودع، انطلق رصاص كثير فى اتجاهنا من أكثر من اتجاه فصرخت النسوه وجرين يحتمين بالاستراحة هن وأولادهن. وجذب المأمور عمى امبابى وانطرح به أرضا واحتميت بإحدى العربتين وجرى رجالنا بالغريزة فى اتجاه مكمن السلاح. وأخرج المأمور وضابط المباحث سلاحيهما. يطلقان منهما طلقات متفرقة هنا وهناك وصاح بى

المأمور:

– أين أسلحتكم؟

صمتت فأردف:

– أخرجها وإلا متنا كلنا.

زحفت جه مكمن السلاح فوجدت رجالى مترددين فى إخراجه خشية المساءله. فصحت بهم فأخرجوه وانطلقوا يجاوبون نارا بنار. أحس المهاجمون بزيادة معدلات نيراننا فخفت حدة نيرانهم شيئا فشيئا إلى أن همدت تماما. عدت أطمئن على الكل وحمدت الله أن لم تكن بنا أو بضيوفنا إصابة أطفأت الأنوار التى انستنا المفاجأة أن نطفئها خشية معاودة الهجوم وطلبت من الكل الكمون ومداومة الاحتماء وخرجت فإذا بالمأمور يحدث المركز من لاسلكى بعربته. ولما انتهى قلت له:

– تأخرت فى استعمالة ياسعاده المأمور!.

– أنستنيه المفاجأة.

طلب ضابط المباحث من المأمور أن يخرج برجالى لمتابعة المهاجمين. منعه المأمور قائلا:

– معنى هذا أن نبقى نحن بلا حراسة. وهم لن يفلتوا منا مستقبلا.

وزع المأمور بنفسه رجالى من حولنا. وطلب إليهم إلا يطلقوا النار إلا بعد أن يطلق هو أو ضابط المباحث. ران علينا الصمت قرابة نصف الساعه إلى أن قطع السكون زئير عربات الشرطة المحملة بالجنود. قابلهم المأمور وبثهم حول الأرض وأركب نسوة أسرتينا إحدى عربات الشرطة بعدما أصر عمى امبابى وعمى بطاطه على البقاء معنا حاولت عمتى أن تجرنى معها نهرها المأمور فانصرفت عنى. وأركب أسرته وأسرة ضابط المباحث عربة أخرى وركب هو وضابط المباحث معها. وعين قوة حراسة لكلتا العربتين وذهبوا بعد أن شد على يدى وتمتم.

– موعدنا الصباح وأخف سلاحك يكفى سلاح رجال الشرطة الذين تركتهم معك.

لم ير أى منا النوم.. وراحت ابنة امبابى تقص على أبيها مافعلته برجلى الأعرابى فى المدينة وما فعله الأعرابى يوم حاول اصطيادى بأعرابية الطريق وطردى للأعرابى من الأرض. كانت تضخم لأبيها الأحداث لست أدرى لماذا كان عمى بطاطة يسمع فى ذهول وفى النهاية قال:

– لو علمت عمتك لاستقتلت لأخذك من هنا.

أما عمى إمبابى . فقال لابنته

– ضعيه فى عينيك فأنت لاتستحقين منه ولا قلامة ظفر.

نظرت لابنة امبابى مخرجا لها لسانى. فقالت متوعدة

– طيب.

– ظن أبوها أنها تؤمن على كلامة. فأردف:

– أه. والله لو بلغنى يوما أنك غبنت خاطرة لأقطعن رقبتك.

أخرجت لها لسانى ثانية. فقالت لأبيها:

– لكنه يغيظنى يا أبى كثيرا.

رد:

– يغيظك؟ يغيظك وماذا فى هذا؟ هو الرجل.. وهو حر يسمع كلامك يرفضه. يكسر ضلوعك هو حر. أه.. أفاهمة . قومى فاصنعى لنا شايا نستعين به على السهر.

قامت مطرقة

فقال عمى بطاطة لامبابى.

– إن جئت للحق يا امبابى.. ابن نسيبى هذا يغيظ بلدا.

رد أمبابى:

اسكت يابطاطة ولا تبطر البنت عليه.

فى الصباح عاد إلينا المأمور فى زيه الرسمى وبعربة شرطة كان وحيدا ولم أشأ أن أسأله عن شئ قدم لى أوراقا أنا وابنة امبابى وطلب توقيعنا دون استفسار أو قراءة ثم قال لابنة امبابى وهى توقع:

– أنت بخيله؟

نظرت اليه بدهشة. فأردف:

– لا إفطار ولاشاى.

رد عمى امبابى:

– والله ياسيادة المأمور ماتذوقنا شيئا، كنا فى انتظارك لنفطر معا.

وضعت لنا ابنة امبابى الإفطار وأتبعته بالشاى. ذكرنى عمى بطاطة بعمر لأنه لم يظهر له أثر من ساعة هجوم أمس. أرسلت أحد رجالى يبحث عنه. وجده يغط فى نوم عميق داخل حفرة عربتينا. داعبه المأمور حين رآه بقوله:

– ياحلاوة الرجال الهاربين عند الشدة!! تترك أخاك يواجه الموت وحيدا وتنام.

رد عمر:

– وماذا أفعل له إذا كان عبيطا؟ أخى بميت نفسه من أجل بنت امبابى. وهل هناك امرأة تستحق هذا العبط الذى يصنعه أخى.

دهشنا كلنا، وقال له المأمور:

– من يزعم انك عبيط يكون هو ستين عبيطا.

ورد عمى إمبابى:

– من يوم ماظهر فى حينا. وأنا رأيى أنه يسوق علينا العبط.

ورد عمى بطاطة.

– ياناس حرام عليكم. ماكانت كلمه نطقها! أنا عايشته وأنا أدرى به. إنه مسكين.

لم تعجب عمر كله مسكين هذه فقال:

– مسكين!؟ لم؟ هل أقف على أبواب الناس ياعمى بطاطه انتظر الحسنة؟! أنا رجل كسيب.. وأسأل قريبك. أنا الآن باشمهندس قد الدنيا وأعمل عند أكبر مقاول.

ثم أخرج نقودا قربها من عمى بطاطة وأردف:

– انظر ياعمى بطاطه معى نقود قد ماذا.

وراح يخرج نقودا من جيوبه الأخرى. وتابع حديثه. وهو يقدمها لعمى باطاطه:

– خذ ياعمى بطاطة خذ أعطها لأمى المسكينة مادام قريبك لا يعطيها شيئا. لم أشأ اعطاءها إلى خالتى بطاطاية لأنها يمكن ألا تعطيها لأمى كلها. أما أنت فمأمون وتعطف على أمى وتحبها وتعاملها سى بناتك.

زادت دهشة المأمور عندما رأى النقود. ونظرا إلى وقال:

– من أين له بكل هذه النقود؟ فربما يكون سرقها.

أجبته:

- لا.. ياسيادة المأمور. إنها منا ومن المقاول.. لقد أصلح له معدات كثيرة والرجل متمسك به لدرجة أنه يقاسمنى فيه الآن.

قلب المأمور شفيته وهز رأسه متحيرا. وقال:

– من عجب أن نشرات الغائبين المبلغ عنهم التى وصلتنى من سنوات. ليس فيها من تنطبق أوصافه عليه.

ثم نظر إلى وتابع:

– بربك يا ولدى لاتهمله.. وابحث له عن طبيب جيد يعالجة. ينوبك فيه ثواب عظيم.

- توجه عمى امبابى قائلا للمأمور:

- ياسعادة المأمور. طبيب لماذا؟ وزند رقبته يجر قطارا إنه ابن كلب ويسوق علينا الاستعباط.

رد المأمور عليه:

- لا ياشيخ امبابى.. إنه مرض نفسى.

لم يقتنع عمى امبابى وقال:

- نفسى؟! لكنه ليس بمجنون؟ إنه يذاكر للاستاذ خطيب ابنتى دروسه. والاستاذ يقول إنه عالم، وها هو الأستاذ يقول إنه أصلح معدات المقاول. واكتشف عيوبا فى إنشاءات المصنع وحسب حفر أساس السور وحديده ووزع قواعدة بشكل أدهش المقاول الذى له خبرة تعادل خبره المهندسين. وبعد هذا يكون مجنونا؟! لا.. لا إنه...

قاطعه المأمور:

- هناك فرق بين الجنون المطبق والحالة النفسية تلك حاله نفسيه أخف من الجنون، قد تكون نتيجة صدمه لم يستطع مجابهتها، قهر مثلا. ظلم. فشل فى حب، فقد حبيب. أشياء كهذه. العلم يقول بهذا.

قال عمى امبابى بشكل يوحى بعدم الاقتناع!.

- جائز ياسعادة المأمور. انتم أدرى ياأساتذه.

دخل المقاول الجديد معتذرا عن عدم استطاعته تلبيه دعوتنا له أمس متعللاً بكثرة مشاغله قال له المأمور.

- احمد ربك على أنك لم تحضر.

دهش ونظر إلى المأمور باستغراب. فأخذ يقص عليه المأمور أحداث الليلة الماضية. والمقاول فاغر الفم دهشة. ثم نظر إلى وقال:

- الحمد لله على السلامة.. كنت سأحزن جدا لو أصباكم مكروه.

ثم نظر إلى المأمور وقال:

- ياسعادة المأمور من زمن وأنا أرجوك أن تضع حدا لطغيان هؤلاء الاعراب فتهملهم. وها هى النتيجة جرأة على رجال الحكومة. لابد أن تتحرك ياسعادة المأمور.

رد المأمور:

- هناك تجريدة من الشرطة تطاردهم الآن. لكنك تعلم أنهم ينماعون عندما يشعرون بالشرطة فى مسالك ودروب الصحراء الوعرة تساعدهم الهجن السريعة، كما أنهم لا

يحملون بطاقات شخصية ولا عائلية. فمن نقبض عليه منهم نضطر لإطلاق سراحة بعد أن يثبت بواسطة الشهود أنه من قبيلة أخرى وحظة العاثر هو الذى ألقى به فى أيدينا وهو قادم لبعض شأنه. ماذا نفعل مع أولاد الـ.. هؤلاء. أليس وراء الشرطة ماتفعله إلا هم.

التمست العذر لرجال الشرطة الذين شكوت إليهم ثم شكوتهم عندما سمعت كلام المأمور للمقاول.

وقال عمى بطاطة:

- والحل ياسيادة المأمور بالنسبة للأولاد ومصنعهم وأرضهم.

رد المأمور:

– ليس هناك شئ حاسم. فقط إثبات للقوة. وقد فعلها ولدنا.

وأشار إلى وأردف:

إنهم لا يخشون إلا لغة القوة، ولاننا خبرنا هذا جيدا فنحن نتغاضى عن مخالفات السلاح. واسأل المقاول.

وأشار إليه وأردف:

– نحن نعرف أن كل موقع من مواقع عمله مدجج بالسلاح غير المرخص ومع ذلك. نحن عمى بكم صم. مادمنا لانستطيع الحماية. نترك الناس يحمون أنفسهم وأموالهم بأيديهم.

وقفت عربة بالخارج فران علينا الصمت وسرعان مأدخل علينا ضابط المباحث فحيا وجلس، نظر إليه المأمور فقال:

– سعادتك تعرف النتيجة مقدما.. قبضنا على بعضهم وسقناهم إلى المركز ومعهم بعض قطع سلاح ودلتنا كلاب الشرطة على مخزن مخدرات وجدنا فيه بما لا يقل عن مليون جنيه إلا أننا لم نعثر بجواره على أحد ولم نستطع أكثر من هذا.

قال له المأمور:

– هيا بنا.

ولما خرجنا فى توديعهما. أراد المأمور أن يطمئننى أكثر على سلاحنا غير المرخص. فقال لضابط المباحث.

- طبعا سلاح الجماعه هنا مهم بالنسبة لهم فلا تؤاخذهم به.

رد ضابط المباحث:

– طبعا.

ونظر الى وقال:

– تأتينى غدا أنت وامبابية الصغيرة لأرخص لكما طبنجتين، وترسل لى رجالك واحد إثر آخر لارخص لهم سلاحهم، صحيح إن القوانين لا تسمح بمثل ما معكم من سلاح آلى لكن الترخيص بغيره مهم لتغطيته وتغطية ما قد يترب على استعماله ونحن نقدر الظروف والناس فاطمئن.

* * *

قضى عمى امبابى وعمى بطاطة يومهما معنا. وأبدى عمى إمبابى رغبة أكيده فى أن يظل معنا إلى أن يكتمل بناء السور غير أنى أقنعته - بصعوبه - بالأ يهمل مصالحه وراح طول النهار يتفقد العمل ويحفز الرجال ويؤكد على المقاول بالسرعة وفى المساء ودع ابنته هو وعمى بطاطة وحملتهما فى عربتى إلى المدينة.

أصرا على أن ينزلا على مشارفها لأعود سريعا إلى الأرض. لما وصلت وجدت ابنة امبابى وسنانه الجفون ما إن رأتنى داخلا عليها حتى احتوتنى بين ذراعيها وبكت. كانت أول مرة تحتوينى فيها بهذه الطريقة، تركتها تفعل ماتشاء مقدرا لظروفها النفسية. وكانت خشيتى كلها أن يلمحنا رجال أبيها فتدور الشائعات ربتت على ظهرها وأردت أن أعيدها إلى وعيها فقلت:

– عيب أن تبكى ابنة امبابى! لا.. لا خليك مرجل كما كنت وماذا حدث لكل هذا البكاء؟!

وضعت رأسها على كتفى وقالت بصوت لايكاد يخرج.

– لست أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لى بدونك. لو كان يمكن ان نتخلص مما وضعتك فيه بلا خسائر لفعلت، لكن خسارتنا ستكون باهظة، عندما نوقف المصنع على أقدامة سنبيعه ولو بخساره ونعود إلى ما كنا فيه لنعيش بين ناسنا مطمئنين.

لم أشأ معارضتها. فقلت:

– وقتها يفعل الله مايريد. هيا نقوم لننام فأنا أشعر كأنى مخدر من كثرة السهر. قومى قومى لأطمئن عليك قبل أن أخرج.

استلقت على الفراش كطفلة وأحكمت الغطاء حولها. وملت فقبلتها فربتت على الفراش بجوارها بما معناه. أن أنام بجوارها فقبلتها ثانيه وقلت:

– ياليت.. تصبحين على خير.

أحكمت إغلاق بابها ودخلت إلى الاستراحة الأخرى وما إن استلقيت على الفراش حتى

وجدت ضوء النهار يتسلل من صيص النافذة ودق شديد على الباب. ليوقظنى.

قمت ففتحت لأجد رجلنا الأول يقول:

– ايه.. الساعه الآن العاشرة صباحا. وليست هذه عادتك لا أنت ولا الهانم. قلت أوقظكما.

– وهل أيقظتها؟

– لا بدأت بك أولا.

– إذن دعها حتى تستيقظ وحدها.

أحضر لى الرجل الشاى وأتانى بثريد لبن. دهشت وسألته وأنا أشير للثريد:

– من أين؟

– من العنزة التى أهدينا صغارها لأولاد المأمور.

– أحدث شئ أثناء الليل؟

– كانت ليلة هادئة تماما.

خرجت معه لمناظرة العمل وجدت حجم العمالة عند المقاول القديم قليل جدا سألته أجابنى بأن العمال هربوا بعدما حدث أمس الأول وأنه أرسل من يجمع عمالا آخرين. أنذرته بأنه إن لم يعد حجم العمالة إلى ماكان عليه وأكثر سأسحب منه العملية. عدت الى مكمن رجلنا الأول وجلست معه نتجاذب أطراف الحديث حول الاعراب وما فعلوا وما يمكن ان يفعلوه.

افتقدت عمر فسألته عنه فأخبرنى أنه قضى ليلته فى حفرة العربات وأرسل المقاول إليه عربة فى الصباح أقلته اليه. تركته ودخلت أحاول المذاكرة الا أن شريط الاحداث ألح على ذهنى حاولت مرات طرده غير أنى لم أفلح. استلقيت على الفراش فنمت إلى أن أيقظتنى هذه المرة ابنة امبابى. اخبرتنى أننا قاربنا العصر وأنها استيقظت قبيل إيقاظى. عرضت أن نأكل رفضت إذ ماكانت بى رغبة واخبرتنى إنها فى غاية الضيق. وكنت أكثر منها ضيقا غير أنى أكتمه. قالت:

– هيا بنا.

– إلى أين؟

– إلى حيث تقودنا العربة.

وضعنا أنفسنا فى العربة وجدنا أنفسنا فى مقهانا المفضل على شاطئ الترعه، ماكاد الخادم يضع أمامنا مطلبنا حتى قامت قائلة:

- هيا بنا.

- قادتنا العربة ثانية إلى أن صادفتنا مدينه أكبر وعلى مدخلها مايدل على اسمها فهمت أنها عاصمة الأقليم.

لم أكن زرتها من قبل. سألت ابنة امبابى إن كانت زارتها. فأجابت مرات قليلة عندما اشترت الأرض المنحوسة التى ليتها ما اشترتها.

كانت تقود العربه فعادت بها إلى الطريق سألتها:

- لم؟

ألا نجول فيها فقد نجد استرواحا.

قالت:

- صرت أتضايق من كل ما يتصل بالأرض. وجدنا سهما يشير إلى مدينة ساحلية اندفعت مع السهم وقادت بسرعة مجنونة كأنها تضع غلها فى القيادة ولولا الأمطار التى بدأت تهطل رذاذا ماطامنت من غلواء قيادتها. دخلنا المدينة وماكنت زرتها من قبل. أما ابنة إمبابى فأخبرتنى أنها ترددت عليها كثيرا لشئون تجارتها. كانت الشوارع رحبه ونظيفة والأضواء تغمرها وحركة الخلق لم تتأثر بهطول المطر كل فرد فتح مظلته وسار كألا مطر هناك. تحولت ابنة امبابى الى مرشد سياحى لى تعرفنى بمعالم المدينة. وتذكر ان لها معارف من هنا وهناك من تجارها، ظلت كذلك اكثر من ساعة ثم دلفت إلى ماظننه بدءا حديقة ضخمة إلا أنى سرعان ما أدركت أنه مقهى رحب لما شهادته من العربات والثريات التى تتدلى من خصاص أغصان الأشجار، وقفت أمام قاعة ضخمة وأسرعنا لتحتمى بسقفها من المطر الذى اشتد. كانت القاعة ذات طراز عربى بدءا من بابها حتى أصغر كرسي فيها. وحتى خدمها كانوا يرتدون زيا عربيا. طالعت تختا عربيا يعزف.

ياليل الصب متى غده	أقيام الساعه موعده
رقد السمار وأرقه	آسف بالبين يردده

صحت:

- الله.

- سرنا بهدوء إلى أن جلسنا وشيئا فشيئا تسللت الموسيقى إلى نفسى فغسلت أدرانها. شيئا فشيئا حتى أحسست أنى أنماع وأتشعع مع النغمات، وأفقت من نشوتى لما صمتت الموسيقى بعد حوالى ساعتين. وجدتنى اتمطى أنا وأبنة امبابى

وكأنما انزاح عن كاهلنا عبء ثقيل. نظرت إلى وقالت:

– ياساتر. أين كنت؟ ماهذا الكابوس الذى كنت فيه إلى أن أزاحته الموسيقى؟ أتاكل؟

انتقلنا إلى حجرة الطعام. طلبت سمكا قال لها الخادم.

–تفضلى لتختارى.

سحبتنى من يدى وقالت:

– تعال معى.

دخلنا إلى حجرة فى أسفلها حوض ملئ بالمياه والأسماك الحية.. قدم لها الخادم شبكة جرابية على عصا ذات شعبتين وقال:

– تفضلى فاستخرجى ماتحبين.

وقدم لى أخرى فقلت:

– ماتختاره هى يعجبنى.

وقفنا فترة بعد أن اختارت نتأمل الاسماك وهى تسبح ونلاعبها بعصينا. ثم عدنا لنجد مائدتنا عامرة أكلنا بشهية مفتوحة كأننا لم ناكل من عام.

وطالت بنا السهرة مع الموسيقى ثانية. حتى بعيد منتصف الليل. اقترحت أن نبيت ليلتنا فى تلك المدينة. وافقت . وقامت فحجزت غرفتين فى فندق ملحق بالمقهى أو لعل المقهى هى الملحقة به وواصلنا استغراقنا فى الموسيقى حتى هل صباح بحر موجه رخاء وجنيتة جميلة أرهبتنى بدءا ثم عزفت لى موسيقى صاخبة حتى القت بى السفينة على شاطئ جزيره قاحلة تلفت لأبحث عن ابنة امبابى وجدتها واقفه فوق ربوة بعيده ناديتها. لاجدها بجوار الفراش ترد:

– أنا هنا فقم ياخم النوم.

تناولنا إفطارا سريعا وانطلقنا بالعربة نسابق بها كل عربات الطريق وسط موسيقى منبثة من مسجلها إلى أن وصلنا إلى مبنى المركز. صبحنا على المأمور الذى احتفى بنا وضحك وهو يقول لابنة إمبابى:

– تصورى ان الأولاد الصغار أصروا ليلة أمس أن تبيت معهم العنزة التى أهديتها لهم على السرير. وما هدأوا حتى توسطتهم.. ومن قبل خربوا لأمهم كل أوانى السكر وأطعموه لها. يفتح الله يابنتى سأرد عليك هديتك.

استغرقنا فى الضحك معه. وأرسل من يستدعى ضابط المباحث الذى جاء مرحبا هو الآخر وقدم لنا بعض الأوراق فوقعناها. وقال:

– أتشتريان أنتما الطبنجتين أم أساعدكما في شرائهما؟

قلت:

– بل تساعدنا فإنا لا نعرف من أين؟

وسألته:

– بكم؟

حدد ثمنا تقريبياً قدمته له ابنة إمبابي فرفض وقال:

– دعيه مع قريبك.

وأشار إلى المأمور. الذي أخرج مظروفاً فوضع فيه النقود.

استأذنا لننصرف. فقال المأمور لابنه إمبابي وهو يودعنا:

– ألا تمرين على بيتنا فترحمين زوجتي من هديتك. أنا واثق أن زمانها جنت منها. ولما سلمنا عليه على باب حجرته قال لي:

– خذ حذرك ولا يغرنك هدوء مخادع أو صلح كاذب.

عرجنا على عمر فأخذناه معنا وقضت ابنة إمبابي بعض حوائجها وعدنا إلى الأرض بعيد الظهر. جلنا بسرعة نطمئن على سير العمل. وانصرفت وعمر إلى المذاكرة على حين لزمت ابنة إمبابي استراحتها لتمنحني فرصة الاستيعاب والاسعواض.

بعيد العصر جائني رجلنا الأول ليخبرني أن بعض الأعراب في مكمنه ويرغبون في مقابلتي. احتواني غضب وأجبته بحده:

– ماذا يريد أولاد ال .. هؤلاء؟

– ومايدرني؟

– قل لهم إني مشغول وإن عليهم أن يعودوا بعد غد.

ظل الرجل واقفاً فقلت:

– نفذ ما أمرتك.

– ألا ترى من الأفضل مقابلتهم ولو من باب استكشاف ما في الضمائر. أرى أن تقابلهم وتشتري ولا تبع.

ملت لرأيه وخرجت معه. دخلت فهبوا وقوفا ومدوا أيديهم فسلمت وجلست ظلوا صامتين لفترة يقيسونني فيها بنظراتهم طولاً وعرضاً. اغتظت وقلت بجفاء.

– إيه خلصتم؟ وزنتموني تماما. فاستبنتم أني شاب لا هنا ولا هناك.

رد كبيرهم:

– العفو.. العفو ياأستاذ. من يقل هذا فهو الذى عقله لاهنا ولاهناك ولو لم تكن قدنا مادخلت أرضنا.

– ثانية.. أرضكم؟ دعكم من هذا الادعاء الفارغ وتكلموا فى شئ آخر أو تفضلوا من هنا.. فقد سبق ان قلت لرسولكم الأول إنها أرض الدوله وصارت أرضنا بالشراء منها ومن يدخلها بدون رضائى سأدفنه فيها.

– ياأستاذ ماقلنا شيئا فى حقك فيها مادمت قد اشتريتها. وما جئنا لنمارى فى هذا.

– ولم جئتم إذن؟! أصدقاء نحن؟ أقارب؟

– جيران. والنبى أوصى بسابع جار.

– طيب لما أنتم عارفون النبى. ووصيته لم لم تتعاملوا بها؟

– من جاءك بدءا جاء بدون رأينا.

قلت بحده:

– لا تكذب.. عيب.

رد بخبث!

– معك حق. والله معك حق. وحتى لو كنا أخطأنا فى حقك فقد ضربت اثنين من أولادنا وتسببت فى إدخالهما السجن والثالث فى المستشفى حالته سيئه.

– آه.. وأنتم الآن أتون للثأر. اسمع يا رجل مايقبض الروح إلا من خلقها وأنا لم أعتد على أحد. وإنما دافعت عن نفسى، ولو تكرر هذا الموقف ثانيه لن أرحم أحدا وسأكسر عظمه فى لحمة وليكن ما يكون.

– يا استاذ ماقلنا شيئا فى دفاعك عن نفسك، وأرجو أن تدع لى فرصة الحديث فيما جئنا من أجله.

صمتت . فأردف:

– لقد جئنا نقول عفا الله عما سلف. وإن كان ولدنا هددك أو حاول أحد منا الاعتداء عليك فقد أخذت حقك ثالثا ومثلثا! نريد أن نتصالح وأن نعيش متجاورين فى أمان الله. ما رأيك؟

حدثتنى نفسى بأنها خديعه وكلمة المأمور: «لا تغتر بصلح كاذب» مازالت ترن فى أذنى فصمتت قليلا وقلت:

– لى أهل كبار وناس لابد أن أشاورهم.

– معك حق. نحن فى انتظار ردك بعد أسبوع ويكون خيرا إن شاء الله. قاموا فامتطوا

أفراسـهم وابتلعتـهم الصـحراء. وخـرجت ابنه امـبابى من خلف مكمن رجلنا فـدهشت حين رأيتها هى ورجلا أبيها فى أيديهم السلاح، اتبدرتنى معلله.
– خفت عليك منهم لكن أنت جدْع ياولد. كان نفسى أن تكيل لهم أكثر وأكثر. أولاد الـ.. لما وجدوا العصا شديدة سعوا إلى صلح كصلح الذئب على الغنم ملعون أباهم ثالثا ومثلثا ومربعا.
طرأ على ذهنى أنهم ربما كـانوا صـادقـين لما رأوا جـانب الحكومـة مـعنا ممثـلا فى الشرطة وربما كانت خديعة ملت إلى اتخاذ جانب الحذر فقلت للرجال:
– سيكون اسبوعا خطرا جدا وأريدكم حتى فى النوم ان تكونوا مفتوحى الأعين.
ردا أحدهم.
– خلها على الله.
عاودت المذاكرة حتى انتصف الليل وأدركنى النوم فنمت وعمر يؤنسنى هذه الليلة. ما إن دلفت إلى باب المدرسة صباحا حتى ابتدرنى مدرب التربية البدنية وكان قريبا من الباب:
– أين كنت يخرب بيتك. لقد: شغلتنا عليك لدرجة أنا أرسلنا بعض الطلبة الذين تدربهم يسـألون عنك. عمـتك قالت لهم إنك لا تقيم مـعهـا حـاليا. والله مـا أنت بنافـع. والناظر متلمظ لضربك ومصر على فصلك. ولولا أنى تحننت عليه كثيرا لكان قد فصلك. وقد أمر أن يراك بمجرد حضورك. فقد تجاوزت نسبه الغيـاب المقررة ومن حقه أن يفصلك. تعـال. ومـهـمـا فـعل بك. لاترد عليـه. وتصنـع المرض حتى تنجـو من خـيزرانتـه وبعـدها نتصرف فى مسأله الغياب بطريقة قانونية.
دخل هو أولا على الناظر ثم أتى فـأدخلنى ممسكا بى كالمقـبوض عليـه وهو يهـمس لى تماوت، صعد الناظر فى نظراته طولا وعرضا وأنا أمثل دور المنهار كما نصحت. وانثال لسـان الناظر توبيخـا على إهمالى ولعبى وتوعدنى بعدم الفلاح والنجاح الذى سيكون بعيدا عن شنبى لأنى صعلوك. ثم تهددنى بأنه لولا مرضى لسوى لحمى بعظمى. وحرم على دخـول المدرسـة من غد إذا لم أحمل له شـهـادة تثبت إنى كنت مـريضـا بحق، لما خرجنا من عنده أنا ومدربى سـألنى إن كان معى جنيه أومـأت بالايجاب وأخرجته له فـأخده ونادى فـراشا وأسـر فى أذنه بكلمـات وخط له ورقـة بأيام غـيابى. ومـا هـى إلا دقيقه حتى عاد الفراش يعطينى شـهاده طبية تسمنى بكل أمراض الدنيا وتحدد مدة علاجى بعشـرة أيام. ولماحـاول الانصراف اسـتوقـفتـه لأستطلع الأمر فـهو لم يغـادر

المدرسة، بين لى أنه متفق مع طبيب عليها واليوم ببريزة وبين لى أنه فى الخدمة دائما فنفحته بجنيه إكراما له.
بعد انتهاء اليوم الدراسى بدأت مرانا لفريقى ولى مجاملة لهذا الاستاذ الشهم الذى أنقذنى من ورطة مع الناظر وأنقذ يدى من رقش خيزرانته المؤكد.
عدت لابنه امبابى متأخرا بعض الشئ. استفسرت عن سر هذا التأخر أخبرتها فابتسمت وقالت: أمر هين. اشتر إذن عدة شهادات طبية منه دون تاريخ ودعها معك جاهزة للطوائ فتحمى بها يديك من عصا الناظر وأذنيك من لسانه.
وجدتها فكرة طيبه عزمت عى تنفيذها من غد. جلت أستطلع أحوال العمل وجدت المقاول القديم مازال متوانيا، عزمت على سحب العملية منه. ولما رأيت المقاول الجديد أثناء مروره ناديته . وأظهرت له رغبتى فى أن يتولى هو العملية بعد سحبها من مقاولها: أبدى تمنعا وبين لى أنه جرى العرف ألا يدخل مقاول على مقاول ولا صانع على صانع.
– سألته وما الحل؟
– وعد بانه سيتحدث معه فى الأمر فإذا لم يستجب ويعود لنشاطه كان له شأن آخر معى.
جلست وعمر لنذاكر وكانت غزاله عمر رائقه فلم يسبنى مطلقا. عندما انتصف الليل جاء رجلنا الأول وأخبرنى عن هناك عربه نمت أضواؤها عنها تتجه نحو الأرض، وبين انه يخشى أن يكون الأعراب قد أبلغوا عن سلاحنا غير المرخص وأن تكون تلك العربة لرجال مباحث العاصمة. خطفت بندقيته وأمرته بأن يجرى إلى زميليه فيخفى سلاحهما وخرجت أعترض العربة أطلقت عدة طلقات فى اتجاهها محذرا فتوقفت.. ونزل منها ضابط مباحث المركز وحتى يعرف بنفسه جعل ضوءها يسقط على وجهه وصاح معرفا بنفسه سرت إليه وأبديت أسفى لهذا الاستقبال السخيف. ابتسم الرجل وتمتم:
– ابدا. بل لو لم تفعل للمتك، ثم سألنى لم أعترض أنا وأين الرجال حدثته بمخاوف رجلنا وبأنى قبلت المخاطرة بنفسى حتى لا أعرض أحدا لمساءلة. ربت على كتفى ولم يزد ثم بين لى أنه كان مارا وأراد الاطمئنان واختبار الحراسة عندنا.
سرنا حتى الاستراحة قدمت له ما استطعت أن أكرمه من فاكهة وصنع رجلنا الأول الشاى له ولرجاله، سألة ضابط المباحث إن كان جديدا على الحراسة فى المناطق النائية فأجاب بالايجاب قال له:

– اسمع أعلمك. عندما يكون القادم اليكم فى الليل صديقا فإنه يترك أضواء عربته مضاءة. أما إن كان مريبا فإنه يترك عربته كلها على بعد، ويتسلل اليكم مترجلا ليفاجئ.

قلت:

وأنى لنا أن نميز إن كانوا من الشرطة أو من غيرهم؟

– غالبا ما تكون التجريدة من سته وضابط وسائق ينزلون معا عدا السائق ويسيرون واثقين يتقدمهم الضابط بحكم العادة. فإن رأيتم مثل هذا التشكيل فأخفوا بسرعه سلاحكم غير المرخص. أما إن كانت الخطى غير واثقة أو كان التشكيل ليس على هذا النحو أو كان العدد أكثر أو أقل فاعترضوا وأنتم مطمئنون.

ثم وجه حديثة لرجلنا قائلا:

– تأتينى غدا لأرخص لك سلاحك أنت وزملاءك دفعه واحدة حتى نخلص.

عندما قام الرجل ليكمل جولته أخبرته بما كان من أمر الأعراب.

فقال:

– سأخبر سيادة المأمور ونرى ما يمكن أن يكون.

ودعته وعدت إلى الفراش مباشرة فاحتوانى النوم فورا وكأنه ينتظر عيونى تحت الوسادة حتى شخير عمر الرتيب لم يقلقنى مطلقا.

لما عدت ثانى يوم من المدرسة أخبرتنى ابنة امبابى ان المقاول القديم توقف تماما عن العمل وأنها من دقائق رأته يهم بمغادرة الأرض هو بقية عمالة، فخرجت فى طلبه وناقشته فتعلل لها بأنه فى حاجة الى راحة وأنه سيستأنف عمله سريعا ولما عاتبته بين لها أنه مازال أمامه مهله شهرين حسب التعاقد وسيكمل العمل قبل أن ينتهيا ولما رجته ألا يطيل أيام راحته كثيرا. لم يزد على أن قال: إن شاء الله. وإنه طلب منها نقودا فتعللت بأنها لاتدع معها نقود ذات أثر بالارض لخطورة المكان.

سألتها عن الموقف المالى معه فأخبرتنى بأنه دائن بألف جنيه لأنها كانت حريصة فى طريقة الدفع.

قلت:

– ربما هو غاضب من أجل هذا المبلغ؟

– لا أظن، والغالب أنه إما خائف من الاعراب على نفسه وإما غاضب لأننا عهدنا بعملية السور الى سواه.

- ومن جلبه لك؟
- أبى.
ثم سكتت وأردفت:
- وما العمل الآن؟
- قلبت شفتي متحيرا ولزمت الصمت وانصرفت هي لتعد لنا غداءنا.
جاء رجالنا فأخبروني بأنهم ذهبوا إلى ضابط المباحث فوقعوا على ماطلب منهم التوقيع عليه من أوراق وأنه يطلب إلى أن أمر عليه في أقرب فرصة ممكنة، وعاد عمر مع المقاول الجديد الذى أبدى لى دهشته لترك المقاول القديم لعمله، طلبت إليه أن يستعد هو لإكمال عمل المقاول القديم بالشروط نفسها التى قام عليها تعاقدنا معه. فرد.
- يا مسهل.
ثانى يوم عقب انتهاء الدراسة مررت على عمى امبابى الذى لقينى بحفاوة بالغة هو وكل من حوله فى مقهاه. ولما شبع اطمئنانا على الأحوال وطمأننى على أسرة عمتى وأطعمنى وسقانى اخبرته بما كان من المقاول القديم . وطلبت اليه ان يرى رأيه معه فإما ان يستأنف عمله فورا واما سأتصرف بما يحافظ على مصالحنا . استمهلنى وبعث برسول اليه سرعان ما عاد ليخبرنا بأنه لم يعثر عليه . ودعت عمى إمبابى مؤكدا بأنى فى إنتظار رد المقاول غدا بالمدرسة على الاكثر . دس الرجل فى العربة الكثير من الحلوى والفاكهة اشتراها لنا ولما هممت بالمسير قال :
- البنت أمانه لديك فحافظ عليها.
عدت فأخبرت ابنته بما كان ودفعت اليها بهدايا ابيها فراحت تفرق أغلبها على رجالنا . ولم يكن مطلوبا منى إلا أن أذاكر أنا وعمر. ثانى يوم لمحت عمى امبابى فى انتظارى أمام باب المدرسة عقب انتهاء الدراسة وأناأهم بتدريب زملاء فريق لعب العصا فخرجت، استدعيته، وقف يشاهد قليلا ثم تولى هو التدريب بمزاج ظاهر، ولما بدأت مرانى على الكراتية وقف مدهوشا ثم أخذ بعد المران يستفسر عن تلك اللعبه من المدرب . ثم سأله ان كان يمكنه أن يوافيه يوميا ليمرنه عليها نظير، أجر ضحك المدرب وأفهمه أنها لاتناسبه لأنها تحتاج الى خفه حركة ومرونه عضلات لم يعد مهيأ لها بحكم تقدم السن به . لم يقتنع عمى امبابى وألزمنى بمرانه بعد أن نروق من مشكلات المصنع والأرض. وافقته فمن يقدر أن يعصى له أمرا أو يعارض رغبه ؟ وعند خروجنا أخبرنى بأن

المقاول القديم خائف جدا من الأعراب لأنهم أرسلوا له من يهدده بالقتل هو وعماله اذا لم يغادر المكان فورا وقال له رسولهم إنهم سيعجلوا عالى أرضنا سافلها وأن عليه أن يهرب بجلده، وأنه حاول أن يطمئن المقاول إلا أنه لم يقتنع وقال له اعفنى ياامبابى فأنا رجل ذو أولاد صغار يحتاجون الى والاشغال كثيرة وقام فأحضر التعاقد وسلمه لإمبابى وقال له لى عند ابنتك ألف جنيه أنا متنازل عنها من أجل خاطرك ياامبابى، واعتذر كثيرا وأبدى أسفا أكثر وأظهر خوفا عليك وعلى ابنتى أكثر وأكثر ونصح بالتخلص من الجمل بما حمل .

سألته إن كان قد أعطى ذلك الجبان شيئا من الألف جنيه ؟ فرد:

– لا. أنه لايستحق منها شيئا . فضلا عن أن التعاقد ينص على دفعه اضعافها تعويضا فى حاله التخلى أو التأخير . ثم سألنى:

– وماذا ستفعلان ؟ أجبت:

– لعل الله أراد بنا خيرا ، برعب ذلك الجبان والمقاول الذى يبنى السور جاهز ولن نتعطل فى شئ.

ودعنى الرجل وهو يوصينى بالحذر وبأن نفكر فى التخلص من المشكلة برمتها ونبدأ من جديد فى مكان آخر .

عدت لابنته فأخبرتها بما كان وبرأى أبيها الأخير . قالت:

– وأنا أميل الى رأيه لولا أن الخسارة ستكون فادحة بل ربما لانستطيع البيع نهائيا لأن من يشترى يسأل عن الجار وعن سبب البيع وسيهرب بمجرد علمه ثم تمتمت:

على ماجاءت الحزينة تفرح.

ثم أردفت:

– تأتى ليصيده فيصيدك.

– تنهدت وقامت تجول وحيدة فى الأرض . تركتها لتفرغ شحنه حزنها فى السير واستلقيت على فراشى فغلبنى النوم .

* * *

أقف فوق الجسر المجاور لرأس حقل الحوشه فى أرضنا بالقريه وقد جمعت كومة زلط كبير وبيدى المقلاع مهمتى التى كلفنى بها ابى اليوم مطاردة الغربان التى تهاجم بقسوة محصول الذرة الذى قارب الحصاد . الغربان الخبيثة تلاعبنى حاورينى ياطيطة أطاردها من جهة فتطير لتحط على جهة أخرى . أملا جيوبى زلطا وأسير جيئة وذهابا

بطول حقلنا أمقلع، حتى كلت قدماى، لكنى لا أستطيع الجلوس خشية مفاجاة أبى ستكون مصيبتى كبيرة لو فاجانى جالسا والغربان تفرى أكواز الذرة، لن أسلم مطلقا من يده الثقيلة ولسانه المكلة كلماته بالشوك الحاد . كلما أرسلت الشمس شواظها فأصلت به الأرض زادت سخونتها تحت قدمى الحافيتين عمدا حتى لايعوقنى الحذاء عن الجرى عند اللزوم، تدخل شوكة فى قدمى أمد يدى لأستلها تحولت الى كلاليب لاتريد أن تفارق قدمى . يختل توازنى وأنا واقف على رجل واحدة ويداى تسلك الكلاليب من رجلى الأخرى، أسقط فى بطن الجسر لأتدحرج. تحوم الغربان من فوقى تريد أن تخطف مقلاعى وأتشبث به، ألف غراب منها تمسك طرفه الآخر بمناقيرها تجذبه وهى محومة، تغلبنى فتخطفه وتعلو به . أقف مغيظا .

أجلس على الفراش : مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم ثم أتمتم: اللهم اجعله خيرا، لا أكاد أتبين كفى من الظلمة أنزل وأفتح النافذة لأجد استراحة ابنته امبابى مظلمه هى الأخرى أنادى رجلنا الأول، يلبى من أول نداء . الومه لأنه تركنى كل هذا الوقت نائما يخبرنى أنه أشفق على إذ وجدنى مستغرقا فتركنى لاشبع نوما أساله عن ابنة امبابى فيخبرنى أنها عادت من جولتها لتنام هى الآخرى، حتى عمر عاد فلزم الحفرة لما رأنا نائمين واستغرق أبتعيد نشاطى بالوضوء والصلاة يأتينى الرجل بكوب من الشاى . أطلب اليه أن يوقظ عمر . يأتى وهو يفرك عينيه . يجلس قبالتى كالمسطول فترة طويلة ثم ينسل خارجا ليستأنف نومه على حين أستغرق بالمذاكرة حتى يأزف موعد مدرستى فأنطلق اليها .

* * *

لم أجد بى رغبة فى سرعه العوده الى الأرض بعد خروجى من المدرسة كما كان حالى فى الايام السابقة اتجهت الى منزل عمتى . صعدت الدرج فى قفزات متلاحقة فوجئت بى عمتى ولوزه .

كانت لوزه أسرع من عمتى فى احتوائى بين ذراعيها علقت عمتى على ذلك بقولها :

– شوفى ياأختى البنت . ولا خشى ولاحيا . وقدامى يامقصوفة الرقبة!؟

وتسلمتنى منها لتغمرنى بقبلاتها . وتخرج ابنة عمتى من حجرتها لتأخذ نصيبها هى الاخرى منى وهى تتمتم :

– إخس ياأخى!! تركتنى كاليتيمة!؟

أحاط بى الثلاثه وغمرننى بدفء حب وحنان كنت فى حاجة اليه فعلا . بعد أن روت

عمتي غله شوقها الى تذكرت أني لم أتناول غذائى طلبت من ابنتها أن تسرع به الى لم تتركنى الا بعد أن تلقت من امها وكزة.

سألتنى لوزه عن عمر فابتسمت وأخبرتها بأنه خفير فاشل . فهمت ما أرمى اليه فوكزتنى وتمتمت :

- طيب لما أرى وجهه.

ثم اردفت:

مبروك.

- على ماذا؟

- على زواجك من سيدة الحسن والجمال.

- ايه سيدة ؟

- لاتستعبط على، بنت امبابى.

أردت أن أغيظها فقلت:

- آه ... الله يبارك فيك.

- طيب أماكنت تدعونا ؟ أم أننا لسنا قد ست الحسن؟! والله كنت أستطيع أن أرسل لك باقة ورد .

- لم أشا أن أكلفك ثمنها .

- قلبك فيه الخيار الأخضر. أخائف على الى هذا الحد ؟

- وعلى من أخاف . إذا لم أخف عليك؟ .

- انت ستجننى ياولد؟

- مستشفى العباسية قريب على كل حال .

- طبعا. وانت مع القمر تتفرجان على من فى العباسة

- لايضر

- أحقا مايشاع؟

ردت عمتى:

- يالوزه وهل كل مايشاع صادق .. اعقلى.

قالت:

- أريده هو أن يخبرنى.

قلت:

ماذا يدلك عليه عقلك؟

- لا يصدق.

- هي الحقيقة

- أنا قلت هذا. لكني أردت أن أتثبت.

- وهل يعقل أن أتزوج بلا أهلي وناسي إن في القرية أو هنا؟

قالت لها عمتي:

- ألم أقل لك يالوزة؟

سألتني عن عمر فأخبرتها عن حاله تفصيلاً. علقت قائلة:

- ابن الـ .. ونسيني طبعاً.

ثم أردفت بحنان:

ربنا يرد عليه عقله.

سألتني عمتي عن سر زيارتي أخبرتها بضيقي وأنه لم تعد بي رغبة في العودة للأرض.

قالت لوزة:

- ذلك أفضل. دعك من وجع الرأس وابق معنا.

ردت عمتي:

- لا ياولدي ياعيب الشؤم. ماذا يقول الناس عنا؟ تتخلى عن وليه صارت في حمايتك ووضعت ثقتها فيك.

ردت عليها لوزة:

- أكانت بقية أهله!! تحترق هي ومصنعها وأرضها.

وأردفت وهي تنظر نحوي:

- لا تسأل فيها ياولد. ابق معنا وابحث عن مصلحتك. وإن كان على عربتها أرمها لها. وأنا اشتري لك أحسن منها ألف مرة.

لكزتها عمتي وقالت:

- اسكتي ياإبليسة. لا تجرئي الولد على العيب.

ثم نظرت إلي وقالت:

- يابني من يعمل جميلاً يتمه، وإلا كان عاراً أي عار. وأنت رجل ومن ظهر رجل لا تهرب، عد إليها وحافظ علها بعينيك بشرط ألا تؤثر على تعليمك.

• • •

قبلات الوداع أكثر من قبلات اللقاء . خزينه العربة تمتلئ بما يصلح للمعيشة حتى من عند لوزه. وخالتي الطباخة واقفة على بابها فأقف محيياً فلا أتخلص منها إلا بصعوبة بالغة. شباب الحارة يفاجئون ويحيون بحرارة، أصل إلى الأرض بعيد الغروب لأقع تحت طائلة استجواب أشد من ابنة امبابي المريضة، حرارتها مرتفعة وعيناها وانيتان وحبات العرق تهل على جبهتها سألتها:- منذ متى وأنت متعبه؟

- كنت أحس بالمرض من ثاني ليلة كان عندنا فيها الضيوف، غير أني أقوام، إلى أن كانت ليلة أمس عدت من جولتي التي دفعني إليها ضيق شديد فوجدتك نائماً فتركتك لترتاح. ودخلت لأرتاح أنا الأخرى فلم أشعر بنفسي إلا ظهر اليوم عندما زارنا ضابط المباحث فأيقظني رجلنا الأول لمقابلته وأنا شبه منهارة وما صدقت أن غادرنا حتى عدت إلى الفراش وأنا في شدة الضيق منك لتأخرك.

تعللت بشوقي إلى عمتي فتحت عينيها بيقظة وقالت:

- عمتك؟ أم واحدة أخرى!؟

عن لي استفزازها فقلت:

- واحدة أخرى أيضر؟

تلقيت لكمة قوية وقالت:

- هكذا أنتم يارجال عينوكم زائغة ولا تقنعون.

- لكنك عندي بالدنيا كلها.

ومسحت على شعرها فقالت:

- الله يدك تريح رأسي دعها عليها.

أحسست أن حراتها أكثر من أن تطاق قلت:

- قومي نذهب إلى الطبيب.

- أشعر بالبرء من ساعة مجيئك.

يجب أن نطمئن. قامت أسندها وأنا أكاد أحملها حملاً، لحني أحد رجال أبيها فأسرع يساعدني حتى العربة فأمرته أن يركب بجوارها وانطلقت إلى المدينة القريبة. وقفت أمام أول هاتف ونزلت فسألت المقاول عن أحسن الأطباء في المدينة فوصف لي عيادته اتجهت إليها لأجد المقاول في انتظاري على بابها.

ما إن أتم الطبيب مهمته ووصف الدواء حتى خطف المقاول التذكرة وخرج فأتى يه

وناولها أول جرعه بيده . أصر على أن تبقى فى بيته مع أولاده حتى تبرأ . رفضنا شاكرين . ودعناه وعدنا لنجده فى إثرنا ومعه كبرى بناته وأخبرنا أنه أتى بها لتمرض ابنه امبابى، حاولنا إثناءه أصر وقال:

– أنت تدعها لمدرستك فمن يرعى شأنها ؟

سهرنا حولها حتى غلبها النوم فانصرف المقاول وقمت لأنام .

فى الصباح عرضت عليها أن أعود بها الى بيت أبيها حتى تشفى إلا أنها رفضت وقالت:

– لا أدعك وحدك حتى لو مت.

وطلبت الى الا أخبر أحدا من أفراد أسرتها حتى لا يقلقوا، عندما عدت آخر النهار من المدرسه وجدت المقاول وابنته يجلسان معها وهو يتحن عليها أن تتبلغ بلقيمات صنعتها لها ابنته، ووضعت لى ابنته طعامى فأكلت وأبوها ثم انتقلنا الى الاستراحة الخاصة بى عندما رأينا ابنه امبابى غافيه، طلبت اليه أن يكمل بناء المصنع، وأخذت أفاوضه فى الثمن حتى قبل أن يكمله بما بقى من حساب المقاول القديم مضافا اليه الفا جنيه أدفعها اذا أنهى عمله فى مدة تقل عما كان مقررا للمقاول السابق. تركنى الرجل وذهب لشأنه، ولما عاد عمراستأنفنا مذكراتنا معا وبين وقت وآخر أنتقل لأطمئن على ابنه امبابى فأجدها فى شبه غيبوبة إلا أن مايطمئنى أن حرارتها هبطت وأنى كنت قد قرأت النشرات الطبية لأدويتها فوجدت أن أحدها منوم قوى.

فى الصباح دخلت لأطمئن عليها قبل أن أغادر للمدرسة. إمسكت بيدى وقالت:

– لاتدعنى اليوم إذا أشعر بضعف شديد.

ألقيت بكتبى وجلست بجوارها أغمضت عينيها وظلت ممسكة بيدى وأنا أشجعها وأداعبها فتبتسم ابتسامة واهنة . سألتنى إن كنت قد تناولت إفطارى فلم أشا أن أخبرها بأن نفسى تعاف الأكل . وحدثتها عن اتفاقى مع المقاول فلم تعلق .

دخل علينا المقاول بعد حوالى ساعه فاطمأن عليها بسرعة وأخبرنى أنه زاد من العماله ليبدأ فيما توقف عن اكماله المقاول السابق، خرج الرجل لشأنه بعد أن أكد على ابنته بحسن الرعايه ظللت بجوار ابنة امبابى تتجاذبنى أحاسيس حب غامر نقى وخوف قاتل من أن أفقدها فأفقد أملا صار فى قبضة يدى، دعوت الله الايحرمنى منها تراخت يدها عن يدى فسحبتها بهدوء وأحكمت عليها الغطاء وملت فطبعت على جبينها قبلة خفيفة إلا أن فيها كل قلبى . وتمتمت ابنة المقاول:

ربنا ما يحرمكما من بعض

خرجت استطلع العمل الذي بدأ كأنه فريق موسيقي يعزف لحناً لا نشاز فيه أخذني المنظر كأني أراه لأول مرة أو لعله نوع من الهروب لم أدركه وقتها. ولم أشعر بالساعات وهي تجري بين رتم العمل المتناغم.

كلت قدماي قبيل الظهر، عدت. رأيت ابنة المقاول تطل من نافذة المطبخ ما إن رأتني حتى قالت:

- ما زالت نائمة.

اتجهت إلى استراحتي. وإذا بابنة المقاول تدخل علي بطعام وضعته أمامي وقالت:

أنت لم تفطر ولابد أن تكون قد جعت الآن فتناول غذاءك.

- عبثاً حاولت أن أقنعها بألا رغبة لي، ما ارتاحت حتى أخذت ألوك لقيمات لا أكاد أسيغها. ثم فتحت كتاباً لعلم لا يحتاج إلى تركيز كبير إلا أن السطور تداخلت وكونت وجه ابنة امبابي ملء الصفحة. ألقيت بالكتاب واستلقيت على الفراش أنظر من النافذة المجاورة إلى السحب الركامية واسمع صوت رعد ضعيف يبدو أنه أت من مكان بعيد وجدت شفتي تتلوان « ويسبح الرعد بحمده» قمت فتوضأت وصليت الظهر وجلست أتلو قرآنا وأدعو الله أن يمن بالشفاء على تلك الإنسانة التي اكتشفت بعد مرضها أنها كل حياتي.

دخل علي رجلنا الأول فأخبرنني أن المأمور وزوجته أتيا ليطلا على ابنة امبابي بعد أن علما بمرضها من زوجة المقاول خرجت للقائهما. لم تطل جلستهما معها، سلمني المأمور طبنجتين ورخصتين حملهما معه. وداعب ابنة امبابي بقوله:

- كيف ستحملين طبنجة وأنت نائمة سطحية إنك تهربين بالمرض وتدعين خطيبك يواجه خصومكما وحده وهذه ليست أصول الرجولة.

وقال لي وهو يركب عربته:

إذا اتصل بك الأعراب ثانية. أحلهم علي. وقل لهم: ليكون رجال الإدارة شهوداً على الصلح.

وقالت زوجته:

- سنرسل لكما طبيباً أخر يعود خطيبتك هنا. مادامت لم تتحسن حالتها على علاج الطبيب السابق.

شكرتها وعدت إلى ابنة امبابي أداعبها بالمسدسين ممثلاً أمامها أدواراً شاهدتها في

السينما لرجال العصابات. كانت تنتزع البسمة انتزاعا ثم جلست بحوارها حتى نامت. استجابت حالتها المرضية للدواء الذى وصفه لها طبيب المأمور فأخذت تتحسن ببطء ولكن باضطراد. لم يمض أسبوع إلا وكانت قد تمالكت صحتها فغادرتنا ابنة المقاول مشكورة. كما كان السور قد كمل ولما طلبت إلى المقاول إحاطة أعلاه بالأسلاك الشائكة اقترح هو كسر الزجاج وقممه به وركب له بوابة ضخمة لا تقتحم إلا بمدفع ثقيل.

* * *

غدوت بعد استكمال السور أنام مطمئنا الى حد كبير. ومن عجب أن أيا من الأعراب لم يعاود الاتصال بنا ولو أنى كنت ألمح بعضهم فى الغدو والرواح من حول الطريق، ولما خف ما كنت فيه من قلق واستشعرت الأمن،أقبلت على المذاكرة بنهم تساعدنى ابنه امبابى بما تهيئة لى من راحة ويساعدنى جو الصحراء النقى الهادئ بما ملأنى من صحة.

جلسنا يوما نراجع ما أنجزه المقاول فى استكمال مبنى المصنع وجدنا أنه يكاد أن ينجزه قبل الموعد كما وعد، وتناقشنا فى إقامة العمال وجدت أنها لم تضعها فى حسبانها مقدرة أنها مشكلتهم يحلونها بمعرفتهم، وبينت لها إن العامل لن ينتج إذا لم يتهيأ له أمن المأوى لأنه سيكون قلقا وسينصرفه ذلك على عمله وبخاصة أن أحدا من العمال لن يكون من المناطق القريبه. بل لابد أن نستقدمهم من مدينتنا حيث تتركز فيها تلك الصناعة وتساءلت: ماذا يغرى العامل بترك مسكنه وأسرته؟

- مرتب أكبر.

- ليس يكفى، لأنه سيحتار أين يقيم؟ وأين يستروح عقب انتهاء العمل؟ ومن يهيئ له وجبة دسمه فى هذا المكان المنقطع؟ وإذا أغراه المرتب أسبوعا سيراجع نفسه فى ثانى أسبوع وسينصرف عنا فى الثالث. فنقع فى حيص بيص، كل أسبوع والثالث نبحث عن عماله جديدة مما سيؤثر على الانتاج ولا يجعلنا نوفى بالتزاماتنا.

- نشترى لهم حافلة تتردد بهم بين المصنع ومقار إقامتهم.

- لن تكون مجدية بل ربما كانت معوقة فربما تأخر عامل قليلا فيقع سائقها بين نارى تركه أو انتظاره. وكلاهما معوق. لو أنشأنا لهم بثمنها وهى غاليه قطعا - مبنى بسيطا ملحقا به مطعم ومنتدى لضربنا ثلاثة عصافير بحجر واحد، ضمناهم معنا وهيأنا لهم خدمة مغرية وأعطيناهم أجرا مجزيا فيتمسكون بعملهم ولا يتركونه لسواه.

- والله فكرة ونخصم منهم نسبة نظير الطعام والإقامة فنبدأ أسترداد ما أنفقناه.

– ليس مـهـمـا مـانسـتـرد، وإنما المهم انتظام العـمل لأنه هو الذى يـأتى بالربح ويريح رأسنا من وجع كثير. وذلك فى حد ذاته ربح مابعده ربح.

سألتها عن حجم العماله المقدرة لتشغيل المصنع فأخبرتنى. فطلبت من عمر الذى كان حاضرا نقاشنا أن يصنع رسما لمأوى العمال ومطعمهم ومنتداهم ويجعله مستقلا تماما عن أرض المزرعة والمصنع.

سألتنى:

– ولم استقلاله؟

– حتى لا نقع مستقبلا فى مشكلات معهم من أى نوع ولا يكون ثمة احتكاك بينهم وبين أحد فى المزرعة.

انصرف عمر من فوره إلى أوراق يضع رسمه للمأوى عليها.

على حين سألتنى ابنة امبابى عن تصورى لما تكون عليه المزرعة بوصفى فلاحا.

– لن أفكر فى ذلك إلا عقب الامتحان.

– أنا فكرت وعهدت إلى أحد مهندسى الزراعة حين اشتريت الأرض بتخطيطها. وسأريك التخطيط.

وقامت إلى صيوان يخصها ففتحته لتخرج تخطيطا للمزرعة قدمته لى وقالت:

– مارأيك؟

– ألقيت عليه نظرة سريعة.

– جميل، لكنه مجرد تقسيمة هندسية للأرض من حيث الاحواض والقنوات والمصارف وليست هذه هى الزراعة المهم فى الزراعة مايجود فى تلك التربه أو لا يجود فما يصلح لتربة قد لايصلح لسواها.

ردت بنبرة تحمل تهكما أرادت أن تغيظنى به.

– ياولد يافلاح يا أروب.

لم أعر نبرتها أدنى التفات وتابعت:

– ليست. المسأله أروبا أو غيره، وإنما هى مجرد ملاحظات تعلمتها فى قريتى. أرض قريتى تشتمل على تربة مختلفة الصفات. منها ما يسمى طرح البحر ويخصصها الفلاحون لزراعة الخضر فقط ولم أرهم يزرعون فيها شيئا غير الخضر. ومنها جزيرة تتوسط النهر. ولا يزرع فيها الفلاحون سوى البطيخ والشمام والخيار والقثاء وهو ينمو فيها ويجود دون رى مطلقا إلا عند وضع البذر. ومنها مايطلقون عليه الأرض السواد

وتلك يزرعونها بمختلف المحصولات والحدائق او الرابعه رمليه أشبه بأرضنا هذه، ويزرع فيها الفلاحون السمسم والسودانى والترمس ونوعين فقط من الفاكهه هما المانجو والجوافه. ولم أذق أحلى من فاكهتها فى حياتى. معنى هذا ببساطة أن مايصلح من زرع فى نوع من التربه لايصلح فى غيرها وإلا كان الفلاحون بخبرتهم التى تمتد إلى أكثر من عشرة آلاف سنه. فعلوا غير ذلك.

يبدو أن كلامى عن الأرض أقنع ابنة امبابى فهزت رأسها وقالت:

– وماذا سنصنع ؟ إنها مشكلة .

– مادامت كليات الزراعة ومعاهد الابحاث قائمة لن تكون هناك مشكلة ، كل ما هناك أنى أرجو أن تدعى لى فرصة التقط فيها أنفاسى مع المذاكرة حتى لايسود وجهى مع أسرتى وأسود وجه عمتى . وبعد الامتحان يحلها الحلال. وبخاصة أننا أنجزنا الكثير وباق أمامنا ما يمكن أن ننجزه فيما يخص المصنع يا....

تنبهت إلى وجود عمر فلم أكمل فابتسمت وقالت :

– ياساتر.. لايريد أن ينطق . قلها.

نظرت إلى عمر. فأردفت :

– ياخواف.

سألها عمر :

– من؟

قالت:

– الولد الحارس .

قال:

– هو فعلا خواف جدا ما استيقظت ليلا إلا ووجدته متيقظا كأن الجن ستلهفه إذا غفا

وقام نحونا فوضع أماما ما أنجز من رسم مبدئى لمأوى العمال. ومد يده مفروده الكف إلى ابنة امبابى فضربته عليها كأنها تسلم عليه. وقالت:

– منشار لاتشبع نقودا. انتظر حتى نرى رأينا .

فرد عليها:

– أنا عارف يابنت امبابى بخلك وعارف إنك ستتصنعين عدم الرضا حتى لاتدفعى شيئا. لكن أنا لن يضيع حقى سآخد من أخى.

منحته قروشا كانت فى جيبى. فدسها فى جيبه وأردف:

- ياساتر يا أخى بنت امبابى علمتك البخل. قروش!! طيب اجعلها جنيها صحيحا يوحد ربنا. أعوذ بالله وقعت فى حارة يهود والله، الشغل فى القرافه أحسن من عندكم.

لاحظت ابنة امبابى أنه ترك مساحة كبيرة أمام المأوى وأنه جعله فى أقصى أطراف الأرض بعيدا عن المصنع سألته فقال:

- خسارة ردى عليك لأنك ....

ولم يكمل عمر حين رآها تميل لتلتقط خفها. وانطلق إلى الخارج ووقف أمام النافذة يغيظها بإشاراته. فنهرته وأمرته أن يدخل فانصاع بعد أن طلب إلى أن أجعلها تلقى بخفها وأخذ يشرح قال:

- أما الفضاء فليكون حديقه وملاعب ومجلس سمر أمام المنتدى. وأما أنى جعلته فى أبعد نقطه من المصنع فليتنشط العمال بالمشى صباحا عند ذهابهم الى العمل. وأما أنى لم أجعله على هيئة العنبر فحتى أشعر العمال أنهم فى بيت فعلا. أفهموا ياغجر. أخدمكم وآكل من بيتنا. لله.. سى بعضه. من أجل خاطرك أنت يا أخى.

لما وجدت ابنة أمبابى أن كلام عمر معقول. أعطته جنيها وهى تقول: حار ونار فى جسدك فاختطفه ودسه فى جيبه وهو يقول:

- الحمد لله، أخيرا اعترفت ابنة امبابى بفضلى وقدرت موهبتى ياساتر.. أنت البخل بعينه يا ابنه أمبابى.

طارت وراءه بالخف من جديد حتى تقطعت أنفاسها فعادت تلهث وتقول:

- أبن الـ.. أتعبنى.

- أأحد يجرى وراء مجنون؟

- أهو مجنون؟! إنه يجنن محافظة. ابن الـ.. عشرة ماجابوا رجلية. نريد ان نحسب التكلفه حتى نفاوض المقاول على أساس سليم.

- لو تركت عمر لأراحنا من هذا الحساب.

أخذنا نجمع ونطرح ونضرب ونقسم حتى قدرنا التكاليف تقريبا وتركت لها مهمة مفاوضة المقاول فى أول فرصة تراه فيها . قامت الى استراحتها وتركتنى لأذاكر ما إن رآها عمر تغادر استراحتى حتى عاد وجلس يساعدنى فى المذاكرة عادت ابنه امبابى بعد قليل تحمل صنية الشاى لثلاثتنا وجلست معنا تستمع إلى الموسيقى الخفيفه وتبتسم بشماته وكأنها تغيظنى كلما ثار عمر على ولعن غبائى وسوء فهمى قدمت لنا

عشاء خفيفا ونحن نذاكر ولما كاد الليل أن ينتصف قامت إلى استراحتها وظللت وعمر نتابع حتى غلبنا النوم.

تخذت صباحا طريق المدينة القريبة، قبيل مدخلها اعترضتنى عربه شرطة فأوقفتنى وأطل منها ضابط المباحث وبعد أن صبح وسألنى عن الأحوال أخبرنى أنى قصرت عليه الطريق، لأنه كان سيمر علينا وهو فى طريقه لمهمته، لأن المأمور يريد لقائى آخر النهار وطلب إليه أن يبلغنى بذلك مادامت أرضنا فى طريقه. لم أفز منه بإجابه شافيه عندما سألته.

- لم؟

وعدته وانصرف كل منا إلى سبيله.

بعد عودتى أخذت ابنه أمبابى معى وخرجنا إلى المدينة القريبة قبيل الموعد الذى ضربه لنا المأمور قضينا وقتا بين مقهى الترعه وصياد سمكه ومكتب المقاول حيث تركت ابنه امبابى معه لتفاوضه فى مقاوله مأوى العمال وتراجع معه بعض الحسابات وذهبت للقاء المأمور. هش الرجل لى وأكرمنى واطمأن على أحوالنا. ثم سألنى عما إذا كان قد تم اتصال بينى وبين الاعراب فنفيت. صمت قليلا. وقال:

- هذا لا يطمئن فخذ حذرك فمن مكرهم أنهم يدعون خصومهم حتى يطمئنوا بل ينسوا الخصومه ثم يضربون فى مقتل. ولقد أردت أن أنبهك إلى هذا الأمر.

شكرته وهممت بالانصراف فاستوقفنى وسألنى:

- لم لم تطلب هاتفا فى الأرض؟

- نعلم أزمة الخطوط وأنه لاجدوى من وصله لنا إلا بعد سنوات.

- لكنه مهم لأمنكم وإن تزكية منا تسرع بإدخاله اليكم.

كتبت طلبا ووقع عليه مزكيا ورده إلى لأقوم بتقديمه من غد إن أمكن وأخبرنى أنه سيوصى ويتابع.

عدت لابنة أمبابى فوجدتها فى شبه عراك مع المقاول جلست أتفرج عليهما. حتى انتهيا إلى اتفاق وضعا أسسة ودفع به الرجل الى من يكتبه على الآله الكاتبه. وبعد مراجعته وقعا وجعلانى شاهدا وأعطته العربون.

قام الرجل ليودعنا فقال وهو يسير إلى جوارى ناحية باب مكتبه.

- كل يوم ازداد اعجابا بأخيك عمر، تصور أنه وضع لكم رسما لايكلف كثيرا ويفى بالغرض تماما ويمكن أن تحولاه إلى منتجع جميل فى أى وقت بتكلفة بسيطة فيدر

عليكما دخلا كبيرا لأن كل مايحيط بكما من مدن ليس فيها منتجع يمكنه أن ينافس. ما رأيكم لو جعلتماه من البدء منتجعا وأنشأتم للعمال رواقا ملاصقا للمصنع.

رفضنا الفكرة وودعناه. وانصرفنا.

فى الطريق أخبرت ابنة امبابى بما دار بينى وبين المأمور فاستحسنت فكرة الهاتف وعلقت قائلة:

– لست أدرى لم توانينا فى هذا الأمر؟ كنا على الأقل كسبنا وقتا من التأخير المحتمل.

وعلقت على مادار بينها وبين المقاول من مفاوضة بأنه بدأ يحس بحاجتنا اليه فأخذ يغالى فى أسعاره لذا لن تعهد إليه بشئ ثانية.

عندما قربنا من الأرض سقط نور العربه فى أحد المنحنيات على إحدى جهاتها فكشف عن شخص مسلح يحوم حولها فدهشت ووجمت على حين قالت:

صح النوم.

– أنا صاح، ويبدو أن نصيحة المأمور بالحرص واليقظة فى محلها.

– لم؟

– لمحت من يحوم حول الأرض بسلاحه.

– لكنى لم ألمح أحدا.. ربما خيلت لك نصيحته المأمور شبحا.

– بل أنا متأكد.

– وما العمل؟

– مايهمنى هو سلامتك. لذا سنعود إلى المدينة ولا داعى لمغامرة غير مضمونه.

– لم لا نواصل حتى مدينتنا نحن فنقضى الليلة بين أهلنا. ثم نعود بعد أن تنتهى من يومك الدراسى؟

– لم تعد هناك دراسة.

– كيف؟ ومازال هناك أكثر من شهر ونصف على امتحانك.

– إجازة إدارية لأن المدرسة ستجرى امتحانات النقل.

بعد أن بعدنا بما يكفى لتضليل من يراقب. استدرت بالعربه قالت:

– ايه..

– لن نهرب... سنواجه.

– ذلك أفضل.. فلو بدأنا فلن يتوقف هروبنا.

– وما خطتك؟

- سأقود إلى أن نقارب الأرض فأطفئ الأنوار وأنزل وتقودين أنت ببطئ بعد أن تعيدى الأنوار . إذا هوجمت أو قفى العربة ومثلى دور المستسلمة ودعى الباقى على الله. ولن يغلبونا بأمره.

نفذنا الخطة إلا أن شيئا لم يحدث إلى أن فتح باب الأرض دخلت هى بالعربه فحمدت وأنا أتنفس الصعداء وتقدمت نحو الباب الذى ظل مواربا إلى أن دخلت أنا الآخر. ما إن رأتنى حتى حمدلت وقالت:

- ألم أقل إنه شبح تراءى لك؟

- الحرص واجب.

تناولنا عشاءنا ولم تكن بى رغبه فى المذاكرة. فجلست معها أستمع الى الموسيقى. حتى غلبنا النعاس.

فى الصباح المبكر تيقظنا على جلبة عربات المقاول التى أتت بعمال جدد ليبدأ عمله فى مأوى عمال المصنع. وطلبت من عمر أثناء الإفطار ألا يغادر الأرض مطلقا لأنى أحتاجه فى المذاكرة. أبدى برما وضيقا ولم يرضح إلا بعد أن هددته بإبلاغ أمه واتفقت معه على أن يتقاضى جينها كل يوم.

جاءنى المقاولى يطلب إحداث فتحة بالسور تكون بابا فى المستقبل لدخول عمال المصنع وتسهيل عمليه دخول عماله ومؤنه وخروجهم أثناء عملهم. رفضت وبينت له أننا ماصدقنا أننا أحكمنا قبضتنا على الأرض بالسور. وطلبت اليه أن يكون الباب هو آخر الأشياء التى تنشأ.

لم يكن أمامى ما أفعله إلا أن أذاكر فاستغرقت فى ذلك أنا وعمر الذى غدت السيطرة عليه شاقة إذ كان يبدى ضجرا مستمرا منى أنا وابنة امبابى ويحن إلى ماكن يؤديه من عمل لدى المقاول . وكان المقاولى بين يوم وآخر يطلبه لمهمة فلا أستطيع منعه. إذ ما يكاد يرى رسول المقاول حتى يجرى فيجلس فى العربة ولا ينزل تحت أى تهديد أو إغراء.. ومما هون على الأمر نوعا أنى كنت فى هذه الفترة أراجع لا أنشئ مذاكرة فكنت أجمع ما يستعصى على من مسائل الى أن يعود أو أستعين بكتاب خارجى فيحل لى المشكلة أحيانا ويزيدها تعقيدا فى أحايين أخرى.

وكان استرواحنا أنا وابنة امبابى لايعدو أن يكون زيارة للمدينة القريبة وجلسة هادئة فى مقهى الترعة نعود بعدها بسمك يقل أو يكثر حسبما يكون رزقنا. ثم نقضى حوائجنا ونعود وقد حرصنا على أن يتم ذلك قبل آخر ضوء حتى لانعرض أنفسنا

لمتاعب.نحن فى غنى عنها.
كان المقاول يعمل فى المأوى الخاص بالعمال بهمة ونشاط حتى أنهاه فى أقل من شهر. وكان من قبل قد أنهى ما تبقى من إنشاءات المصنع وغدا جاهزا لتركيب المعدات. فكرنا فى أن نعهد اليه بدق مواسير مياه الرى وإنشاء القنوات والمصارف. وصلنا معه إلى اتفاق حول إنشاء القنوات والمصارف أما دق المواسير فاعتذر عنها وقال: إنها لعبة غيره وأنه على استعداد لتعريفنا بأكثر من مقاول يختص بهذا الأمر إذا أحببنا. شكرته ابنة امبابى على اهتمامه بنا وبينت له أننا سنتطلب عونه عندما نستعد ماليا.. دهشت لهذا التبرير وسألتها عن سببه بعد أن انصرف، أجابت:

– لأن هذا سيكفنا أكثر مما لوبحثنا الأمر بأنفسنا.

دهشت أكثر وقلت:

– ظننت العكس.

– أبدا فلقد جرى العرف أن يجعل من يتم معه الاتفاق.نسبه من أرباحه الى الوسيط ولن يدفع هذه النسبة من أرباحه هو وإنما سيضيفها بالزيادة علينا، فليس أفضل من الاتفاق بلا وسطاء

– لا أعتقد أن مقاولنا يقبل هذا.

– وما المانع وقد جرى عرف السوق على هذا.

– أنت أدرى.

ابتسمت وقالت:

– أعلمك وآكل من بيتى ياحبى.

هل يوم جمعة وكنت حريصا على أداء فريضتها فى مسجد المدينه القريبة، وندر أن أذاكر فيما بقى من يومها إلا أن ابنة امبابى اقترحت أن أصليها فى مدينتنا قدرت فى نفسى أنه ربما يكون نبا بها شوق إلى أسرتها فلم أعلق وبخاصة ان نفسى كانت تهفو الى رؤية عمتى. خرجنا مبكرين نوعا عن موعد الصلاة واضعين فى حسباننا الوقت الى يحتاجة الطريق. ولم يلتصق بنا عمر الذى فضل أن يقضى يومه فى خدمة المقاول. كانت تقود ولما شارفنا مدينتنا لم تسلك طريقنا المعهود إلى حينا. سألتها:

– إلى أين؟

– إلى الهرم.

–لم؟ أأصلى فى حجر أبى الهول؟

- شئ مثل هذا.
- أنكفر وقد هدانا الله!؟
- ألا تحب جهنم؟
- بشرط أن نكون معا.
- وهل تخليت عنك؟
سيكون لجهنم طعم جميل ونحن معا.
- جائز. وإن كان ما أعلمه ان نارها أشد من نار الدنيا الف مرة.
- ليست أكثر من نار حبى لك.
- الله.. الله.. الله قوليها ثانيه.
- آه.. وأقولها ألف مرة وبأعلى صوتي.
وأطلقت صوتها عاليا: يردد «أحب هذا الولد ياناس.. ياخلق. أحبه. أحبه».
جاءنا صوت من عربه موازيه.. «ربنا يديم حبكم» خجلت وابتسمت وأبطأت من سرعتها فلوح لنا قائد تلك العربه بيده.
قلت:
- والله.. أنت مجنونة.
- مجنونة.. مجنونة. بس أظل أحبك وتحبنى.
كنا قد وصلنا الى مسجد ضخم حديث البناء قبيل طريق أبى الهول وقفت بجواره. وقالت حين نزلت:
- ادع الله أن يديم حبنا.
دخلت المسجد لأستغرق فى الشعائر بصعوبة فائقة إذ كان حديثها يشدني بعيدا عن جو العباده. فأتمتم كلما ضبطت نفسى متلبسا: «منك لك يابنت امبابى ضيعت صلاتى هذا اليوم» خرجت عقب الصلاه موقنا بأنه لم ينلنى من صلاتى إلا مقدار ضئيل لأنى لم أع منها إلا القليل. حين ركبت بجوارها قالت:
- تقبل الله.
- لا أظن؟
- لم هذا اليأس من رحمته سبحانه؟
- لأنى لم أؤد له حقه كما يجب.
- وما منعك؟

– أنت.

– أنا؟!.. وهل كنت داخل المسجد معك؟

– نعم .. لم يفارقني طيفك ولا جنونك لحظه.

– إذن ستحل على حبنا البركة.

كنا قد تجاوزنا أبا الهول. حين سألتها:

– ألا أعرف إلى أين وجهتنا؟

– ألسنا معاً؟

– نعم.

– إذن لا يهم أن نذهب حتى إلى جهنم. نحن متجهان إلى نزلة البطران. وهي قرية تعد سوقاً لمقاولي دق الآبار.

– ومن أخبرك؟

– السوق. فكثيراً ما تذكر فيه أشياء يختزنها العقل حتى وقت الحاجة إليها.

– لكنا لا نعرف أحداً.

– لا يهم ..لأننا لا نقصد أحداً بعينه. فاسكت وتعلم.

– طيب يابنت امبابي.

– حاف هكذا؟

– ألست ابنته؟

– لكن ماذا أكون لك.

– حبي.

ومالت وهي تقود بجنون فقبلتني.

– الناس من حولنا يامجنوه.

– طنزا من كل الناس.. أنا مع القمر. فما على بالي النجوم.

– طيب يا أختي خل بالك من الطريق وإلا ما وصلنا إلى القمر أو إلى نجوم.

عندما وصلنا إلى أول القرية. صادفنا مقهى شبه خال. ركنت أمامه ونزلنا فجلسنا جاء خادمه ينتظر ما نطلب فأخذت تجاذبه أطراف الحديث بادئه بخلو المقهى ومنتهية بسؤاله عن مقاولي دق الآبار فأخذ يملي علينا أسماءهم ويزكي بعضهم ويقدح في البعض الآخر وكان للهبة الكبيرة التي وضعتها في يده مع ثمن المرطبات. مفعولها إذ نادى ابنه وأمره بملازمتنا ليدلنا على منازلهم وأكد عليه بألا يتركنا وأن يحرس لنا

العربة كلما دخلنا عند أحد حتى لا يعبث بها الأطفال.

عدنا إلى المقهى بعد جوله استغرقت أكثر من ثلاث ساعات عند أكثر من خمسة مقاولين استطعنا خلالها أن نكون فكرة واضحة عن إمكانياتهم وأسعارهم. ولما وقفنا لننزل ابن القهوجي أمام أبيه، كان للهبة التي وضعناها في يد الغلام أثر آخر. جعلت الرجل يتطوع بأن يدلنا على قرية أخرى بها مقاولون أفضل لأن عندهم معدات أحدث تنجز أسرع.

اتجهنا إلى تلك القرية واستطعنا الاستدلال على منازل مقاوليها وزيارتهم بها والتفاوض معهم فيما نريد. فصارت عندنا فكرة متكاملة عن الأسعار والإمكانيات والمده المحتملة للتنفيذ عند كل مقاول إلا أن الليل كان قد لحق بنا وغدونا عقب العشاء وكان الجوع قد عضنا لولا أن صدنا عنه، ما شربناه من قهوة وشاي ومرطبات عند كل مقاول.

لما وصلنا منطقة الهرم عرجت على فندق فتناولنا عشاءنا الذي كان غداءنا في الوقت نفسه.

وجلسنا في مقهى الفندق ندرس ما معنا من عروض حتى انتهينا إلى أفضلها، اقترحت أن نعود إلى منزلي أسرتينا لنقضي ليلتنا ثم نعود في الصباح فننهي اتفاقنا مع من استقر رأينا عليه من المقاولين. إلا أنها أقترحت أن نبيت ليلتنا في الفندق الذي نحن فيه حتى نلحق مبكرين بالمقاول الذي اخترناه قبل أن يخرج لشأنه. لأننا لو عدنا إلى منزلينا لن نضمن معوقات أسرتينا لنا في الصباح وبخاصة أننا سنضطر للسهر معهم لأنهم لم يرونا من مدة طويلة واقترحت أن نمر على الأسرتين عقب إنجاز ما جئنا من أجله.

كنا مع بزوغ الشمس ندق باب المقاول وما هي إلا سويعة حتى وقعنا الاتفاق ودفعنا العربون ولما هممنا بالانصراف استبقانا الرجل لنسير أمام عربات معداته فندلها على الطريق بدلاً من أن تضل لأن أرضنا في منطقة غير معروفة له.

لم يكن أمامنا بديل، أصر المقاول على تناول إفطارنا معه فذكرني بإفطار أمي من قشدة ولبن متخثر وعسل نحل وبيض فأكلت بشهية لم أعهدها في نفسي من يوم أن غادرت حضن أمي.

اقترح الرجل أن ننتظره في حديقة منزله حتى لا يضجرنا الانتظار أثناء انشغاله بتجهيز عماله، جلسنا نتنسم رائحة ورود بستان الرجل وتهب علينا ريح الصباح الندية وتنم عيوننا على مافي قلوبنا من حب غامر.

كان لابد أن نسلك طريقاً لا يمر بالمدينة التي لا يسمح فيها بمرور عربات النقل نهاراً فركب الرجل معنا ليدلنا على طريق يتحاشى طرقات المدينه. طال بنا الطريق وبطء حركتنا التي أجبرتنا عليها تلك المعدات الثقيلة التي في ركابنا. إلا أن حديث الرجل عن عصاميته هون علينا ثقل الوقت وطول الطريق. وصلنا إلى أرضنا قبيل الظهر لنجد المقاول يخطط مع عمر مسارات المساقي والمصارف ما إن رأى ما يتبعنا من معدات ورجال حتى ابتسم وقال لنا:

– والله أنتما جنان من تحت الأرض، ولا تخفى عليكما خافية. من عرفكم بطريق ذلك المقاول الطيب.

واتجه نحوه فسلما على بعضهما باشتياق زائد.

سألت مقاولنا إن كان يعرفه؟ فرد بأنه هو الذي كان يريد أن يدلنا عليه لما يعرفه عن حداثة معداته وهمته في إنجاز أعماله بسرعة، شكره مقاول دق الآبار. وراحا في حديث مجاملة سأله بعده لأي شيء يخطط أخبره مقاول الإنشاءات.

هز رأسه ولم يعلق بشئ

راح عماله ينزلون معداته ويجهزونها للعمل ومشينا مع الرجل لنريه مقره ومقر عماله. أعطيناه استراحتنا القديمة وخصصنا لعماله الاستراحة الأخرى وأكدنا عليه أن يوافينا بعد ساعتين ليتناول غداءه معنا في مقرنا استلقيت طلباً لإغفاءه تعينني على الذاكرة مساءً وانشغلت ابنة إمبابي في تجهيز الطعام. غشيني النعاس فلم أفق إلا على صوت مقاول دق الآبار ينادي من الخارج قمت للقائه وكانت ابنة امبابي قد انتهت فنادتنا لنتجه إلى مستقرها لنتناول طعامنا. عندها. وعلى الطعام قال الرجل:

– أنا رجل غير حشري. لكني لا أطيق أن أرى الحال المائل وأسكت.

وقفت اللقمة في فمي وفم ابنة امبابي ونظرنا إليه بفضول فأردف:

– آه حتى ولو أغضبتكم حشرتي سأتكلم لأني لو سكت لخالفت أمر ديني وأنا رجل مسلم والنبي ﷺ قال : «الدين النصيحة».

تطلعنا إليه بفضول أكثر وقلت:

– خير.

قال:

– هذا الذي تلقيان فيه نقودكما في الأرض حرام عليكمـا، وإذا كانت نقودكما كثيرة

أعطوها للمحتاجين.

قالت ابنة امبابى بدهشة:

- نقودنا فى الأرض!! المحتاجون! ماذا تقصد؟

قال:

- مارأيته الآن من تخطيط للقنوات والمصارف.

قلت:

- وبماذا ننقل الماء الذى ستخرجة لنا إن شاء الله من أبارك؟

قال:

- القنوات لا تصلح مطلقا فى الأرض الصحراوية فإذا اجريتما ماء فكأنكما تضعانه فى قربة مقطوعه. كما أن أرضكما لاتحتاج إلى مصارف لأنها لاتحبس ماء يحتاج لصرف وكان يجب على المقاول الذى معكم أو المهندس الذى خطط لكما أن ينبهكما لهذا.

تبادلنا النظرات أنا وابنة امبابى . وسألته.

- وماذا ترى أنت؟

- ما أراه وسيله رى أخرى . كالرش مثلا. لم أكن سمعت بالرش أو رأيته فى قريتى التى تروى غمرا.

تمتمت:

- رش.. كيف؟

- نظام حديث ولم يشتهر بين الناس. رأيته فيما يجاور قريتى من أراض. ولعلكم لاحظتم أن خلفنا جبل الأهرامات وكان يحبس زمامات أراضى قريتنا الزراعية حتى سافر ابن أحد الأعيان ليتعلم الزراعة فى الخارج وعاد استاذا فى الجامعة وفى الوقت نفسة اشترى من الدولة مائتى فدان فى الحبل قلنا أيامها إنه مجنون كنا نتندر عليه ونقول: لابد أنه سيزرع فيها نبات الحفل نفل ويربى فيها الثعابين ولكننا اعترانا الذهول عندما رأيناها بعد شهور قليلة وقد اخضرت وأنبتت خير محصول بفضل نظام الرى الذى جلب فكرته من الخارج. وكانت فاتحة خير على قريتنا والقرى الملاصقة للجبل. إذ هرع الفلاحون لاستزراعها مقلدين ذلك الاستاذ العظيم. وأنا شخصيا لم أكن أملك سهما فى قريتى . عندى الآن عشرون فدانا فى أرض الجبل. وإن شئتم عزمتكم لتروا بأنفسكم.

وظل الرجل يحدثنا عما يزرع أو يزرع غيره من أصناف الخضر والفاكهة فى الأرض الجبلية وكم يغل الفدان وكم يصرف كل صنف حتى يعود بالمحصول لدرجة أنستنا الأكل تماما حتى شرب شايه معنا وخرج ليطمئن على شأن عمله.

رحت وابنه امبابى نتداول ماسمعنا من حديث واستقر رأينا على اتباع تلك الطريقة التى أراد الله بنا خيرا لما ساق لنا ذلك الرجل أو ساقنا إليه. لكن ماكان يشغلنا هو ما دفعته ابنة امبابى للمقاول من تقدمه لعمليه حفر القنوات. فى النهاية قالت:

– لاتشغل رأسك بهذا الأمر سأتدبره أنا وسأجد حلا ولو بتحويل تلك المقدمه إلى عمل آخر فى حاله ما إذا رفض ان يرد ولا أظنه يرفض إذ هو يطمع فى أن يظل مقاولنا المفضل.

انتقلت الى مأواى لأذاكر أنا وعمر على حين نامت ابنة امبابى مبكرة على غير عادتها إذ يبدو ان رحلة الأمس وأمس الأول أرهقتها.

قمت متأخرا ثانى يوم وبحثت عن عمر فلم أجده، أخبرتنى ابنة امبابى أن المقاول أتى بنفسه صباحا لأخذه ووعد بألا يؤخره عن الظهر وأنها حسمت معه أمر مقدمه حفر القنوات والمصارف التى دفعتها له، وأن الرجل لم يحتمل كلمة وردها عليها فور طلبها وزاد بأن أمواله كلها تحت أمرنا لو احتجنا أى سلفه، وبرر قبوله لموضوع القنوات والمصارف برغم معرفته بعدم جدواه بخشية أن نظن به عدم التعاون. وأنه كان خجلا منها. وأنه سألها عما إذا كانت قد اشترت مواسير الآبار فلما أجابته بالنفى أخبرها بأن أحد تجار مدينته ذكر أمامه أنه قد رسا عليه مزاد لخط مياه من أيام الإنجليز من قطرين أحدهما يصلح لنا وترك لها ورقة بها عنوانه ولما طلبت إليه أن يصحبنا رفض متعللا بأعماله. سألتها:

– وماذا ترين أنت؟

– سأخرج الآن بعربتى إلى مدينتنا لأدرس على الطبيعة سوق المواسير ثم نذهب عصرا إلى ذلك التاجر لنعاين ما عنده فلو كان يصلح ويوفر ولو حتى فرق أجر النقل نشترى منه.

رفضت عرضى عليها صحبتى لها وأصرت أن أجلس لأواصل مذاكرتى. وأخبرتنى بأنها صنعت طعام الغداء لى ولعمر وما على فيما لو تأخرت إلا أن أدفئه.. أصررت على أن يصحبها أحد رجال أبيها من باب الحيطه.

عندما أدارت عربتها نسيت نفسها وقالت:

- سأستوحش من بعدك ياولد.

ابتسم رجل أبيها.. وكأنما تذكرته. فالتفتت إليه.. وقالت:

- إية إنه زوجي وأنا حرة فيه.

رد الرجل بأدب:

- ماقلنا شيئا يابنت المعلم. ربنا ما يحرمكما من بعض.

اقترب الغروب ولما تعد.. انتابني القلق عليها جدا أخذت أحد حراسنا وخرجت استشرف الطريق حتى لم نعد نرى شيئا. عدنا لأعد عربتي لأخرج على أطمئن عليها، ما إن أدرتها لأسخن محركها حتى لمحت ضوء عربه يسقط في اتجاه بابنا.. وما هي إلا دقيقة حتى كانت تدلف بعربتها إلينا. ما إن نزلت حتى قلت لها:

- ياشيخه منك لله جعلت قلبي ينزل في قعري رجلي رعبا عليك.. ماذا أخرك؟ حذار أن تتأخري مرة أخرى مهما كانت الظروف.

تركتها ومشيت غاضبا وهي تجري خلفي تبرر وتعلل وأنا أردد كلمة واحدة هي «ولو» دخلت مأواي وجلست مغضبا فجلست تحت أقدامي تترضاني لكن بسمة عريضه كانت تجتاح وجهها كله. في النهاية قالت:

- سم.. ضربه.. دمك ثقيل.. خلاص لن أفعلها ثانية وقبلت أطراف أصابعي فطبعت قبله على رأسها وأوقفتها فجلست قبالتي وقصت على قصص نهارها كله. ثم نادت أحد الحراس وأعطته مفتاح العربه وطلبت إليه ان يحضر ما أحضرته معها فيها. دفعت إليه بلفافتين إحداهما له ولزملائه والأخرى لمقاول الدق. وجرت فاغتسلت وغيرت ملابسها وعادت تحمل صحفة مليئة بأصناف من الحلوى، سألتني عن عمر. فأخبرتها أني مارأيت وجهه طول النهار قالت:

- أحسن.. لاشبع منك فقد أحشتني فعلا ياولد.. هل تعلم أني كنت أنادي الحارس باسمك. وكان الملعون يبتسم. سيفضحنا هنا بين زملائه وستكون فضيحتنا بجلاجل عندما يعود إلى حينا، أتعرف ياولد أن أشاعة أبي أننا زوجان فعلا سترد عنى الكثير. أو تعرف ياولد. كم أنا سعيدة اليوم وأنت تحاسبني على تأخري هذا الحساب العسير. أحسست أنك تحبني فعلا.. وأن هناك من يهتم بي فعلا.. كنت موقنه بهذا لكن البنت منا تتشكك أحيانا وكان الشك يقتلني عندما تستغرق في المذاكرة وتنساني.

ياولد.. أنا أحبك وأقولها بالفم الملآن حتى لو انطبقت السماء على الأرض لا يهمني. أتعرف ياولد بم كنت أحلم في الطريق راجعه.. كنت أحلم أنك ستدق دماغي في أقرب

حائط لأنى تأخرت عليك.. آه ياولد.. لو كنت فعلته لكنت أسعد إنسانه فى الدنيا.
أتعرف ياولد أن حنانك الزائد سيتلف حالى وسيجعلنى بنتا مدللة أنت الجانى على روحك. أنا لا أدرى ياولد لم أحبك بهذا الشكل؟! ولم أنت بالذات؟ الحب شئ حلو ياولد.
تنبهنا إلى وجود عمر الذى يبدو أنه دخل دون أن نحس به عندما نطق قائلا:
– آه يا اختى يانبت أمبابى كلى يا أختى بدماغ أخى حلاوه بكلامك الناعم. كلى. والله لأقولن لأمى.
ردت عليه:
– حلايه فى أشواقك انت وأمك.. جئت سى هم الدنيا. جاءتك البلاوى.
عنفته لأحاول لى تفكيره عما يكون قد سمع، وبالغت فى تعنيفى على تأخره وتركه لى وهددته بأنى أنا الذى سأخبر أمه بأنه تاركى ودائر على حل شعره وراء المقاول ولا يعود إلى إلا فى أنصاف الليالى.
فأثر تعنيفى فيه. وتكوم على نفسه تحت أقدامى يبكى ويرجو ألا أخبر أمه لأن خفها ثقيل ولا ترحمه.. وتركته لفترة يترضانى ويقسم بألا يدعنى ثانيه إلا بأمر منى.. وأخيرا جعلتها ابنه امبابى صفقة متكافئة لا هو يقول شيئا ولا أنا أشكو من شئ. ثم خيرته بين أن تحضر له طعاما أو يتعشى حلوى فاختار الحلوى.
فى الصباح جاء مقاول الدق يشكر على حلوى ابنه امبابى التى أرسلتها له ويبلغنا أنه سيكون فى حاجة لأول ماسوره ينزلها فى البئر الأول ظهر غد على الأكثر. وينذرنا بأن أى تأخير سيحملنا أجور عماله.
نظرت الى وقالت ما باليد حيلة هذه المرة ستأتى معى لنرى معا المواسير التى فى المدينة القريبة وطلبت الى مقاول الدق أن يأتى معنا حتى أذا ما اشترينا طلب مايريد من مواصفات ممن سيجهز الجزء الذى سيكون مصفاه.
طلب منى عمر بخوف أن يصحبنا ليعمل عند المقاول حتى موعد عودتنا قبلت فركبت بجوار المقاول حتى أنزلناه أمام مقر عمله. ونزلت لأشترى الجرائد من بائع أمامه لماعدت قالت ابنه امبابى:
– أما رأيت الولد عمر.. انظر.. انظر إنه يأمر وينهى والكل يمتثل، لقد فهمت الآن لماذا يموت ليأتى هنا. ليست مسأله نقود فقط.
واصلنا الى مخزن التاجر سألنا احد عماله إن كنا نبغى شيئا، أخبرناه بمطلبنا أخذنا لنتفرج بعد أن فحصنا سألت مقاول الدق:

- ما رأيك؟

فانتحي بنا جانبا وقال:

- إنها لاعيب فيها وستكون أفضل من الجديدة ألف مرة فبضاعة زمان مادامت بحاله جيدة لايعلى عليها، فضلا عن أنها ستكون أرخص بكثير وليت صاحبها يبعنا ما نطلب.

سألت ابنة امبابى العامل إن كان مفوضا بالبيع فنفى فطلبت اليه أن يستدعى التاجر. إن كان يعرف مقره. أجلسنا فى مكتب ملحق بالمخزن وراح يتتبع التاجر بالهاتف الى أن عثر عليه وأخبرنا أنه سيعود بعد ساعه قالت:

- وسنعود عند ذلك.

وخرجنا إلى مكتب مقاولنا الى أن حان الوقت لعودتنا الى المخزن لنجد التاجر فى انظارنا.

لم تهمله ابنه امبابى وإنما راحت تفاوضه بعد أن سأل عن الكمية تلزمنا. ولفنى والمقاول الصمت فى الوقت الذى طالت فيه المفاوضة ومازال البون بين ماطلب التاجر وماتمكست به ابنه امبابى بعيدا، ملت عليها وهمست فى أذنها بالأ جدوى فإما أن نشترى أو نذهب.

قامت قائلة:

- هيا بنا.

- ونظرت للتاجر وأردفت:

- لاتظن أن السوق خال كنت أمس فى السوق وكانت مخازن فلان وعلان وتركان مليئة انت لاتريد أن تبيع وأنت حر.

رد عليها وقد تغيرت لهجته إلى حد ما:

- ابيعك الكمية كلها بما عرضت.

جلست قائلة

- لا. إذا كانت الكمية كلها يكون هناك كلام آخر.

ملت عليها وهمست:

- ماذا سنصنع بالكمية؟

لم تعرنى اهتماما.. وتابعت كلامها مع التاجر:

- الكمية كلها تكون على فاتورة المزاد التى اشتريت بها وتأخد العرق والمشال . هذه

هى أصول التجارة.

نظر الرجل اليها باندهاش وكأنما يتساءل وماذا عرفك بهذا .. وقال:

- أوافق مادمت قد أتيت باستقامة وتعرفين أصول التجارة.

- إذن هات الفاتورة.

أخرجها التاجر من مكتبه وقدمها لها. نظرت فيها وتمتمت:

- الف ومائتا متر ثمانى بوصات وثلاثمائة متر أربع بوصات؟

هممت بأن اعترض. غير أنى منعت نفسى خشية ان تهملنى ثانيه. على حين نظرت هى إلى التاجر وقالت:

- تريد كلمة أم كلمتين؟

- كلمة.

- عرقك ومشالك الاربع بوصات ولنا الثمانية بقيمة الفاتورة.

- هذا قليل.

- على كيفك..

ونظرت إلى واستطردت :

- هيا.

قمنا فى اتجاه العربه وما إن جلست خلف المقود حتى جاء رسول التاجر يقول:

- المعلم يقول لكم تعالوا سى بعضه.

نزلنا. ولما دخلنا قال:

- هناك شئ

نظر اليها؟

مشالها حتى أرضنا عليك .

حاول أن يرفض مقسما بكل يمين مغلظ انه يخسر هكذا. لكنها لم تعبأ وأصرت وهمت بالانصراف فرضح وكتب مبايعة على ظهر الفاتورة فقالت :

- تتقاضى الآن ربع الثمن والباقى عندما يكتمل وصول البضاعة إلينا.

وافق. ناولتنى مفتاح العربه وهمست فى أذنى أن أحضر من مكمن النقود السحرى ألفا وخمسمائة جنيه خرجت فعدت بها. ناولتها للتاجر ثم سألت مقاول الدق:

- كم تحتاج منها لتجهيز مصفاه للمواسير.

- مائة وخمسون.

قالت للتاجر:

سلم المقاول ماطلب ودله على من يجهز مايطلب وأرسل لنا الباقى.

رد التاجر:

– يمكن ان نجهزها نحن.

– على بركة الله.

ومفاوضة أخرى أمر من سابقتها حول أجر التجهيز برغم بساطته واتفاق فى النهاية ولا دفع إلا بعد أن نتسلم ما يجهز على أكمل وجه.

وركبنا الى مقهى الترعه وصياده وأسماك قليلة كانت من نصيبنا، فى طريقنا للعوده قلت لها:

– بالله عليك ماذا نصنع بكل هذه المواسير؟ إننا لن تحتاج إلا أقل من ثلثها .

نظرت ولم ترد. لكن المقاول هو الذى رد قائلا :

– أنا اشتريها منكم.

ردت عليه:

– لا أعزها عنك يامعلم لكن امنحنى فرصة للتفكير فقد أحتاجها فى أرض أخرى.

لما وصلنا وانفردنا قلت لها:

– حيرتينى .. ماهذا الذى قلتيه للمقاول؟

– ولم لا تقول وعلمتينى درسا بمليون جنيه.

– أقر بهذا.

– إذن أنت ملكى.

– ملكك ؟!

– نعم.. ألم يقولوا .. من علمنى حرفا صرت له عبدا. وأنا علمتك اليوم عشرة دروس لاحروف .

– دعك من هذا الخرف وفسرى .

– إذن اسمع. امس لم يكن بالسوق من هذا القطر الذى اشتريناه شئ يذكر وما وجد منه كان ثمنه حوالى ثلاثة أضعاف ما اشترينا به. معنى هذا أننا لو عرضنا ما يتبقى للبيع بالسوق الاساسية لهذا الصنف سنجد اقبالاً من التجار عليه ونحقق فيه مكسبا كبيرا يغطى ثمن مااستبقيناه لأرضنا وزيادة فلم أبيع لمن يعرف الثمن الذى اشتريت به.

– حلنى على ما تباع.

– أراهنك أنها ستباع اليوم.

– على ماذا؟

– من يربح يركع أما الآخر ويقول له أحبك ألف مرة ومرة وإذا أخطأ فى العدد يبدأ من جديد.

– أنا واثق أنى سأربح.. وسأغالطك فى العدد.

– بل أنا التى سأربح وستغالطك.. ما رأيك فى كوب من الشاى فى مأواى؟

– أنت بنت حلال. لأنى أتوق إلى شاى من يدك الحلوه فعلا.

– وأنا أشد توقا الى احتساء شايى معك بعد أن وجع التاجر رأسينا جاءته داهية توجع دماغه..

تذكرت عمر أثناء احتسائنا الشاى. فقلت:

– نسيت أن احضر عمر.

– الله يعلن أباه. ذاكر وحدك يا أخى بلا عمر ولازفت، أكنت طول عمرك تذاكر بعمر؟ قم فنم قليلا تستعين به على السهر وسأوقظك فى وقت مناسب.

أيقظتنى بعد العصر. أطمأنت على وصول المواسير. أخبرتنى انها ترد تباعا وقد وصل أكثر من نصفها وسألت عن عمر قالت:

– جاء فى صحبة مقاول الإنشاءات وسأرسل من يستدعيه إلى أن تصلى.

قمت فتوضأت وصليت. جاء عمر فى رفقه مقاول الإنشاءات فتناولنا شاى العصر معا ثم قال المقاول:

إن زميله مقاولى الدق أرسله ليرجو الهانم ان تبيعه ما تستغنى عنه من مواسير نظرت الى وابتسمت وقالت له ومازالت تنظر الى:

– بشرط أن يشترى بالسعر السائد فى السوق وليس له شأن بما اشتريت به. فهل يوافقه. إن كان فعلى العين والرأس رجاءك. أما إن استغلى فنحن فى حل من ذلك الرجاء.

رد المقاول:

– ما على الرسول إلا البلاغ. سأذهب إليه الآن وأبلغه فإن وافق سأرسله إليكم ليتم اتفاقه معكم.

لما خرج المقاول أخرجت ابنه امبابى لى لسانها وطحنت على يديها وقالت:

– هناك اناس هنا عليهم أن يستعدوا للركوع.
جاء مقاول الدق. وحاول أن يخفض شيئا، كدت أتدخل موافقا لولا أنها طلبت إلى أن أقوم أنا وعمر لمذاكرتنا. جاءت الى بعد قليل فأخبرتنى بموافقة المقاول على سعر السوق وقالت :
– رهانى منك أخذه على كيفى ورحمة بك ولأنى أحبك سأقسطة عليك كل يوم مرة فى الصباح عندما تستيقظ وأخرى مساء قبل أن تنام.
– كيف وثقت إلى هذا الحد من أن مقاول الدق سيشترى منا باقى المواسير؟
– بإحساس أكتسبته من ممارساتى فى السوق، فلقد لاحظت أنه عندما يكون ثمة تاجر أو صانع فى وضع ربح يقبل على الشراء بإصرار أملا فى زيادة ربح. ومقاول الدق فى هذا الوضع معنا الآن.. ولاتنس ان كل مهنته ربح، لأنه لايدفع من المبالغ الطائله التى يتقاضاها منا ومن غيرنا إلا أجر العمال وهى نسبه لاتجاوز العشرة فى المائة مما يطلب أجرا. فضلا عن أنه يقيم فى منطقة تعد سوقا لبضاعتنا.
ثم ابتسمت وأردفت
– لا تنس وفاءك بالدين وتبدأ من الليله. أفاهم وإلا فضحتك به فى كل مكان .
– حاضر ياسيدتى. إنه دين لذيذ على كل حال، ولو أن كل الديون لذيذة مثله. لكانت الناس تتمناها.

● ● ●

لما حل يوم الخميس التالى جاءنا مقاول الدق صباحا فتناول إفطاره معنا وأنبأنا أنه سينصرف برجاله بعيد الظهر ليرتاحوا ويروا أولادهم وسيعدون للعمل صباح السبت وعزم علينا أن نصحبة فنبيت عنده ليطلعنا صباح الجمعه على نظم الرى فى الأرض الصحراوية وما فيها من مزروعات شكرناه على وعد بأن نوافيه صباح الجمعه مبكرين. أصر عمر على صحبتنا فكان عذولاً كتم على أنفاس حبنا طول الطريق فانصرفنا إلى الموسيقى نغرق فيها أشجان حبنا، ولما كنا فى ميدان الجيزة وقفت ابنه امبابى أمام محل للحلوى الشامية ونزلت فاشترت كما كثيرا نظرت اليها مستغربا، قالت:
– أتريدنا أن ندخل على أولاد المقاول بيد فارغه.
رد عليها عمر:
– وكرمك هذا لله فى لله. أم أن وراءه شيئا يابنت امبابى؟
قالت دون ان تلتفت اليه!

– قرصة فى لسانك وانت قاعد لنا سى الكبة. خذ اتسمم.

وناولته علبة خاصة به. فأخذها وقال :

– هات.. أحسن من عينيك.

ثم وجه حديثه لى:

– الكرم ياأخى نزل على بنت امبابى دفعه واحدة بلا مقدمات أرأيت؟!

ردت عليه :

– التم يازفت على الصبح. أحسن ثلاثة بالله العظيم أجعل يومك سى وجهك.

قال وهو يأكل :

– وماله وجهى.. طيب.. ياليت وجهك مثل وجهى على الأقل كان أخى فكر قبل أن توقعيه فى حبك.

ابتسمنا وقلت:

– أمعنى هذا أنك تعرف أن جمالك ليس على أحد؟

قال:

– معلوم .. لكن جمال الرجل فى جيبه.. وأنا جيبى عامر وأصبحت أغنى من بنت أمبابى فلا تطلب شيئا منها ، أخوك تحت أمرك.

قالت :

– ايه . ماهذا الكرم الذى نزل على دماغك فجأة أمعقول ياولد ياعمر ان تعطى أحدا غير أمك شيئا؟

رد عليها:

– وماذا فى ألا أعطى إلا لأمى؟! الغيرة تاكلك منها لأنها تحب أخى أكثر منك.

ردت بغيظ:

– أحبك برص أنت وهى. قطيعة تقطعكما أنتما الاثنين فى يوم مافيه شمس .

أخرج عمر لها لسانه لمحته فى المرآة فقالت:

– إن ماقطعته لك لما نرجع.

رد:

– ولا تقدرين .

– أقدر ونص.

– وأين رجلاى. طالما هما موجودتان لن تطولينى .

قالت لى:

– انت ساكت لابن الكلب هذا؟ وتبتسم.

قلت:

– ماذا أصنع. وأنت تعملين عقلك بعقله

رد:

– ماله عقلى يا أخى؟ لولا عقلى ماصرت متميزا فى دروسك، ولولا عقلى ما اكتشفتم خطأ التصميم فى المصنع، ولولا عقلى لكنتم غرقتم تحت السور. أنا الواد عمر أبو العريف، ولولا عقلى لاحتاس مقاولكم وانداس لما مرض مهندسه.

قالت له:

– يا ابن الكلب ياعمر .. ولما أنت فاكر كل شىء . لم الخيبة التى أنت فيها؟

صمت عمر فالتفتت نحوه فوجدته مقطب الجبين وقد تركزت نظراته على «فيللا» كبيرة ظل يتابعها الى أن تجاوزناها. سألته:

– ماذا بك ياعمر.

رد:

– لا شئ.. كأنى أعرف الفيللا التى مرت وأعرف كل مايحيط بها من شوارع. وظل ينظر للخلف.

قالت ابنة امبابى:

– أكانت أمك قد اشترتها لك فى الحلم.. اتنيل اتنيل..

ظل عمر صامتا ثم أطلق زفرة عظيمة. لما وصلنا احتفى بنا مقاول الدق ونادى زوجته فرحبت بابنه امبابى وأخذتها إلى داخل المنزل وهى تقول لما قدمت لها ابنة امبابى هديه الحلوى:

– لم هذا التعب؟ .. مالك حق. مالزومه؟

وفضلت الجلوس فى حديقة المنزل برغم نسمات الصباح الندية .

وسرعان ماكان أمامنا المشلتت والجبن القديم وعسل النحل والقشدة والبيض والعيش والقديد.

انطلقنا عقب الشاى إلى أرض المقاول المترعه زرعا أخضر أطلعنا الرجل على نظام الرى عنده وجربه أمامنا وشرح فكرته وأخبرنا. أنه هو الذى ينفذه فى منطقته والمناطق المجاوره لكل من يرغب ويقدمه للناس مقسط الثمن على ثلاثة مواسم زراعيه لأن الناس

غالبًا لايبداون من قوة وإنما من همة.

وكان أمينا. فأخبرنا:

أن بعض شركات مدينته تنفذه لكنها تتغالى فى ثمنه لما عليها من مصروفات زائده لموظفيها الكبار أما هو فيقدمه بنصف الثمن الذى تطلبه فيه تلك الشركات، وأخبرنا أنه تحت أمرنا فى تنفيذه بأرضنا فإن رغبنا فهو تحت أمرنا بعد ماندرس السوق.

ثم اتجه بنا نحو أرض أستاذ الجامعة واستأذن لنا من حارس البوابة فأذن عندما علم اننا غرباء وأننا نريد أن نأخذ فكره عن الزراعة لاأكثر.

وقال للمقاول:

– لست فى حاجة إلى دليل فقد قامت تلك المزرعه على أكتافك.

أخذنا نجوس خلال المزرعة مشدوهين بما نرى من نضرة وأشجار باسقة وأنواع لم أراها من قبل وورود ورياحين تحيط بأحواض أصناف الأشجار والمزروعات إحاطة الحزام بخصر الحسناء النحيل حتى كلت أقدامنا جلسنا لنستريح بعد حوالى أربع ساعات سألت ابنة امبابى المقاول:

– لكن الأرض غير مستوية؟

– وما لزوم التسوية؟ إنها تكلف كثيرا وتضعف الأرض فالأرض التى لاتصلها الشمس تمرض كالبشر، فإذا قمنا بالتسوية نكون قد أخذنا ما تعرض للشمس فتضعف، ثم إن التسوية تحتاجها أرض الرى بالغمر حتى ينساب عليها الماء، أما هنا فالماء يصل إلى العالى كما يصل الى المنخفض وذلك ما يحتاجه الزرع.

وتلفت الرجل حوله كأنما يفتقد شيئا.. وسألنى :

– أين أخوك؟

ردت ابنه امبابى:

– لاتقلق فلن يتوه .

عند عودتنا وجدنا عمر يجلس على سلم خارجى لفيللا لم نكن لاحظناها أثناء قدومنا وقد استغرق فى حوض ورد أمامه ، ما إن لمحته ابن امبابى حتى قالت للمقاول وهى تشير اليه :

– ألم أقل لك إنه لن يتوه..

ثم وجهت حديثها إلى عمر:

– أين كنت يانيله؟

أشاح عمر بيده لها كأنما يطردها. فاستطردت :

– طيب ياعمر بس لما نرجع .

ونظرت الى وتابعت :

– أرأيت كيف يشيح لى نيله بيده ؟ معه حق يعمل أكثر من هذا مادام واجدا الحماية.

رد عليها المقاول :

– غلبان ياهانم .

ردت:

– إنه يغلب الملائكة والشياطين ايضا.

أردنا أن ننصرف من مرزعة أستاذ الجامعة مباشرة إلا أن المقاول أقسم بالطلاق إلا كنا ضيوفه بقية يومنا.

جلست وعمر معه فى حديقة منزلة على حين دخلت ابنة امبابى إلى زوجه وماخرجت إلينا الا بعد غدائنا على مائدة الرجل الحافله، عند انصرافنا ملأت زوجة المقاول خزينة العربة بخيرات بيتها الفلاحى .

* * *

طلب عمر أن أقود وصمم وهدد بألا يركب إذا لم أفعل.

ولما وصلنا إلى شارع الهرم. طلب منى التمهل كنت أوافقه إذ لم أجد فى ذلك مضرة على حين كانت ابنة امبابى ساخطة على تحكمه فينا لما وصلنا بمحاذاه الفيلا التى استرعت انتباهه طلب أن أركن ونزل متجها إلى باب الفيلا.

فقالت لى ابنة امبابى.

– الحق بهذا المجنون. وإلا سبب لنا متاعب نحن فى غنى عنها.

نزلت أرقبة، بعد قليل تردد ثم مد يده فوق جرسها، خرج اليه حارس نوبى. ما ان رآه حتى أخذه فى حضنه يغمره بقبلاته ويصيح سيدى الدكتور أحمدسيدى الدكتور أحمد أحسست بتهانف ابنه امبابى فالتفت لأجد دموعها منثاله. لم أتمالك دموعى أنا أيضا تركه النوبى وجرى يصيح سيدى الدكتور أحمد.. سيدى الدكتور احمد جاء عجوزان يدبان بصعوبه فاحتويا عمر يبكيان وهو معهما وقد جلسواجميعا على الأرض ثم تبتعهم شابه ومعها طفلا ن غلام وفتاه انكبوا على عمر حتى كانوا عليه كالخيمه وكلهم يتهانف لم أطق تحمل المشهد وكانت ابنة امبابى تتشنج من البكاء فسحبتها من يدها إلى العربه وجلسنا لنتمالك أنفسنا غير أنا أغرقنا أكثر فى البكاء حتى استرعينا نظر

المارة.

لما تمالكت نفسي قليلا هممت بالانطلاق لأدعه لأهله وحزن الدنيا وفرحتها يملآن قلبي..

ما إن أدرت مفتاح العربه حتى وجدته أمامها فأجهشت بالبكاء أنا وابنة امبابى.

دار حتى صار بجابنا وفتح البابين وقال:

- انزلا..

نزلنا نحتضنه ونقبله باكيين وهو يحتوينا بذراعيه وكل أسرته من خلفه ومازلت دموعها تترى وقد تعلق الطفلان بجانبى رجليه.

قال:

- لم تبكيان المفروض أن تفرحا ألست أخاكما؟ وأنت يابنت امبابى ألا يزغرد لسانك الطويل بدلا من هذا البكاء.

أطلقتها زغرورة متحشرجة.

قلت:

- مبروك ياعمر.

- بل يا أخي الدكتور أحمد من فضلك.

قالت ابنة امبابى:

- مبروك يادكتور احمد.

- أخي من فضلك.

- ياأخي.

قال:

- آه هكذا يكون الأدب يابنت ياأم لسان طويل أنت.

- وقبلها ثم نظر إلى وأردف.

- وأنت ياولد لن تغار من أخيك طبعا وهذه فرصة لي أستغلها أسوأ استغلال.

- ثم قبلني أنا أيضا.

أغلق العربه وهو يقول: هيا.

قلت:

- أدعك لأهلك.

- وأنتم أهلي مثلهم.

حاولت أن أماري.. لكنه حسم قائلا:

– لاتعارض أخاك الدكتور الكبير وأستاذك أيضا.

لم يكن أمامنا بد مشينا إلى داخل الفيلا الضخمة وهو يحمل الغلام والفتاة، ما إن استقر بنا المقام فى صالون بالغ الفخامة حتى أخذ يقدم لنا أباه الاستاذ السابق فى الجامعة وأمه التى كانت مفتشة بالتربية وزوجته أستاذة الجامعة وابنة خالته فى الوقت نفسه وابنه وابنته وقدمنا الى أفراد أسرته على أننا أعز إخوته اللذين وجد فينا الأمن طوال غربته النفسيه.

شكر أسرته لنا ينثال علينا، تضاءلنا على نفسينا وهممنا بالانصراف لكن لافائدة كلماته غدت أوامر، لمحت ابنه امبابى أحد الخدم نادته وأعطته مفتاح العربه وأسرت فى أذنه بكلمات نظر اليها مستفسرا قالت له :

– لا شئ سيحضر مافيها لأولاد أخى.. ألست أخى . وأولادك أولادى.

– لا أحد يغلبك يانبت امبابى .

ونظر الى زوجته وقال:

– أختى هذه لسانها أطول من أعلى مئذنة ، لا يغرنك ماتبديه من أدب .

– تمتمت بنت امبابى :

– ويعد يا..

ولم تكمل .

– قال لها :

– أكملى .. أكملى.. ويعد ياولد ياعمر يامتنيل على عينك، أكملى أكملى والله سأستوحش للسانك الطويل.

قلت:

– اسمح لنا.. ان ننصرف قبل أن تتبعثر كرامة اساتذة الجامعة من لسان خطيبتى وتنزل العقوبة على رأسى أنا إذا جلست أمامهم فى العام القادم.

رفض بإصرار.. وأصررنا من جانبنا على تركه لأسرته . فودعنا الكل حتى باب العربة.. ونادى الحارس وقال له وهو يشير الينا :

– إنهما أخواى فأى وقت من ليل أو نهار وسواء أكنا موجودين أم غير موجودين البيت بيتهما وكل مافيه تحت أمرهما.

تبادلنا قبلات معه وصافحنا اسرته وقال وهو يلوح لنا.

سأكون معكما غدا أنا والأولاد.

انطلقنا وأنا أردد الحمد لله فتردد على ابنة امبابى الف حمد وشكر يارب ياعينى على أولاده زادوا النصف من ساعة ما رأوا اباهم. وأبوه وامه. الحمد لله، لست أدرى ماذا كان قد جرى له؟ الحمد لله أنا لست شامته. إلا فى لوزة. كان خسارة فيها، رجل سى الفل ومن أسره سى الفلين. الحمد لله.

الحمد لله.. ربنا يبارك فيه لأسرته ويبارك لها فيه ولا يريه مرضا ثانيه.

– يارب. ولا يرى عدوا ولاحبيبا مثل هذا المرض.

لم يكن لنا حديث فى ليلتنا إلا عن عمر ونوادره معنا وشجارها الدائم معه.

ماظننت أنى قضيت فى حياتى ليلة أكثر من ليلتى هذه سعادة، فى الصباح مر علينا حارسنا القديم ليسأل كعادته إن كنا نريد شيئا طلبت إليه ابنه امبابى أن يشترى شاة تصلح ذبيحة، فهمت مقصدها ولم أعلق بشئ، انصرفت إلى مذاكرتى وطيف عمر يغلبنى فلم استطع التركيز، وجدتنى ابنة امبابى خارجا من مأواى سألتنى فأخبرتها بقلقى وأنى سأحاول صرفه بشئ من التريض. فقالت:

– وأنا أيضا، خذنى معك.

مشينا إلى مأوى حارسينا، كانا وسنانين من طول السهر . لكنهما نشطا حين دخلنا ورحبا. جلسنا نجاذبهما أطراف الحديث إلى أن عاد حارسنا الأول يجر خلفه ذبيحة سمينه. طلبت إليه إلا يسقيها لأننا سنذبحها لضيوف بمجرد ما يحضرون.

سمعنا صوت عربه تقف ونفير طويل متقطع قام أحد الحراس ليفتح، دخلت عربة فارهة يقودها دكتور. أحمد فجرى الحارس نحونا يفرك عينيه وهو يقول:

– سبحان الخلاق العظيم، يخلق من الشبه أربعين. لولا أنى أعرف عمر جيدا. لقلت إن ضيفكم الذى قدم هو عمر.

قابلناه فى منتصف الطريق، احتوانى بين ذراعيه وسلم على ابنه امبابى وسلمت زوجته وأولاده. قبلت أولاده وقلت:

– أهلا يادكتور.

– ماهذا السخف.مالزوم دكتور هذه؟! أنا أخوك ياولد ألا تفهم أم نسيت بسرعة؟

ولما رحبت به ابنه امبابى باحترام لكزها فى كتفها وقال: دمك ثقيل فى هذا التكلف.

ردت:

– المقامات محفوظة يادكتور.

– ألم أقل إن دمك سيكون ثقيلا يابنت امبابى ياأم لسان طويل.

- وقلدها لما كانت تتوعده وقد خلع حذاءه وأمسكه فى يده.. وقال:

- إن ما أريتك ياعمر.. يانيله.. بس لمايدى تطولك وجرى مقلدا جريها ثم عاد يلهث مقلدا لها وارتمى على الأرض كما كانت تفعل. ووجه لى الحديث مقلدا صوتها :

- آه.. انت الذى تخسره وتجرئه على.

كنا كلنا مغرقين فى الضحك لدرجة أن زوجته لم تحملها قدماها فجلست بجواره لا تملك نفسها من شدة الضحك وتمسك ببطنها لما هدأ الضحك قليلا، قال لزوجته:

- كل يوم من هذا الذى سمعت الآن. مرة، مرتين، عشر مرات، جائز.

اتجهنا إلى مأوانا يسبقنا دكتور أحمد ولما جلسنا قال لزوجته:

- هذا المكان كان مأواى أنا وأخى وكثيرا ما كان يضجر من شخيرى فيدعه لى بالمرة ويذهب إلى مأوى آخر وينام على الأرض، لقد ابتلاك الله أنت وهو بشخيرى.

ثم قال لها بجديه:

- أنا أحب هذين.

وأشار إلى ولابنة إمبابى وأردف:

- حبا لا يعد له إلا حبى لك أنت وأولادنا. وأرجو أن تجعلك الايام تحبينهما مثلى:

ثم نظر إلى بنت امبابى وقال:

- أين الأفطار يابنت امبابى؟ نحن لم نفطر كلنا وابقى اخصميه من حسابى الثقيل عندك.

جرت ابنه إمبابى وهى تقول:

- حالا ياأخى . حالا.

لما وضعت لهم الطعام قال لأولاده وهو ينظر لابنه إمبابى:

- كلوا يا أولاد كلوا.. لاتخجلوا، أولا لأنها عمتكم.. وثانيا لأنها استغلتنى فى الأجر كثيرا. لكن لايهم من أجل خاطر أخى. ولأجل عين تكرم ألف عين.

ردت ابنة. أمبابى

- وبعد؟! من الأفضل أن تسكت يادكتور لأنك تعلم إن لسانى مفلوت. خل الطريق مستوراً أمام الأولاد وأمام الدكتورة.

ابتسم ورد:

- قلت لاتقولى.. يادكتور.

- حاضر ياأخى.

– آه هكذا يكون الأدب والذوق والكمال والإنسانية من هذا على طول من فضلك.

دخل علينا أحد حراسنا فأخبر أن المقاول بالخارج جاء يسأل عن عمر لأنه ينفذ عمليه كبيره ومحط الخرسانه أصيب بعطل.

رد الدكتور أحمد:

– أدخله.

دخل الرجل وما إن وقع بصره على الدكتور أحمد . حتى بهت . وقال «سبحان الخلاق العليم» فرك عينيه وأردف:

– غير معقول.

سألته:

– ما هو غير المعقول؟

رد بحيره وهو يشير لأحمد:

– سعاده البك.. وإلا على ماذا؟ أين عمر يا أستاذ؟

– اختفى فى ظروف مريبة.

– وسعاده اليه أخاه التوأم؟

– أبدا، ولا يعرفه.

– طيب. بس.

قال الدكتور:

– بس، غرضك تقول إنى أشبهه.

قال:

– أهو الشبه بعقل سى ماتكون توأمه. لكن...

قال الدكتور:

– لكن ماذا يامعلم؟

– لكن حضرتك . هال وهيلمان. أما عمر فإنسان بسيط.

– أكنت تحبه يامعلم.

– أو مثله يكره؟! ماهر وصادق . وصبور فى العمل.. ويرضى بالقليل. ولا يعقدها أبدا. غير أنه كان عقله على قده وعنيد أحيانا، ويتهيأ له أشياء غير ضاره . مسكين. والله أنا سألت له عن أعظم طبيب وكنت ناو أخده له.

قال الدكتور:

- عمر سافر ليرى أمه.

- الأمر لله.. نرجع ثانيه للمهندس الذى أراحنا منه عمر يتحكم فينا.. ويقول لنا فتخ ونصب.

قال الدكتور:

- فى ماذا يامعلم؟

- عندى محطة خرسانه فرنساوى ياسعاده البك أصيبت بعطل وكان عمر دوا ءها.

قال الدكتور:

- أتقاولنى على صيانتها طوال العام هى وأية معدات عندك؟ فأنا أستاذ دكتور مهندس ميكانيكا قوى بكلية الهندسة.

- لسنا قد المقام ياسعادة البك. اريد رجلا ماهرا على قد حاله مثل عمر. لكن ياليت تتكرم وتأتى يمكن ربنا يجبر بخاطرنا لغايه عمر مايرجع.

ملت على الدكتور وسألته إن كان جادا. رد:

- نعم.

قلت للمقاول:

- عمر لن يرجع ثانيه. أعمل حسابك على هذا. وفرصة أن الأستاذ الدكتور يشرفنا اليوم. مارأيك؟

- إذا تنازل وتكرم.

قال الدكتور وهو يشير إلى:

- الاستاذ.. أخبرنى فى حديث سابق لنا عنك وعما عندك من معدات وأنا على استعداد لصيانتها تحت أشرافى.

- هذا شرف كبير لنا يا دكتور.

رد الدكتور:

- كم تدفع فى العام نظير صيانتها. وكل قطع الغيار على حسابك؟

- ماترى يادكتور.

قال الدكتور:

- عشرون الفا عشرة الآن وعشرة بعد ستة أشهر.

- كثير.

قال الدكتور:

- أنت حر.

أستأذن وخرج

سألت الدكتور عقب خروجه:

- لم تغاليت؟.. أترفض بلباقة؟

- أبدا.. كان يدفع للمهندس. أربعة وعشرين مع أنه كان يريه النجوم ظهرا فى الإعاقة. ثق أنه سيعود.

سألته زوجته:

- ماذا يدور فى رأسك؟

- ياحبيبتى.. أنت تعلمين أن عودتى للتدريس فى الجامعة غدا مستحيلا بعدما ألم بى نفسيا وسياسيا. ولابد لى من عمل.. وتلك فرصة.. لا لأننا فى حاجة اليها ولكن لأن العمل فى حد ذاته حياة.

قالت ابنه امبابى:

- معك حق يا أخى. المكسب يقوى القلب..ويربط بالحياة.

قال:

- نعم يابنه امبابى. وبخاصة أنك تموتين فى المكسب.

قالت:

- يا أخى وهل يكره أحد المكسب؟

سألته:

- سمعتك. من لحظة تقول «سياسيا» مال السياسة ومالك وأنت أستاذ كبير؟

قال:

- السياسة هى التى حطمتنى فى الفترة السابقة.

نظرت إليه مندهشا.

رد:

- لاتندهش. نعم السياسة.. كنت أرى أن ساستنا يكذبون على الشعب ويغررون به وبعد إمعان نظر فى حال بلدنا رأيت أن ألاصلاح لها لن يكون إلا بالالتزام بالقيم السماوية العظيمة. لأنها تدع الإنسان فى مواجهه ربه وضميره فيكون رقيبه من داخله وإذا كانت الرقابة نابعة من داخل الإنسان أدى كل عمله على أكمل وجه فترتقى بلدنا ويسعد ناسها ويرهبها أعداؤها. فانضممت لجماعه الإخوان. وصرت أدعو لمبادئهم بين

طلبتى وبين الناس وعنيك ماترى إلا النور. اعتقلت مرتين عذبت فيهما كثيرا غير أنى ظللت ثابتا ومازلت على مبدأى. فى ثالث مرة لما اعتقلونى أرادوا أن أوقع على اقرار باشتراكى فى مؤامرة عليهم ليقدمونى للمحاكمة رفضت عذبت لكنى تمسكت بموقفى فأتوا بأمى التى هى أشرف من أمهاتهم ألف مرة وعذبوها أمامى. لكنها كانت وهى تحت طائلة العذاب تشجعنى وتأمرنى بالصمود وبلغ من نذالتهم أنهم حاولوا الاعتداء الجنسى عليها . لكنهم لم يفلحوا فصعقوها بالكهرباء فخرت مغشيا عليها فصدمت وظللت فى صدمتى لا أدرى من أنا، وأنت تعرف الباقى.

تقدمت منه ابنه امبابى وقبلته ودموعها تنثال. فربت على ظهرها، فتمتمت:

– عينى يا أخى.. تنشل أيديهم وتعمى عيونهم. لو حكمت فيهم أكل زمارة رقبتهم، أستاذ قد الدنيا يصنعون به هذا. وأستاذة أم أستاذ أفضل مليون مرة من أمهاتهم يبهدلونها هكذا. حسبنا الله ونعم الوكيل فيهم.. عينى يا أخى. لهذا كنت تدعوا لوزه بأمك. ياحبيب أختك.

قلت لها:

– معه حق.. ألم تلاحظى قوه الشبه بينهما؟

قالت كأنما تتذكر:

– فعلا الشبة كبير جدا. لكن الحاجة أم الدكتور أستاذه عظيمة أما لوزه فشئ لا هنا ولا هناك.

قال الدكتور:

– الغيرة مرار. وزيت حار.. وشطة وفلفل وكمون وكزبرة.

قالت له:

– وبعد يا أخى، دعنى ساكتة عنك. وهذا هو المكان لئلا أخطىء.

وسحبت الغلام والفتاه من يدهما. وهى تقول: هيا ياأولاد تعاليا معى لأبتعد عن إغاظة أبيكما.

وسمعناها بالخارج تنادى على حارسنا الأول وتأمره أن يأتى بالذبيحة.

تمتم الدكتور:

– ماذا ستفعله هذه المجنونة؟ ولم هذه التكلفه وأنا وزوجتى من غير هواة الأكل.

خرجنا إليها وحاول إثنائها لكنها أصرت وقالت:

– ليس من أجلك وإنما من أجل أولاد أخى. أول مرة يزوروننى ولا أحتفى بهم!! كيف؟!

ءامرت الحارس بالذبح فنفذ. وسط شكر كثير من زوجه الدكتور وفرحة غامرة من ولديه اللذين استغرقا فيما يفعله الحارس وغدوا يساعدانه وأمهما تنهاهما فلا ينتهيان وتلوم زوجها لأنه يترك لهما الحبل على الغارب وتؤكد أن تدليلة لهما سيفسدهما وهو يبتسم ولا يعبأ.

خرجنا فى جولة أنا والدكتور أثناء انشغال الحارس والأولاد بالشواء بعد أن أخذ فى يده قلما ومفكرة وراح يدون بعض الملاحظات على كل مايرى.. ولما كنا فوق مبنى المصنع لمح عربة المقاول متجهه للأرض نبهنى إليها وقال:

– ألم أقل لك. إنه سيعود.

سألته عما ينوى للمستقبل.

رد بأنه لم يتبلور تماما وإن كان يميل إلى أن يشترى قطعة أرض مجاوره لنا ليقيم عليها مشروعا، لكن ماكنه هذا المشروع؟ فهو الذى لم يستقر عليه ذهنه بعد. شجعته لنكون معا دائما فقال:

– يفعل الله مايريد.

وقفت عربه المقاول أمام مبنى المصنع وصعد إلينا فقال موجها كلامه لى:

– ألا تساعدنى عند الدكتور وترجوه أن يخفض ما طلبه أجرا؟ أنا رجلكم وقد خدمتكم كثيرا ألا أستحق منك تعضيدا؟

– يامعلم.. كل أدرى بحاله.. والدكتور ضيفى ولا أريد أن أكلف ضيفا أى شطط.. أو أسبب له إحراجا . أليست هذه الأصول؟! قال موجها كلامه للدكتور:

– مارأيك فى خمسة عشر؟

رد الدكتور:

– يامعلم.. لاتتعب نفسك، كلمه واحدة وقلناها.

صمت ثم قال:

– أمرك ياسيدنا الدكتور. لكن لى رجاء.

نظر اليه الدكتور فأردف.

– أن تأخذ منى خمسا اليوم والخمسة الأخرى بعد شهر.

وأشار الى وتابع:

– وأنا رجل مضمون والأستاذ يضمننى.

قلت مجاملا له:

- خل عنك يامعلم.

ونظرت للدكتور مبتسما وتابعت:

- مايقصر فيه المعلم.. رقبتي سداده.

قابل الدكتور ابتسامتي بمثلها وقال:

- من أجل خاطرك.

نزلنا فركبنا مع المقاول عربته حتى مأوانا فدبجنا التعاقد ودفع المقاول المبلغ الأول.

فنادى الدكتور: ابنة امبابى وأعطاه لها. وقال:

- احفظيه معك ياوزير الاقتصاد.

تناولته مبتسمه وقالت:

- بشرط ألا تعطيه لأمك لوزة.

راح الدكتور يغنى: الغيره مرار. الغيره مرار.

وخبطني على ظهرى أنا وزوجته وقال:

- غنوا معى.

فغنينا والمقاول مبهوت قالت ابنه امبابى:

- طيب إن ما أريتك يادكتور بس طول بالك على، ونظرت إلى مغيظة وقالت:

- وأنت أيضا تغنى معه. إن ما أريتك أنت الآخر لا أكون من ظهر إمبابى سآكلكما أنتما الاثنين بأسنانى بس لما أفرغ لكما.

ونظرت للدكتور مردفة:

- وأنت أيضا يادكتوره.. عينى على، لكن الحق لاعليك. الحق على زوجك قوموا.. هيا لتأكلوا.

تحلقنا حول الشواء نتخاطفه من أيدى بعضنا ومعنا المقاول ومقاول دق الآبار الذى أرسلت فعزمته، ومن كانت تلسعه سخونه الشواء يلقى به فى فمه فيلسعه فمه فيبتلعه ثم يمسك بطنه لكنه يتابع إلى أن انتهينا ولم نكن قد أكلنا من الشواء شيئا ذا بال، فدفعت ابنة امبابى بباقيه الى حراسها وطلبت إليهم أن يقتسموه هم ورجال مقاول الدق.

بعد أن شربنا الشاى قال المقاول للدكتور:

- ألا تأتى معى الآن لترى العطل فقد يكون هينا حتى لا أتعطل عن عملى يوما آخر؟

رد الدكتور:

- هيا بنا كلنا.

طلبت ابنة امبابى من الدكتور أن يدع عربته إلى أن يعود. اعتذر بأنه سيرجع من عند المقاول إلى بيته متعللا بأن زوجته ووليه تعودوا النوم بنمط معين ولن يرتاحوا إذا قضوا ليلتهم معنا لأن المكان غير مهيأ تماما لهم. وطلب ممن يسبق منا أن يركن أمام مقهى الترعه، اتجهنا الى مدينه المقاول. ولما حاذينا مقهى الترعه ركننا وانتقل هو إلى عربة المقاول وجلسنا وسرعان ماالمحنا الصياد فأتى فتشاغلنا به وبخاصة ولدى الدكتور اللذين كان رزقهما من السمك واسعا وفرحتهما به أوسع، حدثتنا زوجته عن معاناتها القاسية فترة غيابه وحزنها الذى لو تفرق على الناس كلهم لغمرهم والأمراض التى أصابتها هى وخالتها التى هى حماتها فى الوقت نفسه، وضيق الأولاد وفشلهم الدراسى وزوار الفجر الأوغاد الذين أرعبوها هى وولداها بزياراتهم المجوجة.. ومصاغها الذى سرقوه. وأموالها التى نهبوها. وأثاثها الذى حطموه.

كانت ابنه امبابى تقاطها بين وقفه وأخرى قائله عينى يا اختى : حسبنا الله ونعم الوكيل إنهم ولا اليهود.

لم يغب الدكتور كثيرا. وعندما هل علينا قال لزوجته.

- إذا كانت ابنه امبابى قطعت فروتى فلا تصدقيها.

ردت ابنه امبابى:

- ماعاش من يقطع فروتك يا أخى.

ربت على ظهرها وقال:

- أنا أعرف لكنى أحب مشاغبتك . الله يعلم كم أحبك أنت وأخى وربنا يقدرنى على رد جمائلكما.

سألته عما حدث عندما رآه عمال المقاول فأجاب:

- ليتكم كنتم معى لتضحكوا من أعماقكم. بدءا ظنونى عمر فلما أخبرهم المقاول: أنى غيره غدوا يتهامسون فيما بينهم ويعاملوننى بحذر كأننى هامه عمر انشقت عنها الأرض. وظلوا كذلك إلى أن غادرتهم فكان أعجب منظر رأيته فى حياتى.

ثم نظر إلى زوجته وأردف:

- هيا بنا ياحبيبتى.

قالت ابنة امبابى:

- بدرى يا أخى.

تعلل بولديه وزوجته وبأنه لا يحب أن يسوق فى الليل إذا كانت معه أسرته.

ثم قال لى:

– من غد سأكون معك سآتى إلى المقاول صباحا ثم أوافيكما ظهرا أتغذى معكما وأذاكر لك حتى المساء لنقوم بعمليه استعواض لهذا الوقت الذى يتسرب منك ولم يبق على امتحانك إلا أيام معدودة لكنى أثق فى ذكائك.

ابتسمت وقلت:

– لكن عمر كان يسمنى بالغباء.

– لإنك كنت تشرد كثيرا فى سيده الحسن والجمال.

وأشار الى ابنه امبابى التى ابتسمت وقالت:

– ألست حلوة يا أخى؟ وإذا لم أكن، الا تجبر بخاطر أختك.

قالت لها زوجته وهى تقبلها:

– أنت قمر ياهناءه خطيبك.

وأشارت إلى فقلت:

– لا تغريها باطرائك فتتدلل على.. أرجوك.

قالت لها:

– تدللى يا امبابية على كيفك، انت فعلا جميله الجميلات.

ردت عليها ابنه امبابى وهى فى غايه السعادة.

– الله يجبر بخاطرك يا أختى ويخل لك ولديك ورجلك.

ثم نظرت إلى وأردفت:

– أسامع؟

شيعناهم حتى عربتهم ولم ينس ولداه سمكهما. وكانت أحضان الولدين وقبلاتهما لنا أكثر وقعا فى قلوبنا من قبلات الكبار.

عدنا إلى مجلسنا فى مقهى الترعة صامتين بدءا ثم أخذنا الحديث حول أسرة الدكتور أحمد. سألتنى:

– ماذا ستقول للوزة إذا سألتك عن عمر؟

– والله لا أعرف.. لن تصدق هى أو عمتى أو عمى بطاطه.

– ولا عندنا فى البيت سيصدقون.

– أفضل شئ أن يعرفوا هم عن طريقه فى الوقت الذى يراه هو مناسبا.

عدنا متأخرين ناورت أمام الأرض جيئة وذهابا أكثر من مرة وسلطت عليها وعلى ماجاورها من أرض كشافا جانبيا متحركا كنا قد ركبناه فى كلتا عربتينا لهذا الغرض غير أن هذه أول مرة نستعملة فيها. ولما اطمأننا الى خلو الظاهر من الكمائن الغادرة. أخرجت مسدسي وطلبت من ابنه امبابي إخراج مسدسها وأن تغوص تمام على كرسيها بحيث لا يبدو منها شئ وغصت كذلك بحيث غدت عيناى وما فوقها من بقية رأسى هى التى تبدو واتجهت الى البوابه وكانت الاشارة المتفق عليها مع حارسها هى ثلاثة مرات من الأضواء المتقاطعه تعقبها مرتين ثم مرتين ثانيتين من نفير العربه. انفتح الباب احتوانى ولما دلفت إلى استراحتى واسترخيت على فراش النوم على صدره ليغرقنى فى بحره الملئ بالأحلام.

قمت قبيل شروق الشمس فصليت.. وفتحت نافذة، أنعشنى هواء الصباح فحملت كتابا وخرجت أتمشى فى الأرض أراجعه، وجدت مقاول الدق يختم صلاته أمام مأواه صبحت عليه فعزم بشاى أشربه معه، قبلت وطلبت إليه ان يعده إلى أن أدور دورة ثانية. عدت إلى الرجل فوجدته قد أورى نارا ودس فيها الغلاى. جلست بجواره، شكرنى على شواء الأمس. وسألنى :.

– أحقا ماسمعت.

نظرت اليه مستفسرا أردف:

– عن عمر.

فهمت مايرمى اليه وقلت:

– نعم.

– أسيأتى ثانية هنا؟

– وربما غدا جارا.

– ياليت عشرة مثله يفغلون. إذن لكونتم مجتمعا يصعب تهديده فقد بلغنى ماتعرضتم له من تهديد الأعراب وأعجبنى جدا صمودكم، هل تعلم أننا عندما أردنا استزراع ما جاورنا من جبل تعرضنا لمثل ما تعرضتم له من أعراب منطقتنا.

– وماذا كان موقفكم.

– أصابعك ليست كبعضها . هناك من خضع، وهناك من تحدى، ومن خضع مازال خاضعا حتى الآن بحجة حراسة أرضه. حذار أن تقبل هذه اللعبه انهاحيلة ليظل ابتزازهم ممتدا لمن يقبلها فإن توقف. اضروا بزراعته أبلغ ضرر.

– وماذا كان من أمر الرافضين .

– أتعبوهم بدءا بإطلاق مواشيهم تتلف مزروعاتهم أثناء الليل، وكلنا كما رأيت ليست لنا الامكانيات المادية التى ننشئ بها أسوارا حول أراضينا كما فعلتم أنتم. هذا السور مهما كلفكم رد عنكم شرا بأضعاف أضعاف تكلفته، ظللنا فى حيرة مع هؤلاء الأعراب الى أن تزعم الرافضين وكنت منهم ولد جرئ وبيتناهم وهم نيام فى مضاربهم البعيده فاستولينا على سلاحهم وأوثقناهم بالحبال. وظللنا نضربهم يوما بطوله دون رحمة. واستولينا على حلى نسائهم الكثيرة، فنساؤهم من هواة الذهب وأخذنا كل مامعهم من نقود. وهم إذا كنت لاتعلم أثرياء جدا من تجارة المخدرات. وأحرقنا خيامهم وأخذنا ولدى شيخهم رهينة أخفيناهما فى إحدى القرى البعيدة عند أحد أقارب من اشترك معنا وأجهزنا على إبلهم وهى غاليه جدا على نفوسهم لأنها مدربه على حمل المخدرات فى دروب الصحراء الواسعه. وأنذرناهم بالقتل إن نزل أحدهم جهتنا. فرحلوا من حولنا وظل شيخهم شهرا يتذلل لنا حتى قبلنا شفاعه بعض الناس وأطلقنا له سراح ولديه بعد أن دفع الحلوان.

– ليت لنا عصبة مثلكم لنفعل بهم مافعلتم.

– المهم أن تصمدوا حتى ييأسوا ولا يروا منكم ضعفا إذا هاجموكم. وحذار من خداعهم فهم أبرع الناس فيه وإذا حوصرت فكن قاتلا لا قتيلا.

– ربنا هو الستار، والله لا أريد هذه ولاتلك.

– وماذا تفعل للشر الذى يدب إليك.

جاء عماله فأخذ يلقى بتوجيهاته فأستأذنته حتى لا أعوقه، قام مع عماله وقمت لأكمل جولات المراجعه.

غدت الساعه بعد التاسعه ولم ألحظ نافذه فتحت فى مأوى ابنه امبابى فاتجهت اليها وأيقظتها ودخلت مأواى أواصل المراجعه جاءت بالافطار فأكلت أكلا خفيفا واصلت بعده المراجعة وابنه امبابى متشاغله عنى بحساباتها بدءا ثم بالموسيقى تشركنى فى سماعها قسرا حتى قدم إلينا الدكتور أحمد بعيد الظهر يقود عربه ثانيه أصغر مما كانت معه بالأمس.

عندما دخل يحمل حقيبه رحبنا به وجرت ابنه امبابى لتحضر له جلبابا من ملابسى بشكرها عندما رآها قادمة بالجلباب. وقال لها: كل ما فى هذه الحقيبة هدية زوجتى اليك ماعدا جلبابا ومنشفة فهما لى. وقام فأخرج جلبابه ومنشفته وقدم لها الحقيبة

مفتوحة وجرى الى الحمام ليغتسل فأخذت ابنه امبابى تخرج ما فيها وهى كطفل عثر على لعبه مثيرة، ملابس فخمة داخلية وخارجية وعقودا وأدوات زينه كانت تضع القطعة منها على جسدها وترينى إياها وتسألنى أحلوة؟

رددت: أكثر من مره: الله.. وأكثر من مرة من فى داخلها ستكون أجمل، وأكثر من مرة جنان، وأكثر من مرة تهوس.

عاد الدكتور فوجدها مازالت على حالها من التفرج على ما أحضره لها قال:

– عال والله ياخطيبه أخى أنت وهو تتغازلان وأموت أنا من الجوع.

ثم أردف بحزم وصوت عال:

– امشى يابنت حطى الأكل لأخيك الكبير. بنات آخر زمن!!

تركت ابنة امبابى أشياءها بعد أن أخذت فستانا منها فى يدها وهى تقول للدكتور:

– حاضر يا أخى.. حاضر.. إيه أما تصبر صوتك عال سى الرعد. يرعب.. ياساتر. كان الله فى عون امرأتك.

أخذ هو يحدثنى بما أنجزه عند المقاول إلى أن عادت بعد قليل وقد ارتدت الفستان . لتسألنى:

– حلو على؟

ودارت حول نفسها لأراه. كان فعلا يبزر مفاتنها.

قلت:

– أنا غيران منه لأنه سيأكل من جسمك قطعه.

علق الدكتور بغضب متصنع.

– لن نخلص من هذا الغزل.. أين الطعام يابنت؟

– قوما فكلا عندى. آه..أم تريد أن أحمله إلى هنا ليتسخ فستانى وأنا لم أهنأ به بعد.

قلت:

– الأمر لله يادكتور . هيا بنا.

لم تجلس لتأكل معنا. ظننتها بدءا نسيت شيئا فذهبت لتحضره.. إلا أنها عادت ترتدى فستانا آخر وقالت لى:

– مارأيك؟

رد عليها الدكتور أحمد:

–يابنت انفضى من شغل البنات واجلسى لتطعمى معنا.

قالت بانفعال:

- الله يا احمد يا أخي!!

قال أحمد بسعاده:

- الله.. أحسن رد حتى الآن.. أحمد مجردا.

تداركت فقالت بسرعة:

- أسفة يادكتور.

رد:

- أبدا.. لا أسف، كنت أشاغبك من أمس لتنطقيها.

ثم نظر الى وأردف.

- من الآن . أنا أحمد فقط.. أحمد حاف وحتى أمام الغرباء أنا أحمد فقط فالأخوه الحق ينادون بعضهم بأسمائهم المجرده.

قلت:

- لكن.

قاطعني:

- لا لكن . ألم تكن تنادى عمر باسمه المجرد وكانت ابنه امبابى تضيف اليه.

- يامتنيل على عينك ياعمر.

ردت ابنه امبابى:

- عمر.. أما أنت فالدكتور أحمد.

قال:

- ثانية!!

قلت:

- أحمد.. أحمد.

نظر اليها وقال:.

- هيا يابنت اجلسى فكلى.

ردت:

- ليست بى رغبة.

فقال:

- أه وأزغت عيون خطيبك فلن يأكل.

قالت:

- ياسلام يا أحمد يا أخى.. أنت ستصير أمر من عمر!! وهذا هو المكان لك.. أحضر الشاى أفضل.

سألته لما خرجت:

- وعلام عولت؟

- تناقشت مع زوجتى ونحن عائدان أمس.. واستقر رأينا على أن نشترى بجواركم قطعة أرض مماثلة لأرضكما فنستزعها. وأنشئ فيها معملا انتاجيا لقطع الغيار. وإصلاح المعدات وأقيم مكتبا استشاريا هندسيا فى المدينه القريبه التى بها المقاول تكون له فروع فى كل المدن القريبة . ما رأيك؟

كانت ابنه امبابى قد دخلت فسمعت أغلب ما قال فردت:

- على بركة الله.. المهم ألا نفترق مادمنا نعيش .. ولا تحمل هما للنقود. فكل ما أملك منها تحت أمرك.

قال:

- ذلك عشمى. وإن كانت مستورة والحمد لله.. وسنبدأ غدا جولتنا معا أنا وأنت لنتخذ اجراءات شراء الأرض فقد مارستيها من قبل وتعرفين الطريق وندع هذا الولد وحيدا حتى يأكله الشوق إليك.

قالت:

- إى والله يا أخى، خليه يفلفل لما لايجدنى أمامه.

ابتسمت وقلت:

- والله ماسيفلفل إلا أنت.

قالت:

- إى والنبى ياولد.. عصافير رأسى تطير وأنت بعيد عنى.

ابتسم احمد وقال:

- يابنت خليك راسيه حبتين.. انت إيه!!

عاود أحمد ارتداء ملابسه وسألنا إن كنا نحتاج شيئا من الجيزه؟

قالت له ابنه امبابى متطرفه:

- والنبى يا أحمد يا أخى هات لنا ابو الهول معك.

ضحك وضحكنا وانطلق ملوحا.

ثاني يوم جاء الدكتور أحمد مبكرا وأخد يعجل ابنه امبابى مشاغبا لها حتى أخرجها عن هدوئها فأخذت تسب وتلعن نفسها ثم انطلقا بعربته الى عاصمة الاقليم لتقديم طلب شرائة الأرض. وانفردت انا بنفسي لأراجع كانت تغمرني سكينه وغناء رجال مقاول الدق أت من بعيد ظللت كذلك قرابه الساعات الثلاث. ثم انتابنى فتور وثقل فاتجهت إلى مأوى ابنه امبابى لأصنع شايا أتنشط به قليلا. لم أجد أمامى أوانى الشاى والسكر فرحت أبحث عنها فى صيوان حائطى إلى أن وجدتها. لكن وقع فى يدى أيضا أوراق نوته موسيقية، دهشت وظننت أنها وقعت فى يد ابنه امبابى بطريقة أو بأخرى وعلى طريقتها فى الحرص الشديد احتفظت بها. قلبتها وأنا لا أعرف من رموزها شيئا، سقط منها قلم لما هممت بوضعه وسطها وقع نظرى على مدونة بخط ابنه امبابى تصف إطاراً عاما لمقطوعة بعنوان حبى، قلبت صفحاتها فوجدت إطاراً آخر بعنوان الغريب.

تساءلت بينى وبين نفسى: أمعقول أن تكون تلك الأطر الموسيقية من وضع ابنه امبابى!! استبعدت هذا تماما لما أعلمه من واقعيتها الشديدة وماديتها المطلقة، حقا إنها تحب الموسيقى لكن أن تؤلفها فهذا هو المستبعد تماما.

فكرت وأنا واقف أمام الموقد انتظر غليان مياه الشاى. قلت لنفسى: لكن لم هو مستبعد؟ أليست أختها فيها ذوق فنان وحساسيته؟ لم لا تكون هذ الأخرى كذلك؟

أخذت شايى وخرجت واستغرقت فى المراجعة من جديد فنسيت أمر النوته الموسيقية.

بعيد الظهر عادت ابنة إمبابى منفرده فاجأتنى دون أن أشعر فأخذت واضطربت إلا أنى تماسكت بسرعه لكنى لم أسلم من لسانها لأن مفاجأتها أخافتنى، بثتنى أشواقها لأنى أوحشتها تلك السويعات ثم جرت لتغير ملابسها وعادت تحدثنى عما كان فى رحلتهما مع أحمد.

سألتها عنه أخبرتنى أنه أوصلها حتى باب الأرض وانطلق عائدا إلى عمله لدى المقاول خشية أن يكون فى حاجة إليه، أبدت ضجرها من تزمته لأنه رفض. «تمشيه الحال مع الموظفين»

وقالت:

– إنها حاولت عبثا إقناعه . إلا أنه قال لها: «يابنت هذا مبدأ».

قالت الجملة الأخيره وهى تقلده، ابتسمت فاستطردت:

– وأنه لولا أن الموظفين يعرفوننى وجربوا سخائى ما تحركت ورقة واحدة من مكتب

لأخر وكنت مضطرة أن ألمز لهم بعينى من خلف ظهره ليفهم الموظف ان حقه محفوظ وتابعت:

- ياساتر على الاساتذة الكبار دماغهم حديد وكبرياؤهم عظيم.

ثم حذرتنى أن أكون مثلهم إذا صرت يومامنهم ثم قالت:

- آه.. كن استاذا لكن مرنا.. الدنيا تحب المرونه. وإلا وقف حالها.

ثم تابعت:

- طبعا أنت منتظر حبك لتتغذى معه.

عنت لى إغاظتها فقلت:

- حبى! من حبى؟

- أنا ياولد.. ايه.. ألست حبك!؟

- من أين أتاك؟

قامت مغيظة لتخنقنى وهى تغمرنى بقبلاتها. ثم ربتت على ظهرى وجرت قائلة.

- سأحضر الطعام حالا.

عادت بسرعه تحمل لفافتين فردتهما لأجد فى واحدة مشلتتا وفى الثانيه جبنا قديما سألتها من أين لك هذا؟ أخبرتنى أنها وجدت على الطريق ريفيه تبيعه للمارة فاشترته منها لم يكف لسانها طول مدة الأكل عن نقد جمود الدكتور أحمد، وأخبرتنى أنه طلب اليها ان تخبرنى أنه سيمر على بعد انتهاء عمله ليراجع معى ما أظن أنى فى حاجة إلى مراجعة من دروس. جاء الدكتور فعلا بعيد العصر وظل يراجع معى حتى أظلنا المغرب ثم قام ليعود إلى أولاده. لما هم بركوب عربته قالت له:

- عندى اقتراح يا أحمد.

نظر إليها مستفسرا فتابعت:

- تترك لى مهمه متابعه شراء أرضك إلى أن أنجزها كما أنجزت أرضنا. ولاتشغل نفسك بهذا الأمر، فقط أريد توكيلا رسميا بهذا الخصوص. وبعده تأتى أنت صباحا إلى عملك مباشره لتكون معنا بعد الظهر وبذا لاتهمل أخاك وخصوصاً أن أياما قليلة هى الباقية على امتحانه.

قال مبتسما:

- قلبك على حبك يا أختى!؟

ردت:

– بل قلبى كله له إنه ملء قلبى وعقلى وأريده فى أعلى الدرجات ليشرفنى ويشرف أولادنا مستقبلا.

قال:

– تأدبى يابنت. واستح.

ردت وهى تحيط وسطى بذراعها:

– بالكيد فيك.. غيران أنت من حبنا.

رد أحمد وهو يهم بركوب عربته:

– وهذا هو المكان لك ولحبك يا بنت امبابى.

لوحنا له. ودخلنا إلى مأواى . سألتها : لم لا تريدينه أن يصاحبك؟

– لأنه سيعوقنى.. ويضيع وقتى على الفاضى بتزمته.

ثم صمتت وأردفت:

– أتعرف أنه إذا ظل هكذا لن ينجح فى حياته العمليه.

كنت أشعر ببعض الصداع وكانت أصوات رجال مقاول الدق قادمه من بعيد تحمل الينا أهازيجهم، اقترحت عليها أن نذهب فنسمر معهم، قضينا معهم أغلب أول الليل ثم عدنا فاحتوانا النوم.

ثانى يوم جاء الدكتور قرابه الظهر لم ينزل من عربته. قدم التوكيل الى ابنة امبابى وأكد عليها بالأ ترشو موظفا لأنها إذا فعلت لن يحاسبها على مادفعته من رشوة، انطلق لينجز ما قد يكون المقاول فى حاجة إليه ويعود إلينا، عاد وماغاب كثيرا ليقضى معى حتى المغرب فى مراجعة دروسى.

ثم طلب الينا بأن نستعد لمصاحبتة:

سألته:

– لم؟

رد بأن غدا الجمعه وزوجته تدعونا لنقضية معا.

قلت:

– لكن باق أسبوع على الامتحان ولاداعى لأن أضيع منه ولا دقيقه.

– أنا مطمئن عليك، وقد ثبتت المعلومات جيدا فى رأسك فكن واثقا، وإلا أطار الخوف معلوماتك. ثم إن الاسترواح مهم كالمذاكرة تماما لأنه هو الذى يهيئ النفس لها.

وقالت ابنة امبابى:

- لقد فاجأتنا. وكيف تدخل عمة أولادك عليهم بيد فارغة؟!

رد عليها:

- هيا يا ابنة امبابى ولا تحبكينها وإن عشنا فالأيام كفيله بأن تدعك تصلينهم بهداياك مادام الكرم قد انحط على رأسك فجأة.

طلب الينا ان نركب معه ولا داعى لعربه من عندنا لأننا سنتحرك معا إن ذهابا أو عودة، تحدثنا أثناء الطريق عما أنجز من أعمال الدق. وعرضت عليه ابنه امبابى أن تحجز كما من المواسير التى باعتها لمقاول الدق لأرضه. أفهمنا أن ماندقه نحن يكفى أرضنا وأرضه لأن رى الرش يوفر مياها كثيرة وأنه سيدفع نصف كلفتها لتكون شركة بيننا وبينه، وأيضا سيدفع نصف ثمن المضخه التى ستركب على المواسير، وطلب إلينا ألا نتفق على تنفيذنظام الرش مع المقاول لأنه متغال جدا فى أسعاره وأنه سيكون أول أعمال معمله الإنتاجى ولن يكلفنا إلا ربع ماطلب المقاول.

فى ميدان الجيزة نشبت مشاده كلامية بينه وبين ابنه امبابى لما رفض ان يستجيب لرجائها بالوقوف لتحمل لأولاده بعض الحلوى.

أول مارأت أولاده قالت لهم وهم متعلقون بها يقبلونها:

- أبوكم أخجلنى معكم يا أولادى ياحبايبى، خلانى أدخل عليكم بيد فارغة.

ردت عليها زوجته وهى تقبلها:

- لا حرج بيننا لقد غدونا أهلا.

- لكن لا يصح.. إنهم أولاد وإذا لم يتعودوا على الكرم سيكونون بخلاء.

رد أحمد:

- ماهذه الحكمة كلها يابنت امبابى؟!

فوجهت حديثها إلى زوجته:

- انظرى.. زوجك دائما.. لا أعجبه

ردت زوجته:

- ألا تعجبين خطيبك؟

ردت:

- جدا.. جدا.

رددت:

- ومن أين أتاك؟

ضحكوا كلهم. وقالت ناظرة إلى:
- هكذا.. طيب بس لما نعود للأرض.
جاء أبوه وأمه فرحبا بنا. ولاذت ابنه امبابى بأبيه يتحاوران، فيغرق فى الضحك ولست أدرى ماذا كانت تقول له فيجعله يضحك هكذا.. لابد أنها كانت تحكى له نوادرها مع ابنه عندما كان عمر.
عاد أحمد بعد أن غير ثيابه فلاحظ استيلاء ابنه امبابى على ابية فقال لأمه:
- خل بالك من هذه البنت فهى خطيرة ويمكن أن تلهف منك أبى دون أن تشعرى.
ردت ابنه امبابى متوجهه لأمه:
- أعندك مانع ياماما الحاجة؟
ردت أمه.
- كنت أخنقكما معا.
قهقهنا. وقال أبوه:
- ياوليه.. ورائى ورائى.. دعينى اتنسم رائحة الجنه فى الشباب الحلو.
ردت أمه:
- يارجل يا أبا عين زائغه.
ثم وجهت نظرها لى وأردفت:
- خل بالك من خطيبتك وإلا خطفها منك العجوز.
انتقلنا إلى رواق واسع مدت فيه مائدة حافلة بأطايب الطعام ونحن نتجاذب حديثا طيبا يدور حول ذكريات العجوز أيام شبابه وكم الغيرة الهائل الذى كان يتعرض له من زوجته وما كان ينشب بينهما بسببه من معارك.
سألته عن رأيه فى الغيرة. رد: بأنها دليل الحب بين الزوجين بشرط ألا تتحول إلى منغص للحياة عندما تزيد عن حدها وتتحول إلى الأنانية المفرطة، عندها تكون شيئا خطرا قد يودى بالحياة الزوجية بل بالحياه نفسها، وكم من حوادث قتل سببها الغيرة الحمقاء التى بلغت مرتبة الأنانية.
أما الغيرة بين الأقران فمهمة لأنها تدفع بالإنسان دون أن يشعر نحو قانون التحدى والاستجابه الذى به ترقى البشرية والذى عبر عنه الله سبحانه فى القرآن بالدفع «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» دفع بالغيرة بين الأقران ودفع بالحرب بين الأمم. ودفع بالمحاكم بين الخصوم.

- حرب؟! دفع بالحرب؟ إنها تتعس البشرية.

- لكنها تقدمها إلى الأمام مدنيه وحضارة وعلما.

- برغم ما تحدثه من دمار.

- برغم ماتحدثه من دمار . لولا الحرب. ما اكتشف الإنسان أشياء كثيرة، قديما العجلة التى غدت سيارة، وحديثا الذرة التى بدأت غولا يهدد البشرة بالفناء ثم هى الآن جزئيا حمار ذلول يركبه البشر فى الطاقة التى لا تكاد تفنى، وفى العلاج، وفى إنتاج وفير من الطعام وفى وسائل النقل ولولا الحرب ما اكتشف الإنسان الردار .. ولولاها ما وصل بالصواريخ إلى الكواكب التى ربما غدت بديلا للأرض عندما تفسدها حماقة الإنسان، وإذا ذهبت أعدد لن أفرغ.

لاحظت أنه لا يأكل عزمت عليه. رد:

- بأنه يكتفى بوجبتين.

وأنه جلس معنا مجاملة.

عقب الطعام تشعب بنا الحديث. حول أمور كثيرة . استفدت من العجوز استفادة عظيمة. كم معلومات هائل فى السياسة وفى الاقتصاد وفى العلم وفى الأدب وفى الفن.

سألته:

- كيف حصل كل هذه المعلومات برغم أنه - كما علمت من ولده - كان أستاذا فى هندسة الطيران.

قال:

- بالاطلاع المنظم.

وسألنى:

- ان كانت بى رغبة فى أن أكون مثله ثقافه. أجبت بالايجاب.

سحبنى من يدى إلى حجرة مكتب بها آلاف الكتب. وقال:

- أنظر . اجعل هذه أصدقاءك المقربين.

وجلس على مكتب ممسكا بالقلم. وسطر به اسماء أكثر من مائة كتاب بين التاريخ والأدب بفروعه والعلوم والفنون وغيرها ثم قال:

- ابدأ أثناء أجازتك بهذه، ستعانى بدءا ثم لما تتعود لن تستطيع أن تمنع نفسك. كما لا تستطيع أن تمنع بطنك، وكما تشتاق الى إشباع فرجك. أشبع عقلك. وإلا لن يكون هناك فرق بينك وبين...

وصمت.. ثم أردف:

- ألك هواية؟

لم أشأ أن أبدوا أمام هذا العالم قزما فى كل شئ قلت:

- التحطيب.

- جميل، نم هوايتك وكن فيها متميزا.

- يقولون إنى بطل فيها.

- حافظ على البطولة باللعب مع من تشعر أنهم أنداد.

ثم سكت قليلا. وقال:

- سأقحم نفسى فى حياتك.

- أنت والد فتفضل.

- أحمد ابنى.. يقول إنكما متحابان أنت وخطيبتك؟

خجلت ولم أرد فتابع:

- هل تعلم أن هناك خطرا ما حقا يهدد حبكما.

اتسعت عيناى وانفتح فمى. تابع:

- لا تندهش . لولا أنى أريد لكما الخير لأنكما تحبان أحمد وهو يحبكما ما تحدثت فى هذا الأمر. ستكون هناك فجوة ثقافية هائلة بينكما قد تقضى على حياتكما الزوجية مستقبلا أو على الأقل تحولها إلى شئ تعس.

- لكنها فى غاية الذكاء.

ذكاء فطرى.

- هل هناك غيره؟

- نعم. الذكاء ذكاءان: فطرى وهو مايشترك فيه كل الناس، سكان الكهوف والغابات وسكان المدن، وهذا النوع من الذكاء وزعه الله بالقسطاس بين الناس لم يجعل لأمة تميزا على أخرى فيه.

وذكاء مكتسب مصدرة التاريخ الحضارى للأمة وتقدم أفرادها الثقافى والعلمى، وهو مايميز فردا على آخر، وبالتالى أمه على أمه. وقد وضعت رجلك على أولى درجات اكتساب الذكاء المكتسب بالتعليم، وأمل بالثقافة لتكون جديرا بصداقة عالم صغير: أحمد ابنى الذى يحبك كأنك أخ له.

أنت الآن لاتحس بالفجوة بين ذكائك المكتسب وذكاء خطيبتك الفطرى. لأنك مازلت فى

ألف باء الذكاء المكتسب، لكن بعد أن تتخرج من الجامعة ومن يدرى ربما واصلت دراساتك العالية وبعد أن تأخذ نفسك بأسباب الثقافة الجادة وتكون الفأس قد وقعت فى الرأس كما يقول مثلنا. وبنيت بخطيبتك ستكون قد حصلت حظا من الذكاء المكتسب أضيف إلى ذكائك الفطرى، هنا تبدأ الكارثة ستشعر أنك فى واد وأنها فى آخر، ومهما كانت حلوة والحلاوة لاتدوم للنساء، ومهما كانت ثريه ومهما كنت تحبها ستتصادمان ولن تسطيعا التلاقى، وساعتها إما ان تقبلا حياتكما على علاتها وتعيشا فى تعاسة وإما أن يذهب كل فى طريق. فالحق نفسك من الآن، لا أقول تتركها فذلك مستحيل بين المحبين وإنما بعلاج الموقف.

– بم؟ وهى غير راغبه فى التعلم.

– بالثقافة.. تقرآن معا مادللتك عليه من كتب. وربما أشعرها هذا بالنقص فتعلمت ولو وهى زوجة لك. ولا أقصد بالقراءة مجرد الاطلاع.

– وما تكون القراءة إذن.؟

– الاستيعاب بقراءة الكتاب الواحد أكثر من مرة.

– سيكون ذلك مملا.

– أبدا.. العكس هوالصحيح.. ستجد له فى كل مرة طعما ألذ من المرة السابقة.

وســ...

دخل علينا ولده قائلا:

– أمعقول كل هذا الانسجام بين العواجيز والشباب!؟ هيا فقد اكتشفنا فى بنت امبابى مالم تكتشفه.. تصور أنها موسيقية موهوبه.

قلت:

– بماذا إن شاء الله . بلسانها الذى تفرقع به إذا غضبت.

قال:

– والله.. إنها موسيقية موهوبه. صعدنا إلى الطابق الثانى فوجدت بيانو حامت حوله ومدت أصابعها إليه فأحدثت نغما جميلا . فأردت أن أغيظها فقلت: صدفه خير من ألف موعد.

فقالت بتحد:

– بل موعد مؤكد. وجلست فأسرتنا بأنغام عذبه، والأدهى أن لها مؤلفات خاصة عزفتها فأشجتنا وتسمى إحداهما باسمك.

تذكرت النوته الموسيقية التى وجدتها عندما ذهبت لاصنع لنفسى شايا عند غيابها معه.

فقلت:

– آه.. تذكرت.

سألنى أحمد:

– تذكرت ماذا؟

فأخبرته بأمر النوته الموسيقية.

فقال:

– لكنها تحننت علينا إلا نخبرك، وأردت أن أغيظها فجئت جريا إليك.

خرجنا لأجدها واقفة خلف زوجة أحمد مستترة بها، كأنما هى طفل فعل ما يعاقب عليه فلاذ بمن يحميه.

لما رأتنى قالت:

– ياحوستك يابنت امبابى ياحوستك.

ونظرت الى وتابعت:

– والنبى.. أخى أحمد هو الذى تحدانى ثم جرى لينم لك، والله ياحبيبى.. أنا أسمعها فقط.

قلت:

– بأمارة النوته. أليس كذلك؟

– أرأيتها .. أتفتش من ورائى؟

قال لها والد أحمد:

– ولم أنت خائفة هكذا إنك لم تأت منكرا.

قالت:

– قل لخطيبى يابابا الله يخليك.. دافع عنى.

قال العجوز:

– أدافع؟!! والله هذا هو العجب بعينه . يا ابنتى الموسيقى أرقى الفنون.

قالت:

– الله يخليك يابابا قل له.

قال العجوز.

– أقول لمن؟

قالت:

- لخطيبى..

قال:

- وهل رفضها؟

قالت:

- أمى حذرتنى من أنه فلاح ولا يقبل أن تكون زوجته ألاتيه.

قال العجوز:

- أمك مخطئه فأرق الناس حسا للموسيقى هم الفلاحون لنقاء وجدانهم ياابنتى إنهم أكثر الناس غناء عند العمل وأكثرهم عزفا على الناى الشجى. دعك من هذا العبط.

لمزت العجوز فى يده واتجهت نحوها فأمسكتها من يدها وقلت:

- بعد إذنكم ياجماعه.. أكسر رقبه الآلاتيه هذه.

قالت لوالد أحمد:

- أنا فى عرضك يا أبى.

قال العجوز:

- دعها من أجل خاطرى.

قلت:

- خاطرك على العين والرأس بشرط.

قال العجوز:

- ستقبل كل شروطك.

قلت:

- ألا تخفى عنى شيئا مستقبلا.

قالت أم أحمد:

- أضمنها فى ذلك.

لما تركتها أخذت تتوعد أحمد كما توعدته من قبل مئات المرات. ولم تبر بوعد.

سألها العجوز:

- وما آلتك المفضلة؟

قالت:

العود.

غادرنا العجوز وعاد بعد قليل يحمل في يده عودا جميلا محلى بنقش عربى رائع قدمه لها فتقبلته شاكره له وملأت السعاده وجهها قال لها

- أسمعيهم فنك. هيا اطربينا بأنغام هذا العود.

بدأت تعزف ببراعه أدهشتنى وجعلتنى أقول فى نفسى : يابنت الجنية طاردها العجوز بطلباته وهى تلبيها، طاف بها بين القديم والحديث وهى تستجيب، ثم سألها أن تغنى مع العزف.

فابتسمت وقالت:

- كله إلا هذا يابابا الدكتور.

سألها:

- لم؟

قالت:

- الدكتور أحمد يعرف.

قال الدكتور أحمد:

- أنا لا أعرف إلا...

وراح يقلدها قائلا:

- يامتنيل على عينك ياعمر.. آه ياناري لو يدى تلتم عليك. طيب بس لما أطولك.

ومن تقول هذا أيمكن أن تغنى.

قال العجوز

- لم لانجرب؟

قالت:

- ماغنيت إلا بينى وبين نفسي. فإذا لم يعجبكم صوتى فلا تتضاحكوا على.

وعدها العجوز نيابة عنا فراحت تغنى مع العود حتى أطربت وأشجت وكلنا يستزيدها وانفعلت أم احمد بغنائها فقامت وقبلتها، وخلعت حلية من جيدها فألبستها إياها.

على حين صفقنا لها.

ولما انتهى تصفيقنا أخذت تمثل دور المطربات وتنحنى لنا.

ثم دارت علينا ماده العود كمن يطلب نقودا غير أن أحد منا لم يجبر بخاطرها بشئ.

فجلست وقالت:

- ياساتر.. البخل ماسك فى أسنانكم كلكم، طيب اجبروا بخاطرى ولو بقرش يخزى

عين الشيطان.. أعوذ بالله زبائن ما يعلم بجيوبهم إلا ربنا.

ضحكنا.

ثم قبلت أم أحمد وقالت لها:

– انت الوحيدة التى قدرتينى، ربنا مايحرمك من حبك العجوز ياحلوة انت ياماما.

قال أحمد لأمه معلقا:

– حذار من هذه البنت الماكرة أن تأكل بعقلك حلاوه.

ردت:

أسمعت ياماما . قطاعين الأرزاق . طيب وسيدنا النبى ما أنا مسمعاكم شيئا ثانيه ابدا. فابحثوا لكم عن مطربة مثلكم.

ردت عليها بنت أحمد : حتى أنا يا عمتى لن تغنى لى إذا طلبت.

قبلتها ابنه امبابى وقالت:

– إلا أنت ياروح قلبى . ربنا يهبنى طول العمر وأغنى لك فى فرحك.

لما حان موعد النوم قادنا أحمد كلا إلى حجرته، مر شريط ذكرياتى سريعا من القرية حتى حارتى الحواض والبير قدار. والظروف التى دفعتنى لابنة امبابى أو دفعتها لى. تمتمت وأنا اتقلب «سبحان المدبر» من كان يصدق أن أجد نفسى فيما أنا فيه.. تحيرت.. أهو خير أم شر وإلى أى يودى بى.

أسير وسط حديقتنا فى القرية قبيل الغروب، وحديقتنا مسكونه بالعصافير تغطى على مسامعى حتى ما يصك أذنى من همسات الريح.. وعمى نجم خفير الحديقة. أشاع أن حديقتنا مسكونه أيضا بالجن. سمعت أبى يقول لأمى يوما: أن نجما هذا رجل ماكر فمن يوم أطلق إشاعته وهو ينام ملء جفنيه إذ لم يجرؤ كبير أو صغير على اقتحام الحديقة ولاخطف ثمره واحدة مما هو متدل على سورها الشائك وانا أيضا لم أصدق نجما لأنى كثيرا ما جبت حديقتنا فى عز الليل عندما كان أبى يأمرنى بإصرار أن أقوم بتغيير الحوال ونحن نرويها، لكنى أرى العصافير تكبر.. تتضخم تتحول الى عرائس جان تحملنى إحداها وتطير وترتفع، الرعب يملأنى خشية السقوط.. أتشبث بضفائرها.. أرجوها أن تنزلنى للأرض.. لاتعبأ برجائى.. تمر بى على قرى كثيرة ومدن أكثر، فجأة تحط بى وسط جزيرة يحيط بها بحر ماؤه أصفر . لابد أننا فى الصين لأنها هى الدولة الوحيدة التى بها بحر أصفر. اجرى .. أهرب أدخل دغله أتخفى فيها من الجنيه. الملونه أمامى وسط الدغله، تفتح ذراعيها حين ترانى،

تحتوينى وهى تضحك. تضمنى بقوة حتى لتكاد أنفاسى تزهق.
أفتح عينى.. أستعيذ بالله. أستغرب المكان.. أتذكر أتقلب سرعان ما يحتوينى النوم..
أصحو على صوت أحمد. قم لئلا نتأخر عن نزهتنا أقفز من الفراش أسأله عن الحمام يشير إلى باب فى الحجرة أفهم يتركنى قائلا:
– نحن فى انتظارك فى الطابق الأرضى.
نتناول أفطارا خفيفا، نخرج، يعطينى أحمد مفتاح عربة، هو وزوجته وأولاده فى عربه وأنا وابنه امبابى والعجوزان فى عربة. أحمد يتقدمنا ونحن نتبعه . تطلب منى العجوز أن أركن أمام محل يتراءى على بعد.
قلت:
– لكنا قد نفقد أثر أحمد؟
ردت:
– لا تخش شيئا فأنا أعرف الطريق.
نزلت أم أحمد فاشترت وعادت وخلفها عامل يحمل ما أشترت. واسانفنا المسير الى أن وجدنا أنفسنا أمام قرية المقاول اخبرتهم ابنة امبابى أننا أحضرنا مقاول الدق من تلك القرية، تجاوزناها وأوغلنا فى طريق فرعى بعدها مررنا بقرى عديدة متشابهة ثم وجهنى العجوز إلى ان انعرجت فى اتجاه الصحراء ومن طريق الى آخر حتى وصلنا الى مزرعة فاكهة ضخمة ذكرتنى بمزعة استاذ الزراعة التى أتاح لنا مقاول الدق زيارتها، وقفنا امام بابها الى أن أتى الحارس وعرف العجوزين ،فرحب وفتح. أنبائنا العجوز انها مزرعة زوج ابنته، قدها من الصحراء وبذل جهدا الى ان استوت على سوقها كما نحاول ان نفعل، نزلنا أما فيللا مشابهة للأخرى التى رأيناها لماكان المقاول معنا وأمامها حوض ورد كالذى تركنا أحمد لما كان عمر وجلس يتأمله.

* * *

كانت أخت أحمد وزوجها فى لقائنا قدمنا العجوز لهما وقدمهما لنا على انهما استاذا زراعه، وجدت ابنة امبابى تلوذ بى وتقول :
– ايه ياولد لابد ان نصبح أنا وأنت وأولادنا عائله الدكاتره مثلهم .. أنا دكتورة فى التجارة وأنت دكتور فى.
العلم .كنا على السلم لما جذبت الدكتور أحمد من ذراعه وهمست فى أذنه:
– الا تريد أن تجلس هنا وتتأمل الورود . كما فعلت من قبل وتركتنا ندوخ بحثا عنك؟

لكزها لكزه خفيفة وهو يرد :

- كفى يابنت امبابى .

قالت له هامسة :

- وأقاربك لو سألوك عنا .. ستقول دكاترة فى ماذا ان شاء الله ؟ لاياعمى يفتح الله ... أنا لن ألعب، طيب أنت منا وعلينا من يوم أن كنت عمر، وأسرتك لما رأيناها ... احسسنا أنها منا ولنا، لكن زوج أختك واختك؟! ياعمى أعدنا من حيث جئنا.

همس فى اذنى :

- اسكت هذه البنت .

قلت:

- اسكتها .. أنت ... أليست أختك؟

دلفنا إلى بهو واسع منمق بذوق رقيق . حوائطه كلها عليها لوحات بديعة محيرة تخيل للناظر مع كل خطوة وضعا معينا للصوره لكزتنى ابنة امبابى وهمست :

- أين أنت ياأختى ... كنت ظللت طول عمرك رائحة غادية أمام هذه الصور ولايستبعد أن تحمل الحوائط بصورها وهى خارجة لتأخذها فى يدها إلى قصر عمك امبابى المنيف .

ترحيب زوج أخت أحمد وأخته بنا يصدر بحساب وحديثهما بحساب وحركتهما بحساب، ويقابلون فى كل حركة أو نأمة من اسرة أحمد بحساب . وابنه امبابى جالسة تنظر وتتنهد ثم همست فى أذنى : .

- وأنا إن شاء الله.. يمكن أن أطيق هؤلاء الناس بهذا الشكل ؟

وأشارت الى أحمد فانتقل إلى جوارنا وهمست فى اذنه :

- إن شاء الله سترجعون من غيرى .

دهش ونظر إليها مستفسرا فأردفت:

- لأنى بعد قليل إجنابى ستنفجر.

- لم ؟

- لانك أحضرتناعند ناس سى التماثيل وتحولتم أنتم إلى تماثيل مثلهم .

ابتسم أحمد ولم يعلق . على حين قلت أنا لها :

- عيب .

- تنهدت وقالت :

- ماعيب الا العيب . والله لاخرجهن جميعا من قشرتهم .

لاحظت أخت أحمد حديثنا الهامس فنظرت إلى أحمد بريبه مستفسرة فقال:

- لاشئ .

شيئا فشيئا ... استطاعت ابنة امبابى بطريقتها التى تخلط فيها الجد بالهزل . أن تستدرج من فى الجلسة إلى ضحك عال انزاح معه الوقار المتكلف . وأنشأت صداقة مع زوج أخت أحمد وأخته وأولادها.

تشعب الحديث إلى أودية شتى لكنه برغم جو المرح الذى أشاعته ابنة امبابى ظل متسما بطابع الجدية والعمق. ودار النقاش حاميا حول مايجب أن تكون عليه مزرعتنا ومزرعه أحمد من تطوير لتكونا نموذجا يحتذى به، ومايجب أن يكون عليه مصنع ابنة امبابى ومعمل احمد الإنتاجى من تطور لينتج شيئا لم يسبق إليه أحد فى بلدنا . شئ تحتاجة البلد وتستورد منه بملايين الدولارات كل عام، واجتمع الكل عدانا وابنة امبابى وأم احمد حول مائدة وراح التخطيط العلمى الهادئ والعميق يمارس عمله ويدون مايتوصلون إليه من قرار حول المزرعتين أو المصنع أو المعمل . أحيانا كانت أصواتهم تعلو وأخرى تهمس لكنها شدت ثلاثتنا إليها وإن كنت لم أفهم أغلب مادار فيها وبخاصة عندما كانوا يتحاورون باللغة الإنجليزية أو يصدر عن أحدهم مصطلح علمى . ظل حالهم كذلك حتى غدونا قرابة الظهر . وكانوا قد دونوا كثيرا من الأوراق دفعوا بها الى أم أحمد وأحضروا اليها آلة كاتبة . فجلست لتكتب منها أكثر من نسخة أخذ كل واحدة ليعيد فيها نظره ويناقشها مع أقرانه ومعارفة من الأساتذة وكأن علم خمسة لايكفى .

بعد الغداء عرض علينا أن ناخذ إغفاءة - إن كنا نحب - اعتذرنا واستأذن والد أحمد وزوج ابنته وابنته وأمه منا ليرتاحوا قليلا ولم يبق الا احمد وزوجته وكلانا . انتقلنا لنجول فى أرض زوج أخت أحمد الواسعة .

قالت ابنه امبابى لاحمد وزوجته ونحن سائرون بعد كل نقاشكم وعلمكم العظيم:

- تشكون فى نتائجكم وتريدون أن تناقشوها ثانيه مع غيركم من العلماء.

ردت عليها زوجته:

- وماذا يكون علمنا مع من هم أعلم؟

علقت ابنة امبابى :

- يالحوستى ياأختى ... أهناك بعد خمسة علماء علم!!

رد أحمد:

- نعم الم تسمعي القران يقول « وفوق كل ذى علم عليم »تقدم الاجانب علينا لانهم لايقدمون على مشروع الا بعد ان يتداول العلماء دراسته عاما أو أكثر .

ردت ابنه امبابى:

- لكن هذه عطلة بلا لزوم.

رد:

- مانفعله نحن فى بلدنا هو عين العطلة.. هم لايكاد يفشل لهم مشروع، أما نحن فحالنا لايسر عدو ولاحبيبا . حتى ماقامت به الحكومة من مشروعات ندر منها ماهو ناجح، وان كانت الدعاية وامكانات الدولة تغطى الفشل على الناس، ومن يعرف يمنعه الخوف من أجهزة الدوله الشرطية من الحديث لأن الحاكم يريد أن يبدو أمام الناس كأنه نبى معصوم من الخطأ . وعندما ينكشف المستور بموت الحاكم أو خروجه ستسمعين مايشيب له الولدان من ضياع أموال الشعب فى مشروعات هى والفشل صنوان لانها لم توضع بدءاً تحت مجهر التخطيط العلمى السليم .

كثيرا مايحولون علينا فى الجامعة أو مراكز الابحاث مشروعات أقاموها وطنطنوا لها فى الصحف والاذاعة، حتى زرعوا فى اذهان الناس أن فيها خلاصهم من الفقر، لكنها لإهمال تطبيق الدراسة العلمية الجادة عليها عند الانشاء تتحول الى مجلبة لفقر الشعب . والحاكم لايريد ان يعترف بالفشل فى شئ حتى لاتهتز صورة النبى المعصوم التى رسمها لنفسه فى اذهان الشعب . يحولون هذه المشروعات لنا لاعادة النظر . لكن هل يصلح العطار ما أفسده الجهل وكبرياء الحاكم الفارغه . ومهما أصلحنا نكون كمن يرقع ثوبا يصرف فى ترقيعه ربما ثمن الثوب ثانيه ولايخرج فى الهيئة الجميلة ابدا . هل عمرك رأيت ثوبا مرقعا كان ذا رواء على لابسه ؟

تمتمت ابنة امبابى :

- بدأت افهم .

ربت على ظهرها وقال:

- انت اختى ومادمت معكما لن اسمح بعبث فيما نحن مقدمون عليه . حتى ولو أدى الأمر لوضعكما فى الفلقه أنتما الاثنين .

قالت ابنة امبابى:

- وعلى ماذا ...قلبك ابيض وكلانا لايهون عليك .

رد:

- الا فى العبث .. آه ... حطى هذا فى دماغك جيدا يابنت امبابى .

قالت مشيحة بيدها:

- طيب ياأخى طيب . وهل أنا عارضت حتى تهددنى!؟

ثم نظرت إلى زوجته وأردفت:

- ردى زوجك الذى يتسقط لى ياأختى .. ايه.. أأحد عارضه أو قال له كم ثلث الثلاثه!!

ردت زوجته:

- قلبك ابيض ... قال إيه ... البنت خايفة من الدكتور أحمد .

ردت ابنة امبابى:

- قولى لى يادكتورة ... فى نفسى سؤال لك أنت وأحمد لكن لاتآخذانى لحساسيتة.

رد أحمد:

- إيه هذا الادب والكمال يابنت إمبابى ؟ اسألى يااختى ... منذ متى وأنت تعملين حسابك معى ؟

ردت:

- أنت هكذا يااجمد .. تجننى وتتندر على. ولما أتكلم أبقى البنت أم لسان طويل!!

قال أحمد:

- طيب اسألى ..ولاحساسية ولاغيره .

قالت:

- أنا لاحظت أن شله الدكاتره لما اجتمعت مع بعض صار دمها ثقيل، الكلام بحساب ...اللفتات بحساب .. كله بحساب لغايه ماكنت أنا أكاد أنفجر من دمكم الثقيل . برغم أنك لا أنت ولا زوجتك ظلكما ثقيلك . ويابا العجوز سكر فى سكر . لم أذن الدم الثقيل.

ردت زوجته:

- أنا أفسر لك .. عودنا البحث العلمى الجدية البالغة حتى غدت تطبعا يغلب طبعنا فمن اللا وعى غالبا مانتصرف إزاء كل شئ مهما هان بحساب وجدية . ويزيد هذا قليلا إذا اجتمعنا معا لأننا حينئذ نشعر من اللاوعى...

قاطعتها ابنة امبابى:

- ثانيه اللاوعى ..من فضلك فسرى اللاوعى .. لأنها لم تدخل رأسى .

قال أحمد:

- أى من العقل الباطن .

درت ابنة امبابى:

- جاء يكحلها... يالحوستك يابنت امبابى لم تفهمى اللاوعى وأحمد يقول لك العقل الباطن .

ردت زوجته:

- أى من غير أن نقصد أو نحس.

قالت ابنة امبابى:

- فهمت وارحتينى الله يريح قلبك بزيارة الحبيب النبى .. وبعد ؟

استأنفت زوجة أحمد قائلة:

- اذا اجتمعنا نشعر من اللاوعى بالتحدى . العلمى فقد يسأل أحدنا الآخر سؤالا علميا لايكون حاضر الذهن للاجابة عليه أو لم يعرف عنه شيئا فيحرج أمام سائله . لذا يكون إزاء زميله طالما هو معه فى حاله تحد غير منظور والمتحدى جاد. والجاد دمه ثقيل.

قال احمد:

- ارتحت يابنت امبابى وتفسر الحلم ؟

قالت:

- بينى وبينك يا أحمد .. كنت سانفجر لكن ربنا ستر .

رد أحمد:

- الحمد الله .. كنا سنحزن من أجلك وتكلفيننا مصروفات المدفن والدفنه لكن .. ماكنت ستكلفيننا ولاغيره .. خطيبك الأول ابن شيخ الترابية . وأنا لم أنس طقوس الدفنه وأنا عمر، ضحكنا. وراح أحمد يحكى لزوجته عن مهنة الترابية التى كان يمتهنها وهو فى غيبوبة مرضه عندما كان عمر، ووجه زوجته ينم عن أسى وأن كانت مبتسمة .

ثم تمتمت:

- الحمد الله ... الله لايعيد هذه الأيام كانت بالغة السواد .. حسبنا الله ونعم الوكيل فيمن أودى بك فيها وأودى بنا فيك.

رد أحمد:

- ولكنها اكسبتنى أخا واختا قلباهما أنقى من اللبن الحليب النازل من الضرع فورا . وأنا واثق أنهما سيكونان لى ردءا ماحييت .

ردت ابنة امبابى:

- انت فى عيوننا ياأخى . لكن رداء هذه لا أفهمها . سائقه عليك الحبيب النبى يااحمد لاتقل كلاما من هذا ثانيه . أو علمونى ياجماعة واخلصوا من جهلى.

انضم الينا من كانوا غافين وأكملنا جولتنا فى باقى الحديقة تتولى الشرح لنا أخت أحمد أحيانا وزوجها فى أحايين أخرى . وكثيرا ما كانا ينسيان نفسيهما فيغرقان فى المصطلحات العلميه الى أن يتدخل أحمد أو زوجته فيبسطان لنا الأمر. عرفنا افكارا بسيطه بتكلفه لاتكاد تذكر تغل فى النهايه ارقاما فلكيه. ماظننت أن ابى حقق مثلها طول حياته الزراعيه، وماتخيلت يوما ان الزراعه يمكن ان تغلها . عدنا فسمرنا فى شرفة الفيللا وماكان أحمد يجد غضاضه فى أن ينزع البسمة بنوادره مع ابنة امبابى وكثيرا ماحمل هذه النوادر وجها آخر لتغرق بهم فى ضحك هنى .

جاء خادم فسألنا واحد واحدا عما نرغب فى العشاء استغربت هذا الى ان مال أحمد على انا وابنة امبابى يفسر لنا هذا بأن رغبات الناس تختلف فى وجبه العشاء، منهم من يريدها دسمة ومنهم من يريدها خفيفه ومنهم من يعزف عنها مطلقا فتوجب لهذا على المضيف ان يستشير ضيوفه فيها، تولى احمد عنى انا وابنة امبابى مطلبنا ولما نزلنا الى حجرة الطعام وجد كل ما طلب أمام كرسى معين .

عقب العشاء سمرنا على أنغام ابنة امبابى وغنائها التى سيطر على الافئدة حتى تقدم الليل فعدنا الى فيللا والد أحمد .

فى الصباح قال لنا والد أحمد ونحن نتناول افطارنا.

- انت مقبوض عليك هناحتى ينتهى امتحانك وخطيبتك معك حتى لا تقلق عليها:

عبثا حاولنا اقناعه بغير ذلك . نركنا نقول ونقول ثم قال:

- أنا ابوكما وأرى فى ذلك مصلحتكما، أحمد اخبرنى أن الارض مهدده وقد يتعرض لكما الخصوم بما يعوقك عن اداء الامتحان فيضيع عليك وعلى أحمد الذى ساعدك مجهود سنه كاملة .

وجدت أنه تفكير معقول لكنى استثقلت أن ألقى بظلى فترة الامتحان على غرباء مهما كانوا احبه فقلت :

- اذن ... اقضيها بمنزل عمتى .

- ولاحتى عند عمتك الذى قد يهيئ لك الامن لكن لن يهيئ لك العلم . أما نحن فيمكننا تدبير كل ذلك لك . ثم لماذا هذه الحساسية .. ايتعامل معكم احمد بشئ من التكلف

حتى بعد ان عاد لنفسه . لا اظن. فلاتكن سخيفا فى حساسيتك .

ثم نظر إلى احمد وقال:

– تول عنهما كل شئ فى الأرض

وقدمت له أمه ورقة وقالت:

– قبل ان تذهب الى عملك اشتر هذه الكتب واصحب معك خادما يعود بها الينا..

اصرت ابنه امبابى على الخروج مع احمد لتخبر عمالها بنفسها بغيبتنا لفترة ولتحضر لنا بعض مالا غنى عنه من ملابس وغيرها على ان تعود معه آخر النهار.

همست فى أذن ابنة امبابى قبل ان تخرج بان تحضر معها ماتستطيع من لحوم على الأقل حتى لانثقل على الناس. قالت:

– كنت سافعل.

استلمتنى أم احمد فافردت لى حجرة لاراجع فيها تداولتنى هى والعجوز فيما يشبه الاختبار فى مختلف المواد . حتى عاد أحمد وابنه امبابى قرابه العصر وجلسنا كلنا لتناول غداءنا، وراح احمد يخبر امه بما احضرته ابنه امبابى من ذبيحة كامله، وجهت ام احمد وابوه عتابهما لها . إلا انها بررت بأنها مااحضرت مااحضرت للكبار وانما من اجل اولاد اخيها احمد . زايلتنى الحاسية كثيرا بعدما سمعت هذا وأقبلت على الطعام بشهية . الا ان أم احمد حذرتنى حتى لا يثقل رأسى فلا أستطيع المراجعة فردت عليها ابنه امبابى قائلة:

– يااختى عليك ياماما الحاجة .. الولد يضعف .

قالت لها ام احمد:

– وانت يجب ان تخففى من طعامك لانك ممتلئه اكثر من اللازم وهذا خطر على صحتك.

ردت ابنة امبابى:

– لكن انا اعجبه هكذا .

قالت لها زوجة احمد:

– ستكونين اجمل لو كان وزنك اخف قليلا فلاتخشى شيئا.

نظرت لى ابنة امبابى ك وقالت:

– مارأيك؟

قلت:

– انت حبيبتى على أى شكل وبأى لون وفى ايه سمة .

– صفق احمد وقال «الله على الغزل» ونظر الى ابيه وأردف:

– وجدت لك منافسا خطيرا .

رد ابوه:

– أو تريدنا أن نكون مثلك شيوخا . انت رجل تريد الجنة، والجنة أمر غير مضمون، نأخذ مافى اليد افضل .

لكزته زوجته واشارت الى وقالت:

– يارجل كف .. لاتفسد الولد .

ردت ابنه امبابى:

– قلبك ابيض .. هو مفسود خلقه .

قالت ام احمد:

– اذن خذى حذرك.

– ردت ابنه امبابى:

– وراءه وراءه .

امرتنى أم احمد أن اغفوا قليلا بعد الغداء، قبل أن أدخل حجرتى، قصبت ابنه امبابى على بسرعة ما أمرت به اثناء غيبتنا. واخبرتى إنها نزلت الى المدينة القريبة من المزرعة فاحضرت علاوة على الذبيحة كمامن السمك وكثيرا من الفاكهة وإنها أخفت كل ذلك عن احمد إلى أن فوجئ به لما عاد وأمرت بواب الفيلا بحمله إلى المطبخ، وانه غضب ولامها لكنه كان امام امر واقع، أظهرت لها رضائى، فابتسمت وتركتنى لأرتاح.

ايقظتنى أم أحمد بعد ساعه، ولما تهيأت للمراجعة جلست قبالتى وقالت:

– بان لى صباحا أن مستوى تحصيلك فوق المتوسط ويمكن فى هذا الأسبوع الباقى ان نرتفع به عن ذلك إذا ساعدتنى، التزم بما أطلبه منك أضمن نجاحك بتفوق، وضعت لك جدولا للمذاكرة وسأرقب انا والعجوز تنفيذه من جانبك.

وقدمت لى جدولا زمنيا لمراجعة كل علم لاحظت ان فترة المساء خاليه سألتها فأجابت:

– ستكون لتدريبك على حل الاختبارات حتى اذا مادخلت الامتحان لم يكن مجهولا فيكون غولا مخيفا . وإنما يغدو شيئا الفته وستجد أنك حللت اثناء التدريب مسائل مشابهة أن لم تكن هى بعينها التى أمامك فى ورقة الاسئلة، وتتعود يدك و عينك وذاكرتك على الإجابة الصحيحة السريعة فى أن معاً، واذا صادفتنا نقاط ضعف

نعالجها . ستظل كذلك إلى منتصف الاسبوع اما باقيه فيكون كل وقتك تدريبا . ذلك ما اتبعته مع أولادى وقد غدوت منهم . ولن تقل سعادتى بتفوقك عن سعادتى بهم لماتفوقوا . لا تنشغل بحبك عما هو مستقبلك ولا تغضب لأنى امنع حبك عنك الا فى أوقات الطعام أو الشاى . هيا ابدأ.

لما خرجت وجدتنى أتمتم مشيعا لها «ياك من حكمدار».

مر الاسبوع بطيئا فى أوله سريعا فى آخره وأنا دوله بين أم أحمد وأبيه وزوجته وهو. كانت ابنه امبابى أحرص على مصلحتى من نفسى فالتزمت إلى أن كان أول أيام الامتحان صباحا اعترتنى رهبة شديدة ويبدو أن أم أحمد لاحظت ذلك. فقالت لى وأنا خارج.

– قد عربتك بروية. وستطمئن اليوم إلى أن ما أديناه معا كان مفيدا.

صدق حدسها وأجبت بسلاسة وثقة وخرجت سعيدا، أحببت أن أطمئن أكثر فدخلت على أم أحمد أعرض إجابى. رفضت، وظل هذا حالى أيام الامتحان حتى انتهيت وعدت آخر يوم ليقول لى العجوز.

– ستنجح وستحصل على أكثر من سبعين فى المائة.

قلت:

– يا ليت يادكتور.

وجدت بى رغبة فى النوم فانسللت إلى حجرتى ولم أشعر إلا والدنيا مظلمة وابنة امبابى توقظنى وتقول لى:

– إية .. قم.. كفى نوما.. قم فقد أوحشتنى من يوم أن قدمنا إلى هنا، ما رأيك لو عزمنا هؤلاء الناس الكرماء على حفل موسيقى فى قاعة الموسيقى القريبة من هنا.

– والله فكره.. وحتى أغتسل أنا أيضا من هم الامتحان الثقيل.

أجابوا دعوتنا فقضيا وقتا ماتعا ذبت فيه شيئا فشيئا حتى انمعت بين النغمات ولم أعد أشعر بمخلوق من حولى.. لما عدنا إلى بيتهم بقينا معهم قرابة ساعة كنت عازفا عن الحديث وأستاذنهم فدلفت إلى فراشى وعمت فى نيل قريتنا حتى الصباح.

* * *

ولم يفت ابنه ابنة امبابى أن تشترى هدايا من الطريق لحراسها.. وأن تبتاع لنا لوازمنا.. ولما استقمنا على الطريق أخذ أحمد يحدثنى بما كان فى الأرض أثناء غيبتى. أخبرنى أن مقاول الدق انتهى تماما وأنه جرب عطاء المواسير يوما كاملا بآله اقترضها

من المقاول . وأنها أعطت معدلا معقولا من المياه. سيتزايد مع استعمال الآبار، وأنه حاسبه وتقاضى منه باقى ثمن المواسير وسلمه لوزير الخزانة.. وأخبرنى أيضا أن حبس والده كان فى محله، إذ حضر الاعراب فى منتصف أسبوع الامتحان كما أخبره حارسنا الأول. وأخبرهم الحراس أنكم غير متواجدين منذ أكثر من أسبوع فرحلوا.
ثم توجه إلى ابنة امبابى وقال:

– وأنت من غد مهتمك تخليص موضوع أرضى إذ قد ذهبت إلى الإدارة التى قدمت لها طلب الشراء أكثر من مرة وعدت حتى بغير خفى حنين.

وتشعب بنا الحديث حول إقامتنا عنده وزيارتنا لأخته. وإلى أمه ذلك الحكمدار الرهيب: لما سمع لقب الحكمدار ضحك. وقال:

– مالاتعلمانه أننا أطلقنا عليها هذه الصفه ونحن صغار أنا وأختى وظلت لصيقه بها إلى يومنا هذا، إنها مزيج من الحنان الغامر والحسم المطلق.. قل أن يوجد فى سيدة. إذ السيدات حنانهن يغلب حسمهن وما يتعب زوجتى مع أولادها ـ وهى أكثر تعليما من أمى ـ أن حنانها غالب. وهذا الأمر يتعبنى معهم لأنها تفسد ما أحاول ترويضهم عليه من استقامه. وأغلب خلافاتى وشجارى معها ينبع من تلك النقطة ثم وجه حديثه إلى ابنة امبابى وقال:

– لعلك أخذت عن أمى شيئا من حسمها فذلك ربح حبك مستقبلا ويقلل شجارك معه.

ردت:

– اذكر النبى.. ولا تفول علينا.. أنا لن أتشاجر معه مطلقا هذا عهد قطعته على نفسى.

رد:

– على رأى. المثل «المياه تكذب الغطاس.. وبكره نقعد على....»

قالت:

– لقد تعلمت ـ فعلا ـ من زوجتك وأمك الكثير ومن عمى الدكتور العجوز أكثر وأكثر. ربنا يخليكم لنا يا أخى ولا يحرمنا منكم أبدا.

أنزلنا أحمد فى الأرض وانطلق إلى عمله عند المقاول. وأخبرنا انه سيعود الينا وهو فى طريقة إلى منزلة ليعرض علينا خطة العمل المستقبل فى الأرض والمصنع بعد أن تبلورت تماما بمناقشتها مع كثير من الأساتذة المتخصصين من زملائة وزملاء أسرته كلها. استقبلنا حراسنا بترحاب بالغ وتلقوا هداياهم وراحوا يحدثوننا عما كان فى غيبتنا مما أخبرنا به أحمد.

لما خلونا إلى أنفسنا أنا وابنة امبابى استقر رأينا على أن ندع للدكتور أحمد القيادة فى كل شئ وأن أتولى أنا التنفيذ. وأن تتفرغ هى لتجارتها مع شئ من المساعدة لى فيما لواحتجتها.

ذهبت لبعض شأنها وتركتنى وحيدا.. فانتفضت أمامى أسرتى وأسرة عمتى فجأة وألحت الاسرتان على مخيلتى حتى لكأن ملامح أفرادهما تتراءى أمامى، كنت أبتسم لصوره أمى حين دخلت على ابنه امبابى . فسألتنى:

– خيرا أشركنى فى ابتسامتك.

لم أشأ أن أقول ابتسم صورة أمى حتى لاتظن بى الطفولة.. فقلت:

– تذكرت بعض نوادرك مع عمر فضحكت.

وهممت بأن أعرض عليها أن نذهب إلى أسرتينا الليله فإذا بها تسبقنى قائلة:

– ينتابنى الشوق جدا إلى أمى وإخوتى، فما رأيك لو قضينا معهم بضعة أيام أنت مع عمتك أو إذا شئت أن تسافر إلى قريتك فترى ناسك، وأنا مع أمى وإخوتى؟ ثم نعود لنستأنف نشاطنا.

– والله فكرة، بعدما يعود أحمد ننفذ.

نادت رجلها الأول وطلبت إليه أن يخرج فيشترى ثلاث ذبائح . دهشت ولما ذهب سألتها.

– ماهذا التبذير أتقيمين عرسا؟

– ياليت بشرط أن يكون عليك.

لم أتمالك أن اختطفت قبله. وضعت يدها مكانها وقالت:

– أوحشتنى قبلاتك أقول لك شيئا ولا تسمنى بالجنون.

أومأت برأسى موافقا فتابعت.

– لما كنا فى بيت أسرة أحمد كانت تلح على فكرة تقبيلك أمامهم.. ولم يمسكنى عنها سوى الخجل.

ثم صمتت وتابعت:

– الذبائح ياحبى، لأنه لا يصح أن نعود إلى أسرتينا بيد فارغة بعد كل هذه الغيبة.

قلت:

– تكفى واحدة.

– لا تنس أن عمك أمبابى ذو قبيلة من الأولاد وأولاد الأولاد. فلن يكفيه واحدة، وأنت

امبابى أن نعود فنقضى أياما مع نوينا كى أقدم خلالها أوراق التحاقى بالجامعة. وافقت امتطينا عربتنا وقبل أن نتحرك قدم أبناء عمومتنا وأحاطوا بنا وطلبوا منا أن نرسل كسوة لذويهم. قدموا نقوداً رفضتها. لما أصروا قلت بغضب:

– عيب.. وقدم لى ابن عمى الكبير كشفا بتقاوى الخضراوات وطلب أن أشتريها من البادرجية ليزرعها.

انطلقنا . فأنزلتنى ابنة امبابى أمام حارة الخواص لما رأت إصرارى. كانت العشاء تؤذن فاتجهت إلى مسجد الخواص وصليتها جماعة عقبها قبلنى الشيخ محمد وشيخ المسجد وسألنى عن أحوالى حتى اطمأن ودعا لى بخير وعرض على ونحن خارجين أن أصحبه إلى حضرة تقام فى منزل أحد معارفه تعقبها عقيقة. صحبته وسار معنا الشيخ يجاورنى دسست يدى فى جيبى وغمزته بعشرين جنيها تمنع فزجره الشيخ فوضعها فى جيبه ولسانه يلهج بالدعاء.

سهرنا فى حلقة الذكر وانمعت فيه تماماً حتى شعرت أنى أخف من ريشة فى مهب الريح. لما وضعت العقيقة أمامنا لم أشأ أن أخرج من سعادتى بتلك الخفة فانسللت لواذا، مسيت على عمتى وقبلتها وكمنت فى حجرتى حتى الصباح مستيقظا يلهج لسانى بذكر الله. سمعت منادى الفجر يقول: الصلاة يامؤمنين الصلاة. قمت ومازلت فى حالة الشفافية هذه فجددت وضوئى وخرجت أسير حتى مسجد الحسين أذكر الله مع كل خطوة ولما دخلت المسجد أخذت أقرأ القرآن إلى أن أذن الفجر فصليته وواصلت قراءتى حتى غمرت أشعة الشمس الذهبية وجه البسيطة خرجت ومازالت نفسى تعاف الطعام، مشيت حتى مقهى عمى امبابى فحييته وجلست بجواره صامتا. استغرب. سألنى عما بى نفيت أن هناك شيئا. احترم صمتى الذى أجبرت على الخروج منه بتحايا القادمين ومجاذبتهم لى أطراف أحاديث، كان لابد أن أجيب عليها وإلا اتهمت بالكبرياء ظلما. ظللت مع عمى امبابى حتى سمعت أذان الظهر فاتجهت بصحبته إلى مسجد البيومى القريب فصلينا وعدنا إلى المقهى. لنتناول أكلة شعبية جماعية أخرجتنى تماما من حالة الشفافية. هممت بعدها بالانصراف . إلا أن عمى امبابى استبقانى وقال:

– ستصحبنى إلى فرح دعيت إليه بالقلعة. عاودت الجلوس. أتلهى بالحديث مع مجاورة هذا أو ذاك فلما كان المغرب طلب إلى أن أحضر عربتى التى غصت بصحب عمى امبابى. أخذ عمى امبابى يوجهنى إلى الطريق حتى وصلنا. قوبلت بحفاوة من شباب لا أعرفهم. أخذوا يذكروننى بأنفسهم ويؤكدون أنهم لاعبونى العصا فى حفل عمى امبابى السنوى.

تبين لى أن العريس هو بطل اللعبة فى حى القلعة افتتح الحفل برقصة منه شاركه فيها شباب كثير على صوت الطبل البلدى. فلما انتهت الرقصة ألقى لى العريس بشومة متحدياً تلقفتها فمال عمى امبابى علىّ وقال:

– لا تهزمه فتنكد عليه صفو ليلته. وقف عمى امبابى وقال بصوت جهير:

– نفتتح اللعب بمباراة بيَن بطل حى القلعة عريسنا ربنا يتمم عليه بخير وبين بطل

عشر ألف جنيه ثمن ما باع تركتها. وقمت فأخذت حماما نشطنى ووضعت ابنة امبابى الطعام و قالت:

ـ نأكل معاً لأنى أنتظرك.

أكلنا وشربنا معاً شايا. وطلبت إليها أن تحضر النقود وتأتى معى إلى حيث يوجد الرجال.

قالت ونحن سائرين:

ـ كيف ستقسمها؟

ـ بالتساوى بين التسعة.

ـ ونحن.

ـ حد الله ما يصيبنا منها شئ.

ـ ولم لا تجعل لنا نصيبا. نخص به بعد ذلك أبناء عمومتك فهم منا ولنا. وما عندهم عندنا.

استوجهت الفكرة فوافقت عليها.

دخلنا على الرجال فى مكمن حارسنا الأول متحلقين حول الجوزة وبراد الشاى قلت للحارس الذى كان مسافراً:

ـ ظننت أنى سأزورك فى ليمان أبى زعبل.

رد زميله ضاحكا:

ـ وتأخذ له طبعا عيشا وحلاوة.

ـ لا.. لا.. هذا لا يليق بمقامه. قل عيشا وأعرابيا.

ـ العيش معقول. أما الأعرابى فماذا أهبب به؟

قالت:

ـ تتأبد فيه ولا تخرج أبدا إلا على القرافة.

ـ وعلى ماذا يابيه. ما ينوبك من هذا إلا تربية أولادى. والسؤال عن امرأتى.

ـ وكيف حالها؟

ـ ظلت طوال الليلة الماضية تدعو لك.

ضج الرجال بالضحك. وفهمت ابنة امبابى ما يلمح إليه فتورد وجهها خجلا. فقلت:

ـ وكم دكنت لنفسك من ثمن البضاعة؟

ـ أهكذا يا سعادة البيه؟ أخون العيش والملح.. اسأل على عمى امبابى ياسعادة البيه.. أنا رجل أمين.

ـ أنتم تسعة وأنا وابنة امبابى نكون أحد عشر. كل يصيبه ألف ومائة وثمانون جنيها وتبقى عشرون. نشترى بها لحوما للكلاب.

وبدأت أفرق عليهم النقود. ما إن تسلموها حتى تحول المكمن وما أمامه إلى ساحة رقص.

● ● ●

لم يكن هناك مانفعله أو نرقب فعله سواء عندنا أو عند أحمد. اقترحت على ابنة

الكلب وأمره بالبحث فانطلق وهم خلفه إلى الخارج.
ظللت حيث أنا. فأطلت ابنة امبابى برأسها. وقالت:
ـ جدع ياولد كيلت لهم مضبوطاً.
وقال ابن عمى:
ـ كنت متكيفا منك آخر كيف. لكن لماذا تغرر بهم وأنت تعلم أنهم لن يعثروا على شئ؟
ـ غرر بغرر والبادئ أظلم؟
عادوا والكلب يمسك بفمه القماشة التى كان بها الحشيش.
سألتهم:
ـ أعثرتم على شئ؟
رد الصبى:
ـ نعم.. على هذه الخرقة فقط.
قلت:
ـ ربما عثرت عليها أعرابية من اللاتى يمررن بعنزاتهن صباحا وأخذتها.
ابتسم الاعراب حين سمعوا هذا التعليق وكأنما أيقنوا بعثورهم على مبتغاهم وسلموا وذهبوا. ظللت مستوفزا. عقب خروجهم أثناء سيرى وابنة امبابى إلى استراحتى وحتى عقب استقرارنا اقترحت أن نخرج إلى المدينة القريبة لأغير جو التوتر.. ما كانت بى رغبة فلم أرد عليها..
استلقيت على فراشى محاولا أن أستهدئ طلبت إليها أن تدير لنا موسيقى. ظللت أحاول الاستغراق حوالى ساعة لم أشعر بعدها إلا وهى توقظنى قائلة:
ـ قم ياخم النوم فالغروب على الأبواب.
قفزت لألحق بصلاة العصر حاضرة وضعت أمامى طعاماً ولما رأت عزوفى عنه أصرت على أن آكل لأنى لم آكل شيئا فى يومى هذا.
خرجت إلى أولاد عمى أخبرنى أولهم أنهم انتهوا من زراعة أرض أحمد ولم يبق إلا الرى. لما دخل الليل حملت سلاحى وخرجت لأكون فى الحراسة الخارجية بعد أن طلبت من حارسنا الأول أن يرقب مزرعتنا أيضا من مكمنه العالى، عبثا حاول أبناء عمى إثنائى عما اعتزمت قالوا إنهم سيتناوبون الحراسة والرى أصررت على موقفى شفقة بهم. إذ كيف يواصلون السهر بعد عمل شاق طول النهار؟ جلست فى طرف أرض أحمد البعيد وحوالى الكلبان اللذان صارا يأتمران بأمرى. صرفت صبى الكلاب إلى داخل أرضنا. وطلبت إليه أن يحرس ابنة امبابى بالكلبين الآخرين.
مرت الليلة هادئة تماماً. ولم أدخل إلى أرضنا إلا بعد أن غمرت الشمس الكون. كنت أحس بخدر النوم يلف كيانى. فاتجهت فوراً إلى استراحتى واستغرقت. أيقظتنى ابنة امبابى قرب العصر سألت:
ـ أحضر الحارس الذى سافر؟ أجابت بالإيجاب ناديت صبى الكلاب فاستدعاه. حضر مبتسما يحمل فى يده لفافة وضعها أمامى ما إن فتحها حتى فوجئت بثلاثة

ـ أنتم لا أمان لكم ولا عهد ولا كلمة.
ـ جربنا.
ـ بشرط.
ـ شرطك مقبول.
ـ ألا تعترضوا أحدا من قبلى حتى لو اشترينا من الحكومة ـ سامع ياشيخ ـ من الحكومة الحكومة كل الصحراء.
ـ لك هذا.
ـ إذن اتصل بالمأمور ليرتب جلسة الصلح.
لم أكن أنوى تقديم تحية لهم.. فلما وصلنا إلى هذا غيرت رأيى قلت لابن عمى الذى كان واقفا هو وحارسنا الأول يسمعان ما يدور:
ـ أين الشاى؟
قال الحارس:
ـ حالا.
أخذوا يتحدثون حول الخضرة التى عمت الأرض وأى نوع زرعنا وكم تكلف. إلى أن أتى الحارس بالشاى وقدمه فجعلوا يرتشفونه.. ثم نظر إلى كبيرهم وقال:
ـ بقيت نقطة.
ـ أية نقطة.
ـ كان مع ابننا أمس بعض البضاعة وقد فقدها لما هاجمته الكلاب.
ـ الصحراء أمامكم ابحثوها شبرا شبرا عن بضاعتكم.
ـ قد يكون أحد رجالك عثر عليها فأخذها وهى بأكثر من عشرة آلاف.
ـ لو كان أحد رجالىّ عثر عليها لأتانى بها. كما أتى بهديتكم السابقة التى ألقيتمُ بها من فوق السور.
ـ وماذا صنعت بها؟
ـ أحرقتها لتتكيف العقارب والثعابين.
ـ ألا تسأل رجالك عما كان مع ابننا أمس.
ـ اثنان منهم أمامكم ويسمعان وتطلعت إلى ابن عمى والحارس وأردفت:
ـ هل وجد أحد شيئا؟
ردا معا بالنفى.
قلت للأعراب:
ـ أسمعتم.. ومع ذلك عندى كلب مدرب على البحث عن المخدرات سنحضره الآن ليعاونكم فى البحث.
وطلبت إلى الحارس أن ينادى صبى الكلاب ومعه كلب المخدرات.. ذهب وعاد به طلبت إليه أن يعاون الاعراب بكلبه فى البحث عن بضاعتهم. نظر إلى بخبث وقال:
ـ حاضر..
ثم سألهم إن كان معهم قطعة من الصنف . فناوله أحدهم قطعة قربها من أنف

أحسست بخدر لسهرى طول الليل نمت على الأرض حيث أنا بجوار ابنة امبابى استغرقت فوراً.

قرابة الظهر سمعت ابن عم لى يقول لابنة امبابى:

ـ ألا نوقظه ليتصرف مع أولاد الكلب هؤلاء الذين لهم ساعتان بالخارج؟

فتحت عينى وسألته:

ـ من؟

ـ الأعراب. ثلاثة منهم بالخارج يريدون مقابلتك.

ـ أدخلهم.

وطلبت إلى ابنة امبابى أن تدخل الاستراحة ولا ترسل لهم شايا.

وقفت قبل دخولهم حتى لا أشعرهم باحترامى لهم عندما يدخلون قدموا ومدوا أيديهم فسلمت بأطراف أصابعى. أجلستهم على الأرض.

وقلت:

ـ خيرا.

قال كبيرهم:

ـ خيرا.. ياسعاده الأستاذ جئنا معاتبين.

قلت بجفاء:

ـ على ماذا؟

ـ على أمرين أننا مددنا أيدينا بصلح فلم تعبأ به. ثم ماحدث الليلة.

ـ صلح.. أى صلح؟ صلح الذئب على الغنم.. ولما هو صلح.. مامعنى رسالتكم لى مع المقاول؟

ـ الدكتور أحمد الذى اشترى الأرض بجوارك رجل غريب عنك.. ما شأنك به؟ ولماذا تعترض أرزاقنا؟!

ـ ومن أين أتاكم أنه غريب. وحتى لو كان غريبا فقد غدا جارى. وأنا إنسان مسلم يعرف حقوق الجيرة.. هل أنتم مسلمون؟

ـ الحمد لله.

ـ عال.. مارأيكم فى قول القرآن «والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل».

قال بخبث:

ـ معك حق.

ـ اسمع ياشيخ.. الدكتور أحمد أستاذى وأخى وتربينا معاً وما يصيبه يصيبنى وأفديه بنفسى. فإن أردتم أن تصلوا إليه فعلى جثتى أولاً.. لقد أطلقت سراح ابنكم هذه المرة وكان يمكننى أن أسلمه للشرطة فيشرف السجن بضع سنين لكنى التمست له عذرا لما أخبرنى أنه كان خائفا واقترب ليأنس بصوت ماكينة الرى. لكن قسما بجلال الله من يقترب دون إذن ثانية لأسكننه بطن الأرض. أسمعت؟

ـ سمعت يا أستاذ.. وما رأيك فى الصلح؟!.

وسط اعتراض أبناء عمومتى وأشرت له على الباب فقفز نحوه.. قلت له:
– إذا وقعت ثانية فلن أتركك إلا إلى القبر.
أطلق الحارس فوق رأسه بضع طلقات فجرى يسقط ويقوم حتى ابتعد.. تماماً.
قلت للحارس.
– أين بضاعة الأعرابى.
– ياسعادة البيه دعها لنا.
– أعدكم. لكنى أريد أن أراها فقط. خرج وعاد بأربعة أكياس من الحشيش.
– وماذا ستفعل بها؟
– أبيعها وآتيك بثمنها لتفرقه علينا.
– إذن اذهب بها الآن.. وإذا قبض عليك فنحن لا رأيناك ولا نعرفك.
جرى بها إلى مكمنه وعاد وقد ارتدى ملابسه دون شئ فى يده.
قلت له:
– حذار ان تكون قد تركتها فى المكمن. ربت على بطنه وابتسم ففهمت.
قلت له:
– لا تتأخر عن الغروب.
– لو منحتنى إجازة أرى فيها أولادى هذه الليلة. وسأعطى من يحل محلى عشرة جنيهات.
رد أحد أبناء عمومتى.
– عشرة أيام إجازة ياولد بمائة جنيه بالسلامة.

● ● ●

اتجهنا إلى استراحة ابناء عمومتى القريبة. كانت الأرض مخضرة كلها. ولم نكن قد لاحظنا ذلك لانشغالنا بأمر الأعرابى. نبهنا أحد أبناء عمومتى إلى ذلك أنا وابنة امبابى وهو متسع الأشداق قالت ابنة امبابى وهى تنظر إلى الأرض الخضراء كأنها تحتضنها بعيونها:
– آه... الحمد لله... الحمد لله وجرت ترقص فى الأرض وشدتنى لأرقص معها.. على حين دهش أبناء عمومتى. فشدتهم واحدا واحدا تأمرهم بالرقص.
قامت حلبة رقص كله نشاز حتى تعبنا فتساقطنا واحدا إثر آخر على الأرض إلا ابنة امبابى التى جرت إلى استراحتها رقصا وعادت رقصا وقد أمسكت فى يدها كما من الأوراق المالية فوزعتها على أبناء عمومتى ورجالنا الآخرين بواقع عشرة جنيهات لكل.
أصرت ابنة امبابى على الجلوس أمام باب الاستراحة تحلقنا من حولها نتناول إفطارنا من خبز أبناء عمومتى وشايهم.
قام الرجال إلى عملهم بعد أن حضر الصبية. وطلبت إلى ابنة امبابى أن نعود إلى أسرتينا. أشارت إلى الزرع وقالت.
– هذه أسرتى الجديدة. لن أبرحها أبداً.
– ياولد.. ماكنت أعرف أن للزرع مثل هذا الوقع على النفس.

وجدته ممسكا بأعرابى مسلح على بعد وصوت الحارس يصيح به:
اثبت وإلا حولتك إلى شبكة. وسرعان ما أطبق عليه الكلبان فشلا حركته بعد أن حاول إطلاق الرصاص عليهما إلا أنه لم يفلح فى إصابتهما لإعشاء الضوء لبصره. أطبق عليه الحارس فوضع السلاح فى ظهره ومد يده فانتزع سلاحه وتقدم ابن عمى الذى كانت عليه نوبة الرى فى الخارج فربطه بأطراف ثوبه وتركه فى حراسة الكلبين واستأنف نشاطه فى الرى وهو يسب ويلعن بكل مافى قاموس الشتائم. ولما انتهت نوبته وسلم من يليه من أبناء عمومتى. أخذ سلاح الأعرابى من الحارس وساقه به ودخل إلى الأرض.

ظلت أعصابى متوترة حتى هل الصباح فنزلت لأجد ابنة امبابى أمام استراحتها تسألنى عما حدث . أخبرتها فمشت معى نحوه يبدو أن ابن عمى كان قد كال له لكمات كثيرة غيرت من ملامحه وكان الرعب يأكل البقية الباقية منها.

تحلق من حولى وحول أبناء عمومتى والحارسين والسائقين. أمرت صبى الكلاب بأن يبعدها سحبها وذهب بها إلى مأواها. أمرت حارساً بتفتيشه. قال:

ــ فتشته حين قبضت عليه بالخارج لم أجد إلا هذه ولفافة صغيرة . وقدم لى خنجرا سألته: وأين اللفافة؟ قال: كانت بجواره إلى أن دخل به ابن عمك. فعبثت بها الكلاب وتنازعتها فيما بينها وجرت إلى الصحراء تلعب بها.

لم يدخل فى رأسى هذاالقول. إلا أنى لم أبد اعتراضاً وقلت فى نفسى لابد أن هناك هدفاً لقوله هذا.

سألت الأعرابى عن اسمه. لم يرد. سألت عما أتى به لم يرد. نالته على الفور ضربة بكل ثقل رجل أحد أولاد عمى فمالت به وجعلته يتأوه بشدة وعاجلته أخرى عدلته أمسكت ابن عمى عنه. وقلت له:

ــ من الأفضل أن تتكلم. صمتك لا يمنعنى عنك. لو شئت لدفنتك حيث أنت ولن تقوم لك قضية لأن أحدا لا يشهد بأن رآك عندنا.

رد:

ــ كنت ذاهبا فى تجارة.

ــ أية تجارة؟

ــ تجارة وخلاص . لم أكن أقصدكم. وإنما اقتربت لأنس بصوت الماكينة.

رد أحد ابناء عمومتى.

ــ سبع ليل ومعك نصف آلى. وتخاف. قل كلاما غير هذا يا ابن الـ........

قال:

ــ قلت الحق.

سحبتنى ابنة امبابى من يدى وشاورتنى وجدنا أن مصلحتنا فى إطلاق سراحه فيخبر أقاربه بيقظتنا فلا يقتربون. كنت أميل إلى تسليمه للشرطة فيحاكم على الأقل بحوزة سلاح ممنوع حمله. إلا أنها ظلت بى إلى أن أقنعتنى برأيها.

عدت إليه وأمرت بفك وثاقه وسلمته سلاحه دون ذخيرة.

على العدد الكثير معللا بأن توجيههم ومراقبتهم أثناء الزرع لن تكون تامة مع كثرة عددهم وحدد أقصى عدد بستين بحيث يراقب كل واحد منهم خمسة عشر صبيا.

أغلق الحارس الباب وأطلق المدرب كلابه التى غدت تألفنا ولا تحاول مهاجمتنا لا أنا ولا أبناءعمومتى.

دعوت أبناء عمومتى للسهر معنا جاءوا فتناولوا عشاءهم معنا وأضحكونا بعفويتهم حتى كانت ابنة امبابى تمسك بطنها من شدة الضحك وتتركها لتمسك يدا أو رجلا لتثبيتها عن الاهتزاز أثناء ضحكها. تركتها بعد انصرافهم عندما تأهبت لحمامها الدافئ ودهان جسدها صليت العشاء، وكانت بى يقظة قضيتها فى تلاوة القرآن وبعض الأذكار. وأسلمت وجهى لله ونمت.

فى الصباح كانت ابنة امبابى قد برأت تماماً عندما قدمت هى الشاى قلت:

ـ ربنا ياحبى مايحرمنا من يديك الحلوة.. بدونك أكون كاليتيم الذى لا يجد صدراً حنوناً ابتسمت وقالت:

ـ حتى تعرف قيمتى.

ـ أعرفها والله العظيم وأقر وأعترف أنها ملء قلبى.. لا.. بل كيانى كله.

ازداد شدقاها سعة وسألتنى:

ـ ماهو المطلوب منا اليوم؟

قلت تركيب الكشاف وشراء بعض الأحبال لنعلق فيها مايخيف العصافير فقد لاحظت أمس أنها بدأت تغزو ما وضع فى الأرض من حب.

قالت: بدهشة:

ـ عصافير أنا لم أرها مطلقا هنا من قبل من أنبأها بأن عندنا لها غذاء.

ـ سبحان الملهم.

ـ ونعم بالله .. شئ بسيط لكنه يدفع الجاحد للإيمان به سبحانه.

انتظرنا حتى دارت عجلة العمل فى أرض أحمد وخرجنا إلى المدينة القريبة اشترينا مبتغانا من أدوات الكهرباء وأحضرنا معنا من يقوم بالتركيب وعدنا فشغلنا بالفرجة عليه وهو يمد أسلاكه ويثبت الكشاف ويجربه. فكرت ابنة امبابى فى العودة إلى أسرتينا. أمهلتها هذه الليلة أيضا لنطمئن على جدوى الفكرة عندما يحين الظلام.

قبيل المغرب تشاورت مع حارسنا الأول عمن يحرس العاملين بالخارج هو أم زميله فأجاب:

ـ نحن معاً.. قلت:

ـ ومن يحرس بالداخل؟ قال: يكفى أنت. طلبت إحداث مجرى أسفل الباب لتمتد منها الخراطيم لأرض أحمد وظللت معهم بالخارج حتى تقدم الليل ثم انتابنى خوف على ابنة امبابى فدخلت وأغلقت الباب واطمأننت عليها وأمرتها بألا تفتح بابها مهما حدث وصعدت فوق إحدى الاستراحات وسلاحى بيدى وكمنت أتطلع إلى الداخل والخارج وأذنى مرهفة لصوت ماكينة الرى الرتيب التى تروى أرضنا وأرض أحمد.

قبيل الفجر سمعت صوت الكلاب فى الخارج تنبح بشدة تطلعت جهة ضوء الكشاف

لم أكن قد صحوت بعد حين أيقظني الحارس. وقال:

ـ بعض الأعراب بالخارج بجمالهم ليستأذنوا فى لم الهيش وحمله من أرض الدكتور أحمد هل تأذن أم أطردهم.

ـ بل آذن . لكن أبق باب الأرض مغلقا ولا تسمح لأحد بالدخول حتى ينصرفوا.

عاد بعد قليل يخبرنى أن أحد سائقينا طلب الخروج بالعربة لإحضار الصبية ومازال الأعراب يعملون بهمة فى جمع الهيش من أرض أحمد. أذنت للسائق على ألا يسمح لأحد بالركوب معه. انتقلت إلى استراحة ابنة امبابى فأيقظتها وقدمت لها الشاى وتبلغت معها بلقيمات وتركتها لتستأنف راحتها وخرجت لأجد السائق قد عاد بالصبية سألت:

ـ أمازال الأعراب يجمعون من أرض أحمد؟.

ـ خبرت أنهم حملوا ماجمعوه ورحلوا مؤكدين أنهم عائدون بعد توصيل ما حملوا.

طلبت إلى واحد فقط من أبناء عمومتى أن يخرج بالصبية إلى أرض أحمد.. وأخرجت معه حارسا أمرته بمنع الأعراب إذا عادوا من الاقتراب حتى ينتهى الأولاد من تكويم الهيش، اعترض ابن عمى وقال:

ـ لا تخشى منهم إلى هذا الحد فإخوتك كفء هم وأكبر منهم. دعهم يساعدوننا. ألا يستفيدون من الهيش طعاما لماشيتهم؟

ـ أخشى أن يمسوا الصبية بسوء.

ـ والله أقطع رقبتهم إيه ألسنا رجالا نحمى من فى حوزتنا؟!

سلمت لابن عمى بما أراد لكنى صعدت فوق استراحة تطل على أرض أحمد أرقب الموقف من ظهرها. بعد حوالى ساعة عاد الأعراب ووجدت بعد فترة أن مخاوفى لا أساس لها. نزلت وجلست فى مكمن حارسنا الأول أحتسى معه الشاى.

عند استراحة الظهر أخبرنى ابن عمى. إن عمل الاعراب أنجز نظافة الأرض وأنه سيقضى بقية اليوم فى الزراعة. لما شعرت بالجوع اتجهت إلى استراحة ابنة امبابى أيقظتها وأحضرت الطعام فأكلنا معا ولم تعاود النوم فجلسنا نتشاور فى حل لمشكلة رى أرض أحمد ليلا. إذ لا آمن على الرجال خارج أسوار أرضنا من غروب الشمس فما بالنا إذا كان هؤلاء الرجال أبناء عمومتى، قالت: نرجئ حتى نكمل الزراعة ثم نكثف الحراسة مساء بالخارج ونروى فى ليال متتابعة. بعد حوار اهتدينا إلى إمكانية تركيب كشافات قوية على مبنى ورشة أحمد يمسح الحارس بأضوائه الأرض بين دقائق وأخرى بحيث يظل من يتولى الرى خارج دائرة الضوء وأن يكمن حارس آخر مع كلبين قريبا منه بحيث إذا نبحت الكلاب يطلقها مدربها ويتابعها كشاف الضوء فلا نفاجأ بما ليس فى الحسبان.

عندما أحسست بقرب انصراف الصبية تركت ابنة امبابى فوجدت أحد ابناء عمومتى متجها إلى ماكينة الرى لإدارتها فأشرت عليه بأن يرجىء حتى الغد وعللت مطلبى بأن المساحة التى زرعت فى نصف نهار لا تستحق السهر. وطلبت من رئيس الصبية مضاعفة عددهم من غد حتى ولو إلى مائة لننتهى بسرعة من الزراعة. اعترض ابن عمى الكبير

ـ اعمل بطعامك اليوم يا أخى مهمتك إعادة رى مازرع أمس لأن الأرض أنكرت المياه بسرعة لكن اجعله ريا خفيفا أشبه بالرش.

أنهيت ما كلفت به من ابن عمى حوالى العاشرة وذهبت أوقظ ابنة امبابى وجدتها أحسن حالا عن أمس قدمت لها الإفطار والشاى ثم طلبت إلى أن أرسل لها صبية الأمس.

قلت لها مداعبا:

ـ وأنا ألا أصلح لتلك المهمة؟

احمر وجهها ووجمت ثم تمتمت.

ـ أنت قبيح ياولد. اخرج وإلا قمت فأكلتك بأسنانى.

تماديت قائلا:

ـ والله كفى أكثر نعومة من كف الصبية. لكن همت بمطاردتى إلا أنها تأوهت وعادت لفراشها بسرعة وهى تتوعدنى.

أرسلت لها الصبية وجلست فى مكمن حارسنا الأول أرقب العمل الذى كاد يتم فى أرضنا أخبرنى الحارس أن الأشباح حامت حول الأرض هذه الليلة واقتربت أكثر. فأيقظ صبى الكلاب وطلب إليه أن يرسل عليها كلبين. فلما شعرت بالكلاب انماعت فى الظلمة ولم تظهر ثانية حتى الصباح.

أمرته ألا يعرض الكلاب للقتل ثانية فقد يطلقون عليها النار. وبينت له أن مهمتها التنبيه لا المطاردة. جاءت الصبية فأخبرتنى أنها قامت بمهمتها وأن ابنة امبابى نامت وتطلب إلى ألا أدعها توغل فى النوم كأمس.

عندما خرج الصبية للاستراحة ظهرا توجهت إلى ابنة امبابى فأيقظتها وتناولت معها الغداء سألتنى عما تم إنجازه. أخبرتها حمدت الله وأردفت عقبى لأرض أحمد. سألتها إن كانت تستطيع الرواح حتى تستكمل برأها فى منزلهم . قالت:

ـ ربما غدا. أم أقول لك سنظل هنا حتى نطمئن على زراعة أرض أحمد.

لم أعارضها فسيان عندى هنا أو هناك مادامت هى معى قضيت معها بقية اليوم نسمع الموسيقى أحيانا ونرغو أحيانا حتى كان المغرب، جاء أبناء عمومتى يعودونها وتعمدوا أن يتندروا على نساء المدن ملمحين إليها ويقارنون بينهن وبين نساء القرية كنا وهى معنا نضحك وكان ضحكها هى مزيجا من الضحك والتأوه. عندما انصرفوا حوالى الحادية عشرة قال ابن عمى الكبير:

ـ أعفيناك من عمل الليلة إكراما للهانم.

وكأنما ذكرنى بهذا القول بالعمل. سألته لم يرو مازرع؟ قال:

ـ سنبدأ من الآن ولا يهم أن نتأخر فى الرى صباحا لأننا أنجزنا الزراعة هنا. وسيقوم بعضنا غدا بنصف الصبية بلم الهيش من أرض أحمد وحرقه ثم نستأنف بعد غد زراعتها بأمر الله.

استطاعت ابنة امبابى أن تكرر حمامها بنفسها وتدهن جسدها قبل أن تنام مما يدل على تقدم صحتها.

ــ ماذا؟

ــ أن أملك عربة كارو.

ابتسمت وسألتها:

ــ ولماذا الكارو؟

ــ لتحملني إلى الحمام. أتعرف ياولد. كنت مغفلة حين لم أسمع كلامك أنت وأولاد عمك. أتعرف ياولد كل جسمي يقرقع في بعضه كالعربة الكارو.

قلت بصوت عال لأزيد من إغاظتها:

ــ عربة كارو قديمة للبيع.

مدت يدها لتلكزني. لكنها لمتها بسرعة وتأوهت. وقالت:

ــ طيب لما أبرأ.. إن ما أريتك.

فناديت ثانية.

ــ ناد كما تحب.. إنك لاتعدو الحقيقة بهذا النداء.. أتعرف ياولد.. أنه يهون على أن أعملها على نفسي ولا أتحرك خطوة.

ــ ربنا يستر.

سندتها حتى باب الحمام ومن باب الحمام حتى الفراش وأجبرتها على التبلغ بلقمة وكوب من الشاى أعطيتها بعده بعض النوفالجين. عرضت عليها أن نذهب إلى طبيب. قالت:

ــ اذهب أنت وصف له الحالة وأسبابها. أما أنا فلا أستطيع ولا حتى حمل ذراعي من مكانها.

انطلقت بالعربة إلى طبيب المدينة المجاورة الذى سبق له علاجها. وصف لى دواء ومراهم طلب أن تدلك به كل جسمها بعد حمام ساخن قدرما تتحمل مع لزوم الراحة إلى أن تشعر بالعافية.

عدت فانتقيت أكبر الصبية من البنات العاملات فى الزرع وأوكلت لها مهمة مساعدتها فى الحمام وفى الدهان. وناولتها الدواء وخرجت إلى أولاد عمى أرقب عملهم ولما خرجت الصبية من عندها عائدة إلينا. قمت لأطمئن عليها. قالت عندما رأتني:

ــ ياساتر البنت كفها خشن كاد يخمش لحمي..

ــ إذن سأجد مستقبلا شيئا ناعماً.

ــ استح ياولد وكف عن مشاغبتي. وإلا ستتلقى وعدك عندما أبرأ.

طلبت أن أمد عليها الغطاء لتنام لأنها تشعر بخدر يسرى فى جسدها كله. فعلت لتستغرق فورا.

قسمت مهمة الرى بينى وبين أبناءعمى فى تلك الليلة أيضا وعرجت عليها قبل أن أنام فوجدتها فى سبات فأحكمت عليها الغطاء وخرجت لأسابقها فى سباتها حتى أول ضوء. وكان صوت ماكينة الرى مازال يتردد.. صليت وخرجت إلى أبناء عمومتى لأجدهم مستوفزين للعمل عهدوا إلى باستكمال الرى لما يحضر الصبية وقال ابن عمى الأول وهو يضحك:

ـ إذن نودعها بحسابه فى البنك ونخبره هاتفيا برقم إيصال الإيدا ع
قبل أن تغلق الخزينة قالت:
ـ خذ ما تشاء.
أنت تكفينى، قبلتنى أصررت على الذهاب إلى منزل عمتى فودعتنى على مضض.

• • •

اتجهنا صباحا إلى البنك ومنه إلى الأرض. كان الصبية منهمكين فى الزراعة تحت إشراف أولاد عمي وقد انتقل الجراران إلى أرض أحمد يثيرانها، أخبرنى حارسنا الأول أن ضابط المباحث أرسل أربع قطع سلاح نصف آلية وكثيرا من طلقات الذخيرةوحذره من هجوم الأعراب.

أصرت ابنة امبابى ان تشارك فى زراعة الأرض. أمسكت بوتد وعلقت كنانة الحب فى رقبتها وراحت طول النهار تسابق الصبية عملهم. عبثا حاولت إفهامها أنها غير متمرسة وأن ظهورها سيؤلمها لطول انحنائها. لما رأى ابن عمى الكبير عبث إلحاحى عليها. همس لى:

ـ لا تتعب نفسك. دعها تجرب حتى تستجيب للنصح مستقبلا ظلت تتشاجع حتى وصلت الى الفراش آخر النهار فاستلقت سطحية، ورحت أبدى شماتة فيها حتى أغيظها. وسرعان مالفها النوم فأغلقت عليها استراحتها وخرجت إلى أولاد عمى. أرتب مع كبيرهم عمل الغد وحملت إحدى عربات النقل الصبية إلى قرية قريبة جلبهم المقاول منها.

قسم أبناء عمي الليل بينهم أرباعاً ليسقوا ما زرع من الأرض. سألت:
ـ ولم فى الليل؟
قالوا:
لأن الأرض صفراء والشمس قاسية لو روينا نهاراً لما شرب الحب إذ ستبخر الشمس المياه.
قلت:
ـ إذن أخماساً وأنا أولكم.

دارت الماكينة وعمل موتور الكيس وأرشدنى ابن عمى الأول أخذت نصيبى أولهم. عدت لأنام ،دخلت لأطمئن على ابنة امبابى وجدتها فى واد آخر. أحكمت عليها الغطاء والباب وسرعان ما نمت على رتابة صوت ماكينة الرى.

لما قمت صباحاً كانت ماتزال نائمة خرجت أرقب العمل وأشرب الشاى مع حارسنا الأول الذى أخبرنى بأن أشباحاً كانت تحوم ليلا من بعيد حول الأرض. ولم يشأ أن يطلق عليها نيرانا لأنها لم تقترب بما يمثل خطورة.

بين ساعة وأخرى كنت أعود لأطمئن على ابنة امبابى فأجدها فى غاية الاستغراق الى أن كان وقت الغداء. أيقظتها لتقوم بصعوبة وهى تشكو من كل عضلات جسمها وأنا أبتسم لأغيظها قالت:
ـ أتعرف ياحبى أمنيتى الآن؟

ليلا، لم لا نجربه نهاراً. كان هادئا وهواؤه منطلقا إلا أن أسطح منازل القاهرة بما عليها من غبار وسقط متاع تجلب الكآبة. ولينا وجهنا عنها لتتناغم نظرات حب غامر أسر كلينا لم نشعر بالوقت حتى حان غروب الشمس كانت الشمس تسقط بسرعة في بحر الظلمات وسط غلالة عقيقية من السحاب القاتم تذكرت موعد الوسيطين نبهتها.

قالت:

ـ ليذهبا إلى الجحيم لن أقوم من مقامي سعيا وراء كل مكاسب الدنيا جلستنا معا في مثل هذا المكان أغلى عندي من كل هذه المكاسب.

ـ على الأقل نحادث من في المنزل حتى لا نلطع خلق الله بلا مبرر.. قامت متضايقة. ثم عادت لتقول:

ـ إنهما بالمنزل ولن ينصرفا حتى نعود إليهما وأختي أخبرتني أن معهما ثالث حملهما في عربته الفارهة التي تسد الحارة يبدو أنه لا فائدة . العمل وراءنا وراءنا فيا قلة هناءتنا. هيا والأمر لله.

عدنا وقد انتابني خدر عجيب جعلني أعزف حتى الكلام سألتني عما بي؟ لما أخبرتها، أنبأتني أنها أكثر من هذا إنها تشعر كأن فروة رأسها غير موجودة. من شدة الخدر وطلبت إلى أن أسوق ببطء وحذر.

دخلنا على الوسيطين . عرفانا بثالثهما فكان التاجر الذي سيشتري . سألته بعد أن رحبت به:

ـ بكم تشتري؟

أراد أحد الوسيطين الرد. منعته ابنة امبابي متعللة بأننا متعبين ونريد كلمة واحدة.

رد التاجر بما لم نكن نحلم به إذ ضاعف سعر الشراء وزاد عليه ثلثه.

ردت عليه.

ـ في الكمية كلها؟

ـ في الكمية ـ أين نقودك وعربتك.

فتح حقيبة كانت معه وقدم لها النقود كاملة. راجعنا بعض الربط في الوقت الذي قام فيه إلى توصيلة التليفون التي بالمندرة وطلب إحدى عرباته النقل التي سرعان ما جاءت وسرعان ماحملت البضاعة ناولت الوسيطين عمولتهما وزادتهما ودفعت لبعض رجال أبيها أجرهم وأعطت التاجر مبايعة بالبضاعة. وذهب مؤكدا علينا أن نتصل به إذا وردت لنا بضاعة مماثلة.

قالت له:

ـ أو أية بضاعة تطلبها وتكون ناقصة من السوق.

دخلت فوزعت ألف جنيه بالتساوي على أمها وأختها وأخيها. وطلبت إليه ألا يخبر أباه بما أخذ حتى لا يغلق عليه صنابير العطاء.

قالت لي وهي تضع أموالها في الخزينة بقي أن نعطي شيخ مهربي الجمرك حقه صباحاً قبل أن نذهب إلى الأرض. مارأيك في أن نذهب الى اسكندرية غداً ولاداعي للأرض فقد نجد عند الرجل بضاعة مناسبة . رأت ألا رغبة لي في السفر فقالت:

ـ لم لم تقبلى عرضهما؟

ـ من أول وهلة لا أصل إلى ما استهدف من سعر. سيظنان أننا متلهفان على البيع أو محتاجان الى نقود فيضغطان لصالح المشترى لأنه الأبقى لهما.. يتعاملان معه كل يوم أما نحن فمرة وعدت . إلى متى سأظل أعلم حبى؟

لما جلسنا أخبرتها بما حدث للوزة. لأول مرة تبدى أسفا نحوها وتدعو لها بخير. وجدنا أن جلسة المنزل مملة عاودنا الخروج إلى منتجع فوق هضبة المقطم . استغرقنا منظر المدينة فى الليل ونسمات المقطم الندية فتخففنا من همومنا إلى حد كبير.

عندما عدنا وهممت بتركها أمام منزلها. تشبثت بى قائلة :

ـ أنا خائفة. فلا تدعنى وحدى.

ـ مم؟

ـ لا أعرف خائفة وفقط. ادخل حتى لايزداد خوفى حين تبعد.

دخلت وأنا أتمتم:

ـ دعيها لله فهو الفعال لما يريد.

صحوت صباحاً على صوت صلاة عمى امبابى قادما من الردهة فتحت عينى لأجد أنى يمكن أن ألحق بصلاة الصبح حاضرة. خرجت لأتوضأ فوجدت ابنة امبابى تقف خلف أبيها بخشوع تؤدى صلاتها. ابتسمت وقلت فى نفسى. سبحان مغير الأحوال. للخوف فائدته يا ابنة امبابى.

لما عدت من وضوئى كان عمى امبابى وهى قد فرغا من صلاتيهما. بادرنى عمى امبابى :

ـ ألم تر؟ إبليس خرج ولن يعود.. البنت هداها الله فجأة. ماذا فعلت بها؟

ـ يا أبى . والله ماتجد مثلى هداية.. غير أنى أكسل عن الصلاة.

قلت لها:

ـ سيكون يوما نديا لأنك اصطلحت مع الله.

قامت فأحضرت لنا الشاى تناولته مع عمى امبابى الذى خرج مبكرا كعادته. وجلست مرخيا على أريكة وهى قبالتى لاتتحدث.. ولم يستيقظ أهل المنزل بعد . قامت فجأة قائلة:

ـ تصور أنى نسيت حلب الجاموسة أمس.

جرت خارجة. عادت بعد قليل تحمل مقعب اللبن.

ـ الحمد لله.. أخبرنى السائس أن أختى حاولت أمس ونجحت.

أتانى حارس البوابة بالجرائد ورحت أتصفحها عادت لتقول لى:

ـ ألن نذهب للأرض؟

ـ لا.. فأنا عازف عن ذلك اليوم وليس هناك ما يستدعى تواجدنا فيها.

ـ ومن سمعك يارجل.. ننطلق اليوم.. نعطى أنفسنا إجازة بلا. أرض وغلب وأعراب. ووجع رأس.. فكر لنا فى مكان هادئ نقضى فيه يومنا وننسى به متاعبنا.

كان المكان الذى جلسنا به أمس فوق هضبة المقطم مازال يأسر نفوسنا.. كنا جربناه

ـ ما تخدمنا به هو أن تخبرهم أننا لم نرفض. ولم نقبل وإنما نفكر.

ـ لكم هذا. وقلبى معكم.

طلبنا منه الصبية على أن يكونوا فى الأرض من غد وأرسل من اشترى لنا لوازمنا الأخرى. استأذنته وصحبت ابنة امبابى إلى المأمور فأبلغته وطلبت رأيه فاستدعى ضابط المباحث وشاوره فى الأمر. واستقرا على أن نرفض وأن نجابه وأن نردع وهما معنا.

قلت لضابط المباحث:

ـ تعلم أن عندنا سلاحاً غير مرخص وأننا مقدمون على معركة وهذا السلاح غير كاف وقد أحضرت معى من القرية بعض أبناء عمومتى لمساعدتنا هل تعدنى أنى إذا سلحتهم هم الآخرون ألا تتعرض لهم بسوء. ابتسم وقال:

ـ أعدك ليس هذا فقط بل سأشترى أنا سلاحهم. كم عددهم.. أخبرته فطلب ملبغا أقل بكثير مما اشترى لنا به السلاح الأول.

وطلب المأمور أحد ضباطه وأمره أن يحرر بلاغا منا إلى الشرطة بما نتعرض له من تهديد . ثم التفت إلى قائلا:

ـ قد ينفع هذا البلاغ مستقبلا أمام النيابة.

عدنا قرابة العصر فجمعت أبناء عمومتى وعرضت عليهم أمر التهديد وجعلت بيدهم الخيارين أن يقفوا إلى جوارى أو يرحلوا الى قريتنا. تباروا فى إظهار عواطفهم وبينوا أنهم لا يمكن أن يتخلوا عنى ولو سقطوا قتلى.

ناديت حارسنا الأول وبينت له إطلالة الحية برأسها من جديد .

وطلبت إليه الحرص واليقظة.

● ● ●

عدت وابنة امبابى قبل غروب آخر ضوء. كنت مهموما وكانت ابنة امبابى أكثر هما، لزمنا الصمت طول الطريق. كانت تقود . طلبت إليها أن تسقطنى أمام حارة الخواص. نظرت إلى ولم ترد وواصلت سيرها إلى منزلهم.حين نزلنا وقفت ـ قالت:

ـ ادخل ولا تدعنى أجتر همى طول الليل وحدى وتذهب ليغطيك الهم أنت أيضا.

ما إن فتح حارس البوابة حتى أخبرنا أن شخصين بانتظارنا منذ العصر بالمندرة. ألقينا نظرة فلم نعرفهما. أقبلنا عليهما مرحبين عرفا بنفسيهما قالا:

إنهما وسيطان تتبعا السيور التى نزلت السوق إلى ان عرفا أننا مصدرها وأنهما جاءا يفاوضاننا على جلب التجار للشراء منا نظير عمولة وبالسعر الذى نريده نحن لأن السوق شرقان.

قالت ابنه امبابى:

ـ نحن لم نفكر فى بيعها حتى الآن. وعلى كل يمكنكما أن تمرا غدا فى مثل هذا الموعد نكون قد فكرنا.

قاما وهما يتحننان عليها بأنهما صاحبا أولاد ويريدان أن يطعماهم لقمة حلالاً من ورائها وأنهما.. وأنهما.. إلى أن خرجا.. لما انفردنا سألتها:

وحتى لو كان طرأ فلم تكن تستطيع الوصول إليه لا هى ولا عمى بطاطة لأنهما لايعرفان عنوانه.

بعد جلسة لم تطل استأذنا لها من والد أحمد لتعود معنا. رفضت كل أسرة أحمد ذلك وقالت هى:

– إن أحمد تحدث من الخارج وحادثها وأكد عليها ضرورة البقاء إلى أن يعود.

وجدنا بها رغبة فى البقاء حيث هى فتركناها عائدين. سألت قبل أن ننصرف عن موعد عودة أحمد. قالوا إنه لم يتحدد بعد. وسأل والده عما تم فى الأرض فأخبرته باقتراح أبى الذى بدأنا تنفيذه فقال:

– والدك محق ويا ليتكم تستزرعون أرض أحمد أيضا، واستمهلنى ليعود بعد قليل بمبلغ كبير وطلب إلى أخذه لننفق منه على أرض أحمد. رفضت تماما وأبديت أسفا لهذا التصرف . فاعتذر. وعدت وعمتى لأركن العربة وأتجه الى الحضرة التى يقيمها شيخ مسجد الخواص. أتلمس بها غسيل أدران نفسى.

● ● ●

ذهبنا الى الأرض متأخرين صباحاً إذ اشترينا ما نحتاج من خراطيم تغطى أرضنا وأرض أحمد وصحبنا فنيا لتركيبها. كانت ابنة امبابى تعارض زراعة أرض أحمد بلا إذنه. فلما أخبرتها بموافقة أبيه أبدت راحة وقالت:

– كنت بين مخافتين أن يعود فيجد أننا زرعنا أرضنا وأهملنا أرضه فيغضب ويظن بنا الأنانية وبين أن نزرعها دون إذنه فيغضب لأننا كلفناه مالا يحب.

عندما دخلنا الأرض وجدنا الجرارين يعملان وقد قطعا شوطا كبيرا ومن خلفهما أبناء عمومتى ينظفون أولا بأول. أخبرنى حارسنا الأول بقدوم المقاول عقب انصرافنا أمس، وأنه يريدنا وسلمنى ورقة بها مكان وجوده. كنا نريده أيضا ليقضى لنا صبية الزراعة. فلم تطل إقامتنا فى الأرض. عندما هممنا بالانصراف طلب ابن عمى الأول أن أعود ببلطتين ومسحات صغيرة ومقاطف. تركنا الفنى يركب الخراطيم وذهبنا إلى المقاول رحب بنا الرجل وأقبل علينا. ثم أخبرنا أن الأعراب عرفوا أننا سعينا فى شراء الأرض المجاورة لنا لأحد معارفنا. وأنهم يريدون أن يعقدوا معى صفقة مؤداها ألا أتعرض لهم إذا تعرضوا لمن اشترينا له فى نظير أن يتركونى وشأنى ويضمنون عدم الاعتداء علىّ أو على أى من رجالى أو على أرضنا بل ويقتسمون معى مناصفة ما يحصلون عليه من إتاوة من جارنا وأنهم وسطوه ليعرض علىّ ذلك.

ابتسمت وقلت:

– الأوغاد.

– لكنهم ذوو سطوة فى المنطقة وأرى أن تستجيب لهم ولو جزئيا فترد عن نفسك وأرضك. أما الدكتور أحمد فعقله فى رأسه يدبر أمره.

– مستحيل .. إنه أخونا. نموت ولا نسلمه.

وقلت:

– وإذا سلمناه من يضمن التزامهم بكلمتهم معنا.. لا... لا..

حال أقاربها ولامتنى لأنى تركتهم يقضون ليلتهم فى منزل عمى امبابى، تعللت بأنى قبلت لأن بيت عمى امبابى اكثر رحابة واستعداداً. لم تقتنع عمتى وقالت:
ـ لكننا أهل وكنا أولى بهم وكانوا لن يشعروا بالغربة عندنا مهما كان بيتنا ضيقاً.

• • •

صليت . وغيرت ملابسى وجلست أتناول عشائى لم تكن لوزة موجودة ولم يطرأ على ذهنى أن أسأل عنها. وكأنما أرادت عمتى أن تذكرنى بها، فقالت:
ـ ألا ينقصنا شئ؟.
ـ آه .. لوزة.. أين تلك المشاغبة؟!
ـ اسكت على مافعلته ونحن مسافرون.
ـ مع من؟
ـ مع الزينى.
ـ ثانية؟ ما شأن هذا الوغد بها؟
ـ انتهز فرصة توحدها فى المنزل وجاء يبتزها فى غيبة عمك بطاطة. وراح يهددها بسكين. هل تعلم ما فعلته به؟
ـ ماذا؟
ـ وجدت أنه قد يقتلها فلا يدرى به أحد. فرسمت عليه دور المحبة المنتظرة لتلك اللحظة بفارغ الصبر إلى أن تجرد من ثيابه كلية واستولت على السكين وساقته بها عاريا كما ولدته أمه فى طول الحارة وهى بقميص النوم إلى أن لمت عليه خلق الله فأكل علقة لم يأكلها حمار بليد فى مطلع وأصرت أن تسوقه بنفسها حتى النقطة إلى أن سلمته بسكينه إلى الضابط وقد أحالهما إلى النيابة التى أمرت بحبسه لحين محاكمته وعادت تزغرد وتغنى وترقص حول ملابسه وهى تحرقها أمام باب المنزل قطعة قطعة.
ـ وأين هى الآن؟
ـ يقول الجيران إنها اختفت بعدها. وعمك بطاطة لف بيوت أقاربها فلم يعثر لها على أثر. فأبلغ الشرطة.
ـ أنا أعرف أين هى لأنه لم يبق إلا بيت ابنها.
ـ عمر أقصد دكتور أحمد. والله هذه لم تطرأ لنا على بال.. اذهب ياولدى فسل عنها ولو بهاتف إن كانت هناك اصحبنى لنحضرها فلا يصح أن ندع البنية بعيدة عن بيتها.
ـ إذن ارتد ملابس الخروج.
حملت عمتى فى العربة وانطلقنا إلى منزل أحمد ما إن دخلنا حتى وجدناها تركب ولدى أحمد على ظهرها وتلف بهما الردهة على أربع وهى مستغرقة فيهما تماما حتى إنها لم تنتبه إلينا ونحن داخلان.
رحبت بنا أسرة أحمد وجاءت بعد أن أنزلت ولدى أحمد برفق وحنان وأقنعتهما بصعوبة أن يتخليا عنها لتسلم علينا. قبلتنا بشوق وعاتبتنا كثيرا لأننا لم نسأل عنها كل هذه الأيام. حلفت لها بأغلظ الأيمان أنى ماعدت إلى المنزل إلا اليوم وحلفت لها عمتى أن أقدامها كلت هى وبطاطة من البحث عنها وأنها لم يطرأ على بالها منزل أحمد

هم من خلفه يجمعون الهيش والحلفا ويكومونها وسط الأرض. فى آخر النهار كانوا قد انتهوا من ربع الأرض تقريبا فقدرت أن أمامنا ثلاثة أيام أخرى على الأقل لننتهى من نظافتها.

قبل أن نغادر آخر النهار طلب إلينا كبيرهم أن نحضر الخراطيم معنا صباحاً وأن نتصرف فى الصبية الذين سيزرعون، على ألا يقلوا عن عشرين.

كانت ابنة امبابى عجلة للعودة منذ العصر فتحركنا عائدين. سألتها ونحن على جادة الطريق:

ـ لماذا؟

جاموستى ومن سيحلبها إذا تأخرت؟

ـ يالها من مشغولية جديدة . علمى أختك وأريحينا.

ـ بدأت فى تعليمها هى وإحدى مساعدات أمى.

تذكرت كمية السيور المخزنة عندها وأننا شغلنا عنها فلم نحاول الاتصال بمن طلبها منا لنبيعها وأننا مطالبون بثمنها. قلت لها:

ـ السيور لقد نسينا أمرها تماما.

ـ لم أنس لكنى أنتظر أن يفعل الألف متر المباع فعله فى السوق فيزداد الطلب عليها وهى شحيحة وبذا يزيد مكسبنا.

ـ اكثر من الثلث حرام والله.

ـ ولم هو حرام؟

نحن لا نجبر أحدا على الشراء حتى يكون حراما. وهل لو غرق السوق بها فانخفض سعرها يكون حراما على من أغرقه وأغرق أموالنا معه؟

ـ لا أظن.

ـ هذه بتلك. ياحبى دعك من المثاليات فى شغل السوق. الحكومة منعت استيرادها إلا عن طريقها لتكسب هى فلا استوردت ولا تركت التجار يستوردون فيربحون. والناس فى حاجة إلى هذا الصنف بالذات.. أيكون حراما أننا يسرناه ولو بسعر غال قليلا. لقد أرسلت أحد معاونى ليدرس عزوف الناس عن البديل المصنع هنا فى أحد مصانع الدولة. فوجد أن الناس تعزف عنه برغم هدوء سعره لأنه قد يتمزق مع أول دورة للماكينة. وأقصى تحمل له شهران على حين أن الصنف الذى عندنا يتحمل العمل الشاق عاما على الأقل دون تلف وعاما آخر بعمل رقاع له. هل تعلم بكم تبيع الشركة الحكومية التى ينتج مصنعها البديل . إنها تبيع بنصف ما بعنا. فعلى أحسن الفروض وأقلها كلفة يكلف المتر منه الناس على مدار العام حوالى اثنى عشر جنيها إن لم يزد. فنحن حتى لو بعنا ما عندنا بضعف ما اشترينا به. وهو ما أستهدفه ـ نكون أرخص من الدولة بنسبة مائة بالمائة. ما رأيك الآن؟ مازلت تعتقد أنه حرام علينا؟ أم الحرمة عند من يبتز الناس بسلعة غير جيدة؟!.

حاولت أن أقضى سهرتى فى منزلهم. إلا أنى أقنعتها بأنه لا يصح أن أهمل عمتى إلى هذا الحد. أوصلتنى حتى باب المنزل واستدارت عائدة. صعدت لتسألنى عمتى عن

عندما دخلنا المدينة أصرت على أن نمر من أمام مقهى أبيها وأن نقف أمامه لدقائق. كنت قد استوعبت ملاحظتها الأخيرة فلم أمانع.

لما وصلنا أمام المقهى لمحنا عمى امبابى فقام إلينا أخبرته ابنته بالهدية التى تحملها العربة التى خلفنا فاتسعت أشداقه كطفل وطلب إلى أقاربى أن ينزلوا ليأخذوا الواجب. نظروا إلى فسمحت لهم. نقلنا أحمال عمتى إلى عربتنا بعد أن نزل الرجال وقمت وابنة امبابى بتوصيلها.. عدنا لنجد أن عمى امبابى تصرف فى إنزال هديتنا من عربة النقل وربطها أمام المقهى. وأرسل العربة الأخرى بأحمال الرجال واحمالنا إلى منزله، سألته ابنته:

ـ لم لم تجعل عربة النقل تقوم بتوصيل الهدية إلى الاسطبل الملحق بالمنزل؟ رد عليها:

ـ اسكتى ياعبيطة هذه الهدية فخر لى وأغيظ بها خلقا كثيرين وأولهم عيلة التربى وعائلة مطلق أختك. دعوا الرجال معى وعودا أنتما إلى المنزل ودعى أحد خدمنا يجهز لهم مقر ضيوفنا.

عدنا لتحتفى بى حماة المستقبل لما رأت هدايا أمى لها. هممت بالعودة إلى منزل عمتى لآخذ قسطا وافرا من نوم كان يثقل رأسى لأنى لم أنم جفنى خلال اليومين الماضيين. رفضت ابنة امبابى ودفعت بى إلى حجرتها وأغلقت بابها دونى. فتحت عينى لأجد الدنيا مظلمة نظرت فى ساعتى فإذا بنا عقب المغرب بقليل. أضأت النور فدخلت حماتى لتخبرنى أن ابنتها فى الاسطبل تحلب جاموستها وأن عمى امبابى مع أقاربى فى المندرة قدمت لى منشفة وقالت الحمام جاهز إن أحببت، أغرتنى المياه الباردة فأخذت دشاً وخرجت فصليت واتجهت إلى المندرة أرحب بأقاربى. دخلت ابنة امبابى لترى إياها مهارتها فى الحلب كانت تمثل أمى حين تحمل القعب على رأسها. ضحك عليها أبوها وأقاربى فانتابها الخجل وخرجت.

أظهر أقاربى رغبة فى زيارة أهل الله. أفهمهم عمى امبابى أن الوقت تأخر والمساجد أغلقت أبوابها فقالوا:

ـ على الأقل نقرأ لهم الفاتحة من الخارج.

صحبتهم بعربة ابنة امبابى فى جولة على مساجد أهل الله سقت على مهل وأخذت أبين لهم ما أعرف من معالم وهم مأخوذون بالأضواء والحركة الثقيلة التى لم يتعودوها، انتهى بنا المطاف إلى سينما، عدنا بعد منتصف الليل إلى منزل عمى امبابى لأبيت معهم حتى لا يستوحشوا المكان.

كان لابد لنا صباحا من عربة نصف نقل لتحمل أثقالهم والتقاوى إلى الأرض ركبوا معى أنا وابنة امبابى وتبعتنا العربة إلى الأرض مبكرين. خصصنا لهم إحدى الاستراحتين الأوليين. رتبوا متاعهم فيها وعهدت إلى حارسنا الأول بقضاء مصالحهم حتى يتعرفوا على المنطقة.

وبينت لهم خطورة الأعراب حتى لا يستدرجوا الى فخ نحن فى غنى عنه وطلبت إليهم أن يتعاملوا بحرص وحذر مع أى غريب.

لم يضيعوا وقتا، طلبوا من أحد السائقين أن يتولى حرث الأرض بالجرار. وراحوا

وسافر أنت.. لن أعود معك مالك بى شأن.

ـ طيب.. الأمر لله فمن يقدر على ابنة امبابى مادامت قد وجدت حماية.

قضينا ليلتنا بين أبى وأمى وأقاربنا الذين توافدوا للحفاوة بنا. آخر السهرة قدمت عمتى وابنتها. لم يزد أبى عندما رآها داخلة أن ردد:

ـ ما من فائدة والله.

نمت فى حضن أبى ونامت ابنة امبابى فى حضن أمى. صحوت على صوت أبى وهو يتلو أذكار الصباح قمت وصليت ولذت بجواره أردد معه مايتلو من أذكار. لما انتهى قال:

ـ تصور أن خطيبتك يقظة تساعد أمك من ساعة أن تيقظت. حافظ عليها فستكون نعم الزوجة، سأوافيك فى أقرب فرصة لنعقد قرانك عليها حتى لا تطير منك فيصيبنى حزن الدهر.

ـ ليس إلى هذا الحد؟

ـ بل وأكثر.. ففقد زوجة مخالفة يؤخر الرجل عاما أما فقد الموافقة فيؤخره الدهر. وابنة امبابى ستكون زوجة موافقة بأمر الله لأنها تحبك جدا ولا تخفى هذا الحب، تصور أنها صرحت لأمك بذلك وقالت لها: إنها تفقد نفسها إذا غبت عنها. ماذا نريد أكثر من هذا؟ على بركة الله يكون قرانك بها ويكون بحوله وقوته قران العمر. قدم مساعدا أبى فأفطرنا معا وأعلمهما أبى أنه سيتأخر قليلا معى حتى أسافر. خرجا يسحبان الماشية. استبقى أبى من ماشيته هدية أمى لابنة امبابى وأضاف إليها أخرى منه كانت على وشك الوضع.

أتى الرجال الذين يصحبوننا يحملون أثقالهم. لما اكتملوا أيقنت أن عربة ابنة امبابى لن تسعنا وبخاصة أن أحمال عمتى وهداياها من أسرتها كانت حمل بعير. فضلا عن التقاوى التى أعطانا أبى إياها، أرسلت من يستأجر عربة نصف نقل لحمل الأثقال. وأصرت ابنة امبابى على صحبة هدية أمى وأبى برغم محاولتى إرجاعها حتى نرسل عربة من عرباتنا لإحضارها. رضخت لإصرارها فكانت عربة نقل أخرى لتنقل الجاموس.

• • •

تحركنا وسط دموع أمى وأبى وهما يودعاننا مع بعض أفراد الأسرة. قبيل الظهر عائدين تتبعنا العربتان ويصحبنا فى عربة ابنة امبابى الرجال وعمتى وابنتها.

لما اقتربنا من مدينتنا أبدت ابنة امبابى رغبة فى أن نذهب إلى بيتها أولا ثم بيت أبيها بسياراتنا معا.

ـ وعلام هذا المهرجان كله؟

ـ لا تتخيل كم كان وقع كردان أمك على أسرتنا وأنا واثقة أن وقع هذه الهدية سيكون أكثر.. وأية فتاة تحب أن تكون موضع اهتمام أسرة زوجها وأنا ألست فتاة؟ أليس من حقى أن أسعد بهذا الاهتمام وأن أعلنه على الملأ من أسرتى. أنتم معشر الرجال تفوتكم أشياء صغيرة كثيرة مثل هذه لكنها مهمة لنا نحن النساء.

عليه. ويكفى أن ألوى عنه كشحا بعد ذلك لفترة قصيرة أكرم خلالها زملاءه دونه.

بدأ توارد أبناء عمومتى الذين استدعاهم أبى وراحت حفاوتهم بى وحفاوة أبى بهم تترى ولما اكتملوا . عرض أبى عليهم ما استدعاهم من أجله داخلا إليهم من مدخل العصبية الأسرية. استجاب منهم أربعة واعتذر اثنان . قبل أبى اعتذارهما دون مناقشة. وطلب من الآخرين التجهيز لمصاحبتى صباح غد ودس يده فى جيبه فمنح كلا أجر شهر مقدما على سبيل السلفة يخصم على مدى سنة. قبل أن ينصرفوا نادى أمى وطلب إليها أن تعطى كلا شيئا من الحلوى لأسرته. بعد أن غادرونا قلت لأبى:

ـ لكن هذا الأجر غير مجز.

ـ هو السائد هنا. وإن رأيت أن تزيدهم مستقبلا بعد الإنتاج يكون ذلك أوقع فى نفوسهم. لكن إذا فعلت فليكن على شكل منحة كلما أراد أحدهم إجازة حتى لا يتحول إلى حق مكتسب. وأنت لا تدرى ماذا ستفعله الأرض معك.أو ماذا يخبئه الله لك من رزق. إذا وسع الله عليك فوسع عليهم. واعهد إلى فلان برئاستهم فهو الأكثر خبرة والأكبر سنا.

صمت أبى قليلا ثم قام قائلا:

ـ سأخرج لأصلى العشاء فى المسجد وأهاتف عمك امبابى وأمر على عمتك التى نسيت نفسها عند أقاربها. عمتك هذه لا فائدة ترجى فى إصلاحها هى. . هى مذ كانت بنتا.. كان الله فى عون عمك بطاطة. والله ياولدى لو كنت منه لكسرت رقبتها عشر مرات كل يوم. انظر هى متأكدة أنك قادم لاصطحابها اليوم ومع ذلك تظل عند أقاربها ولا على بالها شئ. ياخسارة يا أمى يرحمك الله. لم تأخذ منها شيئا. كانت ناراً لايعجبها الحال المائل ومع ذلك أنجبت عمتك وهى الحال المائل بعينه.

خرج أبى ودخلت عند أمى التى قاربت الانتهاء من شغلها. وجدت ابنة امبابى واضعة قعب اللبن أمامها وتصفق وتغنى من حوله. ابتسمت وقلت:

ـ ماذا جرى أيتها الطفلة الكبيرة لتغنى له؟!.

ـ انظر ياولد انظر. حلبت جاموستى التى منحتها لى أمى.. انظر هذا اللبن الكثير . خذ اشرب حلب يدى. طعمه كالسكر ياولد..

ـ كفى عن شغل الصغار واكبرى.

عادت تطحن لى بيدها وتخرج لى لسانها مددت يدى مهدداً فقفزت محتمية بأمى. هززت رأسى وأمسكت ذقنى مواصلا التهديد وأنا أقول:

ـ افعلى مابدا لك.. لن تظل هذه الحماية معك على كل حال.

ردت أمى:

ـ والله إن أغضبتها مستقبلا لأعرفن شغلى معك.. ثم التفتت إليها مردفة:

ـ إن فعل ما يغضبك يا ابنتى دعيه وتعالى عندى وساعتها نرى من يجرى وراء من ؟ آه.. لن يغلبنا معا.

علقت ابنة امبابى:

ـ سامع.. وأيضا لقد قررت أن أظل أنا هنا مع أمى لأتعلم منها شغل الفلاحين

قلت لها:

- هكذا؟ طيب.

قال أبى:

- أتقولين لى عليه.. أكسل خلق الله ولدى هذا. يغلبنى كل يوم حتى يستيقظ. يحب النوم سيَّ عينيه لكن لا نوم بعد الآن حتى لا تضحكا الخلق عليكما.

دخلت أمى تحمل على رأسها صفحة كبيرة مرصوص عليها صحاف الطعام لم يكن أكثر من ثريد ولحم ومرق وبعض المشهيات، تولى أبى وأمى الحفاوة بابنة امبابى، لم يبق إلا أن يزقاها كبط أمى الذى تسمنه.

جلسنا عقب الطعام نتناول الشاى ونتجاذب أطراف الحديث نضرب به فى كل واد، تذكرت عمتى فسألت أمى عنها أجابت بأنها معزومة عند قريب لنا وأظنها قاربت العودة فهى تعرف أنك قادم لأخذها لكن لست أظن أنها ستصحبك اليوم.

- لم؟

- لأنها لم تجهز كل أحمالها.. وعلق أبى:

- أفضل. تسافرون غدا حتى يتجهز أيضا من تصحبون معكم من الرجال.

ردت ابنة امبابى:

- لكن ستشغل أسرتى علينا.

قال أبى:

- أحادث أباك هاتفيا لأطمئنه.

قبيل المغرب عاد عمال أبى بمواشينا من الحقل فسحبت أمى ابنة امبابى من يدها وقالت:

- تعالى لأعلمك الحلب. لأنى سأعطيك جاموسة وابنتها هدية منى لك ولا يعقل أن تتركى لبنها محبوسا فى ضرعها فيجف فيضحك عليك الولد ابنى ويشمت بك ويتقول عليك بالخيبة وأنت تاج رأسه.

تقافزت ابنة امبابى كطفله تسبق أمى وهى تطحن لى بيدها وتخرج لى لسانها. وأنا صامت احتراما لأبى. وقدم أحد عمال أبى يقدم له تقريرا عما كان بعد تركه الحقل معى. بعد أن استمع أبى إليه وأعطاه توجيهات عمل الغد طلب إليه أن يستدعى له أفراداً عينهم له من أبناء عمومتى.

خرج الرجل لينفذ ماطلب منه. وراح أبى يعطينى بعض توجيهاته. التى كان أهمها أن أعهد إلى رجل واحد بأوامرى وأن أحاسبه فوراً إذا توانى أو أخطأ. وأترك له مهمة التنفيذ بالشكل الذى يعجبه. وألا أدع لأحد فرصة لوقيعة وألا أدع الكلفة تنزاح بينى وبين عمالى. بل لابد من ستار شفاف. حتى تظل لى الهيبة وبخاصة أنى الأصغر منهم وربما جرأهم هذا علىّ فيهملون وفى الوقت نفسه لا أشعرهم بالتكبر لأن الناس ترفض المتكبر. وأن أكرمهم ما استطعت لكن من بعيد لبعيد. وإذا غضبت علىّ أن أمسك لسانى لأنهم إذا غفروا لى مرة لن يسامحونى فى الثانية والفلاحون أنفون من الإهانة ولا ينسون ثأرهم، وألا أعنف بأحد إلا بعد أن أبين له خطأه أمام الآخرين وأشهدهم

أخبرته أننا فى انتظار نظام للرى سيقدم به أحمد من الخارج.

قال أبى:

ـ على الأقل تجهزان الأرض بتنقيتها من الهيش وكل النباتات الشيطانية ثم لم لا تبدآن بما نعرف نحن، ليكن السمسم والسودانى إلى أن يستقر الرأى على ما تزرعان . إن اخضرار الأرض فى حد ذاته له فرحة وبهجة وليس فقط. بل غدا السمسم نادرا وغاليا. ولو زرعتما هذا المحصول فقط لغل الفدان ما يساوى ستمائة جنية معنى هذا انه خلال شهور قليلة تجدان بين يديكما ستين ألف جنيه تستعينا بها على تشجير الأرض دون سحب من رأس مالكما وهذه هى المهارة وحتى إذا تم مد لخطوط المياه وهلكت شجيرات أثناء ذلك سيبقى لكما الكثير . لن تسافرا حتى تصحبا معكما بعض أقاربنا من الفلاحين المهرة يكونون لكما ذراعا يمنى وسأعطيكما أنا من عندى التقاوى التى تحتاجانها هدية منى . وستبدآن من غد إن شاء الله فى تحضير الأرض وسأرتب أمرى على أن أمر عليكم أسبوعيا لأوجه وأراقب حتى تتعلما.

قلت:

ـ ولكننا لم نقم قنوات بالأرض كما أنها على طبيعتها بها ما هو مرتفع وما هو منخفض.

ـ لن يكون ذلك معوقا. أتذكر يا ولدى أن جدك ـ يرحمه الله ـ كان يزرع البطيخ والشمام بأرضنا التى فى الجزيرة ولم يكن لها رى إلا من النهر وهى عالية غير مستوية والنهر ماؤه منخفض وأرضها غير مستوية ولم تكن ماكينات الرى الرافعة للماء قد عرفت.. ولم يكن فى مقدور كل مالكى أرض الجزيرة ومنهم جدك شراء «وابور مياه» كالذى يملكه فلان بك الثرى. بل كان مستحيلا بناء ساقية على النهر لأنها مهددة بالغرق سنويا. هل تعرف ياولدى أن جدك وكل أصحاب أرض الجزيرة كانوا يروون أرضهم بماذا؟ كانوا يروونها نبتة نبتة بالجرار. كنت أظل طوال النهار رائحا غاديا خلف حمارنا أسوق من النهر حاملا جرتين كبيرتين يملأهما عامل ويضعهما متوازيتين على جانبى الحمار فإذا ما وصلت إلى جدك أنزلهما وسقى بما فيهما بضع نبتات وأعود بهما فارغتين لأعود له بغيرهما مملوءتين . يومان على هذا الحال أسبوعيا لنروى الفدان الذى نملكه بالجزيرة. تعب كثير لكنه كان مجديا فى النهاية. ثم ما الهدف من إقامة القنوات إلا نقل المياه بسهولة. هل تعلم أنى فكرت فى إلغائها من أرضنا والاستعاضة عنها بالخراطيم. إلا أنى خشيت ملامة الفلاحين من حولى فتراجعت. لم لا تستعملون الخراطيم تأخذ من مضخة كابسة وعندكما المعدات ولقد رأيت من بينها مضخة ماصة كابسة . هممت أن أنبهكما إلى جدواها لكما فى الرى إلا أنى تراجعت خشية دس أنفى فى شأنكما أكثر مما ينبغى.

وصمت ثم أردف: لابد من البدء ومن غد.

ردت ابنة امبابى:

ـ مادام نفسك معنا يا عمى نبدأ لقد قسمت العمل بينى وبين ابنك. عليك الأرض وعلى المصنع والتجارة وهو كسول ومتوان.

ـ لا تصورى ولا غيره وهذه هى الدار لك يابنت امبابى. أنا ذاهب لأبى.

ردت أمى:

ـ اجر ياولد اجر خليه يلحسك لحسة وتملقه تمليقة قبل أن أخبره بما تفعل مع بنات الناس المحترمين.

لما قاربت الباب قلت:

ـ طيب يابنت امبابى.. إن ما أريتك.

فقالت لأمى:

ـ أسامعة يا أمى ويهددنى أمامك.. حتى تعرفى كم هو شرس ولا أقدر عليه.

قدت عربة ابنة امبابى حتى الحقل. احتوانى أبى بين ذراعيه أخذ يستفسر عن الأحوال، أجلسنى بجواره.. صنع لى الشاى بيده وقال:

ـ لقد لمت نفسى كثيرا لأنى كسرت بخاطر البنية فى المرة السابقة. عنفت نفسى كثيرا كيف أقابل تقربها منا بجفاء منى.. لولا أمك.. الله يسترها جبرت بخاطرها لكان أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى.. وأرجو أن تكون قد نسيت ياولدى.

ـ فوراً .. ولم تلمح إلى هذا الموضوع لا هى ولا آلها من قريب أو بعيد..

ـ أرحت نفسى الآن. أراح الله خاطرك.. لكن أقدمت وحدك لم لم تحضرها معك؟

ـ بل أحضرتها وهى جالسة مع أمى تتآمر معها علىّ.

ابتسم أبى وقال:

ـ إذن احملنى اليها. والله ياولدى لقد غدت غالية علىّ مثلك تماما.. إنها بنت مرجل.. بارك الله لك فيها.

قام فتهيأ وألقى بتوجيهاته لمعاونيه وركب بجوارى سألته ونحن عائدان:

ـ لكن أين الجرار؟ لم أره فى كلتا المرتين.

ـ ليس عندنا له عمل فأدفع به للإيجار. تصور ياولدى كانت أكبر غلطة أنى لم أشتر مثله من سنوات برغم توافر ثمنه معى. تصور ياولدى إنه يعطى عائدا صافيا بعد كافة مصروفاته أكثر من عشرين جنيها فى اليوم ربنا يبارك لك فى خطيبتك ويوسع رزقكما.

وصلنا إلى المنزل دخل أبى لتجرى إليه ابنة امبابى يسلم عليها ويقبلها. تقول له أمى:

ـ ياحاج حتما ولابد. ترى لك تصرفا مع ابنك. من الآن يغلب خطيبته.. ياروح أمها من ساعة ماحضرت وهى تشكو منه.

ـ حالا .. سأتصرف .. . قرب هنا يا ولد ..

تقدمت مبتسما .. أمسك أبى بأذنى برفق فتصنعت الألم الحاد ورحت أطلق استغاثات وهو ينزل بكفه على ظهرى برفق أيضا .ثم قال لابنة امبابى:

ـ أتودين أن أزيده أم يكفى هذا وإن عاد أنا موجود .

قالت: خلاص يا عمى .. كفى عليه هذا هذه المرة .

أطلقنى أبى لأهددها من خلفه بإشارة من يدى وتشاغلت أمى بتجهيز الغداء فى الوقت الذى جلسنا فيه مع أبى يسأل عن أحوالنا ولما علم أنه لا خطوة للأمام فى زراعة الأرض أبدى غضبا ودهشة وسأل عن الموانع ما دامت المياه موجودة والحراسة قائمة.

على عمى بطاطة فهو كأبيها. أما أنا فالأقاويل ستطاردنى بلا شك. والشك يملأ ابنة امبابى فلا أفرغ.

تعمدت طول الأسبوع ألا أفارق ابنة امبابى إما فى الأرض أو فى المدينة أو فى المنزل. منعا للشكوك.

كانت سعيدة بذلك وكنت لا أقل عنها سعادة.. ولما حان حين موعد عمتى طلبت من ابنة امبابى أن تصحبنى. لم تتردد أخبرت أباها فحملنى بقطعة صوفية غالية لتكون جلبابا هدية منه لأبى. قادت ابنة امبابى فأوغلت فى المدينة لم أسألها لم؟ فقد غدوت أعرف مايدور برأسها، اشترت من أفخر محلات الحلوى كما كثيرا ملأت به خزينة العربة. لما ركبت قلت لها:

ـ هذا كثير.

ـ وأسرتك أكثر عددا.

لما قاربنا المنزل طلبت إليها ألا تستعمل آلة التنبيه حتى نفاجئ أمى.. دفعنا الباب ودلفنا بهدوء كانت أمى فى صحن الدار متلهية بإطعام طيورها الكثيرة لم تشعر بنا. فوجئت بنا نجلس من حولها احتوتنا بذراعيها وهى تقول:

ـ مرحبتيا أولاد، حمدا لله على السلامة وراحت تميل هنا فتقبل وتميل هناك فتقبل. قمنا معها إلى أريكة خشبية قريبة جلسنا حولها تسأل عن أسرة عمى امبابى ثم سألت خطيبتى:

ـ وهذا الولد ماذا هو صانع معك؟!

ـ يغلبنى خالص وطول النهار فى الخارج ولا يعود إلا فى وجه الصبح و...

فقاطعتها:

ـ ياشيخة حرام عليك. أمى تصدق.

ردت أمى وهى تلكزنى:

ـ ياعيب الشؤم.. لم ياولدى؟! أبقيت زى أولاد المدن؟

قلت لابنة امبابى:

ـ أيعجبك هذا؟ لقد صدقت.

ردت أمى:

ـ وما يدفعها على الافتراء عليك؟ والله لن تكون ابنى ولا أعرفك إذا لم يستقم حالك.

وأردفت قائلة لابنة امبابى:

ـ ماعليك إلا خطاب صغير وأنا أرسل له أباه يعرف شغله معه.. أبوه ملحد وهو الذى يخلص من جلده.

قلت:

ـ مظلوم ياناس والله العظيم.

ردت ابنة امبابى:

ـ طبعا.. وماذا ستقول غير هذا؟ تصورى يا أمى.

قاطعتها:

ـ أيعجبك ما فعلت بالبنت يا رجل ؟! يارجل حرام عليك تكسر خاطر البنية .. يارجل قم وارضها لأنها جالسة تبكى على باب الحديقة وتصر على السفر . يا رجل أنت طول عمرك تعرف الأصول ماذا جرى لك ؟ كنا عالاً .. ماذا طلع في مخك تعمل العملة السودة هذه. عين وصابتنا .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

قام ابى ومعه عمتى وأمى فغادروا بعد فترة ابنة امبابى وقد احتواها أبى تحت إبطه .. وأجلسها بجواره وهى ما زالت تبكى وهو يمسح دموعها بيده الخشنة ويربت على ظهرها ويحاول لتكف عن بكائها . حتى رضيت فأقامتها أمى من جواره وأخذتها فى حضنها وهى تقول لها :

- دعك منه .. طول عمره يغلبنى يا ساتر عليه رجل.

ومدت أمى يدها فخلعت كردانها وألبسته لها وهى تقول لها:

ـ كردانى وأنا عروسة ما تلبسه إلا عروسة ابنى حبيبى.

ونظرت لعمى امبابى وقالت:

ـ خلاص يا معلم .. أيرضيك ما فرضناه على أنفسنا من حق. أم نحكم ابنتك ؟

ـ خلاص يا حاجة والله يا حاجة انا قلبى انفتح لابنك لما لمست رجولته ومروءته . وقلت يا ولد يا امبابى . اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك . والحمد لله فراستى فى محلها. ربنا يخليه لكم صغير فى السن لكن كبير فى العقل والتصرفات . وابن حلال وجد ولا يحب الحال المائل . صحيح ابن رجالة وتربية رجالة.

شكره أبى ولما قاربنا الليل عدنا الى المنزل وأصر عمى امبابى على العودة بأسرته متعللا بمصالحه. عدنا دون عمتى وابنتها فقد زعمت أنها لم تشبع من أسرتها ولم تزر أحدا منها وأوصتنى بأن أعود لآخذهما بعد أسبوع. حملت أمى العربتين بخيرات كثيرة ردا على ما حملته أسرة امبابى.. قبلتنى وهى تبكى عندما هممت بركوب العربة. وأمسك أبى بأذنى وأنا أقبل يده أمام أسرة امبابى . وقال:

ـ حذار أن يحدث منك ما يقصر رقبتنا وإلا قطعت رقبتك. وحذار أن تغبن خاطر عروستك. إنها برقبتك وأنت لا تستحقها وإن كان عمك امبابى قد اختارك فهذا تنازل منه. أفاهم؟

لمحت السعادة على وجه أسرة امبابى وأنا أرفع وجهى لأرد:

ـ فاهم يا أبى.

• • •

أسرتى تلوح لنا وتقول: مع السلامة إلى أن غابوا عن أسماعنا وأنظارنا. كان عمى امبابى فقط هو الذى يركب إلى جوارى. ظل طول الطريق يردد إعجابه بأبى وأسرتنا وترابط أقاربنا ويقسم أنه لولا مصالحه المرتبطة بالمدينة لصفى كل أملاكه فيها واشترى أرضا ومنزلا فى قريتنا لتكون أسرتى أسرته ويشعر بدفء الأسرة الذى يفتقده تماما برغم عدد أفراد أسرته الكثير. لما وصلنا . قال لى:

ـ أنت معنا لاتبرحنا طالما عمتك غائبة فى القرية. لم يكن أمامى إلا أن أوافق منعا للقيل والقال مع لوزة التى تعيش فى طول منزلها وعرضه وحدها. قد لا يتقول الناس

الذى أخرجه أبى أمامهم من خلايا نحلنا.

صحب أبى عمى امبابى وابنه وأنا معهم فى جولة بأرضنا كان أبى فخوراً بزرعه وهو يشرح لهما ما على أرضه وكيف يخدمها وكم تزيد غلتها عن غلة جيرانه. لما وصلنا إلى أرض عمتى التى فى حوزة أبى، قال أبى لخطيب ابنتها:

ـ تلك أرض حماتك فدانان من أجود الأرض. وضحك وهو يردف:

ـ عروسك حلوة ومتعلمة ولها أرض فمن مثلك.

رد عمى امبابى عليه:

ـ خطيب ابنة أختك هذا.. إنه لا يهمه إلا اللعب ولا يريد أن يعقل أبداً.

همس خطيب ابنة عمتى فى أذنى:

ـ قل لنسيبك يلمها ولا ينكد علينا، عدنا الى مجلسنا لينحر أبى بيده ذبيحتين أمام ضيوفه ويترك الباقى يوزع على بعض أقاربنا. وسرعان ما تحلقنا حول الشواء نتخاطفه وقد نسى كل منا هم دنياه.

بعد الغداء. نادى أبى ابنة امبابى فلبت وجلست أمامه وأمام أبيها فقال لها:

ـ الله الله على الجد. والجد الله الله عليه. اسمعى يا ابنتى. أنا رجل. أعيش فى بحبوحة من زرق الله. وأنت ابنتى. ولا أريد أن يكون انطباعك عنى سيئا.. لقد لمت نفسى كثيرا بعدما طلبت منك الجرار. ولما حضرت به إلى هنا أرسلت إلى أكثر من خبير لتثمينه وقد أجمعوا تقريبا على أنه بحوالى سته آلاف جنيه فزدت عليها اثنين وهاهى. ودس يده فى جيوبه فأخرجها وألقى فى حجرها. أخذت مما فعل أبى ووجمت ابنة امبابى وأسرته لهنيهة قامت بعدها ابنة امبابى واقفة وقالت:

ـ إذن أنت تطردنا بذوق يا عمى.

ـ أنا ؟ أنشل فى جسمى كله إن كنت قصدت هذا يا ابنتى.

ردت ابنة امبابى:

ـ ليس لما فعلت الآن معنى الا هذا ؟ اسمع يا عمى ابنتك صغيرة لكنها تفهمها وهى طائرة. وليس لما فعلت معنى إلا أنك تقطع ما بيننا. ما قيمة جرار قدمته ابنة لأبيها ؟

جرت ابنة امبابى موغلة فى الطريق للخروج من الحديقة وأمى من خلفها.

وكان عمى امبابى وقد زايلته الدهشة فقال:

ـ علىّ الطلاق شافعى ومالكى وابو حنيفة إن ما لمت نقودك لانصرفنا حالا. وتكون القطيعة أبدا، إيه يا حاج. ابنتى أشد رجولة من مائة رجل وإن قصرت هى فرقبتى أنا سدادة.

رد أبى وقد أحرج:

ـ تعيش يا معلم. وتعيش رقبتك. لكن..

قاطعه عمى امبابى قائلا:

ـ لكن أنت غلطان وسنعمل لك فورا حق عرب. وأولادنا هم الحكم بيننا. ماذا جرى فى الدنيا يا حاج ؟

جاءت أمى تقول لأبى:

بوعدى لأبيك وتتوثق صلتنا أكثر ما رأيك لو كان ذلك غداً؟!.

وافقت فأشار إلى بأن أبرق له بقدومنا حتى لا يفاجأ. تركته وذهبت فأبرقت وعدت لأحمل عمتى وابنتها اللتين كانتا فى منزل عمى امبابى للقاء أسرتى ضيفيه. ما إن عرفت أسرته وعمتى بأمر زيارتنا للقرية حتى شبع عمى امبابى من زوجته ومن عمتى لوما لأنه فاجأهما ولما يستعدان. وأصرت المرأتان على أن يكون سفرنا آخر النهار حتى نتمكنا من التجهيز للزيارة. لم يجد عمى امبابى بدا من الخضوع وهو يقول لى:

– معنى هذا أن نبيت فنثقل على أسرتك وهو مالا أريده.

– لا تخش شيئا فبيتنا واسع وفراش أمى كثير.

ما إن هلت الشمس حتى أملت عمتى على عمى بطاطة كشفا طويلا بمطالبها التى ستحملها معها. قبل أن يقضى بعضها ورفض الآخر متعللا بأنها أقدر منه على اختيار الافضل. أخذت عمتى لوزة معها وخرجتا لقضاء مارفضه عمى بطاطة. عادتا بعد ساعتين وقد حملتا من اللفائف ماينوء بحمله بغل وأرسل عمى بطاطة مع عاملين له الكثير وجعلت عمتى من حجرة لوزة مخزنا لقربها من باب المنزل.

حاولت إقناع لوزة بصحبتنا وحاولت عمتى إلا أنها رفضت وأصرت على موقفها لما ضغطنا عليها كثيرا، تركتنا ونزلت فتلهت بوسق خزينة العربة وشبكتها بأحمال عمتى. جاءنا رسول عمى امبابى يخبرنا أنه بانتظارنا على مدخل الحارة بعربة ابنته. نزلنا وحاولنا مع لوزة ثانية إلا أنها ظلت مصرة على موقفها لما ركبنا قالت لعمتى:

– عندما تعودين يا أمى ستجدين عمى بطاطة طار منك. سأكون قد تزوجته.

ردت عمتى:

– يا أختى. يملأه الله لك بركة.. «ما أخذته أم شعر».

انطلقنا أتقدم لأدل على الطريق حتى وصلنا.

أية حفاوة هذه التى قوبلنا بها وأى أشواق غمرتنى بها أمى بعد أن رحبت بضيوفها وأية قبلات فرقتها عمتى وابنتها على أقاربهما. وكان بيتنا غاصاً بهم ليكونوا فى استقبالنا. وأية تهان انثالت على بالنجاح. وأى عتاب كان لأننا أقلقناهم بالتأخير. سرعان مامدت الموائد فى وسط بيتنا الذى فرش بالحصير المزركش. وتحول ضيوفنا إلى قطرة فى بحر أسرتى. إلا أن أمى حرصت على ألا ابتعد عنها أنا أو خطيبتى قيد شعرة وسط تلهيها بإكرام الضيوف حتى إن أبى انتهرها لذلك لكنها مالت علينا وقالت:

– لا يهمكما منه يا أولاد. ولا تسألا فى كلامه أريد أن أشبع منكما فلا تفارقانى.

خفت كثافة أقاربنا بعيد المغرب فانتقل بنا أبى إلى حديقتنا. أحاط بنا أثناء سيرنا بعض أقاربنا بأسلحتهم المشرعة. لما وصلنا تفرق أقاربنا المسلحون من حولنا للحراسة. أخذ عمى امبابى وأسرته بجو الحديقة . سمعته يقول لأبى:

– سأظل معك بشرط أن أقيم فى هذه الحديقة إننا نختنق فى المدينة وسط الجدران.

كانت ليلة ماتعة. لما هممنا بالعودة أصر عمى امبابى وابنه أن يناما حيث هما ما كان هناك بد من أن أقضى وأبى وبعض أقاربنا بقية الليلة معهما. فى الصباح المبكر كان الكل يفطرون معنا فى الحديقة فشدة أمى وفطيرها المشلتت والجبن القديم وعسل النحل

شيطان أتاهم بهذه الفكرة عاد إلينا الصبى بالكلب . وذهب رجال المباحث بالاعرابية وحملوها بعد أن تركوا عنزاتها وغنيماتها تتشرد فى الصحراء. ناديت الحارس وطلبت إليه أن يسلم السائق القادم معنا الحمل المشبوه وطلبت من السائق أن يخرج معه بالعربة ليسرع بالانصراف فى دقائق قليلة كانت العربة تنفصل عنا بسرعة مجنونة فتنفست كأنما انزاح عنى عبء أى عبء.

تلهينا بالكلاب بقية اليوم حتى تتعرف علينا فلا تهاجمنا. سألت صبيها:

ـ متى يتم ذلك؟

قال: أسبوع على الأقل وربما أكثر.

وطلب أن نخصص حارسا يرعاهم ويتعلم منه دوام مرانهم، اعتذر حراسنا عن تلك المهمة. فعرض ان نلحق زميلا له صغيرا بخدمتنا تكون مهمته الرعاية ودوام المران راح يقنعنا بمواهب زميله، خشينا من تصرفاته الطائشة لما أخبرنا أنه لا يتعدى الخامسة عشرة. إلا أنه ظل بنا يقنعنا إلى أن قبلنا.

قدم أحمد آخر النهار قابلناه بشوق إذ لم نكن رأيناه من أيام. أخذنا نستطلع أخباره ونطمئن على أسرته. أخبرنا أنه فقط كان مشغولا لدى شركة كبيرة تعمل فى المنطقة المجاورة عهدت إليه بإصلاح معدات لها فأخذ رجاله وأقام بها إلى أن قارب الانتهاء فمر علينا ليستطلع أحوالنا ويطمئن على مبناه المجاور. قال إنه قد يسافر للخارج أسبوعا يجلب فيه معدات حديثة لورشته ونظام رى لأرضه وأرضنا كان قد قرأ عنه فى مجلة علمية واقتنع به. طلب من ابنة امبابى كما من النقود تخصه وتخصنا فطلبت إليه أن يعود معنا ليتسلمها.. سمع نباح الكلاب دهش سأل.. أخبرناه.. قال:

ـ سأبحث وأنا بالخارج أمر احضار نظام للإنذار لينبهنا إلى من يريد بنا شراً ولعلى أوفق.

عاد معنا آخر النهار فتسلم النقود التى طلبها، وقابل عمى امبابى وسأله عما إذا كان يستطيع أن يشترى له عملة صعبة. صحبه الرجل وغاب به ساعة ثم عاد فأرجع النقود لابنة امبابى: دهشنا، سألناه، أجاب بأن عمى امبابى أوصله لصديق له أعطاه خطابا لعميل له بالخارج ليأخذ منه ما يشاء وأقسم ألا يأخذ شيئا إلا بعد أن يعود أو يحادث عمى امبابى هاتفيا من الخارج ويخبره أنه حصل على بغيته. قبلنا أحمد مودعاً رفض أن نقابله بالمطار مودعين علل لذلك بأنه يكره التوديع واللقاء. قال لنا إنه قد لا يهاتفنا من الخارج لأنه سيكون مشغولا وطلب إلينا ألا نقلق عليه وأنه سيتصل بنا بمجرد حضوره. سلمنى كشفا بمستحقات عماله وأعطانى عنوانهم وطلب إلى أن أمر عليهم كلما تيسر لأذلل لهم ما أستطيع تذليله من عقبات. بر المأمور وضابط المباحث بوعدهما وزارا وأسرتاهما عمى امبابى وأسرته ودعا عمى امبابى أعيان حيه ليكونوا فى لقاء الرجلين وأولم لهم وليمة كبيرة أشبعهم خلالها حفاوة وتكريما. ولما انصرفوا حمل عربتيهما بكثير من الهدايا القيمة من مشغولات الأرابيسك التى تختص حارته بورشتها.

• • •

لما انفض سامر الوليمة قال لى عمى امبابى : بقى أن نزور أسرتك حتى أبر أنا أيضا

• • •

خرجت صباحا أنا وابنة امبابى إلى مدرب الكلاب وجدنا عنده رجل المخدرات قال لنا المدرب إن عربتكم صغيرة لا تسع الكلاب الخمسة ومدربها فضلا عن أنها قد تنبح فى العربة أثناء الطريق فتصيبكم بقرف سأرسلها فى عربة من عندى تتبعكم حتى لا يضل سائقها على أن تعطيا السائق أجرها. لما هممنا بالسير قال لنا رجل المخدرات دعا السائق يعود ببضاعتى فهو رجلنا ونستأمنه عليها.

سرنا تتبعنا عربة الكلاب، انتابنى قرف مفاجئ. لزمت الصمت أغلب الطريق. كنت أحس أن هما ثقيلا يجرى خلفى ويكتم على أنفاسى. ألحت على فكرة لاتتغير هى أن أواصل السير حتى المأمور وآتى به لأسلمه ذلك الدفين القذر. لم يمسكنى عن تنفيذ الفكرة إلا الخشية من الظنون والرغبة فى البعد عن الشر. صارت أمنيتى الوحيدة أن تذهب العربة المرافقة بالشر «إلى حيث ألقت» وصلنا لنجد ضابط المباحث كامنا عندنا هو وبعض رجاله.. ما إن رأى الكلاب. حتى قال:

ـ أنتم أولاد حلال كنت سأشير عليكم بهذه الفكرة. أخذ يختبر الكلاب واحداً واحداً وطمأننا إلى أن تدريبها جيد وأنها بحالة طيبة وفى سن مناسبة.. خيل إلى أننا نخدع الرجل. تركته مشغولا بالكلاب وانصرفت بحجة المرور للاطمئنان على مالنا المتناثر. قابلت حارسنا المغضوب عليه داخلا إلى الأرض. سألته أين كنت. أخبرنى أنه كان بالخارج يرقب اقتراب الأعرابية من جوف الصحراء أبديت دهشة لأننا لم نره فأخبرنى بأنه كان كامنا داخل تجويف أرضى وأنه لمح الأعرابية قادمة فأتى ليخبر رجال المباحث بها. سألته إن كان متأكدا أنها هى رد: إن زى الأعرابيات يدعهن متشابهات. لكن له علامة فيها هى أنها دائما تمسك عصاها بيسراها وتركب على جحش بنى قصير السوق.

طلبت إليه أن يسرع إلى ضابط المباحث ليخبره وألا يخرج معه وأن يوافينى عقب ذهابهم. أسرع رجال المباحث بالخروج واحدا إثر آخر وخرجت أمام باب الأرض أرقب مايحدث أنا ورجالنا. كانت الاعرابية تقترب من الطريق حين اعترضها أحدهم أسرعت تقفز من فوق حمارها وهى تهدده بمسدس أخرجته من جيبها إلا أن الآخرين أحاطوا بها فاستسلمت. راحوا يفتشونها ويقلبون متاعها الذى كان داخل خرجها. يبدو أنهم لم يجدوا شيئا. ناديت صبى مدرب الكلاب الذى صحبنا وطلبت إليه أن يسرع بكلب المخدرات إلى رجال المباحث وألا يتفوه بشئ يشتم منه أنه من غيرهم أو له صلة بنا.. أخذ الصبى كلبه وجرى. ما إن اقترب من الاعرابية حتى كان الكلب يجره جرا شديدا. اتجه الكلب إلى الحمار الذى كان ينسل عائدا وحده كأنه معلم، فاعترضه أخذ الحمار يراوغ لكن الكلب أحاط به وأوقفه فأمسك به الصبى ونادى ضابط المباحث الذى اتجه إليه هو وبعض رجاله وبقى الآخرون يحيطون بالاعرابية. أخذ الكلب يشد بأسنانه جوانب البرذعة ورأيت الصبى يشير إليها ويمنع الكلب عنها بصعوبة. تقدم أحد رجال المباحث فمزقها لتسقط منها أكياس كثيرة. لم أتمالك أن تمتمت: يا أولاد الأبالسة. داخل برذعة فوق حمار معلم تشاغلهم راكبته ويبتعد الحمار فتتوه معالم الجريمة . أى

ـ أفقر مني؟! أنا بنت غلبانة ستتزوج.. لا.. يا أخي.. قل نعطيهم منه شيئا. أما أن أفرقه عليهم كله.. فحرام وسفه.

خرجنا معا فجلسنا على مقهى العين النائي نتجاذب أطراف الحديث إلى أن أحسست بشئ من الخدر. طلبت إليها أن ننصرف فلم تمانع على وعد بلقاء مبكر.

دخلت على عمتي وقد أيقظني تماما هواء الطريق وجدت الأسرة ومعها لوزة يقظين أيضا مسيت فقابلتني عمتي بموالها الغاضب لأني انسللت صباحا دون حس. استغرق موالها مدة اغتسالي وصلاتي . والملعونة لوزة تشعلها نارا كلما هدأ صوتها نسبيا.

خرجت من حجرتي إليهم عقب صلاتي . لأجد ابنة عمتي قد وضعت لي طعامي. مثلت دور الغاضب الذي لن يأكل فانقلبت عمتي فورا من النقيض إلى النقيض وراحت تتحنن الى كي آكل وتدعو على نفسها لأنها سدت نفسي وعمي بطاطة يلمز لي بعينه لأتثاقل حتى بكت وقبلتني فابتدأت في تناول الطعام.

سألت ابنة عمتي كيف قابلت أمها والدي؟! فردت عمتي بحماس:

ـ أظننت أني كنت خائفة منه ياولد.. ويمين النبي كنت ناوية له على خناقة لو فتح فمه. لكنه أخذها من قصيرها ولم لسانه. رنت ضحكة لوزة وانفجرت ابنه عمتي في الضحك. فقالت لهما عمتي:

ـ آه يامقصوفة الرقبة أنت وهي تضحكان.. معلوم خاف مني ولم لسانه.

ردت لوزة:

ـ لدرجة أنه لزم باب الحجرة الداخلية وجعلت تنادينه أن يأتي ليسلم عليك ربع ساعة على الأقل حتى ذهبت إليه وسلمت عليه أنت.

ـ ردت عمتي:

ـ قومي يا ملقوقة.. أأنا حدث مني هذا يابنت؟

ردت لوزة:

ـ وهل قلت أنت.. أخوك هو الذي حدث منه ذاك؟

ووجهت ابنة عمتي حديثها إلي:

ـ يا أخي.. عمتك لما سمعت صوت أبيك ينادي قفزت إلى حجرتك فاختفت بها ورحبت به أنا فدخل. والذي طلع على عمتك قولها:

ـ مرحبة يا أخي.. أنا آتية حالا يا أخي.. مرحبة يا أخي.. مبروك لابنك يا أخي.. ربع ساعه وأبوك يبتسم وهي تردد هذه الجمل فقط. إلى أن دخل هو إليها وقبلها وأتى بها.

لكزتها عمتي وقالت لها:

ـ انخرسي يا ملقوقة.. الواحدة لا تعرف تخبئ شيئا منك.

قلت لعمتي:

ـ وأين الشجاعة يا عمتي؟

ـ شجاعة مع أبيك.. ياويلها أمك منه لا أدري كيف عاشت معه.. إنه لا يعرف التفاهم إذا غضب إلا بكفه الثقيلة. لكن الحمد لله ربنا نصرني عليه هذه المرة وأغظته بالبرقية ولم يستطع أن يفتح فمه.. آه.. أغيظه مرة من نفسي.

ـ لا تدققى كثيرا . فنحن وما نملك ملكه.

قبلنى عمى امبابى. وقال لابنته:

ـ انظرى إلى خطيبك الكريم ابن الكريم ياشيخة البخلاء علمها الكرم ياولدى تربح فىّ ثوابا. ياساتر.. أبخل أولادى. ياساتر أعوذ بالله. بنت رزقها واسع ولا تشبع . أمك حملت بك وهى عطشانة وظلت عطشانة إلى أن وضعتك. ثم وجه حديثه إلى وقال:

ـ قم ياولد نقعد على المقهى ونبعد عن سيدنا ميكائيل هذا وإلا حسابنا على السحتوت.

ردت ابنته:

ـ ولم تأخذه معك؟ ماله هو ومال المقهى.. سيظل معى هنا.

وليس له شأن بمقهاك.

قال أبوها وهو يقف:

ـ اشبعى به، بخيلة حتى فى عاطفتك ،البنت لاتريد أن يشاركها أحد فى وقت خطيبها حتى ولا أبوها.. ياساتر.

خرج الرجل فسحبتنى من يدى إلى حجرتها وهى تقول بغيظ بعد أن خرج:

ـ قال يا ساتر.. قال:

ـ ياساتر ممن؟ منى أنا؟ أم منه هو؟! إلا انه ذهب مشواراً واحدا يتقاضى فيه أكثر من ستة آلاف جنيه.. ياباى . وقال أنا بخيلة قال!

ـ لاتحسبيها هكذا.

ـ علمنى الحساب أنت.. كيف أحسبها إذا لم أحسبها هكذا. أبى لا يبنى حياته ولا يخطط للمستقبل ويكسب من مصنعه فقط مالا يقل عن سبعين الف جنيه سنويا.. ومع ذلك فأنا حائطه المائل لم لا يأخذ من أولاده الصبيان؟ قالوا يا أهل الولايا أم يا أهل الرجال؟ شئ يخرج عن الشعور. أتعرف ماذا سيحدث الآن؟ سيركب فيتونه ويمر على بيوت أولاده الصبيان يمنح كل واحد خمسمائة جنيه على الأقل من رزقى أنا الولية الغلبانة شئ يجنن .. شئ..

قاطعتها:

ـ ألا تعطينى فرصة لأتحدث.

ردت بضيق:

ـ قل يا أخى.. طبعا ستدافع عنه.. أنتم معشر الرجال تدافعون عن بعض.

ـ اهدئى أولا.

ـ هدأت .. قل ياسيدى.

ـ ما رأيك فى كلام الرسول؟

ـ اللهم صل عليه. ما ينطق عن الهوى.

ـ يقول فى مثل هذا الموقف. «أنت ومالك لأبيك».

ـ خلاص.. مادام النبى قال هذا.. أسمع وأطيع.

ـ إذن لاتفكرى فى هذا الأمر ثانية.. وليتك توزعين باقيه على الفقراء.

قال الرجل:
ـ على كيفك؟ كل ما أرجوه ألا تسلمها لغيرنا. ونحن سنتصرف فى نقلها.
ـ لك هذا ستظل فى مكمنها. إلى أن ترسل من نشير له عليها من بعيد لبعيد.
أثناء العودة اتفق عمى امبابى مع الرجل أن يعطى مدرب الكلاب ثمن ما اشتريناه من كلاب مدربة وان يوافيه بباقى ثمن المخدرات. على حين لزمت الصمت المطبق. لما دخلنا مدينتنا طلبت من عمىَ امبابى أن يدلنى على الطريق الموصل لحى الرجلين. أخذ يوجهنى إلى أن وصلنا فأصر الرجل على أن نشرب عنده قهوة. رفضت وأصر فقبلت أن تكون فى المقهى. جلسنا على مقهى قريب من منزله. وأستأذننا فغاب لدقائق وعاد ليسلم مدرب الكلاب ثمنها فتناولتها وقلت: ستظل معى إلى أن يورد بضاعته.
إلا أن عمى امبابى أمرنى بإعطائها للمدرب. وقال:
ـ هى فى ضمانى فنحن أولاد بلد نتعامل بكلمة الشرف.
ناولتها للمدرب فقال:
ـ إن أحببت أن تتسلم الآن أسلمك.
ـ غدا صباحا بأمر الله.
وناول الرجل عمى امبابى ثلاثة وعشرين ألفا وشربنا قهوتنا. وانصرفنا إلى منزل عمى امبابى، لقيتنا ابنته ظاهرة الدهشة لما رأتنا معا. نظرت إلى كأنما تسألنى أين كنتما. طلب منها أبوها أن توافينا بالطعام وفى أثنائه راح يقص عليها ما حدث.
وهى وأمها وأختها مأخوذات.
عقب الطعام. ناولها نصف ماقبض وقال: هو لك وللاستاذ حقكما.
قلت:
ـ حد الله ما آخذ شيئا.
قال:
ـ لا تكن حنبليا. أكنت تريد أن أهديها الى الرجل الذى اشتراها لأزيد ملايينه ألوفا؟!. أم كنت تريد أن أفرقها على خلق الله لأزيد عدد المساطيل؟!. لم يكن أمامى إلا هذا. وما أعطيتكما الآن تعويضا عما كان يمكن أن يحدث لكما. كن مرنا ياولدى والبس لكل وقت لبوسه. وإن كنت تريد أن أحرقها لأبخر بها الصحراء وأبسط حياتها وعقاربها.. سأفعل. ياولدى.الدنيا ليست هكذا.
لزمت الصمت أفكر فيما قال على حين أعطى ابنته خمسة آلاف جنيه وقال:
ـ فرقيها على حراسك وعلى سائقيك حسبما يعن لك. اطعمى الفم تستحى العين وخصى الحارس الذى سنضطر إلى سحبه بالمزيد منها فهو صاحب عيال ورماه القدر بما يقطع رزقه. أما باقى المبلغ فاعتبريه سلفة منك لأبيك لأنى مزنوق بعض الشئ هذه الأيام.
ابتسمت ابنته وقالت:
ـ ترد أولا ترد.
قلت:

ابتسم المأمور وقال:
ـ لكن من كانت تطعمنا ليست هنا.
ونظر إلى وسألنى:
ـ أين حبك ياولدى؟.. لماذا تخلى عنك اليوم؟ حذار أن تكون له مغضبا وإلا لن تخلص من زوجتى فقد غدت تشاركك فى حبها.
ابتسمت وقلت:
ـ وهل أقدر على إغضابها ياسعادة المأمور.. فقط متوعكة بعض الشئ.
قال المأمور:
ـ إذن نرجئ غداءنا إلى أن تبرأ. فلن يكون للطعام طعم وهى غائبة.. ثم إن وراءنا بعض المهام.
عندما خرجنا من الاستراحة لنشيع المأمور وضابط المباحث .. نادى حارسنا وقال له سأوافيك غدا مبكراً أنا وبعض الرجال متخذين هيئة عمال.. ليس مطلوبا منك أكثر من أن تشير إلينا على الأعرابية عندما تراها قادمة.
انصرف رجال الشرطة. فسألت الحارس:
ـ أحقا أنك اشتريت هذا المخدر من الأعرابية.
ـ لا.. ولكنى أعرف أنها توزعه.
قال عمى امبابى:
ـ إذن سرقته مما أرسلتك لتخفيه.
ـ وليس هذا أيضا.. إنها قطعة تركها معى رئيس عمال المقاول أمس لأحفظها له.
رد عليه عمى امبابى:
ـ مغفل.. تعرف أن رجال الشرطة قادمون وتدعها فى جيبك؟
ـ والله لقد نسيتها تماما.. أنت تعلم أنى لا أتعاطاه. لكن لم يكن أمامى إلا أن أقر بتعاطيه لحضرة الضابط لآخذ حكما مخففا.
قال عمى امبابى:
ـ ربنا يستر على كل حال.. ثم نظر إلى وقال: هيا لتوصلنا.
قال الرجل الذى عرض شراء المخدرات على عمى امبابى.
ـ ألا نحضر البضاعة معنا؟ قلت :
ـ ولا بملء الأرض ذهبا.. ولا شأن لى بها مطلقا. حد الله. أعوذ بالله. أحمل حية بجوارى فى العربة.. ياساتر.. يفتح الله ياعمى.
ابتسم الرجل وقال:
ـ انت قلبك خفيف يا أستاذ؟ بالرغم من أن سيرة شجاعتك وصلت إلينا فى حى قايتباى.
ـ وما دخل الشجاعة فى الحيات والعفاريت؟ والمجنون فقط هو الذى يستتيم لها.
قال الرجل: الله يكرمك يا أستاذ. معنى هذا أنى مجنون؟
ـ العفو.. أنا لم أقصد إلى هذا. لكن هذا شئ. والشجاعة شئ آخر.

تخبئها؟

دس الحارس يده فى جيبه وأخرج قطعة كبيرة وضعها أمام المأمور. فابتعد عنه الكلب الذى كان يرده الحارس عنه بصعوبة وشب على المنضدة التى وضع عليها الحارس قطعة المخدرات وأخذ يتشممها بتلذذ.. ابتسمت وقلت:

ـ حتى الكلاب تتكيف؟!

رد الحارس :

ـ حتى يعذرنا سعادة المأمور.

رد المأمور:

ـ أعذرك يابن ال.... وأنت ستوحل الناس معك؟! كل هذه القطعة! من أين أتيت بها ياولد؟

ـ اشتريتها من أعرابية تسرح يوميا بعنزات وتمر بجوارنا.

سأله ضابط المباحث:

ـ وهل مرت اليوم تلك الأعرابية؟

ـ كنت مشغولا بالضيوف فلم ألحظها.

مال ضابط المباحث يتهامس مع المأمور. فقال المأمور للحارس:

ـ تعرف أننا نستطيع أن نحبسك الآن ونقدمك للمحاكمة لتشرف فى السجن بضع سنين.

ـ أعرف ياسعادة المأمور.

تدخل عمى امبابى:

ـ اعمل معروفا ياسعادة المأمور. إن له كومة من الأولاد يربيها ولا أريد أن أكون سببا ولو من بعيد لتشردها.. اعف عنه ياسعادة المأمور وامسحها فى ذقنى أنا، ولن يظل فى العمل هنا بعد الآن.

رد ضابط المباحث:

ـ نعفو بشرط.

قال عمى امبابى:

ـ كل ما تمليه أضمن تنفيذه.

قال ضابط المباحث:

ـ أن يدلنا على الأعرابية.

ـ الأعرابية ومن خلفها أيضا ياسعادة البيه.

قال المأمور للحارس:

ـ اخف قبل أن أقوم فأرقع أصداغك.

خرج مطأطئا رأسه. استوقفته. وقلت له:

ـ اشكر سعادة المأمور ياولد.

هم المأمور وضابط المباحث بالانصراف. إلا أن عمى امبابى وأنا أصررنا على أن يتناولا غداءهما معنا.

للحراسة والبحث.

سألت الرجل:

ـ كم يكفينا منها؟

ـ أربعة للحراسة وواحد للمسح.

قال عمى امبابى:

ـ ما باليد حيلة. لكن ألا تحتاج هذه الكلاب إلى معاملة خاصة؟.

قال الرجل:

ـ سأرسل معها أحد صبيانى ليدرب أحد عمالكم على رعايتها ومعاملتها ومداومة دربتها.

سألته:

ـ وبكم؟

ـ مبلغ بسيط خمسة آلاف فقط.

ـ ولو لم يكن فقط؟.

ـ هذا السعر فيه إكرام كبير لعمنا امبابى.

دخل معه عمى امبابى فى مماكسة على طريقة المعلمين انتهت إلى أقل من نصف المبلغ. بشرط ألا ندفع إلا بعد أن نطمئن على حسن دربتها ويتدرب أحد رجالنا ووعد الرجل بالتنفيذ فوراً.

جاء المأمور وضابط المباحث وبعض الجند يصحبون معهم كلبا معلماً، لقى المأمور عمى امبابى لقاء حاراً. ولقينى بعتاب شديد لما علم أنى نجحت ولم أبلغه وازداد عتابا لما عرف أن أبى كان هنا ولم يمر عليه ليراه. تمحلت بأن أبى كان ناقما علىّ غير راغب فى البقاء. لأنى توانيت فى بعض ما أراده منى. لامنى المأمور على إغضابى لأبى وأوصانى به خيرا وأكد على بعزومة يقيمها لى أنا وخطيبتى بمناسبة نجاحى.

تدخل عمى امبابى قائلا:

ـ من يقيم لمن ياسيادة المأمور؟ أنت الذى ستشرفنى أنت وحضرة الضابط لقد وعدتمانى بزيارة . وأنا أطلب أن تبرا سأولم أنا لكما أنتما وأسرتاكما بمناسبة نجاح خطيب ابنتى. ولابد أن تحددا الموعد الآن.

اتفقا على يوم الجمعة القادم وكان الباقى عليه يومين.

أمر ضابط المباحث أحد جنوده بمسح الأرض بالكلب. خرج وعاد قابضا على الحارس الذى أمره عمى امبابى باخفاء المخدرات. هز ضابط المباحث رأسه. وتمتم:

ـ فهمت.

ـ أخذت عندما سمعت كلمته. لكنى بلعت ريقى عندما سأله:

ـ أتتعاطى مكيفات ياولد؟

ـ أحيانا ياسعادة البيه كلما تيسرت.

علق المأمور:

ـ وطبعا كانت متيسرة هذه الأيام.. ترى مزاجك أنت وتودى بالناس فى داهية. أين

ما إن دخلنا وقابلنا الحراس حتى تغير لون أحدهم وتلعثم وهو يرحب بعمى امبابى ففاجأه عمى امبابى بقوله:

ـ أرحنا وأرح نفسك.. وقل لنا أين المخدرات؟ الكلب سيكشفها سيكشفها فلا تتعب نفسك.

أقسم بكل مقدسات الأرض. أنه لم يجلب شيئا وأن كل ما هناك أنه لاحظ من أيام لفافة ملقاة وسط الهيش المجاورة للسور فاتجه اليها فإذا به يجد ثلاث لفائف أخرى. فضها فعثر بكل على نوع مختلف من المخدرات فخبأها ليأخذها معه ليبيعها عندما ينزل فى إجازته لأنها بالألوف.

طلب إليه عمى امبابى أن يحضرها فنبش الأرض فى مكان مجاور لمأواه وأخرجها. قلبها أحد الرجلين القادمين معنا وتشممها ولفها ثانية . وقال لعمى امبابى:

ـ أنت وأولادك مرزوقون يامعلم. عشرون ألفا هبطت عليك من السماء.

ابتسم عمى امبابى. ورد:

ـ أو تأبيدة زورا فى زور لمن لم يدخلا الدنيا بعد.

ناولها عمى امبابى لأحد الحارسين وطلب إليه أن يخرج بها بعيدا عن الأرض بسرعة لأن الشرطة قادمة وأن يخفيها فى بطن الصحراء المجاورة.

قمنا لنمسح الأرض ولنعرف أين كانت، وجدنا لفافة خامسة أحضرها الكلب فلحقت بالأربع السابقة.

قلت لعمى امبابى:

ـ قد نفاجأ فى أية لحظة بالمأمور وضابط المباحث ومن الأفضل ألا يشعر أننا مسحنا الأرض قبلهما. وافق وطلب من صاحب الكلب أن يلبسه كمامته حتى لاينبح وسلمه لأحد حراسنا وطلب إليه أن يربطه فى مبنى ورشة الدكتور أحمد.

جلسنا نتناقش فى احتمالية دس المخدرات لنا. استقر رأينا على أنها فعلة الأعراب ليوقعوا بنا فى يد الشرطة. وأنهم من الخبث إلى حد أنهم ألقوا بها من فوق السور فى منطقة الهيش حتى تتوه بينه فإذا ما مرت إحدى دوريات الشرطة اكتشفتها كلابها وداهمتنا.

أبديت استغرابا لتضحيتهم بكل هذه القيمة المالية كى يوقعوا بنا. فرد من عرض شراءها:

ـ إنها عندهم لاتساوى أكثر من عشر تلك القيمة ، وهو مبلغ ضئيل جدا لمهربيهم الذين يملكون الملايين.

واقترح على أن أحتفظ بأحد الكلاب المدربة ليمسح الأرض باستمرار خشية تكرار المحاولة التى سيكررونها إلى أن يسقط فى أيديهم تماما.

قلت:

ـ إلى أن نجد الكلب المدرب مثل كلبكم نكون قد ذهبنا خلف القضبان.

رد الرجل مشيرا الى صاحبه:

ـ هذا الرجل عنده الكلاب المدربة لكل المهام. وهو على استعداد ليبيعكم بعضا منها

عادية وسوف يكون معى كلب مدرب من كلاب الشرطة. إن عثر على شئ فلابد من تغيير طاقم الحراسة عندكم كله.

لم تكن ابنة امبابى قد سمعت شيئا من همسنا ولم أشأ أن أخبرها بشئ حتى لا أسبب لها اضطرابا. واتخذت طريقا غير طريق الأرض أثناء عودتى. أبدت دهشة. تعللت بأنى يجب أن أعود من أجل خاطر عمتى التى أوصانى أبى بها خيراً. لم تقتنع لكنها استسلمت. أوصلتها إلى منزلها وانصرفت مهموماًإلى منزل عمتى الذى كان يلفه النوم بعباءته.. انسللت بهدوء إلى حجرتى حتى لا أوقظ أحدا. ومن عجب، أن عمتى التى يوقظها دبيب النمل لم تشعر بى.

اسلمت وجهى لله وأنا أستلقى على فراشى وخاطبته قائلا: «فعال لما تريد». سرعان ما ألقى الله على نوما عميقا حتى صحوت على صوت مذياع الجيران العالى يتلو قرآن الصباح قمت لأجد الأسرة كلها مستغرقة ولم تكن تلك عادتها. تحركت بخفة حتى لا أنزعها من سباتها. صليت وارتديت ملابسى عازما على أن أشرب شايى مع عمى امبابى على المقهى لأحدثه بما كان من ضابط المباحث وأستأنس برأيه.

انسللت خارجاً أطوح الصباح ذات اليسار وذات اليمين على من أصادق من أهل الحارة.. وجدت الرجل يجذب أنفاس النارجيلة. هش وبش لكن أمارات الدهشة ظهرت على ملامحه. أجلسنى بجواره وطلب لى الشاى، وأخذ فى حديث حول أبى وأى صنف من الرجال هو. وأن أمثاله غدوا عملة نادرة فى زماننا.. وأخبرنى أنه حين أرسلت عمتى إليه ليصحبه إلينا. ضجر أولا. فلما قابل الرجل وبانت خصائصه له تمنى لو لم يفارقه كلية. كان قد انتهى من حديثه المعجب بأبى وانتهى أيضا من اصطباحته بالنارجيلة فوجدت أن الوقت قد حان لأحدثه بما أهمنى. ما إن بدأت حتى أقبل علىَّ كلية ولما انتهيت وقف وقال:

ـ دقائق.. لن أغيب.

تلهيت بجرائد الصباح وكذبها العبيط على خلق الله حتى غدت من غير جفون. ماذا يظن من يرسم لها طريق الاستعباط. أيظن أنه وحده ذو العقل والناس كلها ذو زلابية. ألقيت بالاستعباط جانبا وأخذت أتطلع إلى قدود الجميلات فذلك أشرح للصدر. جاءنى رسول يستدعينى لعمى امبابى ويطلب إلى أن آخذ معى عربتى. عدت إلى حارة الخواص فأحضرت العربة دون أن أصعد إلى عمتى وأركبت معى رسول عمى امبابى وتركت له مهمة توجيهى. انتهى بى السير إلى خلاء قرافة قايتباى، لمحت عمى امبابى ومعه رجلان يقود أحدهما كلبا ضخما مكمما. ركب عمى امبابى بجوارى وركب الرجلان والكلب من خلف. طلب إلىَّ عمى امبابى الاتجاه الى الأرض فهمت مرماه وأنه يريد أن يمسح هو الأرض قبل رجال الشرطة. كان طول الطريق يردد جملة واحدة.. ربنا يستر ويكشف. لما لاح سور الأرض قال لى ولأحد الرجلين:

ـ أريدكما أن تركزا على وجوه الحراس ولا تتشاغلا بما يفعله الكلب حتى نستطيع أن نضع يدنا على الخيانة وبخاصة فى الوهلة الأولى لنا، قبل أن يتماسك الخائن ويروض نفسه على المواجهة.

كريم.. لأنها لا تأمن أن تكون لوزة قد رددت إشاعة البخل عنها وعن أسرتها..
سألتها:
ـ ولم لم تأخذ ما عرضه أبى من ثمن الجرار؟
ـ ولن نأخذ شيئا.. لقد ربحنا كثيرا.. وماذا فيها لو أهدينا لأبينا ما لايؤثر علينا. الجرار لم يخرج بعيدا لأنه انتقل إلى أرضنا أيضا. وبه نسفت كل ما قد يحدث مستقبلا من لبس أو سوء فهم بين أسرتينا.
لم أتمالك أن قلت.
ـ يابنت الجنية.
ابتسمت قائلة:
ـ لا تخف على حبك.. حبك يجيد التعامل مع البشر ويستطيع أن يستقطبهم تماما لصفه.

● ● ●

لم يكن وراءنا شئ معين نطلبه من المدينة ولم نجد رغبة فى العودة إلى أسرتينا. فكرنا فى زيارة أى من الأسر الثلاث التى تعارفنا إليها فى هذه المدينة إلا أننا عدنا فأبعدنا تلك الفكرة وانتوينا أن نكمل السهرة بمقهانا ثم نبيت فى الأرض. وتشاغلنا فى حديث حول ما يجب أن نفعله لنسرع بالانتاج من أرضنا ومصنعنا وفجأة وجدنا طفلة تندفع نحو ابنة امبابى التى تلقفتها وأخذت تقبلها كانت ابنة ضابط المباحث التى أشارت إلى حيث يوجد أبويها فاتجهنا إلى حيث يجلسان.. رحبا بنا ودعوانا إلى مائدتهم تشاغلت زوجة الضابط فى حديث مع ابنة امبابى ولزمت وهو الصمت نسمع إلى الاهتمامات النسائية. وفجأة سألنى:
ـ أود أن أسألك عما إذا كنت تثق تماما برجالك؟
ـ أثق؟! نعم.. أما تماما هذه فلا يضمنها إلا الله لأنه سبحانه وحده يعلم ما تخفى الصدور. لكن لم؟ أم أنه من أسرار شغلك كرجل مباحث؟
ـ لقد كنت فى مرور من ليال وكانت معى بعض كلاب الشرطة المدربة على اكتشاف المخدرات. ومررت بجوار سور أرضكم الشرقى. ودهشت حين رأيت الكلب يتجه إلى السور ويريد اقتحامه. ولولا ثقتى الزائدة فيكما أنت وخطيبتك. لكان لى معكما شأن آخر.
ـ شئ محير.. ربما كان أحد رجالنا يتعاطاه ولا نعرف.
ـ لقد ناقشت السيد المأمور فى هذا الأمر فرجح أن يكون الأعراب قد استطاعوا تجنيد أحد رجالكم وجعلوا من أرضكم مخزنا للمخدرات دون أن تشعرا. وللنقود إغراؤها.
ـ جائز.. وتكون كارثة.. يربح هو والأعراب ونذهب نحن فى أبى نكلة ظلما وزوراً.
صمت لحظات، سألته بعدها:
ـ وماذا ترى؟ كيف.. أتوصل إلى حل لهذه الكارثة؟
ـ أنصح بألا تبيتا فى الأرض.. وسأوافيك أنا وسيادة المأمور غدا كأننا فى زيارة

على أدنى خطأ ليشرف ابنتك ويرفع رأسها دائما..
كنا قد وصلنا قرب المعدات. فسأل إن كنا قد بعنا كل الجرارات الزراعية.
فردت ابنة امبابى : ليس بعد.
قال:
ـ إذن بيعونى واحدا منها كما تبيعونه للغرباء. أشتريه كما فصل فأنا فى حاجة إلى واحد لخدمة أرضى.
ووضع يده فى جيبه فأخرج رزمة أوراق مالية قدمها لابنة امبابى.
وأردف:
ـ هاك ألفى جنيه من ثمنه هى التى فى جيبى وعندما تشرفونا فى القرية أكمل لكم باقى ثمنه.
ـ أمعقول ياعمى ندعك خالى الجيب.. لما نحضر نأخذ.. الدنيا لم تطر بعد. أصر أبى على الدفع وأصرت على الرفض فتدخل عمى امبابى قائلا:
ـ عيب ياحاج الأولاد أولادنا ومالهم مالنا خل النقود معك الآن.
ـ قد يكونان محتاجين لها لبعض شأنهما يامعلم امبابى وواجبنا فى هذه المرحلة من حياتهما أن نشجعهما وأن نعطيهما لا أن نأخذ منهما.
رد امبابى:
ـ ياسيدى أنا بدلا منك.. إن احتاجا أعطيتهما.
نادت ابنة امبابى أحد سائقينا وأمرته أن يحمل جراراً على عربة النقل ويسافر به مع أبى وهمست فى أذنه بكلمات فهمت أنها تؤكد عليه ألا يتقاضى أجر النقل.
تصرف الرجال فى تحميل الجرار على العربة. وقبلنا أبى أنا وابنة امبابى وودع عمى امبابى وركب بجوار السائق وقال قبل أن تتحرك العربة:
ـ أخبر عمتك أنى سافرت وخل بالك منها ولا تحزنها مطلقا لأى أمر فأنا لا أطيق ان أراها حزينة. فابتسمت وقلت:
ـ بأمارة ما..
وأشرت بكفى كأنى أضرب.. فقال:
ـ هذا شئ من لزوميات الحياة لكنه لا يؤثر على الأخوة ياعفريت..
تحركت العربة فأشار لنا بيده وانصرف وركب عمى امبابى عربته المستأجرة ورحل هو أيضا. فاستأنفنا رحلتنا إلى مقهى الترعة.
قضت ابنة امبابى الطريق كله وأغلب جلستنا تعاكسنى بحديث أبى وتهددنى به وتزعم أنها وجدت لها حماية من عسفى وبطشى بها وتسلطى عليها.. ومن دكتاتورية الرجال غير العادلة.
سألتها:
ـ أما كان يكفى طعام عادى وبخاصة أن أباها وأبى غير غريبين عنا؟
ردت:
ـ إنه الانطباع الأول مع أبى عنها ولابد أن يتركها وهو متأكد أنها أهل كرم ومن بيت

ـ إلى أين يا ابنتى.

ـ تأكل لقمة فالهواء هنا يبعث على الجوع. وقد أجعناك وأبى بما فيه الكافية.

رد أبى:

ـ شوفى الولد العكروت هذا.. وأشار إلى.. أنسانى لقد أحضرت لكما معى فى العربة شيئا مما حملتنى به أمه له.

ـ أهو عرضة للتلف ياعمى؟

ـ لا.. إنها أشياء فلاحى.. على قد حالنا يا ابنتى بعض المشلتت والقشدة.

ـ الله.. كانت نفسى فيها ياعمى سأستأثر بها وحدى.

وقالت للحارس:

ـ أحضر ما فى العربة وضعه فى المطبخ فوجئ أبى بذبيحة مشوية.. أخذ.. دهش.. قال:

ـ ولم تكلفان نفسيكما يا أولاد.. أنحن غرباء؟

ردت ابنة امبابى:

ـ ومالنا وللغرباء.. أنت وأبى أعز مالنا يا عمى.. وإذا لم نقم بالواجب لكما ما كان فينا خير لغيركما.

دعا أبى لها بخير وأكلا بنفس مفتوحة والحديث ذو شجون.. لما انتهينا.. كانت الذبيحة.. تكاد لاتنقص شيئا.. أعطت لرجالنا نصيبهم ولفت الباقى ودفعت به إلى العربة ليحمله أبوها معه لأسرتها.

عندما هما بالانصراف قال لى أبى:

ـ أمك تجننت من أجلك.. لم يبق بينها وبين مستشفى العباسية إلا شعرة.. نكدت على عيشتى.. لابد أن تحضر إلى القرية أنت وأسرة عمك امبابى.

فى أول فرصة ممكنة لتلحسك أمك لحستين يردان عليها عقلها. كانت تريد أن تحضر معى لولا أن عندنا اليوم محصولا تخزنه ولا يعقل أن أغيب أنا وهى عن الدار والمحصول داخل، حذار من أن تحضر بدون أنسبائك. وحذار أن تدعنى فى تيه ثانية. أعرف أخبارك من خلق الله.. عيب.. وإلا والله العظيم.. أنت عارف مايحدث لك.. لقد سامحتك هذه المرة إكراما لعمك إمبابى ولعروستك. لاتظن أنك كبرت على أبيك.. ستظل صغيرا أمامى طالما أنا حى ولما أموت. افعل ما يحلو لك أفاهم ياولد.. أنت تعرف كفا واحدة تنطرك عشرة أمتار.. آه.. لا تقل أنى كبرت ولن يضربنى أبى. تخطئ تنكسر رقبتك فوراً. أفاهم؟!.

ثم نظر إلى ابنة امبابى وقال:

ـ يا ابنتى.. هذا الولد الخلبوص. إن عاكسك أو لعب بذيله معك.. أخبرينى فورا.. أدق لك رأسه فى الأرض.. آه.. لقد ربانا أهلنا على الرجولة والواجب فإن أخل بهما لا تدارى عليه وإلا ذنبك على جنبك إن جئت بعد هذا شاكية.

ثم نظر إلى عمى امبابى وأردف:

ـ وأنت يامعلم امبابى الولد صار ابنك وأمانة عندك أنت بدلا منى حاسبه أولا بأول

ـ أنت والولد العكروت هذا. ولكزني لكزة خفيفة.. قهوتي .. والله يا ابنتي لقد شبعت من الدنيا حين رأيتكما ولا أريد أن تفارقاني للحظة.. اجلسي يا ابنتي واجلس حتى أشبع منكما.

ـ لا يصح ياعمي.. حالا سأتي بالقهوة.

قال لها أبوها آمراً:

ـ اسمعي كلام عمك.. فلسنا ضيوفا.

امتثلت لأبيها وجلست وأومأت للحارس الأول الذى كان يقف على مبعدة فحضر فأسرت اليه بكلمات. إلا أن أبى سأله:

ـ ماذا تقول لك؟

ـ لا شئ يا عمي الحاج.

وهم بالانصراف.

وجه ابى حديثه إليها:

ـ بماذا أمرتيه يا ابنتي؟

ـ لا شئ يا عمي.. بأن يصنع هو القهوة.

انصرف الحارس وأخذ أبى يستفسر عن الأرض وما حولها.. وطمأننا بخبرة الفلاح المصرى على أنها ستكون أرضا جيدة.

سأله امبابى:

ـ وكيف عرفت ياحاج؟

ـ لنا علامات نعرف بها جودة الأرض من عدمها ومن أهمها ما ينبت فيها طبيعيا فإذا كانت تنبت الحفل نفل فقط فهى أرض لا خير فيها ولا داعى لأن نتعب أنفسنا فى استصلاحها لأنها لن تغل شيئا. أما إذا كانت تنبت الحلفاء والهيش. أقبلنا على زراعتها برغم أنها تتعبنا بدءاً فى تنقيتها منه ومن جذوره القوية.

علقت ابنة امبابى:

ـ لكن العلم الزراعى تقدم يا عمي الحاج وهو يعالج كل مشكلات الأرض.

ـ ومن أين لنا يا ابنتي بالعلم.. ياليته كان فى متناول يدنا. البركة فى جيلكم أنتم.

ونظر إلى عمي امبابى وأكمل:

ـ أليس كذلك يامعلم امبابى؟

رد عمي امبابى:

ـ معلوم ربنا يحسن أيامهم ياحاج.

ذكريات أبى وعمي امبابى اللاتى يتبادلانها. تأكل الوقت وأنا وابنة امبابى نلتزم الصمت تأدبا ولا نتدخل إلا مستفسرين وحديثهما شيق وتجاربهما مفيدة والوقت يمر إلى أن عاد حارسنا الأول بعد حوالى ساعتين وأسر فى أذن ابنة امبابى بحديث فقامت قائلة:

ـ تفضل يا عمي الحاج تفضل يا أبى.

سأل أبى:

بالأرض وعلى باقيها وأنه يخصنا نحن حتى لا يتعرضوا لأحمد بسوء.

قدمت ابنة امبابى للحراس بعض الحلوى وهى تخبرهم انها بمناسبة نجاحى، فانثالت تهانيهم ودعواتهم وجاء المقاول فأكرمته بحلواها فلم يتمالك أن قبلنى وهنأنى وهنأها أيضا. وعزمنا عنده فى أى يوم نحدده تكريما لنا بهذه المناسبة. عرض شراء بعض المعدات التى نستغنى عنها واتفقنا على الثمن وسلمناها له خصماً من حساب أحمد.

خلوت وابنة امبابى نتناقش حول الكلية التى سألتحق بها، لم نصل إلى قرار إذ كنت أميل إلى الأسهل مادمت لن ألتحق بوظيفة عقبها وكانت تود هى الأصعب لأكون كأحمد علماً، فضلا عن حاجتنا مستقبلا إلى علم غزير ننمى به أرضنا ومصنعنا. أرجأنا النقاش لنفكر من جديد ثم نعاوده.

لم يكن وراءنا شئ معين نصنعه فاقترحت أن نزور المأمور ونقضى بقية يومنا فى مقهى الترعة. كنا قرابة الظهر عندما خرجنا بعربتنا من باب الأرض لنلمح عربة مقبلة نحونا فتوقفنا نستطلع القادم إذ لم تكن عربة أحمد.

لما اقتربت العربة تبينت أبى وعمى امبابى بداخلها. قلت فى نفسى: «جاء الموت ياتارك الصلاة». لكن سرعان مازايلنى الخوف والرهبة عندما قرأت ملامح وجه أبى الذى أعرفة فى كل أحواله غاضبا.. راضيا.. حزينا.. مهموما.. مفكراً.. مسروراً وكانت الأخيرة هى التى تملأ وجهه تشجعت وتقدمت منه وهو ينزل باسطا يدى مرحبا.. مد يده فقبلتها واحتوانى بين ذراعيه يتمتم «مبروك ياولد». ولما أطلقنى بعد أن غمرنى بقبلاته اتجه الى ابنة امبابى مادا يده إليها فأسرعت نحوه مسلمة عليه فظل ممسكا بيدها لهنيهة وعيناه تتفحصانها طولا وعرضا ومن عجب أنه هو الذى كان يرحب ويحيى أما هى فقد أربكها الحياء فراحت ترد بتلعثم عليه وترحب به بقدر ما أسعفها خفرها.

ظل أبى ممسكا بيد ابنة امبابى بيد واضعا يده الأخرى على كتفى وهو يضمنى إليه. يتقدمنا عمى امبابى إلى داخل الأرض. جرى الحراس نحوه ورحبوا به ويأبى حين عرفهم عمى امبابى به اتجه بنا عمى امبابى أولا إلى مبنى المصنع وتولى الشرح لأبى ثم اتجه إلى المواسير المدقوقة فى الأرض وكان أحمد قد ركب عليها آلة رفع المياه وهم أن يتحدث عنها إلا أن أبى بادره بالحديث عنها هو.. ثم سرنا نحو المعدات التى أصلحها أحمد وأخذ أبى يسأل وابنة امبابى أو أنا نجيب ثم واصلنا سيرنا حتى استراحتنا. التى كان أحد الحراس قد سبقنا إليها وفتحها لاستقبال ضيوفنا. وصلنا الاستراحة ومازال أبى قابضا على وعلى ابنة امبابى كأنما يخشى أن نطير منه أجلسنا الى جواره.

همت ابنة امبابى أن تقوم سألها أبى:

ـ إلى أين ياسيدة العرائس؟

ارتبكت.. تلعثمت وهى ترد:

ـ أصنع قهوة لحضرتك.

رد أبى:

لكزتنى ابنة امبابى لألحظ أن يد أختها نامت كثيرا فى يد ابن خالة أحمد.

قضيت باقى السهرة فى حجرة ابنة امبابى يدور بنا الحديث فى كل واد. تركتها فى نهاية السهرة على اتفاق بموافاتها صباحا لنذهب إلى الأرض لنستأنف نشاطنا العملى.

قضيت ليلتى أفكر فى أن ألغى ذهابى إلى الأرض وأسافر إلى قريتى لأرى أمى وأطمئن على أسرتى. لكنى كنت أعود فألغى هذه الفكرة لأن أبى كان محرما على نزول القرية الى أن ينسى الناس موضوع زوجة هزاجة ثم يعود شوقى الغامر لأمى وأترابى يغلبنى فأقرر ثم ألغى ثم أقرر ثم ألغى إلى أن غلبنى النوم فأرى أشياء مشوشة لا أتذكر منها شيئا. ثم أصحو على صوت عمى بطاطة آتيا من الردهة يتلو أذكاره بعد صلاة الفجر. استمتع بالتكاسل بعض الوقت ثم أحس بازدياد الضوء فى حجرتى وأخشى أن تفوتنى صلاة الصبح حاضرة فأقفز فجأة لألحق بها فى وقتها. ثم أعاود الفراش لتتداولنى الأفكار بين يديها فتقلبنى على كل وجه.

● ● ●

تسألنى عمتى وأنا أرتدى ملابسى. إلى أين؟ فأخبرها. تعترض متعللة باحتمالية حضور أبى وأمى اليوم بعد أن وصلتهما برقيتها. أداعبها: بأنها غالية عندى ولا أحب أن أراها وهى ترقع العلقة المضبوطة من أخيها فلا أستطيع حمايتها. ترد:

ـ لن يكون ولن أسمح له..

تعلق ابنتها مبتسمة:

ـ طبعا يا أمى أنت بطلة مع خالى ويعمل لك ألف حساب وحساب.

تتلقى ابنة عمتى لكزة من أمها وهى ترد عليها:

ـ معلوم بطلة يا ملقوفة. لكن الاحترام واجب لذا أتحمل رذالة أخى منذ صغره وضربه لى شرف.

فأتمادى فى مداعبتى لها بقولى:

ـ إذن اسعدى بهذا التشريف وحدك.

فتسألنى:

ـ وماذا أقول له إذا سألنى عنك؟

ـ قولى.. خاف منك فهرب.

ولم أكن أعدو الحقيقة فى ردى ذلك. ركبت بجوار ابنة امبابى وانطلقنا بالعربة إلى الأرض مشغولين طول الطريق بحديث حول ما هو مطلوب منا عمله. وما كان أمس بين أفراد الأسر الثلاث. وبخاصة ما كان بين أختها وابن خالة أحمد. واحتمالية حضور أبى اليوم وكيف أواجهه فيما لو كان مايزال غاضبا علىّ.

وصلنا الأرض لنجد أن بناء أحمد شبه مكتمل ونتلقى تقريرا مفصلا من حارسنا الأول عما أنجز وما بقى وماذا حدث من المقاول أو كان من الأعراب الذين حضروا أكثر من مرة يحومون حول بناء أحمد ويسألون لمن هذا؟ وهم محنقون غاية الحنق وأخبرنا الحارس أيضا أنه هو والمقاول اتفقا على أن يخبراهم أن ذاك البناء ملحق

قلت بخبث:
ـ همتك تخرجه. بل واجبك.
رد الدكتور:
ـ فعلا واجبى.. بداية قررت مع السيدة وأشار إلى ابنة امبابى المطلقة. أن تسمح بعرض تحفها على دارسي الفن ودراويشه من الاجانب. إن عندها مجموعة لاتقوم بمال.
قلت متابعا الخبث:
ـ وصاحبة المجموعة ألا تحظى باهتمامك.
قال:
ـ بل كل اهتمامى..
ردت المطلقة:
ـ الله يكرمك يادكتور. رددت روحى.
ثم نظرت لأختها وأردفت:
ـ أختك يابنت فجأة صارت موضع اهتمام الدكاترة.
جاء والداها مسرعين يخبراننا بعودة أحمد وزوجته. ثم دخلا علينا. فراح ابن خالة أحمد يحدثهما عن قيمة المجموعة الفنية التى أعاد ترتيبها وتنسيقها. وكان حديثه عن صاحبتها أكثر من حديثه عن المجموعة.
سألت أحمد:
ـ أين كنت أنت وزوجتك؟
ـ فى القرافة.
ردت ابنة امبابى:
ـ تحن للذى مضى؟ أم ماذا؟ والله يا أحمد يا أخى أنت عجيب.
وقلت:
ـ وماذا جنته المسكينة زوجتك حتى تقرفها بمحنة أبرأك الله منها!؟
قال:
ـ هى التى ألحت.
قلت:
ـ ولو.
قالت زوجته:
ـ بل كان واجبا حتى أكون مشاركة لزوجى فى كل شئ.
قالت المطلقة:
ـ يا اختى بلاهم.. تعالى تعالى اغتسلى فقد تغبرت تماماً.
ونظرت لأحمد وأردفت:
ـ وأنت يادكتور على الحمام الخارجى. حرام عليك والله.ملأت نفسك وزوجتك براغيث من التى لاتقفز لثقلها.
تتالى حضور من بالخارج وقضينا وقتا هنيا ثم انصرفت أسرة أحمد وأسرة عمتى.

عليك يا أختي. أتعرف ياولد إنه لو كان أقل حبة من دكتور كان يكونان لائقين لبعضهما.

ـ فعلا.. الظروف الحياتية متشابهة وفارق السن بينه وبينها ليس كبيرا.. وأختك حلوة.

ـ ضربة ياولد أتنظر إليها..

ـ لا والنبي يا أختي أربط عيني عندما أقابلها.. كفى عن غيرتك المجنونة. فلو نظرت للدنيا كلها لا أنظر إليها إلا كأخت عزيزة.

ـ تعال نعكر عليهما الجو.. ونستطلع.

ـ دعي الحب ينمو ولا تكوني من قاطعي الأرزاق.

ـ بس قم.

انضممنا إليهما. وقالت ابنة امبابي للاستاذ:

ـ مارأيك في تحف أختي؟

ـ من أروع ما رأيت. وتدل على حس بالغ الرهافة.

ردت المطلقة:

ـ الله يخليك يادكتور. ليس إلى هذا الحد.

رد الدكتور:

ـ بل أكثر. من عندها هذا الحس لو درست أصول الفن ومارست الإبداع لغدت من أعظم المبدعات.

قلت بخبث:

ـ جميل والله. تدرس على يديك.

ردت المطلقة:

ـ ياليت أبي يسمح.

رد الدكتور:

ـ وما المانع؟

قالت أختها:

ـ تقاليدنا يادكتور.

رد الدكتور:

ـ حرام والله تلك التقاليد.

قلت:

ـ هل تعلم يادكتور أني بسبب هذه التقاليد أخفت خطيبتي عنها كونها موسيقية بارعة. إلى أن اكتشفت ذلك صدفة في منزل خالتك.

ردت ابنة امبابي:

ـ ماذا نعمل..؟ لو اشتهر عنا ذاك لوسمنا الناس هنا بالآلاتية.

رد الدكتور:

ـ ألماس مخبوء في باطن الأرض. حرام والله.

ـ أوحشك رنين يده على وجهك.
لم تعبأ وانطلقت خارجة تحمل القلم فى يدها وكأنه لا أقلام فى الخارج.

● ● ●

قضينا يومنا نحن وأسرة أحمد فى بيت عمى امبابى الذى توثقت صلته أكثر بوالد أحمد الذى رغب فى جولة فى حينا القديم وفى رؤية مصنع زجاج عم امبابى. خرجنا معا فركبا الفيتون وانطلقا عقب الغداء مباشرة ولم يعودا إلى بعد الغروب.
على حين زاد انسجام أم أحمد مع زوجة عمى امبابى ومع عمتى وخرجن هن الأخريات إلى زيارة ضريح الحسين. وانطلق أحمد وزوجته لسنا ندرى إلى أين. وبقى أخو زوجة أحمد مع ابنة امبابى المطلقة منهمكين بين تحفها يعيد ترتيبها لها وهما مستغرقين تماما.. ولاذت ابنة عمتى وخطيبها بركن قصى من أركان حديقة بيت عمى امبابى. عندما وصلنا من التشتت إلى هذا الحد نظرت إلى ابنة امبابى وقالت:
ـ ناس لاذوق عندهم.
ـ من؟
ـ كلهم.
ـ لم؟
ـ المفروض أنهم أتوا للحفاوة بك. لا لهذا التشتت.
ـ لا تحبكيها فلولا إحساسهم القوى ببنوتى أو أخوتى لهم ما فعلوا هذا. وعلى كل أراحونا من دوام توزيع المجاملة بينهم.
ـ على رأيك.. ألم تلحظ شيئا؟
ـ فى أى اتجاه؟
ـ أختى وابن خالة أحمد. مستغرقان تماماً.
ـ درويشا فن.
ـ ليس فقط.
ـ كيف؟
ـ خطوط نظريهما متلاقية دائما.
ـ عال والله.. ما أخذت بالى.. يامسهل.
ـ ياليت ياولد.. أمعقول؟
ـ وماذا يقل عقله؟
ـ أستاذ دكتور. وبنت بلد مطلقة.
ـ الحب هبل.
ـ بهذه السرعة.
ـ ممكن.
ـ لا أظن.. فقد لاحظت أن الأساتذة يمحصون كل شئ.
ـ فى العلم جائز. لكن العواطف الإنسانية بيد مقلب القلوب وحده.
ـ يارب ياولد.. يعوض على الغلبانة التى ظلمها أبى.. ربنا بحق جاه النبى يعوض

ورنين نداء عمتي المتواصل لايفلت منه نائم. يبدو أنها كانت رائعة المزاج فلم تضفر نداءها لى أو لابنتها بما تعودت أن تضفره به من زجر. إلا أنها لم تكل أو تمل أو تخضع لزجر عمى بطاطة لها لتتركنا نشبع نوما مادمنا فى إجازة.

قمت وبعد أن صليت جلست بجوارها. قامت فأحضرت ورقة وقلما وضعتهما أمامى نظرت اليها فقالت:

– شد برقية لأبيك واكتب فيها ما أمليه عليك.

أمسكت القلم ونظرت إليها قالت:

– اكتب.. ابنى نجح بالعند فيك.

نظرت إليها مندهشا قالت:

– أكتب.

– ألا يكفى الجملة الأولى.

– اكتب كما أملى عليك.

– طيب.

– ابنى نجح بالعند فيك.. وربنا نصرنى عليك وأغاظك. ونجحنا وأنتم مقفلين من نجاحنا.. والحمد لله ربنا لم يشمتكم فينا.. وربنا لا يشمت فينا عدوا ولا يجعل الصديق يشفق علينا. من طرف أختك بطاطاية.

– لكن ياعمتى.

– لكن ماذا؟.. خائف على أبيك.

– ليست المسألة خوفا. لكن ليست هذه برقية.. إنه خطاب وسيتكلف كثيرا.

– أنا التى ستدفع مالك أنت.

– ولن يقبلوها فى مكتب البرقيات.

– لم؟ ولهم فلوس.. فما لهم هم طويلة.. قصيرة.

– ليست مسألة فلوس.. الكلام الذى بها لا يمكن أن يقبلوه إلا ممن معه بطاقة وأنا يا عمتى أخشى أن أضع رقم بطاقتى فيعرف أخوك. وأنت تعرفين أن يده ثقيلة.

– بطاطة يضع رقمه.

رد عمى بطاطة:

– وأنا مالى يا أختى.. ياداخل بين البصلة .. أنت وأخوك أحرار أخرجينى أنا من هذا الموضوع.. أنا والرجل سمن على عسل فلا تفسدى ما بيننا.

ردت عمتى بانفعال وهى تخطف الورقة والقلم:

– هات لا أريدكما معا.. سآخذ أى شاب من الحارة معه بطاقة وأرسلها أنا.

وانتفضت واقفة داخله حجرتها.

تبادلنا النظرات أنا وعمى بطاطة الذى قلب شفته. وقال:

– مجنونة.. شجاعة أمام أبيك من بعيد لبعيد.. ولما توجد قدامه تصير كالأرنب. لابد أن لها نصيبا ينتظرها فى يد أبيك

خرجت علينا وقد ارتدت ملابس خروجها فرفع عمى بطاطة رأسه إليها قائلا:

الإيطالى. لاشك أنه أغلاها أيضا.. تساءلت بينى وبين نفسى من أين لها هذا؟ إنها درويش فن ما فى ذلك شك. انماعت لوزة من المنزل فلم أجد لها أثرا.

بعد العصر. حضرت أسرة أحمد بكاملها كان معهم ضيف يكاد يناهز أحمد عمراً قدمه لى أحمد على أنه شقيق زوجته وابن خالته.. كان فى زيارتهم ورغب فى رؤية أسرة أحمد البديلة إبان محنته فأحضروه معهم. انشغل الكل بالكل.

ولم يدعه أحد يلحظ تصرفات الآخرين أو يدقق فيها، والد أحمد اندمج مع عمى بطاطة وعمى امبابى وأم أحمد اندمجت مع عمتى وأحمد يشاغب ابنة امبابى ويجننها وابنة عمتى مشغولة بزوجة أحمد وأولاده. وابن خالة أحمد مشغول بى وبابنة امبابى المطلقة.. لاحظت أن نظره لم يجفل عنها حتى وهو يكلمنى. كانت تبادله النظرات بخجل وحديثهما عن الفن متصل. اكتشفت أنه استاذ بكلية الفنون الجميلة وأنه تعرض لحادث سيارة أودى بزوجته التى تركت له طفلة وحيدة. رغب أن يرى مجموعة تحف ابنة امبابى.. استأذنا من عمى امبابى فلم يأذن. وقال:

ـ غدا.. ستكونون كلكم عندى من أول النهار ويكون معكم الأستاذ. ولعله يخلصنا من مقتنيات ابنتى التى تزحم لنا البيت وتهلك نقودى بلا فائدة.

سحبنى أحمد وهممنا بالخروج.. سألتنا ابنة عمتى إلى أين؟ أجابها أحمد:

ـ نبحث عن لوزة.

ـ أقول لكم بشرط ألا تخبروها أنى أنبأتكم.

قال أحمد:

ـ لك هذا.

ـ فى شقتها تغلق بابها عليها حتى لا ترى ضرتها ولا أسرة ضرتها.

رد أحمد:

ـ المجنونة.

وصعد يدق الباب ولا من مجيب. جاء ولداه فشاركاه الدق. قال لهما: ناديا افتحى يا ماما لوزة. أخذا يناديان. سرعان ما فتحت. لتحتضن الثلاثة وتدخل بهم إلى شقتها.

لما عدت سألتنى زوجته عن طفليها.. أخبرتها. سحبت أخاها من يده ولحقا بأحمد. غابوا قليلا ونزل أحمد فأخذ أباه وأمه إلى شقة لوزة. وظللنا نحن فى شقة عمتى يذهب بنا الحديث مذاهبه المتشعبة.

انصرفت أسرة أحمد آخذين لوزة معهم وخرج عمى بطاطة وعمى امبابى وانفرد ابن امبابى بابنة عمتى. واندمجت وعمتى فى حديث مع ابنيه وزوجته لم يكن للحديث من موضوع إلا أنه حديث يضرب فى كل واد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب حتى تقدم الليل فانصرفت أسرة امبابى أيضا.

تنبهت عمتى إلى أن لوزة غير موجودة سألت ثم تذكرت فورا أنها صحبت أسرة أحمد

• • •

فى الصباح المبكر أخذت عمتى توزع النداء بالقسطاس بينى وبين ابنتها لنستيقظ

وقدمت يدها بلفافة. فضضتها فإذا بها مجموعة من ربطات العنق الغالية ذات الذوق رفيع الألوان. شكرتها وقبلتها.

قالت لوزة:

ـ واحدة بواحدة. إن فتنت سأفتن ونبقى خالصين قولى لابنة امبابى وأقول أنا لابنه.

هزت ابنة عمتى رأسها مبتسمة. وقالت:

ـ فرق بين قبلة أخ وقبلة جو.. ياجو إنت ياولد يالوز مقشر يا أمور يامن لا حظ لك.. مصيرها تتعدل يا أمور.

جاء صوت عمتى من الخارج:

ـ يامقصوفة الرقبة إنت وهىّ.. اتركا أخاكما يرتاح كى يستطيع مجالسة الناس.

ردت لوزة عليها:

ـ طيب يا أختى يابطاطاية.. الواحدة لاتعرف كيف تلتفت منك. من أى صنف أنت؟ عاملة سىّ الحكمدار. أعوذ بالله.

خرجتا. سمعت قبل أن أستغرق فى النوم أوامر عمتى لهما بتنظيف الشقة وترتيبها.

صحوت على قرآن يتلى. الصوت آت من بعيد. ظننت أنه من عند الجيران. خرجت من حجرتى فلم أجد أحدا بالشقة. تهيأت للصلاة، قبل أن أصلى خرجت إلى السلم أنادى ابنة عمتى لتصنع لى شايا. بدا القرآن واضحا أنه من مدخل المنزل. صعدت ابنة عمتى: سألتها: أجابتنى. بأن أمها أرسلت للشيخ محمد فأحضر بعض القراء ليقرأوا الخاتمة.

لما صليت وشربت شايى كان القراء قد انتهوا، صعدت ابنة عمتى ثانية فحملت لهم الثريد واللحم وقدمت لى الجرائد وأشارت على نقطة فى جريدة منها. قرأت أن نتيجتنا وصلت المدارس وستعلن اليوم.. قفزت وانطلقت بعربتى إلى المدرسة لأتأكد مما أخبرنى به أحمد كنت مضطربا أقود بجنون ويصل سمعى سب الناس وشتمهم جزاء وفاقا على سرعتى المجنونة. أوقفنى أحد ضباط المرور حرر لى محضرا وأنا أتميز غيظا لامن أجل المحضر ولكن من أجل الدقائق التى عطلنى فيها.

كان باب المدرسة مغلقا وأمامه عدد هائل من زملائى يسدون الطريق ويربكون حركة المرور. لم يلتفت لى أحد من زملائى عندما اندسست بينهم، تحولت مثلهم الى أذن فقط تكاد تدخل فى حلق مكبر الصوت الذى ينادى أرقام الناجحين. فيقفز ناجح هنا أو هناك لكن أحدا لا يلتفت إليه وهو يندفع جريا. كانت الأرقام التى تنادى تلى رقم جلوسى وقفت إلى أن بدأ المنادى من جديد. كلما اقترب من رقمى أسرعت دقات قلبى تحولت إلى أذن وطبل. نقرها رقمى فما دريت بنفسى إلا وأنا واقف بجوار عربتى وحولى بعض زملائى الناجحين ماذا كنا نقول إلا ضحكا ملء النفس.

هممت بأن أتجه الى أقرب مكتب تلغراف لأخبر أبى. إلا أنى تراجعت وقلت فى نفسى سيكون خبرا بائتا. فلا شك أنه تابع واستطلع وعرف. عدت إلى منزل عمتى لأجد قراءها قد انفضوا. وأسرة امبابى تملأ الشقة هنأوا ثانية ورحبت. هداياهم لى غالية أجملها هدية ابنة امبابى المطلقة التى كانت تمثالا برونزيا ممهورا بتوقيع صانعه

أردت أن أعطيه ثمنها. إلا أن يمين عمتى وعظيمها إلا دفعت ومن حر مالها هى.

لما رأيت إصرارها قلت:

ـ لتكن اثنتين حتى نتمكن من إكرام أكبر عدد ممكن من فقراء الحارة.. وناولت عمى بطاطة ثمن الثانية.

خرج الرجل ودخلت حجرتى لأغفو.. إلا أن عمتى جاءت خلفى وقالت:

ـ وأنت لانوم قبل أن تشد تلغرافاً لأخى لتفرحه أنت وأغيظه أنا.

ـ بعد أن تعلن النتيجة رسميا. لأنه يتتبع أخبارها. وقد يظن أننا نخدعه.

ـ ومتى ستعلن رسميا؟

ـ بين يوم وآخر.

ـ يوم من آخر قريب.

أخذتنى سنة. سمعت صوت لوزة يقول:

ـ أنمت؟

فتحت عينى الوسنانتين وقلت:

ـ ليس بعد. تعالى يالوزة. أثمة شئ؟!.

ـ أبدا.. فقد أردت أن أقدم لك هديتى.

ـ وعلام تكلفين نفسك يالوزة. ؟ أنت كل هديتى. يكفينى ماتغمريننى به من حبك.

ـ تعرف إذن أنى أحبك؟!.

ـ الحب لا ينكر يالوزة.

ـ يكفينى هذا.. تفضل.

وقدمت لى لفافة صغيرة فضضتها لأجد خاتما ذا فص ماس جميلا.

ـ شكرا يالوزة، ولم الكلفة. كان يكفى شئ رمزى.

ـ لم أتكلف شيئا. كان عندى وكنت أحتفظ به لأقدمه لك فى مناسبة. وليس أجمل من هذه مناسبة.

قمت فقبلتها فوضعت رأسها على كتفى وتجددت دموعها، مددت يدى فمسحتها فأطلقت زفرة وتناولت يدى فقبلتها. دخلت ابنة عمتى فرأتها فقالت:

ـ الله الله. ما هذه العواطف كلها.. سافتن. سأبلغ. سأشعلها ناراً وأجلس لأتفرج.

قلت:

ـ افتنى، أو لا تفتنى أمر لا يهمنى.

ـ وردت ابنة عمتى.

ـ لا تتحديانى.. وإلا تجننت وعملتها.

علقت لوزة:

ـ يا أختى تجننى أو اعقلى بنت امبابى متأكدة مليون فى المائة أنى أحبه. وهو أيضا يحبنى ولولا أنى أكبره سنا بكثير لتزوجنى أنا. ألم تقولى أنت نفسك هذا.

قالت ابنة عمتى:

ـ الطيبات لله.. لولا أنكما عزيزان علىّ لفعلتها. مبروك يا أختى.

ـ متأخر؟وماذا فى ذلك.. أنتما غرباء؟.. ادخلا ياضائعين لأحتفى بنجاحكما. فمادمت قد نجحت تكون ابنة امبابى نجحت.

ـ وما أخبار المجموع يا أحمد . طمئننى طمأنك الله بالخير.

ـ هذه لم تشرفنى فيها جيدا حصلت على ستة وثمانين فى المائة. أخبرنى زميلى وكيل الوزارة من ساعتين جريت لأخبرك. علمت من عمتك أنك تصوع مع حبك. تصور عمتك لم تحملها قدماها حين سمعت وانهارت تبكى وتضحك فى آن معا. وتقول الحمد لله ربنا نصرنى على أخى. ولوزة رنت مائة زغرودة وابنة عمتك رقصت. ولّوا أهل الحارة علينا وحولوا البيت إلى مرستان رسمى.. وانتقل الخبر بسرعة إلى عمك امبابى ولا أدرى كيف بهذه السرعة فانتقل بأسرته إلى منزل عمتك وتركته يطلق الرصاص من مسدسه وجع رأسى ورأس حارة الخواص بأكثر من مائة طلقة.. وكأنك أتيت بالذئب من ذيله.

كنا قد دخلنا لأتلقى تهانى أمه وأبيه وزوجته وراح أمه وأبوه يقبلانى ويهنئان ابنة امبابى.

وقدم لى أبوه قلما ثمينا هدية نجاحى. كما قدمت لى أمه وزوجته هدايا أخرى لم يعوقانا لأكثر من تقديم شراب الورد وتركانا لنعود لأسرتنا.

وجدنا الحارة غارقة فى بحر من الأضواء مجاملة لعمى بطاطة ولى من ناسها الطيبين.. ماكان أمامنا بد من ترك العربة فى أولها والسير بين الناس لتلقى تهانيهم.. أشبعونا تقبيلا وتهنئة.. ما إن لمحنا عمى امبابى وعمى بطاطة عندما انعرجنا فى آخر انحناءة موصلة لبيت عمتى حتى جريا نحونا وأشبعانا تقبيلا وتهنئة. جلست مع ضيوفهما الذين قدموا للتهنئة وصفت لهم الكراسى تحت الأضواء أمام المنزل. بعد قليل جاء من يستدعينى لعمتى . صعدت لأجد ابنة امبابى ترقص مع لوزة تمتمت: «سبحان من جمع النقيضين». خجلت ابنة امبابى عندما رأتنى على حين استمرت لوزة وغمرتنى بقبلاتها كأنها تغيظ ابنة امبابى التى تلون وجهها بألف لون فى ثوان قليلة وهى ترى قبلات لوزة.

لم يطل مكثى عند عمتى بأكثر مما تلقيت من تهانى الحاضرات ونزلت إلى الرجال. لأسمع صوت طبل ومزمار بلدى وأجد حلبة لعب العصا قد دارت بين الحاضرين. أصروا على أن ألاعب عمى امبابى، لم أسلمه النصر بسهولة لكنى أهديته له بعد أن أتعبته وجعلته يتصبب عرقا.. أدرك الرجل أنى لم أرد أن أهز صورته أمام الرجال فاحتضننى عقب مباراتى معه وقبلنى. وهمس فى أذنى. «شكرا ياولدى».. طالت السهرة فى مرح حتى ذر قرن الشمس وقبل أن تنصرف أسرة امبابى عزمتهم عمتى على الغداء عندنا بمناسبة نجاحى.

همّ عمى بطاطة بالاستلقاء فقالت له عمتى:

ـ لا نوم قبل أن تخرج فتشترى ذبيحة نكرم منها ضيوفنا ونفرق باقيها على الفقراء.

قام وهو يقول:

ـ الأمر لله يابطاطاية.

تسلم إلى خملة.

ـ والحل؟

ـ مصيبة تلم الكل.

ـ لكنها ستصيبنا معهم.

ـ وستكون عقابا للشعب على غفلته، ولأنه مكن للخمل من نفسه. هذا فى الدنيا.

ـ وهل له عقاب فى الآخرة؟

ـ طبعا.

ـ كيف وهو مظلوم؟!.

ـ بل ظالم.

ـ ياشيخ حرام عليك.

ـ الرضا بالظلم وعدم مقاومته عين الظلم للنفس والله لم يرض لخلقه هذا لأنه خلق الناس أحرارا ومن يرضى بالظلم يكون قد بدل فى خلق الله ولذا لن يفلت من عقابه.

ـ مصيبة.. قهر فى الدنيا وعقاب فى الآخرة.. لا يارجل.. لا.. هذا كثير على البشر.

ـ أبدا.. إنه العدل بعينه.

ـ كيف؟

ـ اسمعى ياسيدتى قول الله « إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم. قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض. قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة. فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم»

ـ يا للحوسة.. اسمع ياولد.. يجب أن نعمل بأيدينا وأسناننا حتى لا تكون جهنم مأوانا.. يكفينا قهر الخمل فى الدنيا..

ـ انظرى.. فيللا أحمد مضاءة.

ـ لو كان الوقت مبكرا لزرناهم.. انظر.. انظر أحمد ينزل من عربته اركن لنمسى عليه. وقفت خلفه وهو يهم باجتياز عتبة الفيللا، استرعت أضواء عربتنا انتباهه، وقف، التفت، لمحنا، عاد، ونزلنا . بادرنا:

ـ أين كنتما.. تتصعلك ان.. ياضائعان؟

ـ مساء الخير يا أحمد.

ـ مساء النور ياجوابى الآفاق.. إيه.. أنت مريض أنت؟ أدختمانى وراءكما. مبروك ياسى زفت أنت.. لقد نجحت وبمجموع مشرف أيضا.

لما اتمالك أن احتضنته وقبلته وغمرته ابنة امبابى بقبلاتها هى الأخرى وهى تصيح.

ـ صحيح والنبى يا أحمد.

ـ صحيح يا أختى.. مبروك ياولد.. كنت تلميذا زفتا أتعبت قلبى.

ثم أتى على مقبلا ثانية. وهو يحمدل. ثم قال آمرا.

ـ ادخلا.

قلت:

ـ لكن الوقت متأخر.

أصنع. قهر أختي فخيبها. وسمح لي بحريتي فأبدعت في تجارتي.
ــ معك حق.
وصمتت قليلا. ثم أردفت:
ــ لكن ألا يعرف حكامنا هذا؟ وهم الآن منا.
ــ يعرفون. لكنهم يستعبطون خوفا على الكرسي.
ــ ملعون أبو كل الكراسي التي توضع فوق أدمغة الناس.
ــ هل تعرف أنهم حمقى.
ــ لم؟ وللكرسي هزة مريحة وله امتيازات عظيمة. سلطة ومال وأبهة.
ــ ومع ذلك فهم حمقى. لأنه لا يدوم لأحد وإلا ماجلسوا عليه.
ــ حلنى على ما ينتقل لغيرهم يكونون شبعوا متعة وغنى هم وورثة ورثة ورثتهم.
ــ والآخرة؟!.
ــ موت ياحمار.. هم وهم على الكرسي في الدنيا ماذا يتعبهم في التفكير في الآخرة.

ــ وعماء قلب، وعماء حس. صحيح.. الآية التي تقول .. تقول.. ساعدني ياولد فأنت حافظ.
ــ تقول يا سيدتي: «فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».
ــ صدق الله العظيم.. لكن ياولد.. العيب ليس فيهم وحدهم.. في الناس أيضا. فينا نحن لأننا ندعهم يرتاحون فوق الكرسي.
ــ وماذا بيدنا أن نفعله؟
ــ نقلقهم ونطالبهم بحريتنا لنبدع ونبنى بلدا عظيما كالفراعنة.
ــ الشعوب كالأطفال تخدع بسهولة. وقد استطاع حكامنا أن يخدعوا الشعب وأوهموه أنهم سيؤدون هم كل ما يجب عليهم أداؤه فاستنام لهم فأحكموا قبضتهم على كل مصادر القوة حتى لقمة الخبز صارت في يدهم.
وبثوا الأوغاد يتجسسون على كل ذى فكر.. وإن لم يسكته السجن والتعذيب. فالمشنقة في انتظاره.. وسلبوا الشعب كل تنظيم يحركه فغدا كمن يضرب في تيه، كل في واد وكل يخاف من كل. والخوف يشل الحركة.
ــ معك حق.. حتى أنت لما خفت من أبيك شلت حركتك وتوهمت أنك مريض. شئ مقرف جاءتهم البلاوى.. ومع ذلك فالشعب مخطئ لأنه يمكن أن يتحرك ليبنى نفسه ولو على المستوى الفردى كما نفعل الآن أنا وأنت وأبى إلى أن تنزاح عنه هذه الغمة.
ــ ليس كل الناس يؤوى همه مثلك ومثل عمى امبابى. المبادرة بالحركة والهمة من الأفراد فروق فردية بين البشر كالمواهب يضعها الله في الندرة من خلقه . والشعوب في حاجة الى من ينظم لتبنى بلدها. افرضى أنه حتى عشرة آلاف من الناس كانوا مثلك.. ماذا يفعلون لدولة؟ لا شئ. سيكونون كالقطرة في بحر لاتقدم ولا تؤخر.
ــ مصيبة والله.. ربنا يقصف عمرهم ويريحنا منهم خمل قذر.
ــ لا أظن في المنظور القريب. لأنهم ربوا صفوفا خلفهم من الخمل الصغير . خملة

ـ لكن أبى لا يعرف هذا ويظن غيره وأنت تعرفين ماذا فعل عندما علم بما ظنه انشغالا عن الدراسة.

ـ أخائف منه؟

ـ جدا.. ياحبى. وخائف أكثر أن أتسبب فى حزن أمى.

ـ يا ابن امك.. ياخواف.

ـ لا يضر ياحبى.. من خاف سلم.

ـ سبحان الله.. ما هذا التناقض.. أنت الذى ما هاب أحدا تعرض له.. يخاف إلى هذا الحد من أبيه ويشفق كل هذه الشفقة على أمه. دعنى أؤكد أن اضطرابك هذا لا مبرر له. أولا لأنه لم يقع المحذور بعد. وثانيا أن أم أحمد قالت لى: حبك سينجح وهى خبيرة بمسائل التعليم.. الأمل إذن موجود والمحذور لم يقع فلا تكن كالصغار الذين يتخيلون أشياء ويرهبونها. وحتى إذا وقع المحذور. ـ لا قدر الله ـ ساعتها يحلها الحلال ويدبرها الكريم.

نادتنى أمها لآكل وأصرت على ذلك. ولكزت ابنتها قائلة: ياطائرة اقصدى فأطعمى رجلك.

ابتسمت وقلت:

ـ وعرفنا لك صفة جديدة، الطائرة البخيلة. اسم حلو والله.

نابتنى منها لكزة. وهى تقول:

ـ طيب كل وأنت ساكت.

تصنعت التألم الزائد. فمسحت بيدها مكان اللكزة. وقالت:

ـ إيه ياولد.. أنت بسبوسة.. أنا عارفة ماذا تريد..

وقبلت مكان اللكزة وأردفت:

ـ خفت.. خلاص ارتحت.. كل بقى.

ـ لا.. مرة واحدة لا تكفى.

ردت أمها مبتسمة:

ـ شوفى يا أختى الأولاد.. لا خشا ولا حيا.. هذا هو المكان لكما.. ربنا يسعدكما ببعض.. ولد كهين وبنت تندب فى عينها رصاصة.. عيال آخر زمن وتركتنا وانصرفت.

خرجنا عقب الطعام على غير هدى. جبنا المدينة الى أن ساقتنا العربة إلى مقهى ناء فوق هضبة الأهرام.. جلسنا نتأمل الرواد والسائحين ضجرت بسرعة. انتقلنا إلى آخر عنت لنا مشاهدة الصوت والضوء. أغرانا أنه كان باللغة العربية. استغرقنا العرض وبهرنا أنه كان أول مرة فى حياتنا نراه. سألتنى عقبه ونحن فى طريقنا للعودة.

ـ أكان أجدادنا الفراعنه عظماء إلى هذا الحد؟

ـ التاريخ يؤكد هذا.

ـ ومن أين إذن جاءت أبناؤهم كل هذه الخيبة الناقعة؟

ـ من قهر حكام غرباء.

ـ معك حق فالمقهور لا يبدع. لولا أن أبى ترك لى حرية الحركة والفكر ما صنعت ما

لمحت ابنتها قادمة فى حديقة المنزل فقالت لى:
- قدم حبك، فاجئه لنضحك وحذرت ابنى ابنتها من اخبارها بتواجدى.
وقفت بحيث لا يرانى الداخل فلما دلفت حيث أمها وسألتها إن كان ثمة أخبار من عندى فأجابتها بالنفى وهنا فاجأتها من خلف بصوت مزعج فاضطربت وصرخت واندارت تضربنى بكلتا يديها ثم تعلقت برقبتى واحتضنتنى غير عابئة بأمها. وهى تعاتب وتحمد الله أن جعلنى بخير.. لما هدأت سألتنى.
- لماذا خالفت أمر الطبيب؟
- لم أطق صبرا على فراقك فجئت أراك.
- بجد.. بجد.. لا.. أتضحك علىّ . كنت أبقى أسعد مخلوقة.
- أتشكين؟
- لا.. لكن غير معقول.. لابد أن هناك أمراً دفع بك إلى المجئ.
ردت أمها:
- شغلك يا ابنتى. الذى أتعب الولد. جاءك بضاعة وأصر مرسلها على توقيعك أو توقيعه بالاستلام فأرسلنا إليه ياقلب أمه وهو مريض فلم يتأخر.
قالت:
- لابد أنها السيور.
وأخذت أقص عليها القصص. وجلست هى تقص مايدور فى بناء ورشة أحمد. سألتها عنه: فأخبرتنى أنها لم تره إلى أن غادرت الأرض مسرعة حتى لا تغيب عنى كثيرا وأنا مريض. أصرت على أن أبقى معها بقية يومى. سألتها أمها:
- هل حدد الطبيب طعاما معينا لتصنعيه له؟
أجابتها بالنفى . على حين قلت أنا:
- ولو أرحتينى من الطعام كلية أكون لك جد شاكر.
ردت
- آه.. حتى تفضحنى بطاطاية.. سأصنع لك طعاما خفيفا.
وأغرت ابنى ابنتها بصحبتها وتركتنى مع ابنتها.
سألتنى عن الكمية التى أرسلها كبير المهربين.. أخبرتها.. حمدت الله.. وقالت وجهك حلو علىّ هل تعلم أنى حققت فى الشهور القليلة التى كنت معى فيها ما حققته من قبل فى ثلاث سنوات، أنت مرزوق ياولد.
ابتسمت وقلت:
- لا تعطى نفسك فىّ مقلبا. إنها الصدفة ياحبيبتى.
- لا.. لا.. كل من فى بيتنا يقولون بهذا . هيا معى لترتاح فى حجرتى.
- ياحبى أنا سئّ الحصان كل ما فى الأمر أنى مضطرب نفسيا بعض الشئ خشية أن تظهر نتيجة الامتحان مؤكدة أنى لا مرزوق ولا سعيد ولا ناجح ولا فالح.
- ياساتر يارب.. لاتقل هذا.. ودع ثقتك بالله كما كانت أشهد أنك بذلت كل ما فى وسعك من جهد.. كان ذلك على يدى.

ـ شاور عقلك وسنبدأ فوراً.

تلا عمى امبابى الطباخة وابنتها قدارة. طلتا على وجلستا مع عمتى وهات يارغو. تسليت كثيرا بسماع أدق دقائق حياة خلق الحارة.

حوالى العاشرة صباحا جاءنى رسول عمى امبابى يستدعينى مهما كنت متعبا لموافاته على منزله. اضطربت وخشيت أن يكون ثمة شئ يكره قد حدث لأى من أفراد أسرته.. ارتديت ملابسى على عجل وقفزت درجات السلم وسقت بسرعة مجنونة حتى داخل حارتنا ذات الأرضية العثرة، حاولت أثناء الطريق أن استفسر من رسوله إلا أنه لم يجبنى بشئ. لاحظت عربة نقل تسد حارة البيرقدار أمام منزله.. ركنت عربتى خلفها ودخلت جريا لأجده جالسا فى المندرة ومعه رجلان يبدو أنهما عاملان. ما إن ألقيت بالسلام حتى قال لى:

ـ على مهلك.. أنت مريض ياولدى اطمئن..

ـ خيراً يا عمى امبابى.

ـ خير ياولدى جاءتكم بضاعة من اسكندرية والأسطى السواق يصر على أن توقع أنت أو ابنتى له بالاستلام.

هدأت وعلمت أنها طلبية السيور.. فى الوقت الذى تابع فيه عمى امبابى:

ـ وأنت تعلم أن ابنتى فى الأرض، فلم يكن هناك بد من اســتـدعـائك. أنا آسف ياولدى.. أزعجتك وأنت مريض لكن ما باليد حيلة.

ـ أبدا.. لا شئ فقد نشطتنى. أنت تشكر لأنك أجبرتنى على ترك الفراش ومادام لخير فالحمد لله.

وقعت للسائق على إيصال باستلام بضاعة قيمتها خمسة وسبعون ألف جنيه.. وأنا دهش أتساءل فى نفسى أى قلب كالحديد هذا الذى يسلم بضاعة بهذا المبلغ الكبير نظير إيصال.. يبدو أن أعراف السوق شئ مختلف تماما عن أعراف الحياة، إننا لم نقابل كبير المهربين ذاك إلا مرة واحدة.. ولم نتعامل معه إلا مرة واحدة فكيف يثق بنا إلى هذا الحد.. مهما كنا من طرف ابن خالى الذى يعرفه.

ترك السائق لى ثبتا بالبضاعة فيه كميتها وثمنها وعدد وحداتها ممهورا بخاتم مكتب كبير المهربين. وأعطانى رسالة رقيقة مؤداها أن مكتبه فى خدمتنا دائما لأى بضاعة نريدها مهما كانت قيمتها. وأننا على مهلنا فى توريد ثمن ماوصلنا بعد ما نبيع. فقط هو يحب التعامل فى النقود يدا بيد أو عن طريق المصرف إن أردنا وأعلمنا برقم حسابه واسم المصرف الذى يتعامل معه.

خرجت وعمى امبابى فأشرفنا على تخزين البضاعة بواسطة رجاله. ومنحت السائق أجر العربة وإكرامية له ولتابعه وزادهما عمى امبابى، ودخلت معه إلى المنزل لأحيى حماتى وعبثا حاولت بعدها الانصراف. ما من حجة أبديتها إلا ودحضتها حماتى المستقبلة.. إذا أردت الراحة ففى حجرة زوجتك. وإن أردت ملابس فملابس ابنها تسد وإن كان الدواء نشتريه.. خرج عمى امبابى لشأنه وتركنى لحماتى ولابنى ابنتها الصغيرين اللذين اسعدانى أيما سعادة وأنسيانى كآبتى.

– حرارتك عادية يا حبيب عمتك.. إن كنت تحس شيئا غير عادى يحسن أن تذهب للطبيب.

أطمئنها بألا شئ. فقط إحساس بالعزوف عن كل شئ أعاود الاستلقاء المتوتر. كلما ركزت ذهنى لطرده يضيق صدرى به أكثر. أسمع عمتى تحادث أحدا على باب الشقة فتخبره بأنى متعب ولم أقم من فراشى منذ عدت أمس. وتأتى لتخبرنى بأن ابنة امبابى أرسلت من يسأل ثانية . ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى أسمع عمتى تقول:

– أهلا وسهلا بعروسة ابنى.. رجل عزيزة ياحبيبتى.. طبعا واجب عليك تسألى لكنى عاتبة. لأنه لو لم يكن الأستاذ بعافية ماحضرت. على كل حال سماح فلأجل الورد يسّقى العليق.. فى حجرته. والله ما أنا بعارفة ماذا به.. لا يشكو شيئا. أهلا وسهلا. تعالي يا حبيبتى. من هنا تنادى عمتى من الخارج.. يا أستاذ ياولدى.. عروستك قادمة تسأل عنك.. تدخل ابنة امبابى باديا عليها الاضطراب.. أقوم للقائها تسألنى عما بى.. أطمئنها تصر على أن أصحبها لطبيب .. أحاول عبثا إفهامها أن ما أحس به مجرد ضجر وقلق لكن لافائدة. أسلم أمرى لله وأخرج معها. نعرج على عيادة طبيب اعتادت أسرتها على معالجته لها. نحجز عنده ونواصل مسيرتنا إلى مكان قصيّ هادئ منطلق على النيل فنجلس فيه لأن أمامنا أكثر من أربع ساعات على موعد الطبيب.. تحدثت هى خلال هذه الساعات واكتفيت أنا بالسماع إلا من تعليق بين ساعة وأخرى.. عدنا إلى الطبيب دخلت اليه منفردا سألنى عما أشكو. أخبرته بما أحس به من ضجر وخمود وإنى أعرف سببه.

– إذن أنت طبيب نفسك.. ومع ذلك لا بأس من أن نكشف عليك فقد يكون هنا سبب جسمانى لا تدركه.

دخلت ابنة امبابى فسألت الطبيب عما بى فأجابها: شئ بسيط وسيكون كالحصان قريبا لكنه يحتاج الى بعض الراحة والاستراوح مع ما وصفت من دواء. خرجنا فاشترت ابنة امبابى الدواء وعرضت أن نذهب الى منزلهم لتقوم على خدمتى فرفضت فلم تلح وأعادتنى إلى منزل عمتى. لما رأتها لوزة داخلة معى خرجت فورا وسهرت بجوارى إلى منتصف الليل هى وابنة عمتى وعمتى . ثم قامت وهى باد عليها عدم الرغبه فى الانصراف . قالت لى:

– سأرعى أنا كل مصالحنا فلا تشغل نفسك.. لن أتأخر عليك لأكثر من الظهر لأتمكن من إطلالة على مصالحنا ثم أوافيك.

كان عمى امبابى أول زوارى صباحا لم تطل جلسته إلا أنه أحاطنى خلالها بحنان وعطف غامرين. لما جاءت ابنة عمتى تقدم له قهوته قبلها ودس فى جيبها جنيهات كثيرة تمنعت فانتهرها بصوت عال جعل عمتى تصيح بها من الخارج:

– ماذا فعلت يامقصوفة الرقبة؟

– عرض على أن أخرج فأجلس معه على المقهى لأزجى الوقت وأتلهى بالخلق واستعرض معه سينما الحياة إلا أنى رفضت.

خرج وهو يقول:

ـ وهل أنا حسودة ياخالة بطاطاية.. وحتى لو كنت أحسد الدنيا لا أحسده لأن من يفتح قلبي يجده في داخله.. غير أني لا حظ لى معه والله ياخالة بطاطاية ابن أخيك هذا ملء كياني كله وأنت تعرفين هذا.

ردت عمتي:

ـ يا ابنتي يالوزة.. أنا أضحك معك فلا تقلبيها جدا.

هممت بأن أعود إلى حجرتي فأمسكت بي لوزة وجذبتني جذبة شديدة جعلتني ألتصق بها.

فقالت عمتي:

ـ شوفي يا أختي البنت.. حاسبي عليه يابنت.

ردت لوزة:

ـ أحاسب.. أم غيرانه عليه ياخالة بطاطاية.. إنه ليس عمي بطاطة على كل حال.

ردت عمتي:

ـ ضربة.. لسانك طويل.. أمك يوم ماولدتك جذبتك من لسانك. ثم..

نظرت إلى عمتي وأردفت:

ـ اجلس معنا ياولدي وقل لنا مابك.. فلن تجد مثلنا يحبك

ـ أبدا ياعمتي.. لاشئ.

ـ أو على عمتك؟!

ـ فقط سمعت بقرب ظهور النتيجة فانتابني هم ثقيل.

ـ والله ما أحد يحمل هم نتيجتك مثلي.. ربنا يستر ياولدي ولا يشمت بي أخي وينصرني عليه بنجاحك.. والله يا ابني يوم أن تنجح لأعمل ليلة لأهل الله.. شي لله يا أهل الله.. وبعدها أعرف كيف آخذ حقي من أبيك.

ـ وهل حدث شئ بينك وبينه؟

صمتت على حين تبادلت النظرات أنا وابنة عمتي. برغم أنهن حاولن إلهائي بكل السبل. إلا أن القلق ظل يطحنني فانسللت منهن بعد قليل ودخلت حجرتي ولذت بظلمتها مسهدا حتى سمعت نداء بائع الفول ينادي. الفول اللوز.

غفلت عيناي بعد ذلك لأجدني وابنة امبابي نسير في طريق مظلم ضيق جدا يجبرنا على الالتصاق ويلف بنا ليعيدنا الى النقطة التي بدأنا منها. ثم تعرج وتشعب وكلمادخلنا منحنى وجدناه مسدودا بحائط وفجأة انفسح الطريق وأضاء وألقى بنا في خضم شارع عريض لأسمع صوت زميل ينادي علي.

أفتح عيني لأجد ضوء الشمس يغمر الحجرة وابنة عمتي إلى جواري تناديني.

أنظر في ساعتي فأجدها تشير إلى الواحدة. وتخبرني عمتي بأن ابنة امبابي استبطأتني فأرسلت من يستدعيني إلا أن عمتي أشفقت علي وأخبرت الرسول أني متعب ونائم، ولا تريد أن توقظني لأني قضيت الليل كله مسهداً. أقوم من الفراش لأعود اليه، تحضر لي عمتي الطعام وتعود بعد قليل لتجد الطعام كما هو تنظر إليه مرتابة وتضع يدها على جبهتي وتقول:

الشريف على جسدك.
ردت ابنة عمتى عليها:
ـ فشر.. أأخى ممن يضربون ؟! أهو الزينى؟ قولى غير هذا. قم ياولد دق رأسها فى الحائط لتعرف من أنت.
ـ أوكنت قدها حتى أدق رأسها.
قالت:
ـ مادامت تغلط فيك.
قلت:
ـ الطيبات لله فهى أختنا.
ردت لوزة:
ـ أرأيت.. خائف منى.
أطبقت بيدى على رقبتها من الخلف وهصرتها فصرخت قائلة:
ـ فى عرضك. حرمت خلاص.
قلت:
ـ أتبلعين لسانك؟
قالت:
ـ بلعته.
أطلقتها فابتعدت ممسكة برقبتها تمسح عليها وتقول:
ـ الولد يده ثقيلة.. ضربة.. وجعت رقبتى.. آه.. تستضعفنى أنا. كنت اقدر على من أرجعتك مدقوق العظام.
قفزت من الفراش لألحق بها فجرت لائذة بعمتى ورفعت عمتى كلتى يديها لتحجزنى بهما عنها وهى تقول:
ـ هى حرمت ياولدى.. من أجل خاطر عمتك .
فى الوقت الذى كانت الملعونة تخرج لى فيه لسانها من خلف عمتي.
قلت:
ـ طيب ياعمتى أتركها إكراما لك.. لكن اعرفى أنها تخرج لى لسانها ولن أعتقها بعد أن تبعد عنك.
اندارت عمتى فلكزتها لكزة خفيفة وقالت:
ـ يابنت التمى. مادمت لست قده..
ردت لوزة:
ـ أبدا والنبى ياخالة بطاطاية.. هو الذى يفترى على. ولد يده مثل المعصرة.. ياساتر، كان الله فى عون من ستتزوجك.
ردت عمتى عليها:
ـ صلى على النبى. اسم النبى حارسك وضامنك. عينها باردة عليك.
ردت لوزة عليها:

قلت:
ـ طيب .. طيب.. ماكانت كلمة. جعلتك تطيح فينا. خلاص خلاص. انكتمت.
ـ ليس قبل أن تتأسفي وتقبلي رأس أخيك الدكتور الكبير. هيا قومي فقبلي رأسه.
قامت فقبلت رأسه. فربت على ظهرها. وقال:
ـ أنت أختي وعلى وجه زواج.. غلبانة ومسكينة في الجهاز وواجبي أن أجهزك.
ـ الله يخليك لي يا أخي ولا يحرمني منك.
سألناه بعد ذلك عما قد نحتاجه في أرضنا ومصنعنا وورشته من المعدات لنبقيه. ونتخلص من الباقي بالبيع. فأشار بالإبقاء على عربة واحدة وجرارين ومولدات الكهرباء ومضختي مياه كبيرتين. ونصح بألا نعرض المعدات المستغنى عنها دفعة واحدة حتى لا يكون ثمة هبوط في الثمن لصالح المشترى وبخاصة أنه يرى أننا لسنا في حاجة ملحة إلى النقود وكنا من هذا الرأى حتى قبل أن ينبهنا إليه.

● ● ●

سألني أحمد إن كنت قد اطلعت على الجرائد فأجبته بالنفي واستفسرت:
ـ أبها شئ لا يخدعنا به حكامنا؟
ـ تقول إن نتيجة امتحانك ستعلن في مدى بضعه أيام.
لاحظ ما اعتراني من قلق مفاجئ فأردف:
ـ دعها لله وستنجح بحوله وقوته لأنك فعلت ماعليك وأنا على ذلكم من الشاهدين.
ـ لكن أبي يظن غير هذا.
ـ يفعل الله ما يريد. هيا لنتسابق في طريق عودتنا. وسأحاول أن أطمئنك قبل أن تعلن النتيجة رسميا. فلى زميل هو الآن وكيل وزارة التربية وصلتي به طيبة ويمكن أن يعرفنا بها في وقت متقدم.
لزمت الصمت بجوار ابنة امبابي في طريق عودتنا على حين حاولت هي أن ترغو معي لتبعدني عما انتابني من قلق فلما وجدت ألا فائدة كفت وأطلقت العنان للموسيقى. لما وصلنا حاولت جاهداً أن أقضي سهرتي معها رفضت فتركتني ودخلت على عمتي وأنا لا أكاد تحملني رجلاى. سألتني عمتي عما بي فأجبتها لا شئ قليل من الدوار. دخلت حجرتي ورددت بابها واستلقيت على فراشي. بعد قليل جاءت ابنة عمتي تعرض على الطعام فبينت لها عدم رغبتي فتركتني لحالي وخرجت. جاءت عمتي فأطلت على عقب العشاء وظنت أني نائم وهل ينام القلق؟.. تركتني. سمعتها تقول لابنتها:
ـ أخوك غير طبيعي اليوم وأخشى أن يكون مريضا ادخلي فأيقظيه لنطمئن عليه حتى إذا ما كان مريضا لحقنا به الأطباء قبل أن يغلقوا عياداتهم.
دخلت على ابنة عمتي ومعها لوزة أحسست بيد لوزة تتحسس جبهتي وتقول:
ـ ليس ساخنا.
ثم جلست وابنة عمتي بجوار فراشي وسألتني عما أحس به. أجبتها لا شئ فقط أريد أن يتركاني وحدى. ردت لوزة:
ـ إيه.. لابد أن سيدة الحسن والجمال رقعتك علقة. قم لنتفرج على آثار خفها

كأحد إخوتى تماما بل تزيد.
ـ ماهذه العواطف كلها يا ا بنة امبابى. قولى يا أختى بشرط ألا تشطحى وتنطحى وإلا كسرت قرونك.
ـ دعنا نتكلم بجدية. ولا تغضب.
ـ إذن حاذرى ولا تغضبينى.
ـ أريد أن أعطى أولادك بعض المال.
ـ بأية مناسبة يا ابنة امبابى؟ وأنت تعرفين أنهم يعيشون بفضل الله دون حاجة.
ـ تعبيرا عن امتنانى لك لأنك أحييت لى معدات من عدم وحولتها إلى قيمة كبيرة.
ـ تقصدين أجراً.
ـ وحتى لو كنت أقصد فأنت تستحقه.
ـ الله ينيلك يابنت امبابى.. يابنت أنت.. التجارة أتلفت أملك.
أكل شئ عندك له مقابل، عيب هذا الكلام ولا تطرقيه ثانية. وإلا سيكون مابيننا من أخوة منتهيا.
ـ بس..
ـ بسة تبسك. عيب يابنت هذا الكلام.
ـ لكن يا أخى أنت تعبت من أجلنا.
ـ ولو.. ألستما أخوى؟ ماذا فيها لو تعبت لكما.. ثم إنى لست محتاجاً وأنت قد رأيت أنى أغنى منك.. ولا أقول من أبيك فهو أبى ولا يصح أن أخطئ فى حقه. ثم إن خطيبك أخى فعلا وأنت أختى.
همت بأن تنطق لكن لم يعطها فرصة. وأردف:
ـ أنا لم أنس أن يديك هاتين قدمت لى طعامى وأنا فى محنتى وغسلت ملابسى وأن دموعك انثالت من أجلى. لم أنس أنى مادخلت عند أمك وخرجت بدون طعام ونقود. لم أنس أنها يوما صنعت لى الطعام وكلكم غائبون عن المنزل واسبقتنى بعده تحاول أن تستحلب ذاكرتى الضائعة لأعود بها إلى نفسى وأتذكر أهلى . لم تيأس أكثر من ساعتين معى. فلما فقدت الأمل بكت بكاء مراً. ثم تأتين أنت الآن وتقولين أجرا.. أجر فى عينك بنت قليلة الحياء.
ثم نظر إلى وقال:
ـ وانت يا أخى.. ساكت وبالع لسانك مؤامرة هى على؟! ليس لسكوتك تفسير إلا هذا. والله إن ماسكتت بنت امبابى لأقومن فأحطكم على قلب بعض وأطيح فيكما ضربا. العيال لاخشا ولا حيا من أخيهم الكبير وأستاذهم.. الدنيا ماعاد فيها خير.. آخر زمن.
قلت:
ـ ستندار علىّ وأنا ما شأنى أنا.. إنت وأختك انتما أحرار مع بعض . قال ياداخل بين البصلة وقشرتها.
ـ بصلة فى عينك وعينها.

وسط أرضنا. وألا نستمرئ اللعب فنخادع أنفسنا بتطويل الإجازة.

● ● ●

عدنا في ثالث الأيام لنجده قد أصلح جرارين وأرسلهما فشحما وغسلا. حتى إن شكلهما خدعنا وظننا بدءا أنهما ليسا لنا عندما كشف عنهما غطاء اشتراه لكل. وبين لنا خطته في إصلاح باقي المعدات وقدم لنا كشفا بما هو مطلوب من قطع الغيار ودلنا على مكان وجودها لنشتريها.

لم يكن هناك داع لدوام الإقامة في الأرض مساء فكنا نعود مع أحمد كل يوم لنقضي ليلنا بين أسرتينا. واستطاع عمي امبابي أن يكون لأحمد مجموعة العمل التي طلبها وصحبناها معنا بعد أن جهز أحمد على حسابه استراحتينا القديمتين لإقامتهم. وأصلح مولد كهرباء من المعدات ليضيء به المكان ويستعمله كمصدر قوة لبعض معدات الإصلاح التي لاغنى لها عن الكهرباء كي تعمل، ونقل لها من عنده جهازا للمرناة مصحوبا بفيديو وكثيرا من شرائط العرض حتى لا يمل العمال من أوقات فراغهم.. ورتب لهم مطبخا وطباخا لتجهيز طعامهم وشرابهم وخادما لقضاء مصالحهم وجعل إجازتهم يومين أسبوعيا وفرض لهم مكافأة إنتاج تصرف مع مرتباتهم فتمسك به العمال.

في مدى شهر كان أحمد قد انتهى من إصلاح معداتنا كلها دون أن يتأثر عمله لدى المقاول أو تتأثر أعماله الأخرى التي بدأت تترى عليه من ذوي الحاجات. وكان المقاول قد أقام ورشة أحمد إلا من بقايا قليلة. وكنا قد بعنا كل ما لاحاجة لنا به أو لا يرجى إصلاحه من بضاعة المزاد. وكانت حصيلته تعادل مرة ونصفا لما دفعناه وصرفناه على البضاعة فحققنا بذلك ربحا يقارب الخمسة والعشرين ألفا. وقومنا المعدات التي أصلحها أحمد لنا بقرابة المائة ألف.

كان أحمد قد عهد إليّ بحسابات عماله وعملائه والمقاول وجعل من ابنة امبابي وزير خزانته ولما كان يغضب عليها ينزلها لدرجة المحتسب ولم تكن تعرف من هو المحتسب فكانت تثور عليه وتهدده وتجري وراءه سابة لاعنة وكان يعجبه هذا ويسعده ويتعمده ليضحك وأضحك فتقسم بأغلظ الأيمان أن تخاصمنا لتآمرنا عليها إلا أنها لم تبر بقسمها ولا مرة واحدة.

● ● ●

عند غدونا إلى الأرض يوما سألتني:

– ألا يجب أن نعطي أحمد أجر إصلاحه للمعدات.

– مفروض أن نفعل. لكن هل يقبل.

– نحاول.

– إذن تولي أنت تلك المهمة بإصرار. لأكون أنا حمامة السلام بينكما إذا غضب.

– استطعنا أن نستدرج أكبر عماله سنا في الحديث وكونت قيمة تقريبية لما يجب أن يأخذه أحمد من أجر. يوما انتهزت فرصة جلوسه معنا. وقالت:

– أحمد يا أخي. أريد أتحدث معك في أمر بشرط ألا تغضب مني. فأنت أخ كبير

أخرجت بعض الشطائر فرحنا نلوكها إذ لم أكن أفطرت ولا هى.. وشربنا قهوة وسرعان ماعاد الرجل والسائق يقدمان لنا التصريحين. قبل أن تنقد الرجل جعله. سألته إن كان يعرف من يملك رافعة. أجابها:

ـ حالا.. أحضره لك..

بعد أن انصرف سألتها:

ـ وما حاجتنا إليهما يمكن أن نتصرف فى التحميل هناك.

ـ ذلك يسهل لنا مهمتنا ويجعلنا ننجز بسرعة فالوقت غال وعلى الأقل ترتاح رؤوسنا ونطمئن تماما على أموالنا والراحة لا تعدلها نقود.

عاد الرجل ومعه صاحب الرافعة. اتفقت معه بعد أن اعتصرته تماماً طلب مقدم أجر رفضت قائلة:

ـ أدفع آخر نهار كل يوم لأنى لا أضمن أعطال رافعتك.

خضع وذهب ليعود بالرافعة. نقدت الرجل جعله وزادته. ظل معنا إلى أن اطمأن على مصاحبة صاحب الرافعة وعماله لنا.

تقدمنا المجموعة تجبرنا سرعة الرافعة البطيئة على السير على قدها، اتفقنا على أن أصحب عربتينا فى أول رحلة لأدلهما على الطريق وأن نتخذ فى الذهاب طريق مدينتنا لآخذ عربتى وأن أحضر رافعة أخرى من المقاول لتتولى التحطيط. على أن اقيم أنا فى الأرض وتقيم هى مع البضاعة لأنها باسمها وقد يحدث مايستدعى تواجدها اقترحت ان نبدأ النقل من غد لكنها أصرت على أن نبدأ من ساعتنا وقالت:

ـ مادمنا هنا نكسب ولو دورة نقل واحدة.

ظللنا ثلاثة أيام منفصلين كل فى واد. حتى أنهينا نقل البضاعة ورتبتها متفرقة كما أشار أحمد الذى كان يطل علىّ يوميا ويفحص ما يصل أولا بأول. وهو يبدى دهشة لما يرى ويؤكد أن من خردها مغفل وأن رزقنا أوسع مما ظن أولا.

عندما رأيتها تهل بعربتها آخر نهار ثالث يوم أيقنت أننا انتهينا من تلك المعركة التى لم تكن على البال ولا فى الحسبان.

طلبت إليها أن نستأنف إجازتنا من جديد.. قالت:

ـ وهل من وراءه عمل يهنأ بأجازة؟

بعد إلحاح منى وافقت على يومين بشرط ألا أفارقها فيهما. وافقت على شرط. ألا نتحدث فى عمل مطلقا.

كنت أشترط هذا الشرط وأنا أعلم أنه رابع المستحيلات لابنة امبابى.

زارنا أحمد خلال هذين اليومين وطلب من عمى امبابى مساعدته فى تكوين مجموعة من العمال الفنيين ذوى المهارات المختلفة الذين يقبلون الإقامة فى أرضنا ليساعدوه فيما يوكل اليه من مهام وبخاصة أن سمعته فى مدينة المقاول بدأت تنتشر وبدأ ذوو الاعمال يكلون اليه مهاماً صناعية وهندسية وأخبرنا أنه عهد إلى المقاول بتنفيذ مبنى ورشته الانتاجية وجعله مقابلا لسور أرضنا حتى تسهل حراسته. كما أنه بدأ يستعمل مؤقتا مبنى المصنع أثناء مباشرته لعملية تجديد معداتنا. وطلب إلينا ألا ندعه كالمنبوذ

لتخبرنى أن ابنة امبابى فى انتظارى أمام المنزل قمت وهى تعلق قائلة:

ـ عينى عليك ياولدى ربنا رزقك بجن لا يهمد وسيجننك معه.

وتجاويها لوزة من البهو:

ـ أريحى نفسك ياخالة بطاطاية.. تعبها على قلبه سيّ العسل.

فى دقائق قليلة كنت خارجا ولوزة تشيعنى بقولها:

ـ اجر يا ولد اجر.. الحق اللاحقة.. وإلا ضربتك سيدة الحسن والجمال.

صبحت وركبت بجوارها. قالت:

ـ استبطأتك.

ـ غصبا. فأنا لم أدر بنفسى حتى ايقظتنى عمتى حين جئت.

ـ لا عليك. لو لم أكن أريد أن نلحق بالمرور مبكرين لتركتك ترتاح .. آسفة فقد أتعبت قلبك معى.

ـ ما هذه الرسميات يا..؟

لكنى لم أكمل إذ أدركت ان معنا عزولين. فلزمت الصمت.. ولزمته هى أيضا وتركنا الحديث لقلبينا مع نغمات الموسيقى التى يطلقها مسجل العربة.

الطريق ينطوى بسرعة نتيجة قيادتها المجنونة. التى أخافت حتى المحترفين اللذين يركبان خلفنا. ننزل أمام محطة الخدمة.. يدور السائقان حول العربتين .. يفحصانهما.. يعودان الينا مهنئين يؤكدان أنهما عربتان لقطة.. جديدتان تماما.. يباركان لنا.. ننطلق الى المرور نركن ننزل.. تقف.. استحثها تقول:

ـ اصبر.

لم أفهم .

أسألها:

ـ لم؟

تقول:

ـ ستفهم ألان.

ما هى إلا دقائق حتى أتى من يحوم حولنا ليعرض خدماته.. تخبره .. تفاوضه على الأجر تصل معه الى اتفاق.. تسلم الأوراق إلى أحد السائقين وقيمة الرسم.. تطلب أن يصحبه وتطلب إلى الآخر أن يظل بجوار عربتينا. تسحبنى لنجلس على مقهى قريب. تقول بعد أن نستقر.

ـ هذا مكلف قليلا لكن مخلص.. كنا سندوخ بين المكاتب ولن ننجز شيئا ربما لأيام.. أما هو فمتفاهم مع الموظفين متناغم معهم وسيخلصنا حالا.. أهن قرشك ولا تتعب نفسك. ذلك مبدئى فى التعامل مع صغار الموظفين

ثم ابتسمت واردفت:

ـ سيّ بعضه.. الطيبات لله.. نعلمك ونأكل من بيتنا.

نظرت اليها مغيظا وقلت:

ـ طيب يا سيدتى.. الأجر والثواب على الله.. واجب عليك. ألست رجلك.

قال أحمد:
– ولم وعندنا عرباتنا؟
ردت ابنة امبابى:
– أى عربات؟ مازال أمامها الكثير لتكون جاهزة لذلك.
قال:
– ليس أكثر من بقية هذا النهار.
اتجه احمد إلى العربتين فأعاد فحصهما. ودون كشفا ببعض قطع الغيار وطلب إلى أن أذهب الى إسكندرية لأشتريها وأعود بها مع بترول وزيت فى الوقت الذى بدأ هو فيه يمارس مهمته كنت قد ركبت عربة ابنة امبابى متجها الى اسكندرية. لم أغب أكثر من ساعتين عدت بعدهما بكل ما طلب. فابتدأ فى تركيب قطع الغيار. لم يحن العصر إلا وكان يجرب أولى العربات ويسير بها داخل الشونة والفرحة تغمر وجه ابنة امبابى بعد دوره وقف وأشار الى أحد الخفر أن يركب بجواره وقال لى:
– اتبعنا بأيه عربة. خرجنا الى أقرب محطة خدمة فتركنا عربة النقل للتشحيم. وعدنا لنعود بالثانية بعيد المغرب إلى محطة الخدمة.
لما رجعنا إلى ابنة امبابى مد كلتا يديه إلى ابنة امبابى وقال بجفاء:
– أجرى يا هانم.
تلقى ضربة منها على يديه وهى تقول:
– إيه أو تأخذ أجرك مرتين.. لقد أخذته قبل أن تبدأ ياك من مهندس جشع. ياولد اقنع.
رد عليها ومايزال ماداً يديه:
– أنا مصر.
مدت يدها بشلن . وقالت: خذ فاشرب شاياً.
دس الشلن فى جيبه وهو يقول:
– يا ساتر زبونة بخيلة. أعوذ بالله لكن سىّ بعضه. شعرة من ذقن ابنة امبابى .
انتحينا جانبا فاتفقنا على أن أعود أنا وهى غدا مبكرين ومعنا سائقان بمعرفة أبيها فنذهب بالعربتين إلى المرور لاستخراج إذن سير مؤقت لحين ترخيصهما فى مقر إقامتها وقال أحمد:
– من الافضل ان نجعل إذن السير شهرا لننقل بضاعتنا بالعربتين ثم نبدأ فى إجراءت الترخيص.
لم يكن لنا حديث أثناء عودتنا إلا عن أحمد ومهارته العملية الى جانب علمه الواسع وعقليته المرتبة ووفائه النادر وخلقه الكريم. وقفنا أمام مقهى أبيها.. لمحنا.. فهم أننا نريده جاء مستفسراً. أخبرناه ببغيتنا.. طمأننا إلى أن السائقين سيكونان رهن أمرنا من الفجر .أرادت أن أسهر معها. رفضت متعللا برغبتى فى تغيير ملابسى والاطمئنان على عمتى وطمأنتها على. أنزلتنى أمام مدخل حارة الخواص على أن أوافيها مبكرا. عدت إلى منزل عمتى وسرعان ما احتوانى الفراش فنمت كقتيل حتى ايقظتنى عمتى

ـ لأنه حتى يأتى سيكون قد عرف الحقيقة. وسيطلب العربون.

راحت تنقل بصرها بينى وبين أحمد فلم نملك ضحكنا فنم عنا. قامت فأعملت أسنانها فىّ وفى أحمد وكلانا يحاول ردها دون جدوى.

ثم قالت لما جلست:

ـ أوقعتم قلبى فى قعرى رجلى. إن ما أريتك أنت وهو. تتآمران علىّ!! طيب ياحبى أنت وأحمد إن ما عملت فيكما مثلها وأكثر لا أكون ابنة امبابى. وأنت ياحبى.. أنا مخاصمة أيهون عليك حبيبك تتآمر عليه مع الدكتور؟ طيب حسابك عسير بس لما أنفرد بك إن ما أكلتك بأسنانى لا أكون ابنة امبابى.

قال لها أحمد وهو مايزال يضحك:

ـ اطلبى التاجر وردى عليه نقوده وسننقل هذه البضاعة الى أرضكم فأتسلى فى تجديدها وأنا ضامن الآن أربعة جرارات وعربتى نقل.

قالت:

ـ إيه يا أخى. رددت روحى. الله يرد روحك ويخلى لك أولادك. من غد نفعل إن شاء الله.

ودعنا أحمد وانصرف بعد أن اتفقنا على أن يوافينا عند البضاعة بعد ظهر غد بعد عودته من عند المقاول وجلست أقص عليها مادار فهدأت نفسا وطلبت أن أصحبها الى جلسة خلوية تسترد فيها أنفاسها لأنها كانت قد اضطربت فعلا عندما رأتنا نتصنع الحزن.. وأخبرتنى أننا حققنا أكثر من ألفى جنيه ربحا فى السيور.

خرجنا معا الى منتجع هادئ رحب أمامه بحيرة تتدلى الثريات من أغصان أشجاره رواده قليلون وخدمته متميزة لاتكاد تسمع نأمة لجار يجالسك أو حتى تتبين ملامحه فى هذا الضوء الخافت. زدنا ثنائيات الأحبة واحداً واستمتعنا بحبنا ورتبنا لعمل غد وما سنقوله للتجار والحراس.

تلاقينا ثانية فى الصباح. اتجهنا معاً الى الإدارة التى أجرت المزاد. دفعنا باقى الثمن وأخذنا ثبتا بذلك وخطابا الى الحراس بعدم الممانعة فى تسلمنا للبضاعة التى غدت ملكا خالصا لنا ثم يممنا وجهنا قرابة الظهر إلى مستقر بضاعتنا نحمل بعض الحلوى والفاكهة الى الحراس . قابلنا رجلينا أخبرانا أن أكثر من تاجر عاين البضاعة ورغب فى شئ منها وترك لنا رقم تليفونه وعنوانه لنتصل به عندما نحب. وجاء شيخ خفر الادارة سلمناه صورة الخطاب الموجه اليه ونصيبه هو وزملائه من الهدايا . سألنا: عما عولنا فى شأن البضاعة؟

ـ أفهمناه أن لنا شريكا ثالثا لنا يرى أن ننقلها لفرزها أولا ثم نبيع عن طريقه هو وزملائه.

جاءنا أحمد أفهمناه ما ميعنا به الموقف أمام خفر الإدارة حتى يظل الأمل فى الربح قائما فى نفوسهم فلا يضايقوننا بشئ حتى لا يتكلم هو معهم بغير ذلك، أرادت ابنة امبابى أن تعهد الى شيخ الخفر بإحضار عربات النقل التى تتولى حمل البضاعة إلى أرضنا.

قالت:

ـ وأين أنت ساعتها يا أحمد؟! خسارة خسارة.. في داهية.. ابدأ من جديد وعلى الله العوض ومنه العوض..

ثم نظرت الى وأردفت:

ـ حذار من أن تحزن ياولد فالدنيا خسارة ومكسب. اليوم خسرنا غدا نكسب. ومادمنا معا فهذا في حد ذاته مكسب عظيم حتى لو أكلناها بدقة. قوما. قوما. فأمي جهزت لكما غداءكما.. نأكل وبعدها يحلها الحلال ويدبرها المدبر.

رد أحمد:

ـ والله. أنا نفسي سدت من ساعة ما رأيت نتيجة هبلك.

قالت:

ـ كفى يا أحمد. إنها ليست نهاية الدنيا. أنا ذاهبة لتحضير مائدتكما.

ما إن خرجت حتى انفجرنا أنا وأحمد في ضحك امسكنا صوته حتى لا يكشفنا.

انتقلنا الى مائدة الطعام فأكل كلانا بشهية على حين جلست معنا ممسكة متعللة بأن معدتها مضطربة بعض الشئ.

قالت ونحن نأكل:

ـ ما يحيرني أن من كانوا يتزايدون ضدنا متلهفون على الشراء منا بضعف الثمن.. إن أحدهم كان عندي قبيل وصولكما وأصر على أن يترك لي خمسين الفا حتى إذا ما شاورت عقلي تولى هو دفع باقي الثمن للحكومة ومعنى هذا أن ربحنا قرابة الثلاثين الفا. شئ محير.. لابد أن هناك سرا خلف هذه الصفقة وإلا ما تلهفوا على الشراء. لقد ترك لي الرجل هذا المبلغ الكبير حتى بدون إيصال.

رد أحمد:

ـ إنه لص.. أو معتوه.

قالت:

ـ التجارة والعته لا يستويان. يبقى أنه لص لابد أن هناك سراً. قد يكون تحت الأكوام أشياء ذات قيمة فكثيرا ما يتفق التجار مع موظفي المخازن على دس أشياء ذات قيمة بين المهملات التي تطرح في المزادات نظير مبلغ وقد يكون أحدهم فعل هذا.

قلت:

ـ أو يكون الموظف مهملا وفعلها بلا قصد.

كنا قد انتهينا من الطعام وجلسنا نحتسي الشاي عندما أحضرت الهاتف وقالت:

ـ سأتصل بذلك التاجر الذي ترك لي العربون لأسلمة التنازل عن البضاعة.

رد أحمد:

ـ أو تردين له العربون.

نظرت باندهاش الى أحمد وقالت:

ـ أنت ستجنني. كيف أن المعدات لا تساوي أجر نقلها ثم أرد له العربون.

قلت وأنا أغالب بسمة:

تحلم بزوج مثله لتعلمك وهى ذكية وفنانة لو تعلمت لتميزت.

دهش أحمد عندما رأى المعدات وفحص كثيراً منها بعناية كان تعليقه عندما انتهى:

ـ حبك رزقه فى رجليه مثل القطط. بقليل من المجهود والمصروفات يمكن أن أجدد أغلب تلك المعدات فتتضاعف قيمتها مرات كثيرة. بل إن منها عربتين من عربات النقل وأربع جرارات زراعية كالجديدة بإمكانى إذا وجد بترول وزيت أن أديرها الآن. كل ما هناك أنها من طراز مضى على تصنيعه عشر سنوات وليس هذا بكثير على أية معدة فى بلدنا فأغلب ما تراه يجرى فى طرق بلدنا قد مضى على تصنيعه أكثر من هذه المدة.

كان رجال الحراسة قد تجمعوا من حولنا. قال من كان قد عرض علينا من قبل أن يبيعها لنا:

ـ نحن حراس فى الإدارة التى أقامت هذا المزاد ونعلم يقينا أن عربتى النقل والجرارات لم تعمل. لقد اشترتها الادارة ولم يفكر أحد فى تشغيلها مطلقا سنة وراء سنة حتى علاها التراب وصار من يراها يظن أنها أصبحت خردة. فلما عين مدير جديد فكر فى التخلص منها ومن غيرها. فعرضها فى المزاد الذى رسا عليكم.

بل إن هناك أسفل هذه الأكوام عشرين صندوقا مليئة بقطع غيارها كانت موردة إلى الإدارة معها.

ولأول مرة أرى أحمد بعد أن ثاب إلى رشده يمنح أحدا شيئا.. إذ سأل الحارس عن عدد زملائه فلما أخبره أعطاه أربعين جنيها لكل عشرة إكراما له على تنويره لنا. استقر رأينا ونحن عائدون على أن ننقل تلك المعدات إلى أرضنا ثم يتولى أحمد إصلاح أغلبها. ثم نتصرف بالبيع فى باقيها. عدنا إلى ابنة امبابى وقد اتفقنا على مشاغبتها. قبل اخبارها تصنعت وأحمد القرف ورسمنا الضيق على وجهينا. فلما رأتنا. أخذت وبان على وجهها ضيق وحزن. وقالت:

ـ مابكما. أأقول العوض على الله.

رد أحمد:

ـ قوليها بفم ملآن. إن هذه المعدات لاتساوى ولا حتى أجر حملها من مكانها.

وقلت:

ـ حتى تتأدبى ولا تندفعى وراء مالا تعرفين.

وأكمل أحمد:

ـ لقد أراد الله أن يعطيك درسا يهد من ثقتك الزائدة عن الحد بنفسك فأوقعك فى شر أعمالك هذه المرة.

وقلت:

ـ وقال ايه يا أحمد.. نحن نلعب. طيب العبى يا اختى والعبى حتى طارت منا القروش التى كنا نحتاجها للأرض والمصنع.

وتابع أحمد:

ـ وعاملة لى فالحة وأم العريف فيما لها فيه وما ليس لها فيه. طيب استشيرينى.

– إحدى جارات عمتك تسمعت ونقلت كل مادار بين أبيك وعمتك إلى أمي.

– وأبوك؟

– كتمت أمي عنه الخبر. ولا أظن أن شيئا وصله وإلا تقطع تماما ما بيننا.

– وما رأى أمك؟

– التمست لأبيك عذراً وقالت: لو كان ابنى لثرث اكثر من تلك الثورة خوفا على مستقبله. وأكدت على ألا أفاتحك إذا لم تفاتحنى لكنى لم أطق أن أخفى عنك أمراً. لقد انتهزت فرصة ماطلب التاجر منى من بضاعة لتصحبنى فأحكى لك مابداخلى حتى أرتاح. وكنت طوال مدة سفرنا أهم بالحديث. لكنى أتراجع خوفا على حبنا من الانهيار يا حبى.

– الحب الحق لا ينهار ياحبى فلا تخشى شيئا مستقبلا.. أنا وفى لك مهما حدث.

مالت تقبلنى ولزمت الصمت حتى وصلنا مدينتنا. أشارت بأن أتجه لمنزل أحمد. ففهمت لمن كان ثالث الأنصبة. لقينا وأسرته بحفاوة بالغة لم نقم عندهم إلا بضع دقائق قدمنا خلالها ما أرادت إهداءه لهم وتخلصنا منهم متعللين بأن معنا ما هو معرض للتلف. نزل أحمد يودعنا ويشاغب ابنة امبابى حتى باب العربة. فقالت له:

– سيمر عليك أخوك غدا لتذهب معه فتعاين معدات مزاد رسا علينا.

قال:

– والله أنت مغامرة ولن ترجعى حتى تنكسر رقبتك بالافلاس.. ما أدراك أنت بالمعدات.

ثم وجه إلى حديثه:

– لم لم تكسر رقبتها وتمنعها.

قلت:

– لا تهون علىّ.

قال:

– آه نسيت أن الحب هبل. تعال مبكرا والأمر لبنت امبابى التى تديخنا معها.

قالت ابنة امبابى له:

– على فكرة يا أحمد لقد خلصت لك أرضك.

فشكرها وانصرفنا أصرت على أن أسهر معها، وحملت نصيب عمتى لعامل من عمال أسرتها وأرسلته بها إلى منزل عمتى. قالت وهى تقدم السمك لأمها.

– لن نتعشى إلا منه.

أخبرتنا أمها بوصول بضاعة لنا من اسكندرية. فهمنا أنها السيور.

قضيت أغلب الوقت أداعب أبناء أختها. ولما انتصف الليل عدت لأجد منزل عمتى عبقا برائحة السمك أيضا.

فى الصباح المبكر انطلقت بعربتى إلى أحمد، نهبنا الطريق فى حديث عما كان من أبى. كان رأيه أن نفسه ستهدأ عندما يجدنى ناجحاً. وقال لى:

– تمسك بابنة امبابى مهما كان فهى تحبك بإخلاص وأنت بالنسبة لها عظيم لم تكن

ــ والله وأنت فلا ينقص من ولايتك إلا أنك لاتصلين.
ــ ياولد انت كف عن التخريف.
ــ أنا لا أخرف وسأجيبك من القرآن.
ــ صدق الله العظيم. ماذا يقول القرآن؟
ــ يقول «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون» ثم بينهم الله مباشرة بقوله بعد هذا «الذين آمنوا وكانوا يتقون».
ــ ياولد نحن أغبياء جدا. الأمر هين إذن. لم لا نكون أولياء؟
ــ عنى فأنا ولى.
ــ اسم الله عليك.. الحق.. الحق.. التقوى التى تتناثر من حولك!!.
ــ على كيفك.
صمتت قليلا ثم قالت:
ــ آه ياولد صحيح أنت لا تعمل شيئا يغضب الله.
ــ صدّقت إذن أنى ولى.
كنا قرب برج المنوفية . قالت:
ــ نعرج على البرج أم أنك تشك فى فائدته كالأولياء.
ركنت ودلفنا فابتاعت المشلتت وعسل النحل والجبن القديم.
قلت ونحن خارجان:
ــ لكن مانوبة الكرم التى تنتابك من يوم صحبتك وكيف ـ إذن ـ أبوك يسمك بالبخل؟
ــ طول عمرى كما ترى. لكنى أرفض إقراضه إذا طلب لذا وسمنى بالبخل الشديد.
ــ لم؟
ــ لأنه لا يرد إذا أقرضته. ولأنه يفضل إخوتى الذكور علينا فى كل الأحوال حتى من لا يفيده منهم بفائدة.
قلت ونحن نركب الطريق:
ــ على فكرة قريتنا على مسيرة بضعة أميال من هنا. ما رأيك لو عرجنا لأرى أهلى.
ــ آه.. وتأخذ علقة ساخنة.. وتشوه سمعتى عند حماتى وتجعلها تعتقد أنى بنت تندب فى عينها رصاصة.
وصمتت ثم اردفت:
ــ على فكرة لى عتاب معك.
ــ على عينى عتاب حبى.
ــ لم لم تخبرنى بما كان من أبيك؟
أخذت. إذ لم أكن أتوقع أنها تعرف بحضوره وشجاره مع عمتى. قدرت فوراً أنها لوزة فهى الوحيدة صاحبة المصلحة فى إفشال ما بيننا فسألتها.
ــ ومن أدراك؟
ــ العصفورة.
ــ لا.. جد.

أسأل: لم الثالثة؟ وأسلمتني القيادة ثانية فركبنا طريق العودة. لما حاذينا بضاعتنا عرجنا فاطمأننا على رجلينا اللذين أخبرانا بأن بعض التجار جاءوا ليسألوا عنا وحاولوا معرفة عنواننا باسكندرية. دفعنا اليهما بهدايا كنا قد اشتريناها لهما. واتخذنا وجهتنا عائدين.

أسوق على مهل. وابنة امبابى تحدثنى عن المكسب المحتمل للسيور فيما لو صدق كبير المهربين. لم أكن أظن أنه بهذا العظم تمتمت:

ـ خمسون ألفا فى صفقة واحدة. إننا أيضا لصوص كبار!!

ـ بشرف.

ـ سبحان الله. اجتمع النقيضان.

ـ ربك عالم بالحال. صرفنا كثيرا فى الأرض والمصنع ومازلنا نحتاج الى الكثير. هذه الصفقة وما يرزقنا الله من بضاعة المزاد قد يوازن ما انفقنا وما سننفق على الأرض والمصنع.

لما وازينا طنطا اقترحت أن تزور «البدوى».

ـ لم؟

ـ التماسا للبركة.

ـ البركة من الله. البدوى مات ومن مات انقطع عمله إلا من ثلاث كما قال الرسول.

ـ ألا تؤمن بكرامات الأولياء؟

ـ الاحياء فقط، إذا اكتشفناهم.

ـ لا تخض حتى نصل بالسلامة، شى لله يا أهل الله.

ـ بعض الخرافات مترسبة فى رأسك ياحبى.

ـ وهل الايمان بكرامات الأولياء خرافة.

ـ نحدد بدءا من الولى؟

ـ من أجمع الناس على ولايته وبنوا له مسجدا وضربوا عليه قبة.

ـ أبدا.

ـ أليست ألسنة الخلق أقلام الحق.

ـ ليس فى كل الأحوال.

ـ كيف؟

ـ قد يكون مخادعاً كبيراً أو دجالا عظيما. أو ساحراً أكبر.

ـ إى والله معك حق.. طيب من الولى؟

قلت:

ـ أنا مثلا.

أطلقت ضحكة مدوية. وقالت:

ـ بركاتك ياحبى. بركاتك ياسيدنا الاستاذ. الفاتحة لك.

ـ وأنت أيضا.

ـ أنا؟! لا تجننى.

ـ أنا فى خدمتكما لأجل خاطر سيادة المأمور. نحن لا نتأخر عنه إنه عمنا وتاج رأسنا. ومادمتم من طرفه فطلباتكما أوامر.
ردت ابنة امبابى:
ـ العفو يامعلم. هذا من ذوقك فقط.
ـ تحت أمرك؟
ـ نريد عشرة آلاف متر سير شعر جمل انجليزى . أربع بوصات.
ـ عشرة فقط؟ إنه طلب صغير. وأنا لا أقبل الطلبات الصغيرة لكنى سأنفذه إكراما لخاطر سيادة المأمور عمنا.
ـ على قد نقودنا يامعلم.
ـ خذى ما تشاءين ولما تبيعيى ردى. أين ستذهب النقود. إن نقودنا لا تضيع.
ـ إذن اجعلها عشرين.
ـ سأجعلها خمسين.
ـ أثمة بضاعة حاضرة منها.
استدعى سكرتيرا له وسأله. أجاب.. يوجد حوالى ألف متر فأمره بأن يسلمها لنا.
سألته ابنة امبابى عن الثمن فأجابها: البوصة بجنيه.
ماكست حتى نزلت بها الى خمسة وسبعين قرشا. ناولته ثلاثة آلاف ثمنه بإصرار . وقال:
ـ سأحاسب عمنا المأمور.
رفضنا.
طلب اسمنا وعنوان مخزننا ليرسل عليه البضاعة لما ترد. وأكد: استلما ما يرد إليكما ولا تدفعا نقودا إلا بعد أن تبيعا وهنا فى المكتب. فقط وقعا للسائق على إذن بالاستلام. شكرناه وهممنا بالانصراف.
فسألنا إن كانت معنا عربة لحمل البضاعة فأجبته بأننا سنستأجر. فأفهمنا أن عرباته كثيرة السفر لمدينتنا وواحدة منها آمن على البضاعة من غيرها وستجدانها إن كنتما مسافرين الآن فى عقبكما فقط ادفعا الناولون بالسكرتارية وخذا إيصالا. شكرناه وانصرفنا. لما ركبنا عربتنا قلت موجها حديثى لابنة امبابى:
ـ أرأيت كل هذه المرونة والفخامة. أمعقول أن يكون مثل هذا مجرم كبير؟
ـ ماتراه من مرونة وفخامة لزوم صنعته.
ـ معك حق.
نظرت اليها قائلا:
ـ أوامرك ياسيادة المدير فى وجهتنا؟
ـ دمك ثقيل. أى مدير؟ أنا زوجتك حبيبتك وأنا لا آمر وإنما أرجو.
ـ وبماذا؟
ـ لم يعد لنا غرض فى اسكندرية إلا كم أسماك لأسرتنا.
ركنت وتخليت لها عن القيادة. عرجت على حلقة أسماك. أشترت ثلاث كميات لم

حالة.. اكملنا سهرتنا حيث نحن ومن عجب أنى إنمعت حتى لم أعد أشعر إلا بها. وحتى الموسيقى غدوت أشعر وكأنها آتية من مكان سحيق ومن عجب أكثر أنى وهى لم نطلب أى طعام.

لما حان موعد إغلاق النزل قمنا إلى فندقنا وقد اقترب صباح جديد. دخلت حجرتى فاستلقيت على فراش لم ير النوم فى ليلته. هل صباح جديد. طلبت ابنة امبابى فى الهاتف لأوقظها . ردت بسرعة. سألتها إن كانت تيقظت. أجابت:

– وهل نمت حتى أتيقظ؟

– إذن سأسبقك إلى البهو.

تناولنا إفطارنا وخرجنا بلا هدف. اقترحت أن نبحث عما جئنا لأجله ولو من باب التسكع .توجهت لأكثر من تاجر تعرفه. كانت الإجابة واحدة: ما كان يعز؟ فقدنا الأمل الذى كان مفقودا من قبل إلى أن سألنا أحدهم إن كنا نعرف أحدا بالجمرك؟ سألته:

– لم؟

– يمكن أن يدلكم على مستورد لطلبكم أو حتى مهرب.

تذكرت ابن خال لى يعمل مأمورا بالجمرك شكرنا. الرجل واتجهنا الى استعلامات الجمرك نسأل عن ابن خالى. أخبرونا بمقره. توجهنا اليه.. قابلناه.. رحب بى وبابنة امبابى ولما أنهى ما فى يده من عمل سألنى:

– مفاجأة غريبة، آخر ما أتوقعه أن أراك فى اسكندرية. خيراً؟

سألته عن بغيتنا. فأجاب بأن ما نسأل عنه نادر وجوده إلا إذا كان مهربا. إذ تقصر الحكومة استيراده على شركة واحدة من شركاتها.

– وما الحل؟

– سأرسلكما إلى أكبر مهرب بضائع وإذا لم تجداه عنده سيحضره لكما بعد أيام لاتزيد على أسبوع إذ له مخازن فى أغلب مدن البحر المتوسط مليئة بكل ما يحتاجه السوق هنا. وإذا طلب منه شئ سرعان ما يحضره.

قالت له ابنة امبابى:

– ربما خاف منك فلم يستجب لنا.

أجابها:

– منى أنا؟! ولا حتى من رئيس الجمرك يخاف. إنها عصابة منظمة. هل تسمعين بالمافيا. إنها شئ مثل هذا فى شكل مصرى . سأحدثه فى الهاتف أمامكم.

طلبه وحدثه وأوصاه بنا. وأعطانا توصية كتابية له. وأكد علينا بضرورة الغداء معه بعد أن ننتهى من مصلحتنا. رفضنا بلباقة متعللين بلزوم سفرنا فورا.

ذهبنا إلى العنوان الذى أعطاه لنا ابن خالى. فوجئنا بعمارة ضخمة حملنا مصعد إلى أعلى أدوارها وجدنا مكتبا فخما وسكرتارية وسعاه. لم يطل انتظارنا. دخلنا لنفاجأ بكهل يرتدى ملابس أولاد البلد فى حجرة أخذنا بفخامتها. حيينا مشدوهين وجلسنا وسرعان ما كانت التحية أمامنا. ثم التفت الينا الرجل بعد أن انتهى من مكالمة هاتفية وقال:

ـ التجار لاتخفى عليهم خافية وقد حصلوا عليه من الدلال.
ـ وماذا يريدون؟
ـ أن يشتروا منا.
ـ وبعد؟
ـ أخبرهم أبى أنى مازلت مسافرة ووعدهم بالاتصال بهم عندما أعود واتصل بى ليبلغنى.
ـ ومن أين لأبيك أننا فى هذا الفندق بالذات.
ـ يعلم أنه فندقى المفضل وأنا أترك له عناوين مكان وجودى فى كل مدينة أسافر إليها.
ـ وماذا تنوين.
ـ أن نتثاقل عليهم فتلك أصول اللعبة.
ـ ياولد يا تقيل.
ابتسمت وقالت:
ـ وبعد!! الناس من حولنا فلا تخجلنى وإلا قمت فقبلتك أمامهم.
ـ إن كنت جذعة لاتتراجعى.
ـ والله ولا يهمنى.. أنا مجنونة بحبك وأفعل ما يحلو لى. وإن سألنى أحد، أقول زوجى وأنا حرة فيه.
حركت شفتى بقبلة فقابلتها شفتها كأنها تلتقطها. انداحت عيوننا فى بعض. أطلقت بعدها زفرة. قالت بعدها:
ـ أنا سعيدة بك ياولد أنت يا من أدختنى معك.
ـ قل لى ياولد انت ياحلو. إنك لم تخبرنى لم نحن هنا بالضبط.
ـ أقول لك الحق ولاتغتر.
ـ أعدك.
ـ لقد تعودت على أن تكون لى وحدى فلما بعدت أياما.. أحسست أنى ضائعة. فانتهزت فرصة طلب لتاجر يستحيل الحصول عليه لنحضر معا إلى هنا بحثا عنه. وواقع الأمر أنى أبحث عنك.
ـ وهل وجدتينى؟
ـ الآن فقط. هيا بنا..
ـ إلى أين.
ـ إلى مكان أكثر خلوة.
ـ وطلب التاجر؟
ـ ملعون أبوه لأبى طلبه.
قادت العربة إلى ركن قصى على الشاطئ ودلفنا إلى نزل هادئ رواده معدودون وانتحينا فى النزل ركنا أقصى وجلسنا متقابلين تتحاور أعيننا على نغمات موسيقى هادئة أحيانا مجنونة غالبا. ظللنا كذلك دون كلام يذكر حتى أظلم المكان فاضئ بأنوار

حين نزل وفى يده بندقية سألته إن كانت مرخصة؟
أجاب:
ـ نعم
عرفناهما باكوامنا وأشرنا عليهما أن يحرسا بالتناوب إن ليلا أو نهارا وطمأنت الخفيرين الآخرين إلى أن ما اتفقنا عليه نافذ. وانصرفت وابنة امبابى بمجرد أن أنزل أحد الرجلين أشياءهما من خزينة العربة وعرفتهما بفكرة الدخان حتى لايضجرا من البعوض ويفكرا فى مغادرة الحراسة إذ كانا من أبناء المدينة الذين لا يطيقون البعوض أو يتعودا على لدغاته الممضة.
كانت ابنة امبابى قد طلبت منى تولى القيادة. ما إن استقمنا على الطريق حتى بدأت تعتذر عن التأخير وبررته بأن أباها أصر على أن يحضر لها الرجل ذا البندقية لما علم بضخامة قيمة البضاعة.
قلت لها:
ـ منك لله ياحبى أدختينا اليوم بمغامرتك المفاجئة.
وأخذت أقص عليها مادار من ساعة أن غادرتنى حتى عادت. لما أخبرتها بأن الخفر طلبوا أن يبيعوا لنا بضعف الثمن نظير عمولة فوجئت بها تقبلنى وأخبرتنى بأنها لامت نفسها طول طريق الذهاب على اندفاعها فى الشراء وظلت تلعن نفسها لأنها لم تستجب لرأيى.
وقالت:
ـ من الصبح نبيع ونخلص.
ـ لكننا فى الصبح.
ـ أقصد عندما تهل الشمس نعود فنعهد إليهما بذاك.
ـ وعلام الاندفاع وقد نفذ السهم. لم لا نأخذ رأى أحمد فقد يفيدنا أكثر.
ـ هو ذاك.
وصلنا إسكندرية. وجهتنى إلى فندقها المفضل. ما إن احتوتنى حجرتى حتى كنت آكل أرزا مع الملائكة حتى بعيد الظهر. استيقظت على رنين هاتف حجرتى المتواصل. جاءنى صوتها يصبح:
ـ مساء التماسى ياحلوة. أى صبح. جعلتينا ياحلوة لانعرف صبحا من مساء.
ـ أنا فى البهو من ساعة فانزل.
ـ أزلت وعثاء السهر والسفر والنوم بحمام بارد وارتديت ملابسى ونزلت.
سألتها:
ـ ماهذا النشاط كله؟
ـ أبدا مكرهة أختك.. أيقظنى هاتف من أبى. حزر لم؟
ـ لم أتعلم ضرب الودع بعد.
ـ ذهب بعض من كانوا معنا فى مزاد أمس إلى منزلنا مبكرين.
ـ وأنى لهم بالعنوان؟!.

ـ وهل ستتخلى عنك.
ـ للغائب حجته.
ـ لكنك لن تستطيع النوم من البعوض.
ـ ذلك أفضل.
ازدادت قساوة هجوم البعوض. تذكرت ما كنا نفعله فى حقلنا عندما يهاجم. طلبت من أحدهما أن يحضر لنا بعض الحطب المهمل فى الأرض لندخنه حتى نطرد بدخانه البعوض. جلسنا نستنشق الدخان قسرا فهو أهون من لدغات البعوض القاسية.
سألنى أحدهما:
ـ إن كنت فلاحا.
ـ شئ من هذا.
وسألته بدورى عن سر استنتاجه.
أجاب:
ـ أمران.
ـ ما هما؟
قال:
ـ صلاتك. وفكرة التدخين.
ـ بما أنك فلاح مثلنا لن ننصر غيرك عليك.
ـ ما الأمر؟
ـ فاوضنا صاحب الكومة الأخيرة أن نضيف أشياء من كوماتكم إلى كومته نظير جعل.
ـ كم؟
ـ مائتا جنيه.
ـ وهل قبلتم؟
ـ الفقر يقلل من الدين.
ـ سأعطيكم ثلاثمائة.
ـ نظير أن ننقل من كومته إلى كوماتكم.
ـ بل نظير أن توهموه أنكم فعلتم ما أراد وتأخذوا منه المائتين.
ـ نفعل والبادئ أظلم.
قارب الليل الانتصاف . لمحت ضوء عربة متجهة الينا . أيقنت أن ابنه امبابى عادت. تبينت عندما أتت العربة أنها دورية شرطة. لم تلبث أن ذهبت. انتصف الليل واعترانى خدر. قمت بطرده بالمشى. إلا أن البعوض أعادنى بسرعة إلى خيمة الدخان. أخذ منى القلق مأخذا على ابنة امبابى.. خشيت أن يكون لحق بها مكروه لسرعتها على الطريق. وددت لوطرت لأطمئن عليها.. أزاح القلق الخدر. ضبطت نفسى أكثر من مرة أتمتم. استر استر بفضلك. لم يطل قلقى إذ لمحت أنوارا أخرى فى الطريق إلينا وسرعان ماكانت ابنة امبابى ورجلنا الذى فى أجازة ورجل آخر من رجال أبيها معه. دهشت

الذى سرعان ما اختفى ولما أبلغ منه مأربا.. بعد أن انتهينا من تناول الشاى مد يده يرجع لى باقى الحساب. كففتها وقلت:

ـ دعه لك.

شكر، وراحوا يستفسرون من أين نحن. وماذا سنصنع بالبضاعة. وأبدوا استعداداً لبيعها لنا بضعف ثمنها على الأقل نظير عمولة بسيطة، هدأت نفسى جدا عندما سمعت قولتهم الأخيرة وإن كنت قد أخذتها بشك. واعتبرتها مجرد مجاملة. سألونى عن ابنة امبابى. فسألتهم وألا أكفيكم أنا؟ قالوا: إن من رسا عليه آخر المزاد متضايق جدا منها لأنها صكته بأكثر من ألفى جنيه.

ـ سألتهم.

ـ أين هو؟

ـ أجابوا.

ـ بأنه عهد إليهم بالحراسة وذهب.

ـ وجدتنى أتمتم بينى وبين نفسى:

ـ يابنت امبابى يابنت الشياطين.

سألونى:

ـ ألن أعهد إليهم بالحراسة. وأخبرونى أنهم يقنعون بالقليل. عشرة جنيهات يوميا لأربعتهم تكفى. على أن تكون لهم حلاوة عندما نحمل بضاعتنا.

وافقتهم. انبسطت أساريرهم ونظربعضهم إلى بعض.

أحسست بخمول. قمت أتمشى وسار بجوارى أحدهم. سألنى إن كانت بى رغبة فى مكيف.

نفيت .عاد يلح وعدت أنفى. عاد يغرى بأنه صنف جيد. حزرت أنه ربما كان هو الراغب وليس معه ما يشتريه به. أعطيته نقودا وأفهمته أنها له ليشترى ما يروق من مكيف بعيدا عنى. غاب قليلا وعاد لتدور الجوزه بينهم ويتضاحكون حتى عمرت أدمغتهم. حاولوا مراراً أن أشاركهم فلما أيقنوا بإصرارى على الرفض كفوا عنى. أجروا قرعة فيما بينهم على من يبيت فى الشونة ومن يزور زوجته. عندما هم اثنان منهم بالانصراف منحت كلا أجر يومين مقدما حتى يأخذ شيئا يفرح به أولاده.

سمعت أذان العشاء من القرية المجاورة ذكرنى بأن لم أركعها منذ الظهر سألت أحد الخفيرين إن كان ثمة شئ طاهر أصلى عليه قال لكنه لايضمن طهره. توضأت من قناة مجاورة واتخذت من نجيلها مصلى بعد أن قدرت القبلة باجتهادى إذ لم يعرف أحدهما وجهتها وأسلمت وجهى لله أصلى وأرجوه العفو والعافية عدت إليهما بعد أن فرغت أتلو آيات فى سرى أختم بها صلاتى. قال لى أحدهما:

ـ أنت شاب طيب.

شكرته فسألنى:

ـ هل تظل معنا الليلة.

ـ غالبا إذا لم تعد أختى.

مدلولاتها وكنت واثقا من أنها هى الأخرى لاتفهم شيئا.

كانت تسكت حتى آخر رقم يصل إليه المتزايدون وقبل أن ينادى المتزايد آخر نداء ترفع الرقم خمسمائة جنيه دفعة واحدة. فإن زايد أحد بعدها رفعت خمسمائة أخرى فيكف الجميع ويرسو المزاد عليها . أربع كومات من خمس رست عليها بتلك الطريقة فلما كانت الأخيرة. رفعت ألف جنيه مرة واحدة. فرفع من أمامها ألفا فرفعت مائة فرفع ألفا. رسا مزاد الكومة عليه فقالت له:

ـ مبروك عليك.

ـ سألتها: لم هذا الرجل بالذات؟.

ـ إنه ابن الكلب الذى وسمنا بالعيال. أدبته بأكثر من ألفى جنيه.

انصرف التجار وبقينا نحن ومن رست عليه آخر كومة. فدفعنا الدلالة والرسوم وأكملنا التأمين إلى عشرين فى المائة فدفعنا خمسة آلاف أخرى عدا الرسوم والدلالة وما إليها. لم يستغرق ذلك أكثر من ساعتين.

وجدنا أننا فى ورطة الحراسة. إذ كيف ندع بضاعة بأكثر من خمسين ألف جنيه بدون حراسة. اقترحت أن ندعها فى حراسة خفر الحكومة. وهم لاشك مانعوها لأنها لم تصر ملكا خالصا لنا إلا بعد أن ندفع باقى ثمنها. ومن الممكن إذا ضاع منها شئ أن يتعرضوا للمساءلة.

أجابت:

ـ كان ذلك ممكنا لو لم تكن هناك كومة منها لآخر معنا. فالخفر بمئات قليلة ينقلون له نصف ما عندنا وأحسنه. ومادام لم يخرج شئ من الشونة فهم آمنون من المساءلة.

ـ وما الحل الآن؟

ـ أتركك هنا وأعود أنا وسأرجع إليك بمقدار ما يستغرقه الطريق ومعى رجال أبى. لو حدث ما يؤخرنى فلا تنم. وحاول أن تستقطب الحراس إلى صفنا حتى أعود.

انطلقت بجنون وسرعان ما ابتلعها الطريق. جلست أرضا تحت المظلة. جاءنى أحد الحراس يطلب إلى أن أنتقل إلى مستقرهم لأشاركهم الشاى.

كنت قد أحسست بالجوع. سألته أما من مكان قريب يمكن أن نشترى منه طعاما. أشار إلى قرية مجاورة. سألته عن عدد زملائه. أخبر بأنهم ثلاثة أعطيته عشرة جنيهات وقلت له:

ـ تصرف لنا فى طعام لكلنا فلا أظن أنكم تبلغتم بشئ أنتم الآخرون. دس النقود فى جيبه وانطلق وهو يقول:

ـ حالا.

ظللت فى جلستى إلى أن عاد. ولم تطل غيبته. طلب إلىّ أن ننتقل إلى مستقرهم لنأكل العيش والملح معاً.

قلت:

ـ وما يحبسنا بالداخل دعنا هنا فى هذا الجو الجميل. ترك ما أحضره أمامى وذهب فنادى زملاءه جاءوا يحملون فراشاً وماء وأوانى وعدة الشاى. تحلقنا حول الطعام

أنها ربما كانت محصورة ولم نكد نقطع بضعة أميال حتى صادفتنا استراحة فنزلنا. لما جلسنا نرتاح قليلا ونشرب شايا التقطت آذاننا حديث مجموعة مجاورة عن مزاد ذاهبون إليه .طلبت إلى أن أتبع سيارتهم . حاولت إثناءها .. غضبت وقالت:

ـ الحياة فرص وتلك ساقها الله لنا لم نضيعها؟ .

سألتها:

ـ ألسنا ذاهبين إلى هدف.لم نلويه ؟

أجابت بأن هدفنا يمكن ان ينتظرنا لانه غير مؤكد.

سألتها:

ـ ولما هو غير مؤكد لم نسعى إليه ؟

قالت:

ـ لأنى كنت متضايقة وأردت التغيير ولو بشئ من المغامرة .

انعرجت عربة مجاورينا إلى طريق فرعى قبيل الإسكندرية فتبعناها. على البعد لاح مخزن مكشوف أمامه عربات كثيرة وفى داخله أكوام من المعدات القديمة .يحوم حولها بعض الرجال أغلبهم في زى أولاد البلد قلت ونحن نركن عربتنا:

ـ والله نحن نعبث . مالنا نحن ومال تلك المعدات التى لا انا ولا انت نعرف فيها شيئا.

ـ وهل وضع أحد فى أيدينا الحديد لنزايد عليها سنتفرج ونتعلم وإذا غامرنا فبحساب.

أعدت محاولة إثنائها عن إضاعة وقتنا فيما لاطائل وراءه لكنها أصرت .لم يكن أمامى إلا أن أرضخ وأسير إلى جوارها نلف حول أكوام المعدات أعابثها بسخف تقبلته مبتسمة دون أن تعلق أوتبدى ضيقا .كانت تبدو على وجهها سعادة عجيبة لما اكتشفتها كففت عن عبثى وقلت فى نفسى إنها تجد متعتها فى التجارة فلم أحرمها منها .غير انى كنت مشفقا من أن نتعرض لخسائر نحن فى غنى عنها. انتحينا جانبا تحت مظلة أقامها منشئو المزاد كانت غاضبة بغيرنا، وبينما انا مشغول بالتطلع الى وجوه التجار وأحاديثهم الهامة المتحمسة التقطت أذناى كلمة ثقيلة من أحد الحاضرين يتندر بها علينا ويسمنا بالعيال .رأيت ووجهها يتغير فجأة . سألتها :

ـ لم ؟

أجابت :

ـ ابن الكلب وسمنا بالعيال . طيب والله العظيم لأهدمها على رؤوسهم اليوم .قلت : لا داعى للعناد فقد تعاندين نفسك . قالت ولو على رؤوسهم اليوم .

ـ لا داعى للعناد فقد تعاندين نفسك .

ـ ولو.

نودى على من يرغب فى المزايدة. فتقدمت وسجلت اسمها ودفعت التأمين الباهظ من وجهة نظرى. خمسة آلاف جنيه. جاءنا من يسألنا. محتاجون أم ستعرفون؟!.

أجابته: بتحد:

ـ وما شأنك أنت؟

بدأ المزاد على كومة كومة. كان يصف المزايد محتوياتها من معدات . لم أفهم

ويقرب حتى يغدو كأنه على باب مأواى. أسحب مسدسى وأخرج لأطارده. مأواى تغير حاله وغدا يفتح على الصحراء مباشرة. أطلق النار على الذئب فتخطئه يجرى فأجرى خلفه. أدخل فى غابة من النخيل أتوغل فيها ويختفى الذئب. أحاول الخروج من غابة النخيل. يتوه منى الطريق أخشى أن يفاجئنى الذئب من الخلف. أتلفت بين خطوة وأخرى أرفع رأسى لأستدل بالنجوم. حيات كثيرة تتدلى من الجريد.. تفغر أفواهها. أطأطىء رأسى.. أجرى على يدين وقدمين. ما عاد الذئب وحده هو الذى يطاردنى. بل الحيات أيضا. يسقط من يدى المسدس فى شق قرب جذع نخلة. أمد يدى لأخرجه.. الشق عميق يدى لاتصل لنهايته.. يبتلعنى الشق.. يلقى بى فى دوامة.. تدور بى بسرعة تكاد تفقدنى الوعى.. تشدنى إلى عمقها. تسقطنى على القاع لأجد نفسى فوق ظهر الذئب يندار على وقد فغر فاه.. وبدت أنيابه طويلة. أطبق بكلتا يدىَّ على رقبته محاولا خنقه قبل أن ينهشنى. شيخ أبيض اللحية مضىء الجبهة واسع العينين يرتدى الخلق النظيف جدا يصيح بى تعال إلىّ.. أطير من فوق الذئب. أسقط أمامه.. أستعيذ به ليحمينى من الذئب.. يأمرنى بالتشبث بطرف ثوبه.. يطير بى. يحط على مئذنة. يتباعد فى الفضاء شيئا فشيئا.. أناديه خذنى معك يامولانا الشيخ.. يشير بيده رافضا.. أسأله من هو؟ ، يرد: قل يابركة سيدى الخواص . أقول:

أسمع صوت عمتى يرد بجوارى. شئ لله ياسيدى الخواص.. لمريديك عيش وفول.. فول.. لا.. عيش ولحمة يوم ما ينجح ابنى الذى ليس من بطنى. قم ياولدى. قم.. ربنا لا يشمت فى أو بك أحدا. الحق بالصبح حاضرا فى مسجد الخواص مادام قد ناداك.

أتمطى وأتوانى.. تتابع عمتى.. قم ولا تغضبه ياولدى.. شى لله يا أهل الله.

أنزل إلى المسجد يقابلنى الشيخ محمد يرحب.. أتوضأ.. أصلى.. يخبرنى الشيخ محمد.. أن شيخ المسجد يريدنى فى حجرته.. أصبَح. يناولنى مصحفا وهو يتمتم «إن قرآن الفجر كان مشهودا» عندما تبزغ الشمس.. يضع أمامنا الشيخ محمد فولا وطعمية وسلاطة، وهو يقول: جابرا زاد محمد الغلبان. آكل أشهى فول وألذ طعمية.

أتجه من فورى إلى بيت امبابى. الرجل خرج لمقهاه والأم متشاغلة فى بيتها وابنته الكبرى لائذة بحجرتها وخطيب ابنة عمتى نؤوم الضحى.

أنفرد بحبى الذى يشبعنى عتبا وبث شوق. ولما يعلم أنى أفطرت فى المسجد يغضب لأنى لم أحضر له معى طعمية. أسأله وما الثانية؟ أتبين أنه يريد أن يصحبنى إلى إسكندرية. أستفسر: أنزهة أم عمل؟ يرد: كلاهما معاً. فإسكندرية التواجد فى حد ذاته فيها قبل أن تغص بالمصطافين نزهة. أسأله: سنبيت؟ يرد:

ـ ربما.

• • •

النقود الكثيرة تندس فى جيب عربتها السحرى وحقيبة صغيرة تلقى ببعض أغراضنا فى الخزينة والقيادة أتولاها أنا. والطريق السريع تنهبه العربة مع نغمات الموسيقى. لا حديث إلا عندما تلتقى عيوننا. أمسكت نفسى أكثر مرة عن الخوض فيما كان من أبى وأنا وهى غائبان . لما كنا قرب دمنهور طلبت أن أركن فى أول استراحة تقابلنا وقدرت

أن أنتظر حتى ظهور النتيجة وبعدها يفعل الله ما يريد.

أحسست أن رجلىّ تنوءان بحملى فجلست على أول مقعد صادفنى أنظر إلى مجموعة من الشباب فى مثل سنى تمرح وتلعب وكأن هموم الدنيا كلها انزاحت عن الخلق ولم يعد إلا المرح. لاشك أن أيا منهم لم يصادفه ما صادفنى من أحداث سعت إلى واحتوتنى.

قمت أمشى حتى وجدت عمتى . لذت بجوارها . نظرت إلىّ وسألتنى عما بى؟ لم أجد حتى أدنى قدرة على الرد قالت :

ـ هذه المياه حلوة قم فأنعش نفسك بها.

غسلت رأسى ووضعت رجلىّ فى المياه. استمرأت ذلك إذ كنت أشعر أن ناراً تخرج من أطرافى.

جاءت لوزة وابنة عمتى تطلبان من عمتى الطعام، أحالتهما على. لم أرد عليهما. ظنتا أنى أتماكر بهما ولم تكونا تدريان ما بى فأغرقتانى بمياه العين وعمتى تدافع عنى بلا فائدة.

لم أجد بداً من القيام. سألتهما ماذا تريدان؟ لم تحددا شيئا. قالتا: المهم أن نأكل، سرنا حتى مطعم بين الأشجار فطلبن كل ما عنّ لهن.آكلن بشهية إلا أنا فقد كنت أتجرع الطعام ولا أكاد أسيغه. عدن عقب الطعام لمرحهن ولذت أنا بركن قصى من أركان الخميلة، جلست فيه مع عمتى نحتسى القهوة فى صمت.. عادت عمتى تسألنى عما بى.. تعللت بالصداع الشديد.

قبيل المغرب اتجهنا إلى مدينة الفيوم نفسها وجلسنا حول سواقيها الشهيرة وهن مأخوذات بفكرتها حتى شبعن وأروين فضولهن فاتخذنا طريقنا عائدين. أوقفتنى عمتى لتشترى بطا وأوزا مما يعرضه الفلاحون على الطريق.

لما وصلنا لم أجد رغبة فى المنزل. فكرت فى ابنة امبابى إلا أنى نفيت الفكرة وحملتها نفسى برغم حبى لها سر بلائى مع أبى. وجدتنى مسوقا إلى منزل شيخ المسجد. لحسن حظى كان موجودا وليس فى زيارته أحد. رحب بى وأكرمنى. بثثته همى وخوفى من أن أكون قد أغضبت أبى ومن غضبته أيضا. بث فى نفسى سلاما وطمأنينة وقال لى:

ـ خوفك هذا فيه طاعة لله ومادمت فى طاعته فلن يتخلى عنك وستصل الأمور إلى خير.

وأوصانى بمداومة تلاوة القرآن لأن به شفاء ورحمة ونصحنى بألا أعتب على عمتى. وأن أتصرف كأنى لم أعرف شيئا.

لما عدت أخبرتنى عمتى أن لى رسالة ففضضتها فإذا بها من ابنة امبابى تعاتب لأنى لم أسأل فيها يوما بطوله وتذكرنى بأن ذلك لم يكن اتفاقنا. وتطلب أن ترانى على وجه السرعه لأنها فى شوق غامر إلىّ. ولأن ثمة أمراً تريدنى من أجله. ألقيت بالرسالة فى ضيق ودخلت حجرتى فنمت.

الظلمة حالكة فى الأرض والرياح تعوى تجاوب عواء ذئب آت من بعيد.. يقرب صوته

لكز أمي بين شتمة وأخرى حتى إن جنبيها ظلتا تؤلمانها أسبوعا بكامله عقب انصرافه. أصر على أن يعرف مستقرك وبيت امبابى ليقابله. استطاع أبى بصعوبة إقناعه بألا جدوى من ذلك. لأننا لا نعرف مستقرك. أما اتصاله بامبابى فلن تكون له نتيجة إلا التسبب فى جرح الرجل وأن ذلك ستكون له نتيجة واحدة هى فك خطبة ابنة أخته من ابنه. وما إن علم بهذه حتى ثارت ثائرته ثانية على أبى هذه المرة لأنه أهمله ولم يدعه لحضورها كأن حضوره لا يشّرف أو لأنه لايقدر على واجب يؤديه تجاه ابنة أخته. وستكون له نتيجة أخرى هى غبن خاطرك وأنت على أبواب الامتحان مما سيؤثر عليك أثناءه بالقطع. ولا أدرى كيف هدى الله لوزة. فخرجت إليه ودافعت عنك بحرارة. ودافعت عن ضرتها ابنة امبابى بقوة لدرجة أدهشتنى فأنا أعرف أنها لا تطيق أن تسمع عنها ولا زفرة. وبصعوبة استطاعت أن تسيطر على خالى وأن تنتزع منه البسمة واستدرجته إلى مشكلتها مع ـ الزينى ـ فحولت ثائرته عليك إلى ـ الزينى ـ.

وغادرنا خالى ـ مع ذلك ـ مغضبا مهددا بأنه لايريد أن يرى وجهك إلا ناجحاً وأقسم بدءاً أنه لن يرسل لك مصروفاتك التى يرسلها كل شهر وخرج دون أن يشرب ولاحتى الماء. وبعد أن نزل عاد إلى مدخل المنزل.

نادى أمي ونادانى . فنزلنا له جريا. فناولنى مائتى جنيه وقال:

ـ خدى يا مدلسة على خالك. ولو أنك لاتستحقين . ليس معى أكثر منها الآن أقدمه لك هدية خطبتك .وسوف أرسل لك من القرية ما يكمل الألف جنيه ليساعدك فى جهازك.

تمنعت لأنى كنت غاضبة منه غير أنى خضعت لما نالتنى لكمة قوية مشفوعة بلعنة وناول أمى مائة. وقال لها:

ـ دعيها معك لزفت مغلى ـ يقصدك ـ طبعا فقد يحتاج إلى نقود.

ومدت ابنة عمتى يدها الى السماء داعية الله لى بالنجاح حتى أنجو من عقاب أبى .

ثم أردفت:

ـ أمي نبهت علينا ألا نخبرك بشئ ؟ حتى لا نشوه نفسك من جهة أبيك . لكن لم أكن من هذا الرأى إذ يجب أن تعد نفسك لتقبل ثورته حتى لا يحدث بينكما ما يؤدى إلى قطيعة. وحتى لا تغضب منى لأنى لم أخبرك فتقاطعنى وليس لى أخ يسأل عنى ويرفع رأسى أمام زوجى مستقبلا ويدافع عن حقوقى إلا أنت.

شكرتها وقبلتها على أن وضعتنى فى الصورة .واعترانى هم ثقيل وخوف من ألا تتحقق نبوءة والد أحمد وأرسب وتكون القطيعة أبداً بينى وبين أبى .

مشيت بجوارها نجوس خلال الخمائل مشتت الفكر ثقيل الجبهة مستغرقا فيما يمكن أن يحدث لأمى. أويكون قد حدث فعلا . إذ كان أبى كثيرا ما يضع غله فيها لما كنت أغضبه وأمى دائمة الدفاع عنى أمامه سواء بالحق أو بالباطل مهما لاقت من بطشه بها.

عزمت السفر إليه فى الغد . غير أنى عدت فاستبعدت الفكرة . إذ بأى وجهة أقابله؟! وقد لويت هدفه من إرسالى إلى عمتى للتعليم . إلى شئ آخر من وجهة نظره . وجدت

وقالت لوزة لعمتى:

ـ اقرأى الفاتحة ياخالة بطاطاية.

فقرأتها بصوت عال. ثم سألت:

ـ ومن هذا الولى الذى قرأت له الفاتحة.

ردت ابنتها:

ـ سيدى خوفو يا أمى.

ردت عمتى ببراءة:

ـ شى لله ياسيدى خوفو ربنا يجعلنا فى بركاتك.

انفجرنا ضاحكين ولما تبينت نال كل منا لكزة بحنان.

لما وصلنا الفيوم ولم أكن قد زرتها من قبل تركت للطريق وعلاماته مهمة قيادتنا. وصلنا بدءا إلى البحيرة. إلا أن ما يحيط بها من مقاه هزيلة ذات خدمة سيئة لم تعجبهن فغادرناها إلى عين السيلين. كان كل ما حولها آسراً فسحنا وسط خمائلها صعودا وهبوطا مشيا وجلوسا لعبا وجريا مع بعضنا البعض ومع غيرنا من الرواد. إلى أن وصلنا إلى منبع العين نفسها. لما قرأنا لعمتى فوائد مياهها وتذوقت برودتها قالت:

ـ سيدى باعنى هنا. أنا جالسة هنا لأستشفى مما أصابنى به الرجل بطاطة من أدواء.

ردت عليها لوزة بخبث:

ـ أصابك بأدواء فقط ياخالة بطاطاية؟

كان نصيبها على هذا الخبث لكمة أخذتها وجرت مندمجة مع مجموعة فتيات. تهت عمدا مع ابنة عمتى الصغرى عن نظر عمتى وجلسنا أستطلع منها الأمر الذى شغلنى. قالت:

ـ خالىّ بلغه أمرك مع ابنة امبابى..

أخذت ووجمت وقدرت فورا أن ذلك حدث عن طريق المأمور. وتابعت ابنة عمتى:

ـ فوجئنا به عصر أحد الأيام قبيل الامتحان. لما سمعت أمى صوته ينادى من أسفل قبل أن يصعد. قالت بصوت عال: جاءك الموت ياتارك الصلاة. لم هذا ياولدى؟!.. تعمل فى عمتك حبيبتك هذا، أسرعت أستقبله وأحمل عنه ماعودنا عليه من خيرات. وجدته متجهما خالى الوفاض ورد على ترحيبتى بجفاء. صعدت خلفه بعد أن أرسلت من يستدعى أبى الذى لم يتوان فى الحضور. ما إن مدت أمى يدها مصافحة حتى شرف وجهها بكفه الثقيلة. قالت له: معك حق يا أخى.. اصنع بى ما تشاء فأنا أستحقه لأنى لم أحفظ أمانتك عندى. انثال لسانه بالسب والشتم لها حتى أنهى كل قاموس الشتائم وهى تتمتم. معك حق يا أخى. أما أنا فخفت لزمت باب الشقة واختبأت لوزة فى حجرة لم تبرحها. لما حضر أبى لم يكن نصيبه من شتم خالى بأقل من أمى. ولم يجد ما يرد به على خالى سوى جمله واحدة ، بس اهدأ لنتفاهم. كان صوته عاليا لدرجة أنه لمّ علينا بعض نساء الحارة. ولما كن يعلمن أنه خالى ينصرفن. لما شبع من شتمنا ومن

إلى شئ ذى بال غير أننى قلقت لكن كيف أنفرد بابنة عمتى لتخبرنى وعمتى رائحة غادية وأذناها مرهفتا السمع لكل نأمة. لابد من تعلة للخروج بعيدا عن المنزل.. انتهزت فرصة سؤال عمتى للوزة عن سر وجوم اعتراها وملتْ على عمتى قائلا:
ـ ما رأيكن لو خرجنا كلنا فقضينا يومنا بالخارج.
ردت لوزة:
ـ ياليت.
وقالت ابنة عمتى:
ـ إى والنبى يا أختى.. نفسى تتوق إلى هذه النزهة من زمان.
قالت لوزة:
ـ خائف يركبنا عربته. وإلا تعرض لعقاب سيدة الحسن والجمال.
قلت لعمتى:
ـ ما رأيك؟
قالت:
ـ أأحد يرفض نزهة تأتيه إلى باب داره؟
قلت:
ـ إذن هيا تهّيأن بسرعة.
قالت لوزة:
ـ بشرط أن تذهب بنا بعيدا عن المدينة ولو حتى إلى جهنم فقد تضايقت منها ومن أماكنها التى طرقتها من قبل مرات كثيرة.
وقالت عمتى:
ـ لكنى أريد أن أقرأ الفاتحة لأهل الله حتى يصلح الله لنا الأحوال.
ردت لوزة:
ـ ابقى اقرأيها فى سرك وهى تصل إليهم.
قلت لعمتى:
ـ أحقق رغبتك فى يوم آخر. هيا...
قامت عمتى إلى المطبخ. فقلت:
ـ لا تشغلى نفسك بطعام فهو موجود فى كل مكان وجمال النزهة فى التغيير فى كل شئ حتى فى الطعام.

سرعان ما احتوتنا العربة. عرجنا على عمى بطاطة فأخبرناه حتى لا يقلق علينا، وعلى زوج ابنة عمتى المتزوجة فاستأذناه لنأخذ زوجته معنا. رغبت ـ نزيهة ـ فى صحبتنا. تعللت بأن العربة لا تتسع. وانطلقنا. تحيرت بدءا إذ لم يكن فى ذهنى مكان معين. سقت على غير هدى فإذا بى فى ميدان الجيزة. سمعت مناديا للسيارات ينادى: الفيوم. قلت فى نفسى. لتكن الفيوم. لما كنا فى شارع الهرم وحاذينا فيللا أحمد أشرت إليها لهن فاتجهن بأبصارهن إليها إلى أن توارت. وكل منهن يعلق باندهاش. لما حاذينا الهرم. رحن يتطلعن اليه.

قلت:

ـ بل سأذهب.

ردت ابنته:

ـ تذهب . وهل دخول الحمام مثل خروجه. أنت مقبوض عليك هنا بأمر زوجتك. ولا خطوة إلا بإذنى وأمرى . أفاهم ياولد.. أنا حرة فيك. نعم. أتركك. أحبسك.. أنا حرة.

قال عمى امبابى:

ـ عن إذنك ياولدى.. لأرتاح.

خرج وتبعته زوجته.

وطالت بثلاثتنا السهرة حتى صاح ديك. قمت فتوضأت وصليت الفجر ودخلت حجرة ابنة امبابى التى نامت فى حجرة أختها حتى الظهر.

لما صحوت لم أجد ابنة امبابى. أخبرتنى أختها أنها ظلت تتقلب فى فراشها دون نوم حتى لاحت الشمس فخرجت لتخلص موضوع أرض الدكتور أحمد وأخبرتها أنها ستعود قبل أن أستيقظ. وضعت أختها الإفطار. عافته نفسى وطلبت فنجانا من القهوة وقبل أن أفرغ منه دخلت ابنة امبابى وسنانة وباد عليها ارهاق السهر والسفر. لمتها على ما ترهق به نفسها فألقت بالتبعة علىّ لأنى بانفعال الأمس أطرت النوم من عينيها وتركتها متوترة فوضعت غلها فى السفر بدلا من أن تضعه فىّ. أشفقت عليها وتركتها لتنام فأكدت على بضرورة الحضور إليها مساء وهددتنى بأسنانها الحادة إذا لم أحضر.

● ● ●

عرجت على عمى بطاطة جلست معه فى المحل بقية اليوم أرغو معه وأتفرج على السابلة. وأحدثه عن عظمة أسرة الدكتور أحمد وما كلفت به نفسها تجاهى قبيل الامتحان وأثناءه. أحسست أن الرجل يريد أن يحدثنى بشئ لكنه يمنع نفسه. لم أعر الأمر اهتماما كبيراً وقدرت أن ما يدور فى رأسه ويريد أن يحدثنى به شئ غير ذى بال وإلا ما طاق أن يكتمه.

مر علينا شيخ مسجد الغواص شرب قهوته ودعانا أنا وعمى بطاطة إلى حضرة الذكر التى ستكون فى ليلتنا هذه. كنت فى حاجة إلى ما يغسل نفسى ويريح روحى فاستجبت لدعوته أنا وعمى بطاطة.

بعد أن أغلق محله ذهبنا معا إلى حضرة الذكر التى شفتْ روحى من قتامتها وبخاصة بعد انفعال الأمس الذى وجدت أنه لم يكن له مبرر بعد أن فكرت فيه بهدوء وأنا جالس مع عمى بطاطة فى الفترات التى كان ينشغل فيها بأمر المحل.

فى الصباح وجدت ابنة عمتى هى التى توقظنى ولم تتركنى حتى تنبهت تماما ثم أسرت إلى بأن ثمة أمرا تريد أن تخبرنى به فيما بيننا لأن أمها نبهت عليها بعدم الخوض فيه هى وأبوها ولوزة لكنها ترى أن أكون على بينة منه ونادتها أمها فخرجت. أخذت أضرب أخماسا فى أسداس ماذا يكون هذا الأمر الذى تكتمه عمتى عنى. أهو أمر يتعلق بى أم بأسرة عمتى أم بابنة عمتى. أم يخص ابنة امبابى. تحيرت ولم أصل

ـ ياولدى لا تظلمني.
وردت أختها:
ـ يا أخي.. نريد أن نفرح بكما. أتهون عليك أختي تطفئ شمعتها وهي تحبك.
وتقدمت مني فأمسكت بيدى وأردفت:
ـ تعال معي نتفاهم نحن ودعك من عمك امبابي. والله إن أبي يحبك كإخوتي تماما.. ولم يذكرك بسوء مطلقا.. بل إنه يعيِّر إخوتي بك أكثر من مرة وقال لهم أمامي. كانت نفسي تتوق لأن يكون لي واحد منكم في مثل شهامة ورجولة. فلان تعال .. تعال.
كنت قد هدأت نسبيا فاستجبت لها. دخلنا حجرتها وجلسنا. فقالت:
ـ ياساتر.. أنت حساس جدا. كان الله في عون أختي معك. أقسم نيابة عن عمك امبابي.. أنه ما أراد إحراجك. ولا طردك. وهو يعرف أن أختي تحبك ويتصنع الجهل بذلك. وإن كان سعيدا بهذا الحب ـ بلا شك ـ. فلا يمكن أن يفكر في تعاسة ابنته. ذلك حال أي أب مهما أظهر خلاف ذلك وهو حال عمك امبابي وبخاصة بعد تجربتي مع مطلقي.
ودخل علينا عمي امبابي قائلا:
ـ يا ولدى حقك عليَّ إن كان التعبير خانني. آخر زمن.. أولادنا يجعلوننا نعتذر لهم. بذمتك ودينك يا رجل أليس عيبا عليك أن تجعلني أعتذر لك.
قلت:
ـ وهل طلبت اعتذاراً. وعلى كل حقك عليّ.. أنا آسف يا عم امبابي. أنت أبي وما تريده يكون بأمر الله. فقط بعد أن تظهر نتيجة الامتحان حتى يكون لي وجه أقابل به أبي. وثق يا عمي امبابي أني لن أتخلى عن ابنتك إلا بالموت.
ردت زوجته:
ـ الشر برة وبعيد.. لم ياولدى هذا الفأل السيئ؟! ربنا يا ابني يفرحنا بكما.. يا ابني أنت في عيوننا كنت غاليا عندى وازددت غلاوة عندما أخبرتني ابنتي أنه برغم حبك العظيم لها لم تفكر للحظة ـ برغم انفرادك بها ـ أن تمس شرفها. يا ابني نحن ـ النساء ـ نعرف أن ذلك دليل الحب الخالص. فمن يحب بصدق يحفظ ولا يفرط يا ابني..
دخلت ابنتها وقد ارتدت ثيابها وحملت حقيبة ملابسها. وقالت:
ـ أنا تحت أمرك.
قال لها أبوها:
ـ خلاص يا ابنتي.. الأستاذ قبل اعتذاري وفهم قصدى. ربنا يا ابنتي يهنئكما ببعض.. والبيت بيتك وابنتي زوجتك.. تبيت هنا.. تبيت عند عمتك.. أنت وراحتك.
قالت ابنته:
ـ عند عمته؟! وأنا زوجته يقعد معي هنا. ألا يعرف حقوقه.. وأنا أيضا أعرف حقوقي.
ردت امرأته:
ـ وعلى رأى المثل: بلدك فين ياجحا. قم ياولدى فاخلع ملابسك وادخل في حضن عمك امبابي. أو نم في المكان الذى يعجبك.

ردت باستسلام والبسمة تملأ وجهها طولا وعرضاً.

- حاضر.. لكن اجلس لنتفاهم.

- هو أمر من رجل لزوجته. فلا تفاهم.

- فقط نستأذن عمك امبابى

- عمى امبابى على عينى ورأسى. لكن لا شأن له بحياتنا . قومى وإلا عجنت عظمك فى لحمك.. قامت فأنزلت حقيبة من فوق صيوان فتحته. وأخذت بعض ثيابها فوضعتها فيها، سمعت صوت الرجل فنظرت فإذا به وزوجته وابنته المطلقة على باب الحجرة، دخل قائلا:

- ياولدى لا تكن حساسا إلى هذا الحد فوالله ماقصدت شيئا مما توارد على ذهنك وأثارك.

وأردفت زوجته:

- ياولدى أنت ابننا وخطيب...

قاطعتها:

- زوج ابنتك من فضلك.

- زوج ابنتنا. وأنت فى عيوننا وهى تحت أمرك. وإذا كان عمك امبابى أغضبك بشئ فامسحها فى ذقنى.

ونظرت إلى زوجها وتابعت:

- ماذا فعلت له يا امبابى.

رد:

- أبداً والله. كنت أحاول أن أتفاهم معه حتى لا تطول مدة الخطبة. كما أشرت أنت.

قالت:

- ياولدى اصنع ما يحلو لك وما يرضيك.

قلت:

- مايرضينى هو أن نحضر المأذون الآن ليحول زواجنا الشرعى إلى زواج رسمى.

رد عمى امبابى:

- نحن الآن بعد منتصف الليل. أنوقظ الرجل من نومه وهو شيخ فان. ياولدى الصباح رباح. على الأقل تحضر أسرتك من القرية وتحضر أسرة عمتك. والدكتور أحمد.

تنبهت إلى بكاء ابنة امبابى. سألتها:

- ما يبكيك يابنت؟

- إنك لا تريدنى أن أفرح بزواجى كالبنات. وهل أنا لست بنتا وأريد أن أفرح وألبس «الفستان» وأزف بالطبول. حرام عليك يا حبيبى تحرمنى من فرح تتمناه كل بنت.

قلت:

- أنا لم أحرمك.. أبوك هو الذى يحرمك.

قال امبابى:

فأحضرتهما وانصرفت.. ظل صامتا لفترة توجست فيها خيفة. ولم أطق صبرا فقلت:
ـ خيرا؟

ـ لن يكون الا خيرا بأمر الله، لقد غدوت فردا منا أثق فى عقلك بعدما حدثتنى ابنتى عما فعلته معها فى الفترة الماضية وكان أخوف ما أخافه طيش الشباب لكن هذا أيضا اطمـأننت عليـه من رجلى الذى عاد فى إجـازة معكمـا فكبرت فى نظرى فوق مـا كنت كبيرا. وهناك موضوع يؤرقنى جدا أنت تعرفه ولا أريده أن يظل معلقا أكثر من اللازم.
ـ أى موضوع؟

ـ تعلم أنى لكى أقطع الألسنة أشعت بأنك غدوت زوجا لابنتى على سنة الله ورسوله، وقد خبرتها وخبرتك فإن كنت تجد أنها لاتصلح لك زوجة فيمكن الآن ان نشيع ثانية أنك طلقتها. ويذهب كل فى طريق وبخاصة انها أخبرتنى عن مدى تأثرك بأسرة أحمد. وأنها لمحت أنك تبغى أن تكون مثلها علما، وابنتى غير متعلمة. ولقد أحسست منك أيضا أنك غير طامع بالمرة فى ثروتها بل إن إغراء النقود لك يكاد يكون فى حكم العدم فإذا ما وضعنا هاتين النقطتين أمامنا تتجرد ابنتى، من كل إغراء لك يربطك بها. وهذا شئ يقلقنى جدا لأنى أريد أن أطمئن على مستقبل ابنتى، وأكره ان تتكرر مأساة أختها لما طلقت.

فهممت وأنا أقول:
ـ عن إذنك.
ـ إلى أين؟ أنا لم أفرغ من كلامى بعد.
ـ إلى زوجتى.

وجم لحظة ثم تساءل بدهشة:
ـ زوجتك؟

ـ نعم زوجـتى. ألم تشع أن ابنتك زوجـتى على سنة الله ورسـوله. وأنا قـبلت. ومـا الزواج إلا هذا.

وتركته وصعدت درجات السلم القريبة ودفعت الباب ودخلت. بهتت زوجته من هذا التصرف ونظرت إلى باندهاش فقلت:
ـ إيه.. بيت امرأتى وأنا حر أدخل بالطريقة التى تعجبنى.

فلم تحر كلمة. واتجهت إلى حجرة ابنته فدفعت الباب بلا استئذان، كانت ترتدى الشفوف فأسرعت تضع «دثارا» على جسدها. خطفته من يدها ودفعت بها على مقعد وأمرتها بعدم الحركة قالت:
ـ ما هذا الذى تفعله يامجنون؟!

ـ اسمعى.. أنت زوجتى من الآن على سنة الله ورسوله فقد قبلت زواجك من أبيك. وأنا حر أصنع بك ما أشاء أفاهمة؟ لى عليك ولاية الزوج وحقوقه ولك عندى كل حقوق الزوجة من الآن نعيش على قدنا بنقودى أنا. لا بنقودك أنت. أفاهمة؟ قومى الآن فارتدى ملابسك سندع هذا المنزل بمن فيه ونتجه إلى منزل عمتى نقضى ليلتنا هناك ومن غد يكون لنا شأن آخر.

- ليتك تنظر قليلا وسآتى معك.

استجاب عمى بطاطه وجلس فطلب منى أحمد. أن اصحبة الى العربة لنحضر منها شيئا.

نزلنا فحملنا بعض الهدايا احضرها معه لأسرة عمتى. أما لوزه فحجز هداياها ولم يحمل لها إلا لفافه حلوى من التى كان يحضرها لها معه. قدم أحمد وزوجته الهدايا إلى أسرة عمتى. أما لوزة فقدم لها لفافة الحلوى.

أخذتها لوزه فقلبتها بين يدها وتنهدت وقامت نحوه وبلا مقدمات قبلته واحتضنته وهى تقول:

- أتضحك على أمك ياولد ياعمر يامتنيل على عينك.

أجابها أحمد بجفاء:

- عمر؟! من عمر ياسيدتى أنا دكتور أحمد.

- الحلوى نمت عليك.. أنت عمر ابنى أو أنا عبطيه.. أم أنا عبيطية. الحمد لله ياروح أمك الذى اعادك لنفسك ولنا بالسلامة.

وانذارت إلى زوجته فقبلتها وهى تقول لها:

- حذارى منى فأنا حماتك. ثم احتضنت أولاده وأجلست كلا على فخذ وراحت تغمرهما بقبلاتها.

وعادت الحفاوة من أسرة عمتى بالدكتور أحمد وزوجته لكن بشكل لاتكلف فيه، وقضينا أجمل أمسيه كان سلطانها لوزه بنوادرها مع عمر، وأحمد بنوادره مع أمه لوزة التى أصبحت حكايات.

ولما هم أحمد وأسرته بالانصراف حاول أن يصحب لوزه معه إلا أنها رفضت بإصرار وقبل ان ينزلوا خلعت على زوجته وابنته بعض حليها، أما ابنه فقد خلعت عليه أحد خواتمها وقالت له: احتفظ به ياروح جدتك لوزة إلى أن تكبر لتذكرنى به. تواعدنا أنا وأحمد على اللقاء عند أسرة عمى امبابى عصر ثانى يوم. إلا أن المفاجأة فيها لم تكن تامة إذ كانت ابنه امبابى لم تطق صبرا فأخبرت أسرتها بأمره.

غير أن الحفاوة به وبأسرته فاقت كل ما يمكن ان يتخيل. وتوثقت الصله فى تلك الزيارة بينه وبين عمى امبابى. كما توثقت بين زوجته وبين أسرة عمى امبابى.

هممت بالانصراف بعدما انصرف احمد بأسرته غير أن عمى امبابى استبقانى ثم وضع يده على كتفى وسار بى إلى ركن فى حديقة منزله وطلب من ابنته كرسيين

- والتفت إلى عمتى قائلا:

- اتيتك بضيف عزيز.

ما إن هلا.. حتى فغرت لوزه فمها دهشة وفرك عمى بطاطه عينه وتمتم وهو يلقى الدكتور مرحبا.. غير معقول.. سبحان الخلاق العظيم.. وقالت عمتى لما طالعته مسلمة عليه:

- غير ممكن.

وكأنما أرادت ابنه عمتى أن تتأكد فسألت ابنة الدكتور أحمد عن اسم ابيها، وارتبك الكل لفترة وأحمد وزوجته مغموران بترحيب مقرون بالدهشة البالغة. وأسرعت أفتح لهما حجرة الاستقبال وهما مبتسمان.

وقمت بالتعارف فيما بينهم فأمسكت لوزة رأسها ووضعت عمتى يدها على جبهتها.

سأل الدكتور أحمد لوزة:

- ماذا بك ياسيدتى؟

- ابدا كل ما هنا لك أنك ـ سبحان الله ـ أنت تشبة ابنى شق الكلوة.

- أنت صغيرة ولايبدو أنك حتى متزوجة فكيف يكون لك ابن مثلى وأنا أقاربك سنا؟! إن لم أزد.

- حتى صوتك هو صوته.. أليس لك أخ؟!

أجابها:

- نعم. مسكين تائه منا من سنوات قليلة. وبحثنا عنه فى كل مكان ولم نجدة.

- سألت عمتى أهو توأم لك؟

أجابها:

- نعم.

انتفض عمى بطاطة وقال:

- الحمد لله ستأخذونه معكم. إنه كان مقيما هنا مع لوزه.. ويعتقد أنها أمه سأخرج لابحث عنه فى القرافه إلى أن أجده وأعود به حالا.

قلت له:

- أوتترك ضيوفك؟ ياعمى بطاطة؟ دعك من عمر الآن فسرعان ما يأتى:

- كيف ياولدى مادام أخوه موجودا إنها أحسن هديه نقدمها لضيوفك.

قال له أحمد:

ابتسمت ولم أجب. فأردفت:

– مبروك: ربنا يهدئ سركما.

ولم تطل بها الجلسة بعد ذلك. بل انسحبت هى وأبنتها.

شباب الحارة. جاء بعضهم يحمل هدايا، وبعضهم يظهر حبه، بعضهم طالت به الجلسة وآخرون انصرفوا بسرعه كل هذا ولوزة ملتصقة بى، إذا قمت قامت، وإذا جلست، جلست لدرجة ان عمتى كانت تنبهها عندما يدخل شباب حتى لاتلفها الأقاويل. لكنها لم تعبأ بعمتى ولا بسواها.

قبيل المغرب سمعنا إحدى الجارات تنادى عمتى فاطلت عليها وعزمت عليها فصعدت تسأل عما إذا كنت موجودا.

ردت عمتى:

– اتفضلى يا أختى.. نعم موجود.

قالت:

– هناك من يسأل عنه لكن بسم الله ما شاء الله. عربه إيه.. وشياكه أيه. وزوجته قمر، لكن الخالق الناطق عمر. سبحان الله يخلق من الشبه أربعين.

نزلت السلم قفزا والصبيه والجيران متحلقون جول العربه. قلت له:

– ايه يادكتور؟! لم لم تصعد.. أم سرعان ماتهت؟!

ابتسم ولمز لى بعينه فهمت أنه مصر على جعلها مفاجأة سألنى هامسا:

– أين لوزة؟

– كاتمة على أنفاس أخيك من ساعه أن رأته.

– أحدثتها بشئ؟

– لا.

تعلق بى ولداه فحملتهما وصعدت يتبعنى هو وزوجته.

قلت لعمتى وأنا داخل:

– أتيتك بأجمل عفريتين فى الدنيا. خذى.

وناولتها الغلام.. تلقفته تغمره بقبلاتها وهى تبسمل وتصلى على النبى وتسأل ابن من هذا بارك الله لابيه.

على حين حملت ابنه عمتى الفتاه لم يكن الدكتور أو زوجته قد دخلا. فناديت:

– تفضل يادكتور، تفضلى يادكتوره.

أن تتولى أمرها لأنها ابنه جزار. فانشغلت هى وعمى بطاطة وابنته بهذا الأمر حين جلست لصيقا بعمتى التى لم يكف لسانها عن الاستفسار عن أحوالى وإلى أى مدى وصل بنا المدى أنا وابنه امبابى.

حركت عمتى ابنتها بأجزاء من الذبيحة إلى الجيران وبخاصة الطباخه والشيخ محمد وشيخ المسجد لم يسأل أحد عن عمر بدءا ولما انتصفت سهرتنا، كأنما تذكرته لوزه فجأة فسألت:

– أين الكلب؟

فهمت لكنى تجاهلت ونظرت إليها مستطلعا.

فأردفت:

– عمر؟

– آه.. أصر على النزول أمام القرافة لاشتياقه إلى الموتى.

ابتسمت وقالت:

– كنت أخشى أن يغلبك.

– كان عظيما.

ابتسمت عمتى وقالت:

– يا ابنى الله يعظمك.

لما امتدت بنا السهرة غدونا نتساقط بحوار بعضنا حيث نحن ولم يفكر أحد أن يفارق الأخرين بالانتقال إلى مخدع وكانت عمتى تلقى بغطاء على من يغلبه النوم منا.

أخذت عمتى توقظنا بعيد الظهر.. غلبناها إلى أن تيقظنا لاحظت أن عمى بطاطه بيننا ولم يخرج الى متجره. أيقنت أنه لا يريد أن يفارقنى هو الآخر برغم مسؤلياته التجارية.

كان أول زوارى الشيخ محمد وشيخ المسجد، لقيتهما بشوق ولقيانى بحب. أخبرنى شيخ المسجد أنه كان يدعو لى فى الأسحار طول أيام امتحانى. وأخبرنى الشيخ محمد أنه قرأ القرآن كله أيام الامتحان ودعا الله بعده أن يوفقنى.

جاءت الطباخة زائرة هى وابنتها قدارة. لاحظت ان قدارة كانت فى أبهى زينة وقد تجملت بصفوف تلو أخرى من الأساور الثقيلة فى كلتا يديها وكردان لم كل صدرها..

سألتنى الطباخه:

أحقا بنيت بابنه امبابى؟

- أى حق هذا الذى يفضح؟!
قال عمى بطاطة:
- يفضح؟ يفضح لماذا؟ وهو حلال . أجازه الله.
قالت عمتى:
- أه.. ماقلنا شيئا.. لكن ليس هكذا أمام العيال يفضحوننا به.
سمعت تصفيقا اعقبه صوت لوزه يقول:
- خالتى بطاطايه رضيت .. خالتى بطاطيه رضيت.
قالت عمتى:
- انكتمى يامقروصة.. وانت ياراجل أيعجبك هذا الذى اضحكت به علينا العيال!!
رد عمى بطاطة:
- تماما. فأنا منبسط حبيتين.
ردت عمتى:
- ربنا يبسطها عليك جدا، لكن لم؟ أكسبت قرشين. يستروا فى جهاز البنت؟
رد عمى بطاطة:
- أحسن من القروش.
قالت عمتى:
- طيب.. أرنا.
قال عمى بطاطة:
- ادخل وبان وعليك الأمان.

دخلت فبهتوا للحظة تم تكبكبوا على فإذا بى ملقى أرضا مغمورا بقبلاتهم ودموعهم التى تركتنى ووجهى كأنه مغسول ولما يجفف. وعتاب مرة من عمتى.. وأخرى من لوزة وثالثة من ابنه عمتى لأنى تركتهم كليا كل هذه المده على حد تعبيرهم. ولما أفقنا من ترحابهم قالت عمتى لزوجها:

- الآن قبلنى كما تريد. فقد أتيتنى بمارد على روحى وثبت عقلى الذى كاد أن يشت.
وقالت لوزة:
- وأنا أيضا ياعمى بطاطة أقبلك.
- وقبلته هى وابنته. اعطيت ابنة عمى مفتاح العربة وطلبت إليها أن تحضر مابها وبخاصة مافى حقيبتها الخلفية، عادت بعد قليل تسحب وراءها الذبيحة وطلبت من لوزة

ردت لوزه:

- وماذا فيها ياخاله بطاطاية. آخذ بنتك وأخلى لكما الجو.

ردت عليها:

- حتى انت يامقصوفه الرقبه تقولين هذا منذ متى وعمك بطاطه يبدى حبه. ويمين النبى أبو أربعه وأربعين يمينا. إن هذا الرجل إما إنه جرى لمخه شئ أو يريد أن يأكل بمخى أنا حلاوه، حتى أهاوده على نقود يريدها.

رد عمى بطاطه:

- أبدا والله طول عمرك ظالمانى يابطاطايه.

ردت :

- إذن لم هذا الكلام الحلو.

قالت ابنه عمتى:

- أأبى كلامه حلو الآن يا أمى لأنه يريد قبله!!

ردت عمتى بانفعال:

- آه يامقصوفه الرقبه، كلامه حلو يا أختى.

قالت ابنه عمتى:

- مادام حلوا نفذى رغبه أبى وسأغمض عينى أنا ولوزه.

ردت عمتى بانفعال:

- أمشى انجرى من هنا يامسحوبه من لسانك. وإلا لو أن يدى أمسكتك ساكسر رقبتك.. وانت يارجل ماذا تريد؟ انت رائق وأتيت لتكمل بى!!

قال:

- وماذا فيها ألست زوجتى؟

ردت لوزة:

- آه.. صحيح أنت زوجته. وفيها ماذا لو أكمل روقانه بك؟!

ردت عمتى:

- شوفى يا أختى البنت.. أنت معى. أم معه؟

ردت لوزة:

- مع الحق.

قالت عمتى بانفعال:

اليوم لكان عندى غدا هو وامبابى، فقد غشيهم قلق شديد علينا. ووصف حالى عمتى بأن بينها وبين الجنون شعرة، بل ربما تكون قد جنت بالفعل من أجلى. وأخبرنى أن لوزة عاودتها حاله الاكتئاب وذهبوا بها آلى الطبيب ولم تتماك نفسها إلا من يومين وإن كانت غير منضبطة تماما. وعندما تراها خدها على قد عقلها لأنها مسكينه ياولدى وتحبك فعلا..

قام الرجل فأغلق محله وصحبني إلى المنزل ما إن انعرجنا فى حارة الخواص حتى بدأت التحايا والحفاوة، وبين كل خطوه وأخرى وقوف ونزول وترحاب واشتياق إلى أن كنا أمام منزل الطباخة وجدناها كعادتها تجلس على الباب هى وقدارة ما إن نزلت حتى احتوتنى بين ذراعيها بشوق غامر. جعلنى أوقن تماما اليقين أن حبها لى مبرأ عن الغرض، ولولا أن عمى بطاطه ذكرها بشوق عمتى لى الذى تعرفه ماتخلت عنى.

عندما وصلنا إلى المنزل أخبرنى عمى بطاطه أن لوزة مقيمة فى شقتهم من يوم مرضها الأخير. واقترح ان أفاجئهم، سبقنى وصعدت خلفه وقفت بجوار باب الشقة سألته زوجته:

– لم عدت مبكرا يارجل؟

أجابها:

اشتقت اليك ياروحى.

ردت:

– شوفى يا أختى الرجل وكلامه!! قال اشتقاق الى قال!! مند متى يارجل؟

– طول عمرى ياحبيبتى.

– بطل يارجل هذا الكلام.. لابد أنك فعلت فعلة. أو تريد شيئا تعرف أنى لا أستجيب له فجئت تضحك على عقلى. أعرفك بعد أن عجنتك وخبزتك. قل يارجل ماذا تريد.

– أقول ولا تغضبين

– والله إذا كان طلبك معقولا فلن أغضب، أما إذا كنت تريد نقودا من نقود البنت. فأحسن لك تنجر بالسلامة.

– لا أريد إلا قبلة.

– شوفى يا أختى الرجل وكلامه!! قال أو حشته جدا ويريد ان يقبلنى يالوزه!! يالوزة تعالى شوفى الحب الذى وقع على رأسى دفعه واحده من عمك بطاطه. قال إيه. يزيد قبله.

– قل لها أى شىء.. مات ودفنته فى الصحراء مثلا.. اختفى فى ظروف مريبة. اختطف أكله الذئب.. أى شئ.

ردت ابنه امبابى:

– بعد الشر عنك يا أخى.. لم هذا الفأل السيئ يا أحمد؟

قال:

– أفهمينى يابنت امبابى نحن نتحدث عن عمر.

قلت له:

– لن تقتنع لوزة وستوجع رأسى.

رد أحمد مبتسما:

– وماذا فيها يا أخى لو وجعت رأسك. ألا يستحق عمر منك وجع الرأس؟

– لا تحيرنى يا أحمد.. أنت تعرف أن لوزه انفعاليه ولن أخلص منها ولا حتى من عمتى أو عمى بطاطه أو ابنه عمتى.. فقد كانوا بين مشفق على عمر أو محب له. فلا تحيرنى أرجوك.

– قل الحقيقة.

– لن يصدقوا.

– هم أحرار، لكن ليس أكثر راحة من الحقيقة. وعلى كل لن يطول وجع رأسك فسأحضر أولادى وأوافيكم غدا آخر النهار. وإذا استطعت ألا تقول شيئا حتى أحضر يكون أفضل حتى تكون المفاجأة تامة.

ونظر الى ابنه امبابى وأرف:

– وأنت يا من سحبوك من لسانك، لاتقولى لأسرتك شيئا أريد مفاجآتهم كلهم لنضحك قليلا:

خرجنا رتلا من السيارات يتقدمنا أحمد وتتوسطنا ابنه امبابى وقد جلس بجوارها أحد الحارسين. ولما كاد أحمد أن ينفصل عنا أخرج يده ولوح لنا بها وكذلك فعلت عندما كدت أن أنفصل عن ابنه امبابى.

* * *

وقفت أمام محل عمى بطاطه فوجئ بى الرجل احتوانى بين ذراعيه وأطبق بهما على كأنه يخشى أن أفلت منه. وظل كذلك لفترة وهو يغمرنى بقبلاته ثم أطلقنى وراح يستفسر عن الأحوال ويطمئن على ما فعلته فى الامتحان، وأخبرنى أن لو لم أحضر

الله حسبما يشاء ومهما قدرنا، قدره هو النافذ فى النهاية، فمن الأفضل أن نريح أنفسنا ونعيش حياتنا وندعها له سبحانه فنرتاح. أما أن نحسبها بالقلم والورق ونقيسها بالمللى فذلك شئ متعب. نحسب ونقدر نعم، لكن فى النهاية ندعها على الله.

عاد رجلها يجر الذبائح فأخبرته بأننا فى حاجة الى راحة عقب الامتحان، سنقضيها مع أهلنا وسألته إن كان يمكن أن يقوم بالحراسة وحده وبخاصة بعدما أقمنا السور وصارت الأرض تحفظ ما عليها من إنشاءات وليس هناك ما يخشى عليه من سرقة أو تلف.

سألنى.

– لم؟

– لأنى أريد أن أعطى مساعديك أجازة يقضيانها مع أبنائهما.

اقترح أن تكون أجازتهما بالتناوب حتى يجد من يسليه ويساعده إذا فوجئ بما ليس فى الحسبان.

استحسنت اقتراحه وطلبت إليه أن يخبرهما ليتفقا ويستعد أحدهما لمصاحبتنا وأن يجهزا العربتين ويضع ذبيحتين فى عربه ابنه امبابى ويضع الثالثة فى عربتى، وأعطته ابنه امبابى بعض متاعنا ليضعه فى العربتين، ما يخصها فى عربتها وما يخصنى فى عربتى، وبعد أن خرج قالت لى:

– انذار ياحبى.

نظرت اليها فأردفت:

– إذا لم يداوم حبى على السهر عندى كل ليلة. سأقوم بلا مقدمات بأكله بأسنانى فى أول مرة أراه فيها.

ابتسمت وقلت:

– ربنا يستر.

جاء أحمد. فأبدينا له رغبتنا. لم يمانع بل حبذ الفكرة وأكد بأن الاجازة يجب ألا تزيد عن أسبوع لأن وراءنا الكثير لننجزه. وأكد على ابنه امبابى بتخليص موضوع أرضه خلال هذا الأسبوع لأنه وضع تصميم معمله الانتاجى، واستبقى الخمسة آلاف جنيه باقى مقدمة اجره عند المقاول لتكون عربوننا عندما يهم بإنشائه.

لما هممنا بالافتراق سألته:

– ماذا أقول للوزة إذا سألتنى عنك.. أقصدعن عمر؟

الايام لك ـ إن عشنا ـ هو أن المال آخر ما أفكر فيه. علمنى أبى أن السعى إليه واجب.. لكن الإغراق فى جمعه جشع لأن المال فى حد ذاته وسيله لاغايه.. فمن جعله غايه كان ممجوجا من الناس لأنه سينسى نفسه ويتحول إلى كلب دنيا.. والكلب محتقر.

– تعنى أنى كلبة ياولد؟! الله يسامحك ياحبى. مقبوله منك ياروحى.

– لا لم أقصد هذا. بل لم تطرأ حالتك على ذهنى وأنا أحدثك. وإنما كنت أريد أن أبين لك أنى أحبك لذاتك، لأنى أحبك أنت مجردة عن كل ماعداك.

– هكذا أرحت قلبى الذى يحبك. وأعاهدك ألا أجعل المال أكبر همى ولا مبلغ غايتى.

– أنت لم تفهمينى.

– حيرتنى ياولد.. ماذا تريد؟ احتار دليلى معك ياحبى.

– أريد.. أريدك أنت لا مالك.

– وأنا وما أملك رهن أمرك.

– أنت فقط.

– أنا فقط مادام هذا يعجبك ويسرك.

– هكذا أرتاح.

– لكن قل لى.. الناس كلها تسعى وراء المال. لم لا تكون مثلهم؟

– لم أقصد.. أن نكون بلاهمة. بشرط أن يكون المال جزءا من هذه الهمه لا أن يكون هو الهمة وفقط. نسعى له كما نسعى لغيره من سماع الموسيقى والقراءه والتنزه وصله القربى ومد يد المساعدة للغير إذا استطعنا ومشاركة المحيطين بنا وجدانيا، والاهتمام بهموم بلدنا. وتربية أولادنا إذا رزقنا الله بهم.

– الله ياولد.. الأخيرة هذه أهم من كل ماعداها، نفسى ياولد يكون لى أولاد منك وعلى هيئتك ليذكرونى بك إذا غبت عنى.

– لا فائدة فيك والله.. أنت بنت امبابى وستظلين بنت امبابى كما خلقك الله.

– ومالها بنت امبابى. حلوه.. وماهرة وذكيه.. ومن أسره كريمه ومؤدبة.. وفوق هذا تحبك. أحمد ربك على أنه رزقك بواحدة مثلى.

– لافائدة.. نتكلم فى شئ.. فتقلبين الحدث الأكبر فى الحدث الأصغر.

– لأن كلامك الأخير ياحبيبى هذا كان سخيفا.. أتعرف ياولد.. انك عديت من أم أحمد وأبيه وصرت تفكر بطريقتهما.. ياساتر.. كنت سأكد من غير زوج، كل كلمه بحساب وكل فكرة فكروا فيها الف مرة.. لا ياعمى. لا يفتح الله، الدنيا غير هذا، الدنيا يسيرها

لايصح أن تدخل على عمتك طويلا طويلا.

- كان يكفى بعض الطيور نشتريها من أى مصدر لها ونحن فى طريقنا اليهم.

- الطيور هديه عادية بالنسبة لهم لأنهم يشترونها أسبوعيا، أما الذبيحة فلها على النفس وقع أخر لأنها لا تكون إلا سنوية عندما يهل العيد الكبير.. ثم ماذا جرى لك؟ ومن منا البخيل الآن؟

- لم أسمك بالبخل يوما.. أنما هى إشاعه دارت من حولك مصدرها أبوك

- أبى.. أوحشنى والله.. أوحشتنى هلته على، أوحشتنى أوامره.. أوحشنى تصنعه القسوة.. أو حشتنى قولته: لا.. بلا سبب، إلا من أجل لا.. وأمى أوحشنى أوامرها وثورتها عندما أتوانى عن التنفيذ وسبها ولعنها ووسمها لى بالخيبة الناقعة. وتهديدها بأنى سأفضح نفسى وأفضحهم بخيبتى فى بيت زوجى. هل أنا حقا خائبة ياولد وكسول ولا أصلح سيدة بيت؟

أردت مشاغبتها فقلت:

- ألم تقل أمك بهذا؟ إذن فهى أدرى بحالك.

خبطتنى على ظهرى فتصنعت الألم فراحت تقبل مكان الخبطة ثم قالت:

- لا .. أنا أتكلم جدا. مارايك وقد عايشتنى أأنا حقا خائبة؟

- حتى ولو كنت ياحبيبتى.. سأصنع أنا ما تعجزين عنه لأنى أحبك.

- ربنا ما يحرمنى منك ياولد.. أتعرف ياولد. أنا أحبك جدا جدا جدا جدا . لا أدرى لماذا؟ كثيرا ما سألت نفسى لم هو بالذات أحببته كل هذا الحب. وماكنت أجد جوابا إلا مزيدا من الحب.. وأخشى ما أخشاه أن يكون حبى ضايقك.

- وهل الحب يضايق ياحبيبتى؟

- أترابى من البنات كن يقلن هذا، يقلن لاتبدى حبك الكثير لمحبوبك. فالرجال ملولون بطبعهم والالحاح بالشئ يبعث على الضيق.

- إلا الحب.. هل تتضايقين لما أبدى حبى لك؟

- بالعكس.. أزداد سعادة وفرحا.

- وأنا أيضا.

- لا. لم تبد حبك لى مثلى؟

- أكثر من أن أترك أسرة عمتى.. وأعرض نفسى للمخاطر التى تصل إلى حد التهديد بالقتل من أجلك؟ حذار أن تظنى أن ذلك من أجل مالك. فما لم تتأكدى منه. وستؤكده

اللعبة لهذا العام.

ضجت الحلبة بالتصفيق فلما هدأت.

قلت:

- قبل أن ابدأ سألعب مع عريسنا لعبا استعراضيا فأنا لا أتحداه في ليلة زفافه. ومن الآن لا غالب ولا مغلوب. إذا لايعقل أن أهزمه ليلة دخلته فتغضب عليه عروسه.

ضج الناس بالضحك.

- أو أسمح له بهزيمتى فأفقد شرف البطولة.

وتقدمت إليه فاحتضنته وقبلته وأخرجت عشرة جنيهات تقدمت بها إلى الطبالين. وقلت:

- أجدع سلام لبطل القلعة وكل شباب القلعة الجدعان. دقت لهم الطبول . ولعبت معه لعبا راقصا. حوالى ربع الساعة ثم اقتربت منه وقلت:

- كفى هذا فأنت تحتاج لعافيتك كلها هذه الليلة.

احتضنته ثانية ودسست يدى فى جيبى وأخرجت عشرين جنيها ورفعتها. وأشرت إلى الطبول فتوقفت. وقلت: نقطة العريس بطل القلعة من بطل اللعبة. وتلانى عمى امبابى وشباب وشيوخ كثيرون حتى امتلأ حجر العريس بالنقود.

جلست بجوار عمى امبابى الذى مال على وقال:

- لك تصرفات تزيدك منزلة عندى ياولدى. إن ما فعلته الآن من تقديم نقوط للعريس سيصير تقليداً جديداً وبدلا من أن تذهب النقود إلى الطبالين والزمارين تعود على العريس بالنفع. كنا لانعرف كيف نجامل الغرباء وأنت الآن قد فتحت لنا باب المجاملة الحق.

جاء كهل فسحبنى وسحب عمى امبابى بالأخرى وأشار إلى آخرين فقمنا إلى مائدة عامرة بأطايب الطعام أكلنا ثم عدنا إلى مجلسنا لنجد الراقصات قد بدأن حين رأيت عمى امبابى قد استغرق فى راقصتين جميلتين يداعبهما بين حين وحين بصوت مسموع. أحببت ألا يكون فى جلستى بجواره أدنى حرج له، فانتقلت بهدوء بعيدا عنه، تحلق من حولى بعض الشباب الصغير وأخذ يسألوننى عن سر تفوقى فى لعب العصا فرحت أشرح لهم النظرية حتى انفض السامر قبيل الفجر سمعت المؤذن يدعو للصلاة ونحن قرب مسجد الحسين فعرجت عليه سألنى عمى امبابى:

- إلى اين؟

- نصلى الفجر.

قال أحد مرافقينا:

- ابن حلال والله لقد كسبت فينا ثواباً.

انتقلنا عقب الصلاة إلى مقهى مجاور سقانا فيه عمى امبابى شايا أخضر. أعدته إلى منزله ولما هممت بالانصراف قال:

- يارجل عيب. ادخل فصبح على حماتك أم تريد أن تأخذ منها محضراً.

دخلت.. صبحت وتلقيت تهديدات بالإشارة من ابنة امبابى التى كانت يقظة فى هذا

الوقت المبكر تناولت كوبا من اللبن لم أجد بى بعده طاقة تحملنى للخارج فدخلت إلى حجرتها ونمت بمجرد أن وضعت رأسى على الوساد . أيقظتنى بعيد العصر وألقت القبض على فصادرت خروجى عقب صلاتى وغدائى.

● ● ●

فى الصباح صحبتنى إلى مكتب التنسيق قدمت أوراقى. سألتنى عن رغبتى الأولى؟

ـ تغيرت تماماً بعد أن عرفتك. كنت أحلم بأن أصير ضابطا فإذا بى الآن أرغب فى أن أكون مزارعاً. «وكأننا يابدر لا رحنا ولا جئنا» فغير معقول أن يكون لنا معا مائة فدان ولا أجعل الزراعة رغبتى الأولى.

ـ المهم أن تكون أستاذاً فى الجامعة كأقارب أحمد.

ـ يفعل الله ما يشاء وما ذلك عليه بعزيز.

وجدنا الوقت منداحا أمامنا بعد أن قدمنا الأوراق. تحيرنا إلى أين نذهب؟ قدنا على غير هدى إلى أن وجدنا أنفسنا أمام مقهى على النيل ركنا أمامه ودلفنا إليه لنكون أول من يحتل من رواده خميلة على النيل مباشرة. قضينا بقية يومنا فيه حتى انتصف الليل أوكاد فأعدتها إلى منزلها وعدت إلى منزل عمتى بعد أن أكدت على بضرورة المرور عليها صباحا لنشترى لأولاد عمومتى الكسوة ونتصرف فى إرسالها إلى ذويهم فى القرية. دخلت على عمتى التى كان قد أسقط فى يدها فلم تسأل أين كنت أو لماذا تأخرت؟. لما دخلت حجرتى جاءت ورائى. وقالت:

ـ ياولدى بى شوق إلى المقروصة لوزة. خذنى إليها فى الصباح فأنا أشعر كأن شيئا يضيع منى.. تعودت على مناكفاتها والمنزل بدونها كالمقبرة لاصوت فيه. أختك طول النهار واضعة وجهها فى مجلة أو كتاب وعمك بطاطة بالمتجر وأنت دائر على حل شعرك وأنا أكاد أنفجر ضجرا ولولا أنى أذهب إلى جارة أو تأتى إلى جارة لانفجرت فعلا.

ـ الله يلعن أباك يالوزة . لك منزلة عندى ولا أدرى؟.

ـ الصباح رباح.

كنت قد استلقيت على فراشى فسحبت الغطاء على وأطفأت النور وخرجت. ظللت طول الليل أرمح بمهر غمر أحاول ترويضه على رأس حقلنا فى القرية دون فائدة ولما أضربه تحمحم أمه وتشد رباطها وتطوح برأسها والمهر لا يخضع وأمه لا تكف وأنا لا أنزل . أستيقظ أكثر من مرة ويتكرر الحلم بعينه بعدها. حتى خفت منه. تلوت: «قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا على الله توكلنا» وغيرت هيئة نومى فاستغرقت حتى أيقظتنى عمتى وقد غمرت الشمس النافذة.

قالت لى بعد أن صليت:

ـ ألا تأخذنى إلى لوزة؟

ـ عصراً.

ـ ولم لا يكون الآن؟

ـ لأنى ذاهب لشراء كسوة لأقاربك الذين فى المزرعة.

ـ إذن آتى معك فأنا أدرى بذوق ناس القرية.

ـ استعدى.

حملتها هى وابنتها التى رغبت هى الأخرى فى صحبتنا. وذهبنا إلى بيت عمى امبابى فحملنا ابنته معنا ووجهتنا عمتى إلى الموسكى. ركنا العربة فى شارع قريب وترجلنا من محل إلى محل حتى أداخوننى معهن رأيت أنهن لم يجمعن إلا نصف المستهدف . قلت:

ـ أحمله إلى العربة وأنتظركن فيها.

انتظرت أكثر من ساعتين قرأت فيهما أكثر من مجلة وأخيرا قدمن سعداء جدا وحتى عمتى التى تشكو من وسطها وأقدامها كلما سارت بضع خطوات نسيت أوجاعها.

جلسن فى العربة وأعدنا ترتيب المشتروات داخل صرر. كتبت ابنة امبابى الأسماء على كل وقالت نمر على أبى ليرسل أحد رجاله بها على نفقتنا. لما قاربنا المقهى لمحت مهراً مسرجاً أمام المقهى قلت لابنة امبابى:

ـ حلمى تحقق واشترى أبوك مهراً.

ردت عمتى:

ـ امبابى طول عمره يهوى هذه الأشياء.

وتساءلت ابنة امبابى:

ـ أى حلم؟

ـ كنت طوال الليلة الماضية أركب مهراً أمام حقلنا بالقرية.

علقت ابنة عمتى:

ـ مهراً أم مهرة؟

لكزتها ابنة امبابى وقالت لها:

ـ يامسحوبة من لسانك.

كنا قد وصلنا أمام المقهى فقالت عمتى وهي تشير لي إليها:

ـ أبوك هنا.

• • •

لمحنا عمى امبابى فأتى. نزلت فقبلت يد أبى وسلم هو على من معى. انتقلت ابنة امبابى لتقود فى الوقت الذى راحت عمتى تؤكد على أن أعود بأبى وعمى امبابى إلى بيتها وتعارضها ابنة امبابى فتؤكد بل إلى بيتهم وعمى امبابى يأمر عمتى بالصمت ويؤكد على ابنته ألا تسمع كلام عمتى وأن تذهب بها مباشرة إلى منزله.

وقفت أتفحص المهر. وقلت لعمى امبابى:

ـ مبروك . أهو مهرك؟

ـ البركة فى أبيك.. هديته لى.. أبوك يغمرنى بأفضاله.

رد أبى:

ـ أية أفضال يا امبابى؟ يارجل مقامك عندى أكبر لكن امكانياتى على قد

حالها.

رد امبابي:

- أكثر من هذا ياحاج؟

جلسنا . سألني أبي. أين كنتم؟

- نشترى كسوة رغب فيها اولاد عمومتي لذويهم.

- وكيف حالهم معك؟ أزرعوا لك الأرض؟

- واخضرت.

- مبروك.. ربنا يوسع رزقكم قلت آتي لأطمئن عليكم وعلى أحوال الأرض. وأحضرت معي هذا المهر لعمك امبابي لم أرسله معكم لأنه كان عند مدربه. كان عمي امبابي فخورا بالهدية. وكلما أتى أحد معارفه يبارك له بالمهر يشير إلى والدي ويقول:

- هدية نسيبي.

ظللنا قرابة الساعتين بالمقهى. وقمنا إلى منزل عمي امبابي. أردت أن أسحب المهر. قال لي أبي دعه فهو معلم وسيسير خلفنا. مشينا على مهل وكان عمي امبابي يقف بين دقيقة وأخرى يحيي ويسلم ويتلقى التهاني بالمهر ويخبر بأنه هدية نسيبه إليه. استغرقنا المسافة التي نقطعها عادة في عشر دقائق في أكثر من ساعة.

لما دلفنا إلى باب المنزل أمر عمي امبابي البواب بأن يذهب بالمهر إلى الاسطبل ويأمر السائس بسقايته وإطعامه. تقدمنا عمي امبابي ووقف وظهره إلى المندرة يشير بيده إلى باب الحديقة الداخلية ويقول لأبي تفضل ياحاج فلم تعد غريبا، بيتي بيتك. أهلا وسهلاً. دفع أبي الباب ونادى ياساتر، تبعه عمي امبابي وتبعتهما، ظل أبي يردد ياساتر حتى وصلنا إلى باب المنزل فتوقف. فنادته زوجة عمي امبابي:

- تفضل الحمد لله على السلامة.

دخل أبي فسلم سألته عن أمي وعن أهل القرية وجاء بقية أولاد امبابي فسلموا ورحبوا حين سلمت عليه خطيبتي مال فقبلها من رأسها وقت أن قبلت هي يده، ظل ممسكا بيدها وسألها:

- الولد العكروت كيف حاله معك؟

ابتسمت وقالت:

- أتحمله من أجل خاطرك أنت ياعمي.

- بارك الله فيك . قولي لي يابنتي إذا لم يكن قد استقام بعد علقه القرية أعطيه أخرى الآن حالا.

- نصف نصف.

وردت عمتي:

- لم يا ابنتي؟! ابني ما هناك مثله أدبا وكمالا وعقلا.

ردت زوجة امبابي:

- من يشهد للعروسة؟

وعقبت ابنة امبابي:

ـ ياويلى منك ياحماتى.. البنات لها حماة واحدة وأنا من سعدى لى اثنتان.

رد أبى:

ـ لا يهمك منهما.. أكسرهما إذا تعرضا لك إن كانت من هنا أو من هناك.

ردت ابنة امبابى:

ـ الله يخليك ياعمى.. أتعرف ياعمى.. أنا لست خائفة من حماتى التى فى القرية . بل من حماتى بطاطاية.

ردت أمها:

ـ يا ابنتى وهل هناك أطيب من بطاطاية.. ياليت كل الحموات مثلها.

ردت عمتى:

ـ الله يخليك يا امبابية هذا عشمى فيك.

دخلنا حجرة الجلوس فقال أبى: نسينا نمر على بطاطة.. أرسل له من يستدعيه ليتغدى معنا يامعلم امبابى.

رد امبابى:

ـ حالا وأطل من النافذة ونادى بوابه وأمره بأن يرسل من يستدعى بطاطة ولا يتركه حتى يحضره فى يده.

قالت لى ابنة امبابى:

ـ على فكرة المأمور اتصل هاتفيا. وطلب أن تسافر إليه. فأخبرته أنك مع أبيك ولا يمكن أن تتركه اليوم فقال:

ـ إذن غدا صباحا ويحسن أن يكون أبوه معه ليراه.

ـ ألم يخبرك لماذا؟

ـ أبدا فقط طمأننى إلى أن كل شئ هادئ فى الأرض لأنه مر علينا هناك.

قال أبى:

ـ على كل سأذهب معكم غدا بمشيئة الله لأشق الأرض وأزور معكم المأمور. ونظر إلى عمى امبابى فأردف : واعمل حسابك يامعلم لتكون معنا.

رد عمى امبابى:

ـ إن عشنا.

جاء عمى بطاطة صانعا ضجيجاً مع زوجة امبابى وأولادها وزوجته. قبل أن يدخل إلينا تعانق هو وأبى وسلم علينا وجلس يلوم أبى لأنه سمح لأخته ان تتركه مدة طويلة يعيش فيها وحيدا كالأيتام ويسأل عن أقارب أبى وعن الأحوال فى القرية.

نادتنا ابنة امبابى لنتناول طعامنا. جلسنا كلنا إلى مائدة طويلة رصت عليها أصناف طعام كثيرة وحلف من هذا أو من تلك على أبى أن يأكل أو يأخذ هذه القطعة فقط من يد هذه أو هذا أو تلك. وأبى لا يخزى أحداً لكنه لا يأكل وإنما يكوم ما يأخذ أمامه بعد أن شبع.

تناولنا القهوة وقال أبى لعمى امبابى أثناءها:

ـ نصلى العصر فى الحسين والمغرب فى أم العواجز والعشاء فى نفيسة العلم.

وأنت يابطاطة معنا.

قلت:

- وعربتي جاهزة.

رد أبي:

- لا تكون نزهة بالعربة وسرعتها.. ومن الافضل أن تكون إما على أقدامنا أو بفيتون عمك امبابي.

نادى عمي امبابي بوابه وأمره أن يأمر السائس بتجهيز الفيتون. بعد قليل جاء السائس فأخبر أن الفيتون جاهز. ناولني عمي بطاطة مفاتيح متجره وقال: تول أمره حتى يحين موعد الغلق.

انطلقوا هم في نزهتهم وانطلقت أنا إلى عمل المتجر.

عدت إلى بيت عمي امبابي بعد أن أغلقت المحل وحفظت نقود البيع كما حفظتها من قبل جلست أستمع إلى رغو عمتي مع زوجة عمي امبابي الذى ماترك فروة واحدة إن في حارة الخواص أو حارة البيرقدار إلا نتفها شعرة شعرة الآن عرفت فقط لماذا تجند أجهزة المخابرات النسوة بين عملائها. إن لهن مقدرة عجيبة على التتبع واستشفاف ماخفي من أخبار. كانت سلوتي في تلك الجلسة ولدى ابنة امبابي المطلقة. إذ كانت ابنتاه مشغولتين ومعهما ابنة عمتي في ماذا؟ لست أدرى. حول العاشرة حضر أبي وصحبه وقدم عمي امبابي لزوجته لفافة وهو يقول:

- هذا عشاؤكم فقد تعشينا نحن، بطاطة قريبك خرج من عباءة بخله وعزمنا على كباب وعزمكم أنتم أيضا.

ردت عمتي:

- يا اختي عليك يا امبابي.. بطاطة ليس هناك من هو أكرم منه.

علق عمي امبابي:

- إيه يا أختي إيه. ليس هناك من هو أكرم .. إيه؟ وهل أنا لا أعرف بطاطه. دافعي عنه يابطاطاية دافعي أمام أخيك.. والله ياحاج نسيبك هذا والا سيّ بعضه .. من أجل خاطرك.

كان ابى يبتسم ثم قال:

- والله يامعلم امبابي. لنا الظاهر والله يتولى السرائر.. والظاهر يقول إنه كان كريما هذا المساء.

رد عمي بطاطة:

- وكريم على طول المدى يانسيبي.. طيب اسأل امبابي. لما أنا بخيل لماذا ترك ابنه يناسبني.

رد عمي امبابي:

- غلبتني ياقصير يا شبر واقطع تفضلوا.. ارتاحوا.. لماذا أنتم واقفون.

قامت عمتي واقفة وقالت:

- لاتجلسا.. هيا يا أخي هيا يابطاطة.

رد عمى امبابى:

– بطاطة نعم اشبعى يا أختى به لكن أخاك لا سيبيت معى هنا.

رد أبى:

– لكن يامعلم أقول..

قاطعه عمى امبابى :

– لاتقل ولا تعد.. طلاق ثلاثة. إلا بت عندى.. ماذا جرى ياحاج هنا بيتك كما أن بيت بطاطة بيتك.. ماالداعى إذن لأن تخرج من بيتك إلى بيتك؟!.

أسقط فى يد أبى وجلس.

على حين تمتمت عمتى:

– ليس لك حق فى يمينك يا امبابى.. ونظرت إلى وقالت:

– هيا ياولدى لتوصلنا.. خرجنا بعد أن سلمنا.. وودع أبى أخته وزوجها وابنتها.. وقال لها:

– لا تنتظرينى ثانية يا أختى فأنت تعرفين مصالحى فى القرية التى تضيع لما أتأخر. سأشق أرض الأولاد صباحاً وأسافر عائدا من بَرة بَرة . ثم التفت إلى آمرا:

– صل الفجر حاضراً ووافنى ياولد.

عدت لأكمن فى حجرتى يغمرنى سلام نفس كثيرا أسرع بى إلى الاستغراق فى النوم بعد أن رجوت عمتى ألا تدعنى أتأخر عن موعد أخيها.

كنت عنده صباحاً كما رغب. فتح لى البواب. لأجده هو وعمى امبابى جالسين فى المندره الخارجية وأمامهما أكواب الشاى صبحت وجلست لتلحق بنا ابنة امبابى بعد قليل فى كامل هيئتها، ناولتنى مفاتيح عربتها فهمت أنها لاتريد أن تقود. خرجنا ليأتى البواب بأحمال من داخل المنزل فيضعها فى خزينة العربة فهمت أنها لوازم إكرام لأبيها وأبى.

• • •

انطلقنا ولم تبزغ الشمس بعد. غلف الضباب الطريق بمجرد خروجنا من المدينة أجبرنى على البطء والحذر ولزوم جانب الطريق واستعمال الأنوار غير أن الطريق كان مايزال خامد الحركة مما يسرها لى. ما إن وازينا أرض أحمد حتى كانت الكلاب فى استقبالنا تتقافز حول العربة وتسابقها . أخرجت لها يدى لتتعرف علينا أكثر عندما اكتشف أبى اخضرار الأرض راح يردد.

– بسم الله ماشاء الله لا يسوق الخير إلا الله، نزلنا أمام باب أرضنا وجاء الرجال بقضهم وقضيضهم يسلمون. قبل أولاد عمومتى يد أبى وعمى امبابى. أمرت صبى الكلاب بجمعها وحبسها لأنها كانت تزوم مستوحشة أبى وعمى امبابى وخشيت عليهما منها.

جاب أبى وعمى امبابى ونحن معهما أرض أحمد أولا. ومازل لسانه يلهج «بسم الله ماشاء الله» ثم دلفنا إلى أرضنا فراح يكبر ويأمرنا أن نكبر معه وأن نردد مايقول. تحولت خطوتنا فى الأرض إلى حلقة ذكر.. انتهت بأن سجد إلى الله شكرا على

الأرض أمام الاستراحة وأطال سجوده حتى خشيت ألا يقوم.

سأله عمى امبابى :

ــ أسنة مافعلت؟

ــ بل واجب وتلى قوله سبحانه «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا».

أحاط أبناء عمومتى بأبى يسألونه عن نويهم وراح هو يطمئنهم ويسألهم عن أحوالهم وعما إذا كنت قد أغضبت أحدا أو كسرت بخاطره.. ولما انتهى انتقل إلى توجيهاته الزراعية لهم وراح يلقى عليهم أوامر بضرورة ترقيع البقع التى أنكرت الحب وبضرورة مداومة الرى فى الليل طالما الدنيا حر.

لم نكن قد أفطرنا جاءت ابنة امبابى فطلبت من أصغر ابناء عمومتى صحبتها وسرعان ما عاد حاملا صفحة كبيرة عليها طعام سرعان ما انتقل إلى بطوننا.

عاود أبى شق الأرض بعد سطوع الشمس هو وأبناء عمومتى وجلست مع عمى امبابى والحارسين فى انتظارهم. شكا الحارسان لعمى امبابى تعبهما فوعد بإرسال حارسين آخرين يخصصان لأرض أحمد.

عاد أبى فأملى علىّ بيانا بما يتطلبه الزرع من أسمدة كيماوية وأشار بتربية بعض المواشى لتحصل منها الأرض على أسمدة عضوية وقال:

ــ أنتم قريبون من المصدر الوحيد لسماد «البودرتيو» وهو أحسن سماد عضوى يخصب الزرع وتحتاجه أرضكما ليكسبها تماسكا فعليكما به.

ونظر إلى ابنة امبابى وقال:

ــ لا تضجرى من النفقة يا ابنتى على الأرض فكما تنفقين تعطيك إنها ينطبق عليها المثل « ياجارية اطبخى..» إذا أردت محصولاً جيدا منها فلا تبخلى عليها لقد تعمدت ألا أوصى بتسميدها قبل الزراعة لأختبر الأرض ومدى جودتها والحمد لله هى جيدة فاطمئنى.

ردت:

ــ طمئن ابنك ياعمى . فلقد اقتسمنا العمل وحملت أنا ضِعْفَهُ فعلى المصنع والتجارة وعليه الأرض.

رد أبى:

ــ لقد ضحكت على ذقنه. الزراعة أشق مهنة إلا أنها أهنأها.. عندما يجد الإنسان نتيجة جهده وصبره ولا يخيب الله تعبه.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة فاقترح أبى أن نذهب لزيارة المأمور حتى يعود إلى قريتنا فى وقت مناسب.

سألنى ابن عمى الكبير ونحن نركب العربة إن كنت قد أحضرت التقاوى. فأجبته بالنفى فسأله أبى:

ــ أية تقاوى؟

ــ تقاوى بعض الخضراوات لنأكل منها ويأكل منزل عمتى وعمى امبابى وأحبابهم.

ـ ابن عمك ولد خائب لا تعتمد عليه في هذه المسائل إذا أردت شيئا من هذا القبيل فاخطف رجلك لأقرب سوق وأحضره ثم حاسبه بضعف ثمنه عقابا له على إهماله.

ثم نظر إلى وأردف:

ـ والله لن تنفع، أمثل هذا الطلب يهمل؟!.

وتوجه لابن عمى:

ـ سأحضره أنا لك ونحن عائدين من سوق مدينة المأمور بعد زيارته.

ملت على ابن عمى وهمست.

ـ سمعتنى ما أكره.. أكان لازماً ان تسألنى أمام عمك؟ وأنت تعرف أنه نار. منك لله أنت وعمك ياشيخ.

احتفى المأمور بأبى وعمى امبابى وأهملونا أنا وابنة امبابى تماما . ضجرت ولاحظت الضجر على وجه ابنة امبابى وصرت أتطلع إلى نهاية تلك الجلسة التى تحولت فيها إلى سقط متاع. هم أبى بالاستئذان . إلا أن المأمور أقسم إلا تناولنا غداءنا. عنده أسلمت أمرى لله وغصت فى مقعدى، مالت على ابنة امبابى وهمست:

ـ سأنفجر ياحبى من حديث الشيوخ.

ـ ومن سمعك مارأيك لو انسللنا الآن بأيه حجة ولا نعود إلا قرب الغداء.

ـ أوافق.

وقفت.. نظر إلى المأمور . قلت:

ـ بعد إذن سعادتك لنا مصلحة مع المقاول نقضيها ونعود.

ـ انتظر فأنا أريدك.

ظللت واقفا. أشار بأن أجلس . جلست فقال:

ـ لقد اتصل بى الأعراب فحددت جلسة الصلح غداً.

ـ على بركة الله.

نظر أبى للمأمور وقال:

ـ أعراب.. صلح.. وهل الولد كفء الأعراب؟

رد المأمور:

ـ كفؤهم وفقط. لقد طفحهم الدم.

رد أبى:

ـ ابن كلب طول عمره مشاكس ودماغه حديد والله ياسعادة المأمور ما أعرف على من توحمت أمه.

رد المأمور وهو يبتسم:

ـ على أبيه.. أنسيت أنك كنت أكثرنا مشاكسة وأنت صغير.

علق عمى امبابى:

ـ ابنه إذن لم يأت بشئ من الخارج.

قال المأمور:

ـ أبدا يامعلم . نسخة طبق الأصل من أبيه.. لدرجة أنه ذكرنى برذالة أبيه ورذالة

أخي صديقه.. كانا هما الاثنان أرذل خلق الله ويشاغبان الجن.

رد أبى:

ـ كنا نتراذل فى القرية ووراءنا عزوة وعصبية تحمينا. أما ابن الكلب هذا فمن وراءه هنا؟! هذه والله عين الحماقة.

قال المأمور:

ـ لو لم يتراذل لأكلته الأعراب. فهم أراذل خلق الله. واذا كانوا يغلبوننا نحن الذين نمثل الحكومة ألا يغلبون الجن.. لكن الحمد لله ابنك حتى الآن جعلهم يضعون أصابعهم العشرة فى الشق.

قال أبى:

ـ ألا أعرف الحكاية؟!

وراح المأمور يقص القصص على أبى وأبى يردد بين فقرة وأخرى : ابن الكلب، لكن كان يقولها بنغمة فخر والبسمة تملأ وجهه وبدت السعادة على وجه عمى امبابى أيضا لما عرف التفاصيل بكاملها من المأمور إذ كنت وابنته نحجب عنه أشدها خطورة حتى لا يضطرب على ابنته. ولما انتهى المأمور قام عمى امبابى إلى وقبلنى وهو يقول:

ـ جدع ياولد. رجل من ظهر رجل.

وتوجه إلى المأمور وقال:

ـ أتعرف ياسعادة المأمور كيف تعرفت على خطيب ابنتى؟

أيقنت أنه فاضحنى أمام أبى فقاطعته قائلا:

ـ خل الطريق مستورا يا عمى امبابى.

لم يعبأ بى وبدأ يقص فقلت:

ـ وهذا هو المكان لكم.

ونظرت إلى ابنة امبابى وقلت:

ـ هيا واتجهت إلى المأمور وقلت:

ـ سنعود إلى منزل سعادتك مباشرة حوالى الثالثة.

ـ خرجنا أنا وابنة امبابى لم تكن بنا حاجة إلى المقاول . سألنا عن تاجر بنور واشترينا ماطلبه أبناءعمومتى واتجهنا إلى مقهى الترعة.

ما إن دخلنا حتى جاءنا صائد الأسماك فقد غدونا مألوفين له تماما. قالت له ابنة امبابى.

ـ لا نريد صيدا بل شراء من أفخر الأنواع.

ـ كم؟.

ـ عشرة على الأقل.

ـ حالا.

ألقى بالشبكة أمامنا وجرى فسألتها:

ـ لمن؟

ـ لبيت المأمور. غير معقول أن ندخل عليهم بيد فارغة.

هززت رأسى موافقاً.

سرعان ماعاد الصائد وطلب من ابنة امبابى أن تخرج معه لترى. غابت حوالى نصف الساعة وعادت تقول:

- أضفت إليه الثلج ووضعته فى خزينة العربة.

لاحظت أن بصرها لا يرين عن وجهي وهى جالسة قبالتى . قلت لها:

- إيه.. ألم ترنى من قبل؟

- ولا عرفت أن لك مثل هذه المنزلة فى قلبى إلا من ساعة أن عاد المأمور يحكى لأبيك.

- كفى عن المبالغة.

- لا أبالغ.. أنا فخورة بك.

- احمدى الله إذن.. ولا تزرعى فى نفسى الغرور.. ما فعلته فمن الله.

- ونعم بالله. أتعرف أن فيك شيئا يحيرنى؟

- ماذا؟ كفى الله الشر.

- تضاؤلك أمام أبيك.

- بل احترام واجب.

- أريد أن تنشئ أولادنا مستقبلا على مثله.

- على رأى أمى.. «نحضر المنارد قبل ما يأتى البقر».

- عدنى.

- إن عشت وشاء الله أن يكون لنا أولاد.

- سيكونون بحوله وقوته. أتعرف؟

- ثانية؟ ماذا؟

- أريد أن أقول لك شيئا لكنى خجلة.

- منى؟! أمعقول؟! قولى.

- بشرط ألا تعيرنى به مستقبلاً.

- لست من الصغار إلى هذا الحد.

- ماذا يبقينا بدون زواج حتى الآن.

- أنى لا أتكسب عيشى.

- عيشى هو عيشك.

- مجاملة مشكورة..

- لا مجاملة بل حقيقة.

- رأس المال كله لك.. ولا أقبل أن أكون زوج السيدة كزوج ملكة انجلترا.

- تعلم أن لك نصف الأرض بالخمسمائة جنيه الأولى.

- مازلت مدينا بباقى الكلفة.

- ولك نصف المكسب من يوم أن صحبتنى.

- أنعود للمجاملة؟

ـ بل هى حقيقة تجارية.. واسأل.

ـ من؟

ـ أى تاجر وسأريك.

ـ إذا اطمأننت لهذا تزوجتك فوراً.

حانت ساعة انصرافنا إلى بيت المأمور وصلنا قبله هو وأبوانا، رحبت بنا زوجته واحتفى بنا أولاده ولامتنا زوجته حين رأت هدية السمك وراحت تسأل عن عمتى وعن زوجة عمى امبابى وابنته الأخرى، أخذت ابنة امبابى معها لتساعدها فى المطبخ وعللت لذلك بأنها كانت فى الخارج ولا تعرف أن مع زوجها ضيوفا إلا من أقل من ساعة تشاغلت مع أولاد المأمور حتى حضر وأبى وعمى امبابى وبمجرد أن دخلوا نادى المأمور زوجته قائلا:

ـ تعالى سلمى على قريبك .

جاءت فرحبت بأبى وأخذت تسأل عن كثيرات من قريتنا. وسلمت على عمى امبابى وسألته عن زوجته وابنته المطلقة وأولادها. فقال لى المأمور:

ـ لقد حددت غدا موعدا لجلسة الصلح ودعوت إليها وجوه المركز وعلماء الدين ليكونوا شهوداً. ولقد ساق الله والدك وعمك امبابى ليحضرا معنا.

قلت:

ـ كما ترى.. لكنى لا دراية لى بطقوسها.

ـ لا تفرق كثيرا عن جلسات الصلح فى قرانا. وعندما تنعقد سيكون والدك بجوارك ومن حقك أن تشاوره قبل أن ترد على ما قد يوجهه لك قضاة الجلسة من أسئلة.

ـ أولها قضاة.

ـ نعم ثلاثة من الأعراب المسجلين عندنا بالمركز.

ـ ودرسوا فى كلية الحقوق؟

ـ بل إنهم حتى لايعرفون القراءة لكنهم من المشهود لهم بين الأعراب بالعدل.

ـ وممن يتقاضون أجرهم؟

ـ من المخطئ. وهو أجر باهظ ألف جنيه لكل فاعمل حسابك واجعل جيبك عامراً ليس بالآلاف الثلاثة فقط ولكن بما لا يقل عن عشرة أخرى.

ـ لم؟

ـ لأن القضاة يفرضون مبلغا متساويا على الخصمين يوضع على مائدة وسط المجلس حتى إذا ما حكموا بالغرامة على أحد كانت موجودة وتقاضاها فوراً.

ـ هب أنهم طلبوا ما هو أكثر وليس معنا؟

ـ يضمنك أحد الحضور.

ـ يحكم الله بما يشاء وأنت أول الموقنين بأنى لم أسع إلى عراك.

ـ لكنك ضربت اثنين وتسببت فى إصابة الثالث.

ـ لا. والله.. أنتظر لما يقتلونى. واسم الله عليهم أيضا. من تحرش بمن؟ ومن هاجم

من أولا؟!.

ــ على كل الحكم غداً. ولا تصدعنا أكثر بمشكلاتك مع هؤلاء الأوغاد.

ــ لعلهم بعده يكفون عن تحرشهم.

ــ بالتأكيد. لكن لا تتخل عن الحذر.

ــ ومتى تكون الجلسة وأين.؟

ــ بعد صلاة الظهر فى مضاربهم.

ــ أنا أسعى إليهم ! مكسورة رقبتهم لسابع جد وسابع ولد. لم لا يسعون هم إلى وهم الذين طلبوا الصلح؟

ــ أنا الذى طلبت ذلك.

ــ لقد غبنتنى من البداية.

ــ بل جنبتك نفقة كبيرة. هل تعلم ماذا يكون عقب الصلح؟

ــ ماذا؟

ــ وليمة لكل الحاضرين. ولن يكونوا أقل من مائة. لكل عشرة ذبيحه.

ــ طفحوه سماً ناقعا.

ــ ها قد رأيت أنى لم أغبنك. أغبن ابن أخى؟

سألت ابنة امبابى: أأحضرت نقودا تغطى ماسمعت؟

رد أبى : معى خمسة.

ورد عمى امبابى:

ــ ومعى عشرة.

وقالت ابنة امبابى:

ــ لا تحمل هماً معنا وأكثر.

ونظرت للمأمور قائلة:

ــ أمسموح لى أن أحضر؟

ــ مسموح على أن تقفى بعيداً ولا تتدخلى مهما حدث.

قالت زوجته:

ــ وأنا أريد أن أتفرج.

قلت:

ــ وكيف السبيل إلى مضارب خيامهم؟ وكم تبعد عن أرضنا؟

قال:

ــ حوالى عشرين ميلاً.. ومادامت زوجتى تبغى الحضور سأمر عليكم حوالى الحادية عشرة لأصحبكم أنا وضابط المباحث وبعض الجند.

استأذنا وعدنا إلى الأرض يلفنا الصمت طوال المسافة. عرضت على أبى وعمى امبابى أن نواصل حتى المدينة ليرتاحا فى منزل عمى امبابى. إلا أنهما رغبا فى البقاء فى الأرض وتعلل عمى امبابى بأنه يريد أن يهرب من طنين المدينة ويستمتع بهواء الصحراء النقى. حين وصلنا قبيل المغرب لم يكن يقظا إلا أحد أبناءعمومتى

وصبى الكلاب.

دخلنا إلى استراحتى وطلبت من ابنة امبابى كوبا من الشاى. ذهبت إلى استراحتها فغيرت ملابسها وعادت بالشاى لنا كلنا. قالت لأبيها وهى تقدم له الشاى:

ـ أبى . أريد رأيك؟

ـ خيرا.

ـ هناك خلاف بينى وبين تاجر صحبنى فى تجارة إلى أن خلصناها معا عرضت عليه ربع الربح إلا أنه رفض.

فهمت مبتغاها فنظرت إليها.

ورد أبوها:

ـ ياساتر عليك يا ابنتى.. الربع يامفترية. تاكلين نصف حق الرجل مرة واحدة. مائة مرة أقول لك إن من يقول للآخر سلام عليكم أثناء التجارة يستحق النصف.

قلت:

ـ لكنه ياعمى لم يدفع فى رأس المال شيئا.

رد على:

ـ عدتك ابنتى ببخلها يا أستاذ.. ولو لم يدفع يا أستاذ من حقه النصف . إن إصراركما على ألا تعطياه حقه سيضيع من يدكما فرصا كثيرة وستجعل الرجل يتجه لغيركما إذا لاحت أمامه فرصة أخرى.

تساءلت:

ـ لكن بأى وجه يستحق كل هذا؟

ـ بوجه الشرع قبل العرف. هناك فى الشرع شئ اسمه المضاربة سل عنها شيخ مسجد الخواص وهى حلال.

نظرت لى ابنة امبابى وقالت:

ـ سامع يا أستاذ؟

قال لها أبوها:

ـ هل الأستاذ هو الذى كان يرفض؟

ـ نعم.

وجه إلى حديثه:

ـ لا.. ياولدى.. حرام.. هذا حق ولا تغلوا حتى يبارك الله لكما. حانت صلاة المغرب فصليناها جماعة وتوارد أبناء عمومتى ليسهروا مع عمهم فهونوا علينا الليل بروحهم المرحة ومشاغباتهم لابنة امبابى التى لا تنتهى والتى جعلت أبى وأباها يغرقان فى الضحك أغلب الوقت . والتى جعلت عمى امبابى يقول قبل أن ينام:

ـ والله ماضحكت من قلبى من سنوات مثلما ضحكت الليلة.

خرجت فاطمأننت على الحراسة ولم يكن أبناءعمومتى مشغولين بالرى وعدت فلذت بجانب أبى واستغرقت.

لما صحوت صباحاً لم أجد أيا من أبى أو عمى امبابى. خشيت عليهما من الكلاب

خرجت جرياً لأجدهما مع أبناء عمومتى على البعد يشقون الأرض ووجدت صبى الكلاب نائما أمام حظيرتها بعد أن حبسها.

عدت فصليت وأيقظت ابنة امبابى لتنشغل بتجهيز الإفطار. ولحقت بأبى فأكملت معه شق الأرض ولسان أبى يلهج بذكر الله. كنت أعرف فيه هذه العادة مذ كنت طفلا أصحبه إلى حقلنا فى القرية فلم أستغربها. كذلك لم يستغربها أبناءعمومتى فهم يعرفون عمهم جيدا.

أما عمى امبابى فقد أدهشه أمر الذكر وسأل أبى ونحن عائدين:

ـ لماذا الذكر وسط الزرع؟

ـ لأنه يحول الأرض إلى مكان يغص بالملائكة فتحل بركة الرحمن على الزرع.

ـ وما الدليل على هذا؟

ـ حديث الرسول الذى معناه.. «إن لله ملائكة سيارة فى الأرض فإذا سمعوا أناساً يذكرون الله جاءوا فذكروا الله معهم، ثم أردف: والله يامعلم ما أرضى عامرة بالخير إلا بأمرين هما: الذكر والزكاة. جرب يامعلم الذكر فى مصنعك وستجد أن البركة ستغمره.

تناولنا إفطارنا وقام أبناء عمومتى وأبى معهم فانشغلوا بترقيع الأرض التى أنكرت زرعها وزراعة الخضراوات التى أحضرت لهم تقاويها. على حين عاود عمى امبابى نومه حتى أن ابنته دهشت لذلك وعلقت عليه قائلة:

ـ هواؤنا سطل أبى.. تصور أنى لا أذكر منذ وعيت أنه عاود النوم صباحا مادام سليما إلا اليوم.

لما كانت العاشرة نبهت أبى إلى قرب حضور المأمور. فطلبت من أبناء عمومتى الاغتسال وارتداء ملابسهم القيمة ليصحبونا إلى جلسة الصلح. وقال: لو علمت لأحضرت كل رجال عائلتنا حتى تظهر عزوتنا أمام خصومنا. لكن يكثر الرجال بالحق والله غالب.

وجد أبى عمى امبابى نائما فأيقظه وقال له:

ـ ماذا جرى يامعلم.. أنت ماصدقت أن وجدت مكانا هادئا لتنام فيه؟

ـ إى والله ياحاج حبة هواء هنا يساووا مليون جنيه. ياعمى ملعون أبو كل شئ.. سآتى لأقيم مع الأولاد هنا.. والله شهر واحد يرجع الواحد شابا.

جاءتنا ابنة امبابى بشاى ولم نكن قد انتهينا منه حين سمعنا نفير عربات أمام باب الأرض فأيقنا انه المأمور قمنا إليه عزمنا عليه أن يدخل هو ومن معه ليأخذوا واجبهم إلا أنه قال:

ـ لا وقت لذلك ولابد أن أكون من أوائل الحاضرين هناك.

أركب ابنة امبابى فى عربته مع زوجته.. قالت وهى تناولنى مفاتيح عربتها:

ـ أنت تعرف أين النقود إنها أربعون. نبه المأمور على حارس الأرض بشدة اليقظة إلى أن نعود إليهم وقال:

ـ ذلك أخطر وقت فلا تسمحوا لأحد بالاقتراب مطلقا إلا إذا كنتم متأكدين أنه

صديق.
ركب أبي وعمي إمبابي وأبناء عمومتي في عربتي وتبعت بها عربة المأمور ومن خلفنا عربة ضابط المباحث وباقي عربات الشرطة، طلبت من أبناء عمومتي حفظ الطريق وأخذت أنا أركز على علامات فيه تحسباً للمستقبل. لم يكن الطريق ممهداً مما أجبرنا على السير ببطء، فاستغرق حوالي الساعة. لما لاحت مضارب الأعراب قال أبي لنا:
– لا تمدوا أيديكم لتصافحوا أحداً إلا إذا مد هو يده أولاً. وأعتقد أنهم لن يفعلوا. ولا تشربوا قهوتهم إلا بعد أن يتم الصلح لنا أو علينا. وجدنا عربات كثيرة سبقتنا لا شك أن لها دروباً أخرى سلكتها نزلنا وجاء أناس كثيرون أعراب وغير أعراب فرحبوا بالمأمور وضابط المباحث. لم يسلم علينا أعرابي واحد. كما توقع أبي، جاءت أعرابيات فقابلت زوجة المأمور وابنه امبابي وذهبن بهما. تقدمنا المأمور إلى خيمة كبيرة مفروشة ببسط غالية رصت على جوانبها الحشايا، جلسنا متجاورين قرب المأمور الذي جلس في صدر المجلس يحيط به أناس يدل مظهرهم على الثراء. أخذت أتفحص وجوه الأعراب عرفت من تردد على منهم، أيقنت أنهم ذو حيثية وسط ذويهم لأنهم كانوا قريبين من صدر المجلس يوزعون تحاياهم على الناس عدانا.
وقف المأمور فافتتح الجلسة بكلمة مختصرة حول خيرية الصلح، ثم عزم على قضاة الأعراب بتصدر المجلس لسماع الدعوى والحكم، فتقدم ثلاثة شيوخ عليهم سيماء الوقار والعز فجلسوا في صدر المجلس الذي ران عليه الصمت. ثم نادى أكبرهم على خصمي وعليّ فتقدمنا ليشير إلينا بالجلوس. فلما استوينا جلوساً أمامه طلب الضمان فأخرج خصمي ربطاً مالية من جيبه فوضعها أمام القضاة وهو يتمتم:
– خمسة عشر ألفاً.
وحذوت حذوه إذ كنت قد استعددت بها في جيبي قبيل تحركنا من أرضنا بناء على رغبة المأمور بسمل أوسط القضاة ثم سألنا بالتتالي عما إذا كنا نقبل بحكمه هو وزميلاه مهما تكن قساوته فأوجبنا ليشهد المجلس علينا.
أخرج مصحفاً من جيبه وقبله ثم قدمه إلى كل من خصمي ثم مني وطلب إلينا أن نضع يدنا اليمنى عليه ونقسم بالله وبكتابه أن نقول الصدق دون زيادة أو نقص.
فعلنا فوجه حديثه إلى خصمي طالباً منه بسط شاكيته.
فراح خصمي يسهب في أمرنا استيلائنا بالقوة على جزء من أرض قبلته. مما جعلني أفكر في أن أترافع أيضاً عن أرض أحمد تجنيبا له من مثل تلك الجلسة التي أنا بها. وحتى أحسم أمرها هي الأخرى.
ثم انتقل خصمي إلى تعداد ما شجر بيني وبين بعض أفراد قبيلته من معارك أدت إلى إصابتي لهم بجروح خطره لولا لطف الله لأجهزت عليهم. وما تسببت فيه من إيداع بعضهم بالسجن سنين عدداً. لكنه لم يتعرض لما استولينا عليه من بضاعتهم المحرمة. ثم طلب استرداد الأرض بما عليها دون تعويض ثم ديات بعدد من كنت سبباً في

إيداعهم السجن معللا طلبه للديات بأنهم غدوا في حكم الأموات بدخولهم السجن. ثم صمت فقال له أوسط القضاة:

– انتهت؟

أوجب فتوجه أوسط القضاه إلي وقال لي:

– أتقر بما ادعاه عليك خصمك أم سترد؟

قلت:

– قبل أن أرد أود أولاً أن أسجل أمام حضرات قضاتنا الأفاضل أني أتخاصم في موضوع الأرض بالأصالة عن نفسي وزوجتي وبالنيابة عن جاري الدكتور أحمد.

سألني أوسط القضاة:

– أمعك منه توكيل كتابي أو أحضرت شهوداً عدولاً على أنه وكلك؟

وجمت لهنيهه أنقذني بعدها المأمور بقوله بصوت عال:

– أشهد بأن الدكتور أحمد وكله أمامي في كل ما يتعلق بأرضه.

قال له أوسط القضاة:

– وشهادتك تكفينا ياسعادة المأمور.

ثم قال لي:

– رد أو أقر بما ادعاه خصمك.

قلت:

– ليسمح لي شيخنا القاضي بأن أسأل خصمي: عما: عما إذا كان هو وقبيلته مصريين ويعيشون على أرض مصر؟

توجه أوسط القضاة لخصمي وقال له:

– أجب.

فتمتم:

– نعم.

قلت:

– إذن أنا وهو وقبيلته نخضع للقوانين المصرية؟

قال أوسط القضاة:

– ما في هذا شك.

قلت:

– وهذه القوانين تنص على أن الأرض التي اشتريتها أو اشتراها الدكتور أحمد إنما هي ملك الدولة المصرية وقد اشتريناها من مالكها الذي هو دولة مصر. فإن كان عند خصمي ما يثبت عكس ذلك فليتفضل بتقديمه لقضاتنا الأفاضل لنطلع عليه فإن ثبتت صحته أقررت له بالأرض.

قال أوسط القضاة لخصمي:

– أمعك ما يثبت ملكية قبيلتك للأرض محل النزاع؟

رد عليه:

– أنت عربي مثلنا ياشيخ القضاة وكل رجال القبائل غيرنا الذين يشرفون بحضورهم هذا المجلس يعرفون كما تعرف أن لكل قبيلة أرض ذات حدود معروفة. فكيف تطلب مني أن أثبت ملكية ما هو معروف بين كل القبائل المجاورة أنه ملك قبيلتي.

أجاب شيخ القضاه:

– هذا العرف بيننا نحن قبائل الصحراء. أما إذا تشابك أمر الأرض مع الحكومة. فالأرض فيما يتعلق بها أمرها. وقد أمرت بقوانينها التي تسري على كل المصريين ونحن منهم أن الأراضي الصحراوية ملكها هي. ما قولك؟

تمتم خصمي:

– القول ما قالت به الحكومة. والأمر أمرها. فلسنا قدها.

قلت:

– إذن نحن ياشيخ القضاه لم نفتئت على حق خصمي ولم نغتصب ملكه حين اشريناه من الحكومة. لذا أطلب الحكم برفض دعوى خصمي بالنسبة للأرض والحكم بأحقيتنا فيها. وعدم التعرض لنا أو لأرضنا من أي من أفراد قبيلته بأي شكل من أشكال التعرض.

هز شيخ القضاه رأسه ثم قال لي:

– رد على باقي مواضيع الخصومة.

قلت:

– الدفاع عن النفس مشروع في كل الأديان والقوانين والأعراف. ولو أدى إلى قتل المعتدي. وما أصبت به بعض خصومي من أفراد قبيلة خصمي. إنما كنت فيه في موقف الدفاع عن النفس. فأنا لم أبادئ بعدوان وإنما كنت في موقف المدافع عن النفس. وأستشهد على ذلك بحضرة ضابط مباحث المركز الذي تولى التحقيق في هذه القضية. وسعادته حاضر هذا المجلس. ويمكن لشيخنا القاضي أن يسأله وأنا راض بشهادته.

رفع شيخ القضاه ذراعه وطلب من ضابط المباحث التقدم للشاهدة. فلما أقبل طلب إليه الجلوس بجوارنا والقسم فلما فعل سأله عما أثبته له التحقيق فيما شجر بيني وبين خصومي وأدى إلى إصابتهم بإصابات خطيرة. فأكد له ضابط المباحث أن التحقيق الذي أجراه والذي أجرته النيابة انتهى إلى أني كنت في موقف الدفاع عن النفس وأن إصابه من أصيب كانت لهذاالسبب.

شكره شيخ القضاه وأشار له بيده كي يعود لمجلسه. ثم سأل خصمي:

– ماذا بقي من دعواك؟

قال:

–خصمي جعل من مأواه في الأرض مكمنا لرجال الشرطة. ودلهم أحد رجاله على إحدى بنات قبيلتنا.

فقبضوا عليها بممنوعات كانت تحملها وألقوا بها فى السجن.
قال الشيخ:
ـ بما ترد؟
قلت:
ـ سله من فضلك ياشيخنا. لو أن رجال الشرطة طلبوا إليه أن يكمنوا فى بيته ليراقبونى أنا أو سواى. أيستطيع أن يعارضهم.
قال الشيخ له:
ـ رد.
قال:
ـ لا.
قلت:
ـ يكفينى هذا ياشيخنا. وأحب أن أوضح أن الإنسان مسئول عن تابعه إذا كان قاصراً. وتابعى الذى يقصده لا ولاية لى عليه لأنه أكبر منى سناً. ولأنى لم أشق عن صدره لأعلم ما يخفيه فيه. وبمجرد أن حامت شبهة حوله طردته. أعلىّ إثم بعد هذا؟
رد الشيخ:
ـ لا ياولدى عداك العيب فى هذه أيضا.
ثم نظر إليه وقال:
ـ والرابعة؟
قال:
ـ هاجم حراسة أحد أبنائنا. وتسببت كلابه فى ضياع بضاعة قيمتها أكثر من اثنى عشر ألف جنيه.
قال الشيخ:
ـ رد عليه.
قلت:
ـ ياشيخنا عندنا مثل فى قريتنا لا أدرى إن كان عندكم مثله يقول: نم لما أذبحك. قال: هذا شئ يطير النوم من العين. أنا ورجالى وأرضى والحرمة التى هى شريكتى مهددون تماما منهم. وقد اقترب إنسان أى إنسان سواء أكان منهم أو من غيرهم فى الليل وهو مسلح منا. فأنذرناه بأن يبتعد. لكنه تمادى وشرع سلاحه علينا. أنسمى عليه أم نحمى أنفسنا؟
رد الشيخ:
ـ تحمون أنفسكم.
قلت:
ـ وذلك ما فعلناه بالضبط . استطعنا أن نقبض عليه وحجزناه عندنا حتى الصباح لنأمن شره وشر من وراءه إن كان وراءه أحد تخفيه عنا الظلمة. ولما غمرت الشمس الكون أطلقنا سراحه وسلمناه سلاحه بعد أن حجزنا ذخيرته خشية أن يرتكب بها أية

حماقة فور إطلاق سراحه. أما ما يزعمونه من أمر البضاعة التى ضاعت فلا نعرف عنها شيئا ولا نريد أن نعرف لأنها بضاعة لو رآها السيد المأمور أو أصغر جندى عنده مع أحد لأرسله بها إلى اللومان وقد ألقى بها لما هاجمته كلاب الحراسة. وكانت الدنيا مظلمة وأعصابنا مشدودة ولم يخبرنا بأهميتها له. فماذا نصنع؟ ولما جاء ذووه ظهرا يسألون عنها. ساعدتهم بكلب مدرب عندى على البحث فعاد بخرقة كان يلفها بها. أى أنى لم أتأخر عن مساعدتهم. ماذا يريدون منى أكثر من هذا ياقاضينا. خصومى وأساعدهم فى البحث عن بضاعة مشبوهة. أنا واثق أن سيادة المأمور وسيادة ضابط المباحث سيشوب احترامهم لى الشوائب بعد أن سمعوا ما حكيته لك بأمانة ويستطيع من حضر إلى منهم أو حتى من أسرناه منهم وهو يحمل البضاعة أن يكذبنى إن كنت عدوت الحقيقة.

قال الشيخ للأعرابى:

ـ أعندك دليل على أنه أخذ بضاعتك؟

قال:

ـ لا.

قال الشيخ:

ـ استدع حامل البضاعة.

نظر خلفه وأشار لشاب منهم فتقدم. جعله الشيخ يقسم فأقسم ثم سأله:

ـ أكنت حاضرا الآن؟

أجاب الشاب:

ـ نعم.

قال الشيخ:

ـ وسمعت ما قاله خصمكم؟

قال الشاب:

ـ نعم

قال الشيخ:

ـ هل افترى كذبا بزيادة أو نقصان.

قال الشاب:

ـ لا.

قال الشيخ:

ـ إذن تفضل.

ونظر إلى خصمى وأردف:

ـ ولاهذه أيضا لكم فيها حق. ثم صمت وقال:

ـ والخامسة؟

قال الأعرابى:

ـ ولا السادسة.

قال لى الشيخ:

ـ أتود أن تقول شيئا؟

قلت:

ـ لا.

قال الشيخ:

ـ إذن تفضلا. عدنا إلى مجلسينا وسع لى عمى امبابى بجواره وما إن جلست حتى قبلنى. وقال:

ـ جدع ياولد وابن جدع. كنت غاليا عندى وازدادت غلاوتك. لايهمنا بعد هذا بماذا يحكم قضاتهم . ولا أظنهم يميلون لأنهم سلموا بكل شئ لك.

كان الناس يتهامسون فى الوقت الذى مال فيه الشيخ على مجاوريه يشاورهما لدقائق ثم وقف. ونادانا فعدنا للوقوف أمامه وأشار إلى الناس بكلتا يديه فكفوا عن التهامس وقال:

ـ بعد استعراض الدعوى بين القبيلة الفلانية وممثلها فلان وبين فلان حكمنا بالآتى: تبرأ ساحة المشكو فى حقه تماماً من كل ما ادعى به عليه. وألزمنا القبيلة ممثلة فى فلان بعدم التعرض له أو لأرضه أو لمن يحميه من الناس . وأن يكون له عليها حقوق الجار التى أوصى بها ديننا وأن تكون للقبيلة عليه الحقوق نفسها كما ألزمنا القبيلة ممثلة فى فلان بأتعاب القضاة. وأن تدفع نصف دية للمشكو فى حقه تعويضا له عما لحقه بسببها من أضرار مادية وأدبية. والله أحكم الحاكمين.

ثم أمرنا أن نسلم على بعضنا فسلمنا ومال على خصمى وقبلنى فقبلته. ولم أشعر بنفسى بعدها أكثر من نصف ساعة تداولتنى فيها الأيدى والشفاه من كل الحضور حتى خصومى الأعراب.

هممت بالانصراف من موقفى أمام القضاة جذبنى شيخهم وأجلسنى وقال:

ـ خذ نقودك وتعويضك هذه الأموال كلها لك. لكن إذا رأيت أن تتنازل عن شئ منها للقبيلة من أجل خاطرى تكون مشكوراً.

قلت:

ـ ألف.

قال مجاوراه:

ـ ومن أجلنا.

قلت:

ـ ألفان.

وقال المأمور:

ـ ومن أجلى.

قلت:

ـ ألف.

وتبعه ضابط المباحث وألف. وظل التنازل إلى أن بلغ جملة ما تنازلت عنه لمن أعرف

ولمن لا أعرف خمسة عشر ألفا.

خشيت إذا ذهبت بباقى المبلغ أن أترك فى نفوسهم شيئا فقلت فى نفسى أضرب عصفورين بحجر. ناولت نقودنا لعمى امبابى وأمسكت بالخمسة عشر ألفا الباقية، ورفعت يدى مشيرا إلى الناس طالبا أن يعطونى آذانهم. صمتوا فقلت:

ـ تعبيرا عن رغبتى فى حسن الجوار أسلم ما بقى لى من تعويض إلى سيادة المأمور ليبنى بها مسجداً فى هذا المكان ملحقا به كتاب صغير وأتعهد أمامكم جميعا بأن أضيف إليها إذا احتاج البناء إلى مال غير هذا ما يكمل به البناء. واتجهت جهة المأمور وناولته ما خصنى من تعويض فإذا به يحتضننى ويقبلنى ويهمس فى أذنى:

ـ جدع يا ولد.

مدت الصحاف عليها الخراف بأعداد مهولة وتحلقنا حولها حسبما اتفق وتناولنا القهوة العربية بالغة المرارة. وعندما هممنا بركوب عرباتنا عائدين سلم علينا الأعراب هذه المرة وودعونا بطلقات رصاص كثيرة تكافئ معركة حربية.

● ● ●

ما إن وصلنا إلى الأرض ووقف المأمور لينزل ابنة امبابى من عربته. حتى أصررت وأصرت ابنة امبابى على أن يدخل هو وزوجته وضابط المباحث ليرتاحوا عندنا من وعثاء الطريق. فاستجابوا وصرفوا ما معهم من قوات.

تلقيت تهانى زوجة المأمور، قالت لى وهى تبتسم:

ـ يكون لك مستقبل مبهر فى المحاماة لو دخلت كلية الحقوق.

ردت عليها ابنة امبابى:

ـ يا أختى عليك ومن يزرع هذه الأرض؟

مالت على ابنة امبابى هامسة:

ـ كنت فخورة بك. تهنئتى لك ليست الآن.

جلسوا معنا حوالى الساعة وليس لهم من حديث إلا ما دار فى تلك المحاكمة. قال لى المأمور وهو ينصرف:

ـ «حرس من صاحبك» وأنت عارف الباقى . حاول أن يأخذ أبى ليبيت عنده إلا أن أبى أقنعه بأنه سيسافر فورا حتى لاتضيع مصالحه.

قمنا معا عائدين إلى مدينتنا لنوصل أبى وعمى امبابى عندما وصلنا لم ينزل أبى من العربة برغم كل محاولات عمى امبابى أن يقضى الليلة معه ويسافر صباحاً، طلب إلى أن أوصله إلى موقف عربات السفر فقط أمرت ابنة امبابى البواب فحمل إلى العربة كسوة أسر أولاد عمومتى. اتجهت الى منزل عمتى فودعها واقفا. ركب بجوارى كان فى عزمى أن أوصله الى القرية. رآنى أسلك طريقا غير طريق موقف عربات السفر. أمرنى بحسم أن أعود إلى طريق الموقف. ومن يقدر على عصيان أب مثل أبى. أعدت عربة ابنة امبابى التى كانت حركتنا بها فى الأيام الماضية. ودخلت لأعبر عن امتنانى لأسرته على حفاوتها بأبى فوجئت بحماتى تقبلنى وابنته المطلقة تهنئنى على انتصارى على خصومنا الأعراب، إذ كان عمى امبابى قد حكى لأسرته عما دار فى مجلس

الصلح.

هممت بالعودة إلى عمتى إلا أن الذى بادر بالرفض هذه المرة كان عمى امبابى وأغلق دونى كل أبواب التعلات وأمر ابنته أن تجهز لى الحمام. لما اغتسلت وصليت ما فاتنى من أوقات أويت إلى حجرة ابنته واستلقيت استمع إلى موسيقى خفيفة إذ كانت ابنته مشغولة بمالا أدرى. لما دخلت إذا بها تختطف قبلة وباب الحجرة مفتوح تمتمت:

ـ مجنونة.

ـ رفعت رأسى أمام زوجة المأمور ولا أقبلك.

ـ أتمكنتما من متابعة مادار فى جلسة الصلح؟

ـ وكل الاعرابيات. لقد فرونى تقبيلا هن أيضا.

ـ ومن أين تابعتم ذلك؟

ـ من فرج الخيمة. وكنت بدءا أمسك قلبى بيدى.

ـ على.. أم على الثلاثين ألفا.

ـ الله يخليك يا أبى يا من وسمنى بسمة لا تريد أن تنفك عنى. ثلاثين وزفت كل أموالى فداء لك ياحبى.

ـ حذار أن يسمعك أحد.

ـ يسمع من يسمع.. كلهم يعرفون أنى أحبك.

ـ رفعت برقع الحياء.

ـ معك فقط اسمع ولا تأخذنى إلى متاهة. أيقنت بكلامى؟

ـ أى كلام؟

ـ أن لك حقا فى نصف ماربحناه معاً.

ـ فى نفسى من ذلك شئ.

ـ أما سمعت كلام أبى؟

ـ سمعته وذلك عرف التجار. أما رأى الدين فشئ نسأل عنه أهل الذكر.

ـ ومتى تسأل؟

ـ براحتى.

ـ اسمع ولا تجننى.. تسأل الليلة.

ـ وهل رجال الدين تحت أمرى؟

ـ بل تحت أمر ربهم. تلك شهادة ولا أظن أحدا منهم يتأخر عنها.

ـ غداً.

ـ بل الليلة. أعلم أنك تثق بشيخ مسجد الخواص. سأستدعيه.

ـ الواجب أن نذهب نحن.

ـ نذهب أو يأتى . لاتفرق كثيرا.

تركتنى وخرجت ثم عادت لتقول:

ـ أرسلت إلى الشيخ من يستقدمه. قم لتأكل.

ـ لا رغبة لى.

فوجئت بها تجرنى من أقدامى حتى كادت تسقطنى من الفراش. قمت . خرجنا إلى الردهة لأجد صفحة مغطاة على المنضدة. كشفتها وجلست قبالتى فتناولت طعامها معى ما إن فرغنا حتى جاء من يخبرها بأن الشيخ فى المندرة. خرجنا إليه فتناولنا شاينا معا.. ناقشته الأمر فأفتى بما قال عمى امبابى من أنها مضاربة وأن لى حقا فى الربح إذا حدد بدءا فبما حدد وإذا ترك فمناصفة. اطمأن قلبى. لما هم الشيخ بالانصراف قال لى:

ـ ألا تأتى معى إلى حلقة ذكر؟

ردت ابنة امبابى عليه:

ـ سأقيم أنا وهو حلقة ذكر خاصة يامولانا.

ابتسم الشيخ وانصرف. وعدنا إلى حجرتها. فقالت:

ـ لم تبق لك حجة.

ـ فى ماذا؟

ـ فى أن نسرع بالزواج.

ـ حاضر.

أطلقت زغرودة بلا صوت. قطعها رنين الهاتف آتيا من الردهة. وصوت أختها يرد فهمنا أنه أحمد، خرجنا جرياً اختطفت السماعة من يد أختها ورحبت به وسألت عن أحواله وناولتنى السماعة. أخبرنى أحمد أنه سيصل غداً حوالى الخامسة صباحاً ويريدنا أن نقابله لما معه من أحمال لنا ولولا ذلك ما كلفنا تعباً ، سألنى عن أسرته وعن لوزة طمأنته، طلب أن نحضر معنا نقوداً كثيرة للجمارك وهم بأن يسأل عن شئ آخر إلا أن السكة انقطعت.

• • •

عدنا إلى الحجرة لأعاود الاسترخاء حتى غلبنى النوم فتحت عينى وهى تسحب على الغطاء ولم أفتحها ثانية إلا على صوت عمى امبابى وهو يوقظنى لنقابل أحمد، قمت لأتأهب لذلك وأنا موزع بين رغبتى الشديدة فى النوم وبين واجبى فى مقابلة أحمد. لم يكن الفجر قد أذن بعد. توضأت وصليت لله تهجداً وجاءتنى ابنة امبابى بكوب من الشاى أيقظنى قليلا ولم يكمل يقظتى إلا هواء الصباح الندى وهو يصك فى وجهى وأنا جالس بجوار ابنة امبابى على طريق المطار.

لم تطل وقفتنا فى انتظار خروج أحمد. سمعنا من ينادينا لنتجه إلى الدائرة الجمركية لمحنا أحمد فاقبل نحونا احتضننى بذراع واحتضن ابنة امبابى بالأخرى وقبلنا وقبلناه وأعطيناه ماطلب من نقود عاد بها فخلص على ما استقدم معه وعاد إلينا بعربات ثلاث مكدسة بالأحمال يدفعها أمامه ثلاثة من خدم المطار. عانينا من ترتيب أحماله داخل وخارج العربة ولولا حبل مهمل فى خزينة العربة ما تمكنا من أحماله. لما وصلنا منزله أنزلنا كل الأحمال إلا حقيبة كبيرة طلب أن نتركها فى العربة فوجئت به أسرته ولوزة معها ومن عجبى أن لوزة قابلت ابنة امبابى بترحاب ماعهدته من قبل. تركناه ليرتاح من وعثاء سفر طويل. قال لابنة امبابى ستجدين بعض الهدايا لأسرتك

وأسرة عمى بطاطة وقد تركت على كل منها وريقة تدل على صاحب الهدية. اطمأن على عماله وأخبرنا أنه سيحادثنا لما يستيقظ ولن يكون ذلك قبل العصر. تركناه عائدين ولما يضحى النهار بعد.

كان لهدايا أحمد وقع طيب على نفوس أسرتها وبخاصة تلك اللوحات التى خص بها أختها لفنانين غربيين. وأعتقد أن مثل هذا الأثر حدث فى نفس عمتى لما وصلها ما خصها من هدايا أحمد التى أرسلتها لها ابنة امبابى مع أحد عمال أبيها. أما ما خصنى فقد احتجزته ابنة امبابى عندها.

قضيت بقية اليوم مسترخيا فى حجرتها وهى جالسة قبالتى ترغو بأحلام كأحلام أية فتاة أما أنا فسميع خير. وحين كانت أمها تناديها لأمر لم تكن تستجيب لها إلا بعد أن تشفع نداءها العاشر بما يثقل على الأذن فتخرج ساخطة لاعنة هذه الأسرة التى تستخسر فيها جلسة مع حبيبها. حل المغرب ولما يتصل بنا أحمد أيقنا أن وعثاء السفر استغرقته والتمسنا له العذر، عرضت على أن نخرج لنقضى الأمسية فى مسرح أو ملهى إلا أنى كنت عازفا فلم أستجب لها وظللت أمارس الكسل بتلذذ حتى غلبنى النوم حيث أنا. ولم يكن فى ذهنى ما أهتم له كما لم يسيطر على داخلى هاجس خفى يؤرق مضجعى. أيقظتنى أكثر من مرة صباحاً لأعود إلى النوم من جديد حتى ظنت بى توعكا إذ لم تكن تلك عادتى. أكدت لها وأنا نصف يقظان أنى بخير. لم أدع الفراش إلا بعد أن أوهمتنى أن عمتى تريدنى وأنها أرسلت لى أكثر من مرة فلما نشطت وارتديت ملابسى وجدتها مرتدية ملابس خروجها هى الأخرى سألتها:

– إلى أين؟

فابتسمت وأجابت.

– سأخرج معك لكن ليس إلى عمتك لأنها لم ترسل وإنما زعمت هذا لتدع الفراش.

– طيب.

قلتها وخلعت ملابسى واسترخيت من جديد. جننها هذا التصرف وعاقبتنى عليه بلكمات سريعة من يديها. إلا أنى كنت من البلادة إلى حد أنى حتى لم أهتم بقبضتها فخرجت ثائرة على تشكو لأمها فسمعتها تقول لها:

– يا ابنتى دعيه يرتاح فما همد من يوم أن عرفك. أتستهونين بما كان فيه من مذاكرة وأعصاب مشدودة بين مشاكل الأرض ومشاوير تجارتك.. يا ابنتى التعب يحل بالإنسان إذا أحس بأنه أنجز شيئا. وقد أنجز معك الكثير فى الشهور الماضية ولولاه لأوحلت فى الأرض والمصنع.

فاجأنا أحمد بزيارته بعيد المغرب، خرجنا من الحجرة معا لملاقاته قال أول مارآنا:

– يا أولاد الجنية كيف زرعتم الأرض؟ ومن أوحى لكما بفكرة الرى هذه مبروك علينا كلنا. وإيه يا أخى يا أبا سبعة ألسن الذى فعلته مع الأعراب هذا؟

ردت عليه ابنة امبابى :

– لابد أنك ذهبت إلى الأرض.

وكدت أتوه عنها. لم أصدق أنها أرضنا لما رأيتها مخضرة. لم لم تخبرانى؟

ـ أردناها لك مفاجأة.
ـ جدعان والله. رأى من هذا؟ وفكرة الرى لمن؟
ـ رأى أبى وفكرته.
ـ أبوك هذا فلاح قرارى. قرم. تصور أن فكرته هذه مستعملة في الخارج بتعديل بسيط لتوفير العمالة لأنها غالية الثمن عندهم.
ـ ومن أخبرك بجلسة الصلح مع الأعراب.
ـ المأمور حكى للمقاول والمقاول أخبرنى. لقد أيقظنى بالهاتف صباحاً وطلبنى لأن عمالى صادفتهم مشكلات فنية فى بعض الآلات ولم يستطيعوا لها حلا. لم يكن يتوقع أن أرد عليه وإنما كان يبغى أن يعرف متى أعود حتى يتصرف على ضوء معرفته بمدة غيابى لما وجدنى أقسم على بأن أنقذه. لم أجد بداً من السفر إليه. وقص لى وأنا معه ما سمعه من المأمور.. وصمت هنيهة أردف بعدها:
ـ لى رأى.
ـ خيراً.
ـ أن تدخل الحقوق أفضل مادمت بسبعة ألسن هكذا. والله يا أخى أنت محير. نادر الحديث وبسبعة ألسن قمة التناقض. لكن جدع ياولد أن جابهتهم بهذا الشكل ولم ترهب مجلسهم.
سألته ابنة امبابى:
ـ وما أخبار المعدات التى وعدت بإحضارها لورشتك وللمصنع والأرض.
قال:
ـ شحنتها بطريق البحر من مدة وأعتقد أنها على وشك الوصول إلى الإسكندرية بين يوم وآخر . أحضرت لك معدات مصنع كامل لشئ لا ينتج بمصر وكثير الاستهلاك.
سألته :
ـ وما هو؟
ـ أغطية كشافات وإشارات السيارات.
ـ البلاستيك هذه؟
ـ ليست بلاستيك وإنما هى من مادة تشبه البلاستيك.
تساءلت ابنة امبابى:
ـ معنى هذا أننا لن ننتج مصنعات من البلاستيك.
ـ سننتج لكن ليس من المصنعات الشائعة بل شئ جديد تماما.
سألته:
ـ ما هو؟
ـ المواسير الخاصة بالمياه وأنظمة الرى الحديث.
ردت ابنة امبابى مندهشة:
ـ مواسير للمياه وبلاستيك.
ـ نعم.. لم يعودوا فى الخارج يلجأون إلى الحديد فى هذا الصدد.

– على بركة الله. وأنت؟

– أحضرت خطا لإنتاج كل مقاسات مسامير السيارات من الصلب. بدلا من استيرادها من الخارج. وأنت تعلم كم تستهلك هذه المسامير . مع بعض معدات الصيانة الحديثة التى تسهل إنجاز عمليات الصيانة. فما يحتاج لأيام بطرقنا المعهودة ينتهى فى بعض ساعة بتلك المعدات. كما أحضرت معدات أخرى لإنتاج بعض قطع الغيار للآلات التى هى شحيحة فى السوق.

تساءلت ابنة امبابى:

– والأرض؟

– أحضرت لها معملا متكاملا لتحليل النبات لاكتشاف ما ينقص من مكونات غذائية واكتشاف أمراض النبات. بدلا من اللجوء إلى معامل الحكومة التى قد لا تسعفنا.

قالت:

– وأنظمة الرى؟

– قلت لك قبل أن أسافر سأصنعها هنا. إيه يا بنت امبابى.. الولد ذهب بعقلك وأفقدك ذاكرتك؟

ردت مبتسمة:

– إى والنبى يا أخى.. لم يبق فى عقل..

رد مبتسما:

– ربنا يستر.. على كل حال العباسية قريبة من المنزل.. وإذا لم تعجبك العباسية فالخانكة قريبة من الأرض. أى أننا لن نجد مشكلات فى زيارتك فقط نرجو أن تخبرينا متى نذهب بك.

ردت:

– حالا يا أخى.. حالا.. قبل أن تسوء حالتى ولا تستطيعون علاجى.

رد أحمد:

– والله زمان.. أوحشنى تهريجك يابنت عمى امبابى.

قام واقفا.

سألته :

– إلى أين؟ لم أنت عجل.

– لأنى لم أستكمل راحتى. وسنلتقى غدا بالأرض إن شاء الله.

– ما من داع لذهابنا فأولاد عمى لن يهملوها.

– هناك موضوع مرجأ من قبل سفرى وأود أن نبحثه معا بهدوء.

– خيراً.

– خير. لما نلتقى.

سلم وخرج فجريت إلى الفراش كأنى ماصدقت أنه خرج. دخلت ورائى تقول:

– يا ترى يا أحمد ماذا تريد؟

– ياخبر بفلوس.

ـ ماذا تظنه يريد.
ـ سبحان علام الغيوب.
ـ أظنه يريد معرفه موقفه المالى معنا. هل جهزت حسابه؟
ـ كله مرصود بماله وما عليه. بحيث إذا طلبه فى أى وقت وجده.
ـ أفضل. فأنا لا أريد أن تشوب نفسه شائبة.

● ● ●

ـ هناك شئ يحيرنى.
ـ خيرا ـ كفى الله الشر.
ـ لماذا تنازلت للأعراب عن الغرامة؟
ـ لم أتنازل لهم. كل ما فى الأمر أنى قصدت أن أخبرهم أننا لاتهمنا أموالهم فى شئ.
ـ وهل لو حكم لهم أكانوا يفعلون ما فعلت؟
ـ لا يهمنى ما كانوا يفعلون. الذى يهمنى ما نفعل وقد فعلت ما كان وقعه عليهم أشد من الركل.. وما كان وقعه فى نفوس أعيان المنطقة عظيما. أنا واثق أنهم سيتحدثون به فى مجالسهم لشهور وأنهم عدونى برغم سنى الصغيرة منهم. وليس ذلك بالأمر التافه بالنسبة لمصالحنا فى المنطقة مستقبلا.
ـ يا ساتر على دماغك ياولد! كل هذا حسبته قرعتك فى ثوان وأنت تتصرف.
ـ الله هو الذى صرف ووفق.
ـ ونعم بالله. لكن أنا ضائقة.
ـ لماذا؟
ـ لأنك حابس نفسك من يومين.
ـ وأنا سعيد جداً لأنى لم أفارقك لحظة.
ـ ربنا ما يحرمنى منك. خلاص ياحبى. سأغلق علينا الباب بالضبة والمفتاح ولاتخرج شهراً.
ـ فكرة حلوة لكنها تجعل أباك يذبحنا معا.
ـ لماذا ألم يزوجنا لبعض بنفسه على سنة الله ورسوله؟
ـ لكن لم يسمح لنا بالبناء بعد.
ـ ما رأيك لو ذهبنا إليه على المقهى الآن واستسمحناه. بس نقف من بعيد لبعيد وننادى : ياعم امبابى.. يا عم امبابى.
فينظر نحونا ويقول: إيه ياأولاد. تعالوا.. ماذا تريدون.
فنرد.. لا.. نحن خائفان منك.. بس عاوزين نتزوج.
ـ آه فكرة جميلة تجعله يطيح فينا بأقدم «برطوشة».
ـ إذا لحقنا.
دخلت أمها مبتسمة. وقالت: آه ياشعنونة.. طول عمرك شعنونة.. ياولدى البنت ستجن من أجلك وأنت تحبها وربنا يسرها عليكما بالكثير. ولا أرى مانعا واحدا

يمنعكما من الزواج.

ردت ابنة امبابى:

ـ إى والنبى يا أمى قولى له.. الله يخليك يا أمى.

نظرت إليها أمها وقالت:

ـ يابنت انقرصى فى لسانك يامقروصة.

قالت لأمها بانفعال:

ـ الله يا أمى.. كلكم تعرفون وهو قبلكم أنى أحبه.. وأموت لو بعد عنى.

نظرت لى أمها وقالت:

ـ أيعجبك هذا ياولدى؟ أرح قلبها وقلبى. الله يريح قلبك ويسعد أوقاتك.

● ● ●

يممنا صباحا شطر الأرض بعد أن دارت ابنة امبابى تلم أشياء للرجال هذه المرة طالعتنا الخضرة من بعد أكثر فانشرحت صدورنا أكثر وأكثر. قابلتنا الكلاب من مبعدة ميل أو أكثر لا أدرى كيف شعرت بنا من هذا البعد هدأنا من سرعة العربة حتى لاتتعبها وراحت ابنة امبابى توزع عليها جرايتها من أرغفة الخبز التى أحضرتها لها. لما نزلنا من العربة عوقتنا بترحابها بنا عن أن نسلم على ابناء عمومتى الذين كانوا أول من رأينا لأنهم كانوا يعملون فى أرض أحمد. أخبرونا أن أحمد زارهم ومنح كلا عطية طيبة لما رأى الأرض مخضرة وأخبرونا أن المقاول كان عندهم أمس هو وبعض ناس فرجهم على بعض معدات واختبروا مدى كفاءتها وطلب إليهم أن يجعلونى أتصل به لأن من معه يريد شراء ما تفرج عليه من معدات وسألونا عن الأسمدة الكيماوية ولماذا لم نرسلها لهم؟

ـ دخلنا أرضنا فجلسنا فى ظل إحدى الاستراحات نستمتع ببحر الخضرة الذى يعمر نفوسنا بهجة جاء صبى الكلاب يحمل فى يده «أرنبا» رابيا. دهشت، سألته من أين؟ وتلقفته ابنة امبابى منه تربت على شعره الناعم بعد أن أراحته على حجرها. فقال:

ـ سأعزمكم اليوم على أرانب. كررت سؤالى من أين؟ فقال: اصطادت الكلاب بعضها من حول أرض أحمد جاءت على الخضرة فثبتتها الكلاب إلى أن أمسك بها. سارت ابنة امبابى معه لتتفرج عليها. عادت لتخبرنى أنها أكثر من عشرين ذات أحجام رابية لم تشاهد مثلها من قبل.

وافانا أحمد وبعد أن شاغب ابنة امبابى ماسمحت له به همته. سألته:

ـ أى موضوع ياترى تريد أن تحدثنا فيه؟

ـ آه.. هناك من يرغب أن يكون عديلك.

وقفت ابنة امبابى وقالت: صحيح يا أحمد؟ رجل جيد يا أحمد؟

ـ رجل وحيد وابن ناس وأستاذ كبير يابنت امبابى.

ردت بلهفة:

ـ وماذا تنتظر يا أحمد؟ ولم أرجأت؟ أمثل هذا يرجأ يا أحمد؟

ـ تعمدت ذلك ليراجع نفسه حتى إذا ما تم هذا الأمر. كان عن اقتناع تام فيكتب له

النجاح فأختك ليست حمل صدمة أخرى.
ردت:
ـ تعمدت ماذا يا أحمد؟ وماذا يعيب أختي؟ هذه المسكينة التي انحسب عليها رجل زورا في زور.
رد أحمد:
ـ ما قلت إن في أختك عيبا. ولا هو أيضا به عيب. لكن ما يجعلني أتردد.
قاطعته:
ـ تتردد؟ تتردد؟
قلت لها:
ـ اصبري لنرى وجهة نظر أحمد.
رد أحمد:
ـ أتلفتك التجارة يابنت امبابي وجعلتك نهازة للفرص.
ردت:
ـ وما عيب ذلك يا أحمد إذا لم أهتبل الفرص فسيهتبلها غيري.
رد أحمد:
ـ في التجارة أما فيما عدا ذلك فالأمور تحتاج إلى روية دعيني أسألك. ألم تفكري كثيراً قبل أن تختاري هذا الولد الذي بجوارك؟
ردت:
ـ أقول لك الحق ولا تمسكها على ذله؟
ـ أعدك.
قلت:
ـ لاتصدقيه فهو يستدرجك.
ردت:
ـ سي بعضه. إنه أخي وستر وغطاء على.. اسمع يا أحمد.. بالنسبة للولد أخيك لم أتردد للحظة، ساعة ما رأيته سقط في قلبي فأغلقته عليه بالضبة والمفتاح. ارتحت؟
رد أحمد:
ـ ما يصلح لك قد لا يصلح لغيرك.
ردت عليه:
ـ والنبي كف عن الفلسفة يا أحمد وخلصنا يصلح أو لا يصلح مادام الرجل قد اختار إذن فكر وقدر وقرر.
رد أحمد مداعبا مقاطعا:
ـ يا سلام على السجع يابنت امبابي:
قالت:
ـ لا تغظني.. سجع.. سجع ماذا يا أخي. سيقول لي كلاما لا أفهمه. الرجل قرر وتقول لي إنه صالح من كل ناحية ماذا يجعلك تتردد؟

رد أحمد:

– مايجعلنى أتردد: أن بينه وبين أختك فجوة فى التعليم هو فى قمته وهى على أولى عتباته.

ردت باندفاع:

– يعلمها يا أخى إذا أحبها. وأختى لماحة. عينى علينا يابنات امبابى أنا عارفة لم لم نتعلم؟ خيبتنا ليست على أحد.

سألت أحمد:

– أليس بينهما ناحية اهتمام مشتركة؟

– توجد وربما هى التى جعلته يختارها هى درويشة فنون وهو أستاذ فيها.

قلت:

– ألا ترى أن هذه نقطة تكافؤ بينهما؟

– لا تكفى ولعلى صارحتك من قبل.. أن أخوف ما أخافه عليك هو الفجوة العلمية التى تتسع شيئا فشيئا بينك وبين هذه الشعنونة.

– نعم. لكننا متحابان ومتفاهمان.

– أما هو وأخت حبك فلم يقم بينهما حب. وهنا مكمن الخطر.

– ربما قام مادام قد بدأ إعجابه.

– وربما لم يقم.

– جائز. لذا من الأفضل أن نأخذ الأمر بروية.

تلقيت ضربة على ظهرى من ابنة امبابى وهى تقول:

– روية ماذا؟ ياولد إنت! رجل راغب فى الزواج وأختى جاهزة له. أى أنه رزق ساقه الله لأختى.. تأتى أنت فتقول روية. ويأتى أخوك فيتفلسف ويقول فجوة تعليمية وفجوة عفريتية ماهذا الهم.. ياساتر.. ربنا ما يجعلنى قطاعة أرزاق عرفانى أنا بس عليه واخرجا منها أنتما الاثنان.. ياساتر على عقد التعليم التى فى أدمغتكم .

رد أحمد:

– الأمر لا يحتاج إلى تعريف فأنت تعرفينه. إنه أخو زوجتى وابن خالتى.

ردت:

. – أنا فهمت من ساعة ماقلت أستاذ فنون، اسمع يا أحمد هل كانت زوجات النبى متعلمات وهو عليه السلام علمه ربه ليعلم أمة الى يوم القيامة.

رد أحمد:

– ولكننا لسنا أنبياء.

ردت:

– لكن لنا عقولا. وعندنا حكمة تحفظ علينا حياتنا الاجتماعية.

رد أحمد:

– وكثيرا ما تتوه العقول وتضيع الحكمة.. فواجبنا الحرص والحذر.

ردت:

– لا تتوه العقول إلا إذا أراد القدر نفاذ أمر. هب يا أخي أنها من ناحية التعليم فقيرة وهو غني ألم يقل الله يا أخي «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» ما أدراك ربما يغني الله أختي.

رد أحمد:

– فاتتني هذه يابنت امبابي.

قفزت بانتصار وقالت:

– انظر حتى أنت يا دكتور هزمتك واحدة جاهلة مثلي. المسألة إذن ليست فقراً وغنى في أية ناحية. ولكنها توفيق الله.

رد أحمد:

– وحكيمة أيضا يابنت أمبابي. هذه مصيبة والله.

جرت نحوه فأعملت أسنانها في ذراعه. وقمت فحلت بينهما. فقال لها أحمد وهو يمسح مكان عضتها.

– وفجأة ضاعت حكمة بنت امبابي. لا فائدة والله فيك..

ونظر إلي وقال:

– كان الله في عونك يا أخي.

قلت:

– والآن ماذا نحن فاعلون؟

قالت ابنة امبابي:

– دعا أمر أختي على الله وعلي. سأقنعها إن كانت مترددة وبلغه يا أحمد ألا يحمل هم والديها فسيظلان مع أمي لأنهما روحها.

رد أحمد بأسى:

– الله يقرف أباهما. حرمهما منه. مصيبة والله. على كل سأحاول أن أعرف رأى ابن خالتي في هذه النقطة ولا شك أنه أدارها في رأسه ولا أعتقد أنها تسبب له مشكلة لأن فيلته أكبر من فيلتنا وثراءه واسع. وله ابن هو أيضا من زوجته السابقة في مثل سنهما ومن يربي اثنين يمكنه أن يربي الثلاثة وربنا يعينه ويعينها. ثم نظر الى ابنة امبابي وقال:

– متى تردين علي. لأنه عجل.

– يومان فقط.

قلت:

– ربنا يوفق.

أمن الاثنان على دعائي. ثم سأل أحمد متى نسافر الى الاسكندرية لاستلام ما استوردته؟

علقت ابنة امبابي:

– تسافران أنتما . أما أنا فسأظل لأتولى موضوع أختي.

ونظرت إلي وأردفت:

ـ وابن خالك الذى يعمل بالجمارك سيسهل لك الأمر.

قال أحمد:

ـ أنا لا أستطيع أن أسافر أيضا لأن عندى هنا عملاً كثيراً توافينى غدا صباحاً أوثق لك توكيلا تتولى به الأمر.

ثم نظر إلى ابنة امبابى وأردف:

ـ أين الطعام يا ابنة امبابى؟ لقد مت من الجوع. ماهذا البخل يا شيخة البخلاء. مصيبة والله بخلك هذا. البنت ميتة على الدينا ولا تريد حتى أن تطعمنا. ياساتر. مليونيرة بخيلة.

قالت له:

ـ لا تجننى ياولد انت؟ لم تطلب الطعام. إلا من لحظة. وإذا لم تكف سأدعك جوعانا حتى تطعم عند زوجتك.

رددت عليها:

ـ قلبك أبيض.. أأنت ستتركين أحمد جوعانا؟!!

ـ نعم.. مادام يجننى. لا طعام قبل ساعة حتى أجهزه.. مفهوم.

رد أحمد:

ـ الأمر لله.. ربنا ما يحكمك فى غلابى. هيا ياأخى نخرج من هنا حتى لا تعلق خيبتها على مشجب وجودنا وتقول انكما عوقتمانى . ثم تعالى هنا لماذا لا تكونين جاهزة.. ألا تعرفين أنك مسئولة عن طعامى لما أكون هنا لكن الحق عند أخى الذى لا يعرف كيف يحكمك، بنات آخر زمن.

● ● ●

جزت ابنة امبابى على أسنانها مهددة وخرجت إلى استراحتها فى الوقت الذى خرجت فيه أنا وأحمد نجوب الأرض قال لى ونحن خارجان: أرسل لى صبى الكلاب أحد أبناء عمومتي.

سألت أحمد عن لوزة.

أخبرنى أن حالة الاكتئاب عاودتها قبيل حضوره من الخارج ووضعتها زوجته تحت علاج استاذ كبير تتردد عليه كل يوم وصمت هنيهة ثم تنهد وقال: مسكينة هذه السيدة طحنتها الدنيا بلا ذنب. وأخبرنى: أنه ذهب بها أمس الى الطبيب لأن زوجته كانت مشغولة وناقش الطبيب فى حالتها فقال إنها لن تبرأ تماماً إلا إذا أحست بالانتصار فى ناحية من نواحى الحياة. أو شغلت بأمر لاتنفك تفكر فيه ويبعدها عن معاودة التفكير فيما أدى بها إلى الاكتئاب ونظر ناحيتى لحظة ثم قال: أعرف أنها تهيم بك بجنون ولا تريد أن تفقد الأمل فى تملكك برغم أنها تجرى فى الاتجاه الخاطئ تماما وأعلم أنك تعتز بها جدا وربما لو لم تصادق ابنة امبابى لتحول اعتزازك إلى حب ووقعت فى غلطة قاتلة فى حياتك ربما خربت مابينك وبين أسرتك تماما. وأنا أيضا لا أنسى فضلها على يوم قبلتنى حين رفضنى الناس وأوتنى يوم شردنى الناس ووقفت بجانبى على قدر عقلها وما سمحت به قيم مجتمعنا. ولو تكاتفنا معا لربما استطعنا أن

ننتشلها من كارثة الجنون التى تتهددها بإلحاح.

ـ وماذا أستطيع أنا لها؟ أو ماذا تستطيع أنت حيالها. أكثر من موالاتنا لها بالسؤال عنها وقضاء مصالحها إن كان؟

ـ لو زوجناها من تفخر به نكون قد حللنا نصف مشكلتها ويتكفل الزمن والعلاج بالنصف الباقى.

ـ أو نقوم بمهمة الخاطبة لها؟ إنها معروفة تماما فى حيها وحارتها بل ومرغوبة من كثير ترفضهم ولا تثق فى أحد متخيلة أن كل من يتقدم لها ليس راغبا فيها هى وإنما فيما يشاع أنها تملكه من مال.

ـ لذا لو أقنعنا غريبا عن الحى بزواجها ستقبل ولو تحت إلحاح عمتك وإلحاحى وعندما تغدو فى كنف رجل جيد ستتفانى فى إسعاده خشية أن يتركها فتشمت بها نساء الحارة. وتنشغل به عن مرضها ولو رزقها الله منه بولد لتم شفاؤها تماما. ثم صمت وقال: أكل أبناء عمومتك الذين هنا متزوجون؟

ـ لا.

ـ جميل. ما رأيك لو أقنعنا كبيرهم بها وأقنعناها به؟

ـ آه.. وأقع أنا بين شقى رحاها هى وابنة امبابى. أحضرها لتقيم هنا. فأفقد ابن عمى تماما بسبب ما ينشب من شجار بينها وبين ابنة امبابى.

ـ ولماذا تقيم هنا؟ تظل فى بيتها وكلما لم يكن داع لتواجده يسافر معك إليها آخر النهار ويعود فى الصباح. أو نلحقه بأية وظيفة بالمدينة ونحضر من يحل محله هنا.

ـ بالأخيرة جائز..

ـ إذن سأشرح لخالتى بطاطاية الأمر وأعهد إليها بإقناعها إذا استطعت أنت أن تقنع ابن عمك. ما رأيك لو صحبته معى وأنا عائد بحجة رؤية ما يصلح حديقة الفيلا. وأدفعها نحوه بحجة الحفاوة به إكراما لخالتى بطاطاية وبذا أجذب انتباهه لها وانتباهها وهى حلوة وصبية ربما مال نحوها.

ـ والله فكرة، نجرب.

جاء المقاول ليرى إن كنا سنبيع ما عرضه من معدات. جلسنا نتفاوض، لم أصل معه إلى المستهدف لنا أراد أن يحكم أحمد إلا أنه رفض ولم نصل إلى قرار. طلبت إليه إنشاء سبيل على الطريق يشرب منه السابلة ويمكن أن تشرب الحيوانات من أسفله. نظر لى أحمد متهجما وقال:

ـ أنت بهذا توزع الأمراض بين الناس.

ـ أما من فكرة تجعله صحياً؟ قال: يمكن بأنواع خاصة من الصنابير لكنها تتلف بسرعة.

قلت للمقاول:

ـ نفذ فكرة الدكتور مهما تكلفت من صيانة مستقبلا. ثم سألته: ألم تر المأمور بعد جلسة الصلح؟

ـ رأيته. لقد استدعانى ليعهد بتنفيذ المسجد فى مضارب خيام الأعراب.

سألة أحمد:

ـ وهل ستنفذ؟

ـ لا.

سألته باندهاش:

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يطيرون الكحل من العين وسيسرقون الخامات.

قلت:

ـ ياساتر حتى ما يخص بيت الله؟

أجاب.

ـ وهل هؤلاء يعرفون الله.. أعوذ بالله.. لاذمة ولا ضميرا ولا أخلاقاً. لا تظن يا أستاذ أنهم قد صفت نفوسهم لك بجلسة الصلح هذه. وأرجو أن يظل حرصك منهم قائما . لأن هذه ثانى مرة تتكسر شوكتهم أمام أحد الأولى كانت معى والثانية معك لقد تعودوا على إرهاب الناس والهروب إلى الصحراء. ووالله لو كنت منك ما نفذت شيئا بقرش يفيدهم. خسارة فيهم شربة الماء.

ـ ياسيدى.. الماء سبيل لله وماذا يكلفنا؟

هم بأن ينصرف.. إلا أن أحمد قال:

ـ أريدك من غد أن ترسل من يقيم قواعد خرسانية صغيرة حول أرضى وأن تغرس فيها زوايا حديدية بارتفاع ثلاثة أمتار لنمد عليها أسلاكا شائكة لترد عن الأرض شوارد الحيوان.

ابتسم وقال:

ـ حظوظ الاستاذ يصرف آلافا ليحمى أرضه وأنت على حسه تحميها بقرش. والله من حق الاستاذ أن يحملك نصف كلفة السور.

رددت:

ـ تعلم أن الدكتور أخى وأستاذى و« ما بين الخيرين حساب».

ركب عربته وهو يقول لأحمد:

ـ وحساب القواعد وما يتبعها منك أم من الاستاذ؟

رد أحمد:

ـ لا منى ولامنه. من بنت امبابى.

ابتسم وقال:

ـ تجفجفت ينابيع العملية والحمد لله. ياساتر عليها. الواحد لا يجد لقمة خبز من ورائها.. أمر من عزائيل فى حفاف يدها.

● ● ●

جاءنا صبى الكلاب يدعونا للغداء. عدنا لنجد رائحة الملوخية تعبق المكان. دخل أحمد محدثا جلبة يقول:

ـ الله ما هذه المهاره يابنت امبابى!! ما هذه السرعة يابنت امبابى! ملوخية ما هذا

الهنا؟

ردت:

ـ وعلى أرانب.

تساءل:

ـ أرانب؟ والله أنت رائعة. ومن أين الأرانب؟

ـ من هنا.

ـ كفى عن الكذب.. إيه.. أقمت مزرعة سرية؟

ـ نعم وسأمنح أولادك بعض إنتاجها.

وضعت الأرانب المحمرة أمامنا. فقال:

ـ أرانب بجد. غير معقول. والله كانت نفسى تتوق اليها.

قال صبى الكلاب وهو يحمل صفحة طعام إلى رجالنا.

ـ اشترتها منى وظلمتنى فى ثمنها، الأرنب الذى يساوى خمسة جنيهات فرضت على جنيها واحدا ثمنا له. لكن سى بعضه.

قالت له:

ـ احمد ربنا. أليست كلابى هى التى مكنتك منها.

توقف أحمد عن الطعام وقال.

ـ كلابك؟ وما دخل كلابك بالأرانب؟

قلت:

ـ أرانب برية أتت لتأكل من الخضرة فأكلت. هاجمتها الكلاب وأمسك بها الصبى.

علق أحمد:

ـ عال والله.. أرزاق. معنى هذا أنها كثيرة فى المناطق المحيطة بنا وأننا سنأكل أرانب مجانا.

ردت ابنة امبابى:

ـ لا تعول على هذا. مجانا هذه المرة فقط أما بعد ذلك فكلابى هى التى تصطاد فلا بد أن تدفع. الولد المقروض صبى الكلاب لم يعتقنى إلا بعد أن حصل على عشرين جنيها كاملة.

سألها أحمد:

ـ فى كم أرنب.

ـ فى واحد وعشرين.

رد:

ـ وكلها كبيرة بهذا الحجم الذى أمامنا؟

ـ أغلبها.

ـ لقد نهبت الولد. طيب شجعيه وأعطه واحدا وعشرين.

ـ واحد وعشرون عفريتا يركبونه. كلابى هى التى اصطادت وهو يتقاضى راتبه. إنه لا يستحق ولا واحدا وعشرين قرشا.

بعد أن أكلنا أشهى أكلة وعاد صبى الكلاب بالصفحة وقد نسف ما عليها نسفا فى بطون الرجال طلبت اليه أن يرسل لنا ابن عمى الكبير جاء فشرب معنا الشاى وهم بأن يعطى تقريرا عن حالة الزرع.

قلت له:

ـ دعك من هذا. ستكون فى مهمة لأيام تذهب فيها مع الدكتور أحمد لأن جناينى فيلته أهملها وهو مسافر. والدكتور يرجو أن تعيدها إلى روائها الأول.

رد بأنفة:

ـ أنا لا أعمل عند غريب.

رد أحمد:

ـ وهل أنا غريب؟

رد:

ـ لم نقل هذا. لكن العمل فى حدائق البيوت كالخدمة فى البيوت وهو مالا أقبله.

قلت:

ـ لن تعمل. ولكن ستراقب وتوجه.

قال:

ـ بشرط ألا أتقاضى أجراً.

رد أحمد:

ـ ومن قال أنى أستأجرك؟ أنا أرجو أن تساعدنى.

هز رأسه موافقا.

قلت:

ـ إذن استعد ورتب العمل أثناء غيابك بحيث لا يختل، قبل أن يركب أحمد عربته أعطته ابنة امبابى زوجاً من الأرانب لأولاده ثم أمرت صبى الكلاب أن يضع باقى الأرانب فى خزينة عربتنا وشجعت الصبى لاصطياد غيرها، ووعدته بأن تزيده، وعدنا لما وصلنا أقنعتها بأن تدعنى لأعود لعمتى حتى تنفرد هى بأختها وأسرتها لإقناعهم بابن خالة أحمد. وافقت بشرط أن ترانى قبل سفرى إلى الاسكندرية. حملتنى بزوج من الأرانب الكبيرة هدية لعمتى التى فرحت بها فرحة كبيرة وقالت بعد أن فحصتها:

ـ إنها ذكر وانثى وسأربيهما.

• • •

ألقت عمتى وابنتها القبض على ومنعتانى من الخروج فى الصباح، حادثت أحمد هاتفيا وتقابلنا حيث وثق باسمى توكيلا لأتمكن من استلام ما استورد . هممت بتحريض منه أن أتخذ الطريق الصحراوى إلى الاسكندرية إلا أنى وجدت أننا صرنا بعيد الظهر وقدرت أنى لن ينوبنى إلا قضاء ليلتى متوحدا ولن أقضى شيئا فى يومى هذا وفى الوقت نفسه أغضب حبى بلا مبرر. اتجهت للمقهى النيلى الكائن بعد جسر الجيزة تناولت غدائى فى مطعمه وجلست أتأمل أشرعة عرائس النيل الرائحة الغادية. ضجرت من وحدتى إذ يبدو أنى تعودت على وجه ابنة امبابى معى دائما. هممت بأن

أغادره الى مكان آخر لمحت هاتفا قرب الباب وأنا خارج حادثت ابنة امبابى ما إن سمعت صوتى حتى قالت:

ـ قلقت عليك وظننت أنك سافرت دون أن تمر لتغيظنى.

ـ تظلميننى دائما. لا سافرت ولارحت ولا جئت أنا فى مقهى كذا بالجيزة وأفتقد حبى تماما.

ـ وحبك أكثر افتقاداً لك. سأوافيك بمقدار الطريق. عدت إلى جلستى أتلهى بمحاولة قراءة الانطباعات على وجوه من حولى من خلق الله. إلى أن قدمت ابنة امبابى مشرقة الوجه بابتسامة وضيئة. جلست قبالتى وهى تقول:

ـ أوحشتنى ياولد.. أتعرف أنى لم أنم هذه الليلة. وأختى طردتنى من حجرتها فى وجه الفجر لأنى أقلقتها بكثرة حركتى إلى جوارها. ولقد صليت الفجر مع أبى وتلوت معه أوراده. فرح بهذا ودعا لى بخير. تصور أنى بعد دعوته لفتنى السكينة ونمت. خلاص يا ولد ما عدت أطيق البعد عنك. لماذا لا تكلمنى؟ ولماذا أنت عابس؟

ـ وهل تركت لى فرصة لأكلمك؟ قولى لى ماذا فعلت فى موضوع أختك.

ـ أمى وافقت من أول وهلة وفرحت جداً. أما أختى فغلبتنى حتى وافقت وعمك امبابى سب لأمى أو رمتها بدءا من آدم حتى أقرب أب ثم خضع.

ـ ولماذا غلبتك أختك؟

ـ لما أخبرتها. قالت: وعلى ماذا يتزوجنى. على العيلين اللذين يطفشان بلداً؟ أم على مالى الذى لا يعد؟ أم على تعليمى الذى يناظر تعليمه؟ لأ يا أختى لأ.. إنه لا يريد زوجة بل يريد خادمة. وأنا لا أقبل إلا أن أكون زوجة قولى لأحمد طلبه عند غيرى.

ولا أريد تكرار الفشل أو العيش فى تعاسة أو الإحساس بالتضاؤل أمام أسرته. لست ندا له بحال.

فى الحقيقة كلامها كان مقنعاً. أخذت أناورها وأداورها لكنى أحسست بضعف منطقى تماماً فلجأت إلى أمى التى ضغطت عليها ببكائها حتى قبلت فهى رقيقة القلب ولا تطيق رؤية أحد يبكى. لكنها اشترطت ألا يردها عن إكمال تعليمها. وأن تعيش مستقلة وأولادها معها. وقالت سيكون أولادى نقطة اختبار. أخبرتها أنه هو الذى يرحب بأولادها . لم تصدق. وقالت: إن كان الأمر كذلك فلا بأس.

ـ ولماذا سب أبوك كل عزيز لأمك.

ـ ما إن أخبرته حتى تزلزلت أركان حجرته من صوته العالى حتى أمسك كل من فى البيت أنفاسه. ويبدو أن أمى حاصرته بسلطان حبه لها حتى رضخ بعد حوالى ساعة وسمعته يقول لها:

ـ أنا خيبتها مرة. وأنت تخيبينها الثانية. ذنبها فى رقبتك هذه المرة. يا ولية اسمعى كلامى «خذ حمارا واركبه ولا تأخذ مهراً ويوقعك» أمى ردت عليه:

ـ كانت مع الحمار بن الحمار فرفسها و رفسك . دعها يا رجل تجرب بختها مع المهر.

استسلم فى النهاية وقال: أنت حرة فى اولادك تنكسر رقبتهم على رقبتك فما رأيك

أنت؟

–رأيى .. والله أن كل ما قالته أختك وأبوك دار فى رأسى لكن ثقتى فى أسرة أحمد تجعلنى أوافق على إتمام تلك الزيجة . هم أناس لا يتعالون على الخلق وإلا كانوا تعالوا على لوزة التى تقيم عندهم بمرضها وهم بلا شك ناقشوا هذا الامر فيما بينهم ولاشك أن لهم مبرراتهم التى جعلتهم يتجهون هذا الاتجاه .هذه المبررات لانعرفها الآن لكن الزمن سيكشفها لنا وستكون مقنعة . والمثل يقول (ما تخاف منه لا يكون أحسن منه) . وما دامت اختك مدركة لموقفها من رجل المستقبل ستعامله من منطلق جيد وستحاول إسعاده بكل السبل ، والرجل منا تأسره الزوجة المتفانية فى إسعاده. فعلى بركة الله.

– هيا لنخبر أحمد

– ليس الآن .

– لم ؟

ـ التثاقل مفيد فى هذا الأمر لأنه يعطى فرصة لمراجعة النفس . ثم إن الكرامة تقضى ألا نسعى فى مثل هذه المواقف وإنما يسعى إلينا مرة ومرة فاصبرى إلى أن يفاتحنا هو حفاظا على كرامة أختك التى غدت أختى، كرامتها من كرامتى . بعد أن نعود من الإسكندرية يفعل الله ما يريد .

ـ يا رب يخليك لى يا ولد . . أنت وجه السعد على وعلى أختى. نفسى يا ولد أطلع السماء فاحضر لك منها قطعة اقدمها لك فوق قلبى . لكن لم تقل لى . ماذا بلوزة؟

– حالة الاكتئاب التى تعاودها .

– غلبانة و الله . رضيت بالهم ، و الهم غير راض بها . ربنا يشفيها . طبعا أحمد عرضها على أحسن طبيب .

– طبعا . لكن هذا المرض مخادع . و إذا لم يكن لمريضه رغبة قوية فى الشفاء فلن يشفى .

– ربنا يشفيها يا ولد .. أتعرف يا ولد .. انا من فترة راجعت نفسى تجاهها بالنسبة لك والتمست لها عذرا .

– ألم تعودى تكرهينها الآن ؟

– لا ابدا . . غلبانة حطمها الزينى ربنا يحطم رأسه تحت وابور زلط .

– أليس أمامك عريس يناسبها .

– ليس إلا عمك إمبابى . يخلص على البقية الباقية من مخها بجبروته.

– لا . أنا أتكلم بجد .

–كانت مرغوبة قبل الزينى من شباب حينا وكانوا يتصارعون على جمالها ومالها لكن الزينى أشاع عنها شائعات كثيرة هى وعمر ثم هى وأنت . وهذه الشائعات وإن كانت كاذبة إلا أنها تخيف الشباب . هذه لن يتزوجها إلا غريب لا يعرف عن تلك الأقاويل شيئا أو يقع فى حبها إنسان فلا يهمه ما قيل أو ما يقال . وأعتقد انها مدركة لهذا بغريزة الأنثى .

ـ وهل للأنثى غريزة ؟

– طبعا كما أن فيكم غريزة الرجولة التى توجهكم للصراع ففينا غريزة توجهنا نحو الأصلح لنا من الرجال لأن فيكم لنا الأمن والحماية.

– يا بنت العفاريت ؟ أين أنت يا أحمد لتسمع الحكم؟

– أوتظن أنى «عبيطة » ؟ حذار أن يقول لك عقلك هذا . حبك ذكى وإلا ما صرع رجالا فى التجارة . المهم أن غريزة لوزة دلتها عليك دون أن تحس وبينت لها أنك المكن فأرادت أن تنسج شباكها حولك إلا أنى كنت الأصلح والأسرع والأكثر حبا خالصا لك فربحت الصراع منها .

– صدق الله العظيم «إن كيدهن عظيم ».

– حاسب على نفسك منا يا حبى.

– بعدما غرقت لشوشتى فى حبك.

– غرقت فى حبى فقط . لكن لم تغرق فى شئ آخر . فأنا نوع من النساء يحمل الرجل على رأسه ويعوم به لا ذلك النوع الذى يغرق العائم أنت لم تقدم لحبك تحية حتى الآن ؟لم ؟ هل أغضبك حبك؟ آه ... آسف يا حبى .. أصل حبى شغلنى بالف حكاية .

ناديت الخادم ليحضر لنا حلوى ثم سألتها:

– طبعا سنسافر إلى الاسكندرية معا؟

– طبعا . اتركك تبعد ثانية عنى لا أنام لا يا عم يفتح الله . رجلى على رجلك منذ الفجر. أيقظنا عم امبابى لنصلى الفجر معه بعد أن ختم صلاته جلست معه اشرب شاى الصباح الذى احضرته لنا ابنته. سألنى :

– ما رأيك فى موضوع ابن خالة أحمد ؟

– الرأى لك يا عمى .

– لقد غدوت لى ابنا ، وابنا عاقلا يهمنى أن أسمع وجهة نظره .

– لعلنا لو حكمنا معنا رأى رسولنا عليه السلام لارتحنا . لقد وضع للأباء مبدءا عاما فى مثل هذه المواضع حين قال«إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه . إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

– يكفينى يا ولدى ، أرحتنى أراح الله قلبك . وعلى بركة الله يكون . أبلغه يا ولدى أننا نرحب به . تصور يا ولدى اننى لم يغمض لى جفن من ساعة أن ضغطت على حماتك أما الان فسأنلو اورادى وانام قرير العين . يا سلام صحيح ما ينطق عن الهوى .تصور يا ولدى أن زوجها الأول ما كنت راضيا عن هذين الأمرين فيه إذ كنت أعلم أنه يغالط أباه فى تحصيل إيجار عرباتهم وعللت لهذا بأن مال ابيه ماله وكنت ألحظ انه لا يركعها ولايصوم وعللت لهذا بأنه طيش الشباب . فكان ما كان من فشل . أما ذلك الدكتور فقد لاحظت أن وقتا لم يفته، وهو معنا وان طرفه لم يرتفع بقحة فيها او فى اختها او فى ابنة عمتك مما يدل على امانته.

– قلت فى نفسى: «اما هذه فلم تأخذ بالك منها يا عم امبابى جيدا لأن خطوط عينيه كانت متلاقية مع ابنتك « المطلقة دائما».

عاد عمي امبابى لاولاده وحين ابصرنى خارجا مع ابنته قطع أوراده ودعا لنا بخير

وطلب إلينا ان نتعقل فى القيادة وقال إنه سيحادث احمد ليمر عليه فيصحب معه الحارسين الجديدين فقد اتفق معهما .

ما إن احتوتنى العربة حتى سألتنى ابنته بماذا سحرت أبى .

– أبدا . ذكرنى الله بحديث نبوى فقلته له فانشرح صدره كما رأيت .

سألتنى عن هذا الحديث فتلوته لها فأخذت تردده لتحفظه ثم استراحت بجوارى بعد أن أطلقت عنان الموسيقى حتى ظننتها نامت . لم أشأ ان أوجه لها حديثا يوقظها إذ كنت أعلم أنها لم تنم ليلتها السابقة كما اخبرتنى . ومن يدرى ربما شغلها موضوع أختها فلم تنم هذه الليلة ايضا . كانت الشمس قد ارتفعت قدر قامة ونحن على مشارف الاسكندرية فقلت لها:

ـ اصح يا حبى ..... الم تنم هذه الليلة ايضا ؟

– بل نمت بعمق .

– إذن لماذا كل هذا الوخم ؟

ـ ليس وخما وانما هو سلام نفس لفنى به حديث الرسول طمأننى تماما إلى حياتى معك مستقبلا .

ـ احمدى الله إذن .

ـ له ألف حمد وشكر .

– قولى لى من أين نبدأ فما زال الوقت مبكرا ولن يكون ابن خالى فى مكتبه الآن.

– إلى فندقنا المفضل لنحجز غرفتين ونغتسل ونفطر وبعدها يدبرها الكريم .

اتجهت نحو الفندق وظللنا به الى ان وقر فى نفسى أنه حان حين العمل فاتجهنا إلى مكتب ابن خالى ولما لم نجده سألنا زملاءه فاخبرونا انه بإجازة من أيام وما زالت ممتدة لأيام أخر . سألنا عنه هاتفيا بالمنزل فلم يرد علينا أحد، غلب على ظنى انه باولاده فى القرية كما تعود فى اجازاته .

قالت ابنة امبابى لم نحير انفسنا . هيا بنا إلى شيخ المهربين فمن أنشطة مكتبه التخليص لقينا الرجل بحفاوة ما بعدها حفاوة وعاتبنا لاننا عجلنا انفسنا فى رفع ثمن السيور المبهظ لنا . وسألنا ان كنا نريد كمية أخرى فقالت ابنة امبابى : لا مانع فقال أيام وتكون عندكم وأخذ يعرض علينا ما عنده من بضاعة حاضرة ويغرينا بها.. مائة «بالة » من البضاعة المستعملة وارد امريكا البالة بمائة جنيه يا بلاش . مائة الف متر من مواسير مياه المنازل وارد الصين الشعبية بخمسين قرشا ومن اجل خاطركم باربعين والنقل على حسابى يا بلاش يا بلاش . ثلاثون طنا من اصواف البلوفرات والثمن لا ينافس والدفع على كيفكم و... و....

قاطعته قائلا :

ـ نتحدث أولا فيما جئنا لأجله وبعدها تفرج.

ـ وأنا تحت أمركما .

قدمت له أوراق الاستيراد وأنا اقول . نريد تخليص هذه المعدات .

نظر فى الاوراق ونادى فى جهاز إنذار امامه على أحد موظفيه واعطاه الاوراق.

وقال له:
ـ سل أحد رجالنا في الميناء ان كانت هذه الشحنة نزلت من سفينتها وعلى أى رصيف؟.
ما هى إلا دقائق حتى عاد موظف ليخبره أنها نزلت وجاهرة للتخليص.
ـ نظر الينا شيخ المهربين وقال:
ـ أخلص أم أهرب أنا تحت أمركما.
ـ بل تخلص.
ـ لكن رسوم جماركها كثيرة أوفرها عليكما نظير ربعها فقط والليلة تكون المعدات فى أى مكان تحددانه.
ـ إنها معدات مصانع وهذه المصانع سترخص ولانريد أن نتعرض لمشكلات عند الترخيص.
ـ ومن أين تأتى المشكلات كل أوراقكم ستكون سليمة مائة فى المائة.
ـ يفتح الله ياعم.. لسنا حمل مغامرة قد تأخذ الجمل بما حمل.
ـ يظهر أنكم خوافون أو حنابلة حبتين. تعالوا تفرجوا على الحيتان الذين لم يكن الواحد منهم يملك قرشا وتحولوا الى أصحاب ملايين من مثل هذه الأشياء. فلان وعلان وتركان وبربان. وعدد أسماء مشهورة من دراويش الاشتراكية الذين يسبحون بجدواها ليل نهار.
ـ غير معقول.
ـ وماذا قل عقله؟
ـ لأنهم يتحدثون صباح مساء عن الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العاملة.
ـ ياولدى. صلى على الذى يشفع فيك.. أو صدقت. يابنى كل هذا ضحك على الذقون أنا كنت مثلك هكذا. أتعرف هذا المكتب يعمل فى حماية من؟ أم على ماذا؟ خل الطريق مستورا وقل ياباسط. ياولدى ابحث عن مصلحتك فكل من يسبحون بحمد الاشتراكية هم الذين يقطعون عنقها.
ـ دعنا فى السليم وخلص.
ـ أخذ للمكتب اثنين ونصف فى المائة.
ردت ابنة أمبابى:
ـ ومن أجل خاطرنا . ألم نعد زبائن ولو على الطائر. وعلى قد حالنا.
ـ خل عنك خالص. يبقى واحد بالمائة.
هززت رأسى موافقا. فأردف:
ـ أمعكم الرسوم. أم ندفع ثم ترسلون عندما تأتيكم نقود.
ـ بل معنا.
ـ إذن تفضل ادفع فى الخزينة وخذ مستندا بالمبلغ.
ـ يارجل. أى مستند .. عيب. لقد أستأمنتنا على ثمن السيور الا نتسأمنك على غيرها عيب يامعلم. هاك النقود. كم تريد؟

أجرى بعض الحسابات. وقال:
ـ إنها أربعون ألفا. لكن سأخدمكم بطريقتى. وأخفضها لكم إلى النصف شاملة حق المكتب وأجر النقل حتى القاهرة.
ـ بل الى الموقع مباشرة.
ـ المهم الا تتجاوز نطاق القاهرة الى الصعيد والا زاد أجر النقل.
ـ ومتى يكون ذلك؟
ـ أنا رجل عملى. ساعتان أو ثلاثة على الأكثر تكون معداتكم خارج الميناء، واذا شئتم ان تصحبوا العربات الى حيث تريدون فبها ونعمت والا فاتركوا العنوان.
ـ بل نصحبها.
ـ يكون ذلك أفضل خشية ان تضل الطريق ثم نظر إلى ابنة امبابى وقال:
ـ وما رأيك فيما عرضت عليك من بضاعة يا أجدع معلمة صغيرة؟
ـ كما ترى.. نحن مقدمون على انشاء مصنع وربما يتأخر عليك ثمنها فتتغير نفسك منا. وأنا أحب ان تظل سمعتى طيبة فى السوق.
ـ يا ابنتى ومن قال انى اريد ثمنها على وجه السرعة أو اريد ان اعجلك فى بعضها لتسددى لى ثمنها فلا تربحين؟ يامعلمة ياصغيرة خذى براحك تماما فى الوقت. أنا رجل عملى وعركت الدنيا ومادامت النقود فى الحفظ والصون تأتى وقتما تأتى.
ـ إذن نتحدث فى الثمن.
ـ خذى راحتك.
ـ كمية السيور القادمة وهذه نحن منتهون منها، تبقى المواسير والملابس المستعملة.
ـ والصوف؟
ـ الصوف .. سأرد عليك فى مدى أسبوع لكن أنت فى حل حتى أرد عليك إن جاءتك فرصة خلال هذا الاسبوع فتصرف ولاتنتظر.
ـ مايعجبنى فيك. أنك صغيرة لكنك عملية. والمواسير والملابس؟
ـ ألا ترى أن هذا الثمن الذى تطلبه مبالغ فيه؟
ـ ابدا والله على الطلاق بالثلاث من زوجاتى الثلاثة أنى جئت معك متقاربا من أول وهله.
ـ لا المواسير يكفى فيها ربع جنيه للمتر ونقلها عليك.
ما ان سمع هذا حتى انشال وانحط عشر مرات وأرغى وأزبد وأقسم بكل مقدسات البشر أنها تكون هكذا ولا المسروقة ولا الخردة ولا .. ولا.. ولا.. تركته يفرغ شحنته حتى هدأ . وقالت:
ـ على كيفك بين البائع والمشترى.. يفتح الله. أنت حر فى بضاعتك، أما أنا فلا أغامر بكمية كبيرة كهذه تريد التسامح فى الثمن نوعا حتى توزع وأخذها غالية. إيه يامعلم سأبيعها جملة أنا ايضا فلا بد أن تكون مرتاحة فى ثمنها.
ـ سى بعضه عوضنا على الله. والله لولا أنى أريد ان افرغ مخازنى مابعتها بهذا السعر.

ـ وأما الملابس المستعملة فهى أيضا لها مشاكلها. أتعرف يامعلم أنها تباع بخنك رزقك. إما ان تصعد بمشتريها إلى السماء أو يجد فيها كومة من الخلق التى لاتصلح ولاحتى لمسح الأحذية. لذا لابد أن يكون ثمنها متهاودا.

ـ أكثر من هذا؟ غير معقول والله.. قولى يا ابنتى أين تعلمت؟ إنك تقولين كلاما لايقوله إلا المدربون من الرجال. كم تدفعين لنخلص؟

ـ نصف ما عرضت أنت.

ـ لا .. دعك منها.

ـ براحتك.. نحن أخذنا المواسير والسيور.

ثم نظرت الى وأردفت:

ـ أعط المعلم عشرة آلاف تحت الحساب.

حلف بأغلظ الأيمان ألا يأخذ شيئا الآن. إلا أنها أصرت فقبل وهم بأن يعطينا ايصالا بالمبلغ فرفضت. هممنا بالانصراف فسألنا:

ـ اين ستكونان حتى إذا ماجهزت العربات بالمعدات والمواسير اتصلت بكما.

قالت:

ـ سنقوم بجولة ثم نعسكر فى الفندق. وتركت له رقم تليفونه.

ما ان احتوتنا العربة حتى مالت فاختطفت منى قبلة. رآنا أحد المارة فسمعناه يقول:

ـ يابختك ياعم.

قلت لها:

ـ ما هذا الجنون. فى الطريق؟

ـ لأن وجهك حلو على ياحبى ماخرجت معى الا رزقنا الله برزق واسع. هل تعرف لماذا أصررت على اعطائه الآلاف العشرة؟

ـ لماذا؟ طعما للملابس. أنا واثق أنها ستكون محملة هى الأخرى مع باقى ما اشترينا.

ـ لا أظن.

ـ أتراهننى.

ـ أراهنك.

ـ على ماذا؟

ـ عشر قبلات لعشر قبلات.

ـ وتكون أنت الفائز على كل حال. كف عن المكر.

ـ أنت حرة .. على كيفك .. إلى أين نتجه؟

ـ إلى الفندق لنرتاح لأننا سنقضى اليوم فى سفر.

لما وصلنا الفندق حاولنا الاتصال بالمقاول ليرسل آلة رافعة تنتظرنا بالأرض لتساعدنا فى نزول المعدات إلا أننا فشلنا تماما بالرد التقليدى: الخط عطلان. ظللنا بالفندق ننعم بهوائه المكيف حتى حوالى الثالثة حين نادانا أحد العمال لنرد على الهاتف وجدنا شيخ المهربين. قال انه جاهز والعربات محملة فى انتظارنا بمكان حدده على الطريق خارج

المدينة وطلب أن نوافيه على المكتب ليسلمنا مستخلصات الجمارك ومستنداتنا. سرعان ما وصلنا إليه، سلمنا أوراقنا راجعناها معا، كانت سليمة. ثم طلب أحد موظفيه وأمره ان يأتى ببطاقة تعاملنا. دهشنا وانتظرنا لنرى . قدم لنا موظفه بطاقة مقواة. مرصود فى أعلاها اسم المكتب وصاحبه وعنوانه وعلى أول سطر فيها اسم ابنة امبابى واسمى والعنوان.. وبعدها انقسمت البطاقة الى قسمين. أولهما معنون بمنه والثانى بله وتحت العنوان الأول ذكر مبلغ عشرة آلاف التى دفعناها. وتحت العنوان الثانى بيان بالبضاعة كميتها ونوعها وتاريخ تسلمنا لها. وجدنا «بالات الملابس» نظرنا لبعض أنا وابنة امبابى وابتسمنا، لاحظ ابتسامتنا فقال:

ـ سى بعضه. أنا قلت ياولدى لاتحزن زبائنك على حاصل فاض.. وهذه البطاقة ستكون معكم نسخة منها. توقعون على مايرد اليكم سواء أكنتم هنا أو هناك. ويوقع من يتسلم منكم ثمنا سواء أكنت أنا أو مندوبا من قبلى فى الجهة الأخرى.. واذا أرسلتم عن طريق الايداع فى البنك ترصدون رقم وتاريخ مستند الايداع واسم البنك، نظام جديد وضعته لعملائى الذين آمل أن يستمر تعاملهم معى. وأمسك بالبطاقتين فوقع فيهما أمام خانة ما وصله. وقدمها لى فوقعت وناولنى واحدة. وهو يقول:

ـ بداية خير ان شاء الله.

صحبنا حتى العربات. راجعنا عدد الطرود المستوردة وجدناها مطابقة لما جاء فى مستندات الشحن.

وقال:

ـ أما عن بضاعتى فلن يمكنكم مراجعتها هنا لذا سأرسل معكم مندوبا لتسليمكم هناك. وهو أستاذ متعلم مثلكم وليس جاهلا مثلى فأكرموه اذا سمحتم.

ـ الليل يقترب والعربات المحملة سرعتها بطيئة . ومادام معها مندوب. فسنسبقها الى المدينة القريبة من المصنع لنحضر الآلة الرافعة التى سننزل بها الطرود.

ـ معقول. وأين ستنتظرونها؟

ـ أمام هذا العنوان. واعطيته عنوان المقاول ورقم هاتفه نادى مندوبه وأفهمه وودعناه وانطلقنا حتى لايلحق بنا آخر ضوء.

تولت ابنة امبابى القيادة بجنونها فى السرعة وأطلقنا العنان للموسيقى حتى غطت على أصواتنا فكان حوارنا حوار الصم وكلانا سعيد بما يسره الله لنا فى يومنا فما كنا نتوقع أبدا ان تتيسر أمورنا هكذا وحتى أحمد كان يتوقع أسبوعا على الأقل كى نستخلص. بعد حوالى ساعة ضجرت من صوت الموسيقى العالى. فأغلقت المسجل.

سألتنى ابنة امبابى:

ـ لم؟

ـ ضايقنى علو الصوت.

لزمنا الصمت لدقائق. ثم قطعتها ابنة امبابى قائلة:

ـ أتعرف .. أنا خائفة من بقية الملابس جدا.

ـ أحرجت من الرجل الذى أكرمنا كثيرا، وألوم نفسى الأن على هذا الحرج، فالسوق

سوق. اسمع سنقف إلى أن تلحق بنا العربات. وأرد عربة الملابس عليه.
– ياشيخة عيب حتى لو دفعنا ثمنها من جيوبنا لايصح أن نأتى فعلة العيال هذه. الرجل يعاملنا باحترام زائد وباهتمام كبير، وهذه الفعلة تسقطنا فى نظره ولايثق بنا مستقبلا. ولقد ربحنا كثيرا من السيور وسنربح بأمر الله من المواسير نصف البوصة التى اشتريناها اليوم فلو خسرنا فى الملابس لن تكون نهاية المطاف لنا، عيب.
– أهذا رأيك؟
– وأتمسك به.
– إذن على بركة الله. ومن يدرى أين الخير.
– مايخيفنى هو كم المواسير.
– أنا لا أخاف منه. عشرة من المقاولين أو حتى تاجر واحد يستوعبه وسترى أنى سأبيع منها الليلة للمقاول.
– على الله.
واصلنا سيرنا دون توقف نتحدث أنا عن اختها وطورا عن أحمد وثالثة عن شيخ المهربين ورابعة فى هذا الوادى وخامسة فى ذاك حتى وصلنا أمام مكتب المقاول ومؤشر الوقود يعطى ضوءا أحمر .. نزلت وهى تقول للعربة:
– كثر خيرك ياعربتى ياحلوة. عملت ماعليك.
صعدنا الى مكتب المقاول، كان موجودا. فوجئ بنا. وقال:
– بسم الله الرحمن الرحيم . أأنتما من أهل الحظوة! الدكتور أحمد كان معى من ساعة وأخبرنى أنكما بالاسكندرية لاستخلاص المعدات. قلت له: افتكرهم بعد أسبوع. إيه .. أسقط فى أيديكم من التعقيد والروتين. ورضيتم من الغنيمة بالإياب مع أول خطوة.
ردت ابنة امبابى:
– شئ مثل هذا.
– والله لا أدرى متى ينصلح حال بلدنا.
قلت:
– إذا لم يوجد ذوو مصلحة فى فساده.
– أصبت عين الحقيقة والله هناك من يربح من وراء هذا الفساد. أتقول لى وأنا أعانى منه كل يوم حتى كرهت كل الأشغال الحكومية، لكن ما باليد حيلة، مع من نعمل وكل الأعمال فى قاف عين. والعين مفتوحة بلا خجل ولاذمة ولادين من أكبر رأس فى قاف عين حتى أصغر قاع كلهم هات .. هات، لما ربوا لنا «الهيتهات».
ردت ابنة امبابى:
– دعك من المقاولات وتعال فاشتر بجوارنا أرضا استصلحها وازرعها.
– فعلت هذا من قبل فى منطقة أخرى ودفعت الثمن جملة، كما فعلتم وطلبت أن أسجل فزحلقنى الموظفون سنينا، ولمشاغلى الكثيرة لم أتابع موضوع التسجيل إلى أن كبرت أشجار الحديقة التى زرعتها بالأرض وبشرت بالثمر، واذا بى أفاجأ بهم يطردون

عمالى منها ويعطونها بما حملت من جهد وشجر وثمر الى أحد الاشتراكيين العظام، ويقولون لى . لقد اغتصبت ارض غيرك وبدلا أن كنت شاكيا أصبحت متهما بقدرة منقذينا من ظلم البشوات والبكوات. ولما أصررت على أخذ حقى برغم ماتعرضت له من إهانة ووصلت بالأمر إلى القضاء جاءنى من يهددنى باغلاق كل أعمال القاف عين أمامى. وقال لى بعين وجبائر قدر انها هدية قدمتها لتظل أعمالك مستمرة بدلا من وضعك تحت الحراسة والقائك وراء الشمس. فقلت عوضى عليك يارب، وكرهت الأرض واستصلاح الأرض. لذا أنا سعيد بما عملته الهانم وأشار الى ابنة امبابى - من أنها لم تنفق قرشا الا بعد ان سجلت الأرض لكم وللدكتور.

قلت:

ـ عوضك على الله.

رد: ما أحسن عوضه. الحمد لله عوض بكثير لكن الظلم قذر ويجرح ويحبط وخصوصا اذا كان ممن تتوقع منهم العدل. نهايته. وأية عقبات صادفتكم؟

ردت ابنة امبابى:

ـ إننا نريد الآلة الرافعة.

رد مندهشا:

ـ الجمرك بجلالة قدره ليس عنده آلة رافعة.

قلت:

ـ تصور.

ـ لا.. لا.. لاتعبثا معى.. ما الأمر؟

قلت:

ـ والله نريد الآلة الرافعة.

ـ يا أستاذ عيب.. أنت ستجننى.

قالت ابنة امبابى:

ـ والله ثلاثا نريدها. لكن فى الأرض وليس فى الجمرك.

ـ لم؟ أبعتم بعض المعدات التى عندكم وتبغون تحميلها؟

قلت:

ـ لا، وانما استقدمنا معدات ونريد تحطيطها.

قال:

ـ إية ؟ أمزاد جديد قابلكم فى الطريق؟

ردت ابنة امبابى:

ـ بل المعدات التى استوردها أحمد.

ـ لاتسرحا بى. أكنتما جن سليمان. تستخلصان المعدات صباحا وتعودان مساء.

قلت:

ـ لسنا جن سليمان وانما سخرنا من يشبه جن سليمان.

ـ لا أصدق. ولاحتى جن سليمان يفعل هذا، الا اذا كنتما من الواصلين.

قالت ابنة امبابى:

ـ مادمت لاتصدق. انتظر معنا وأنت ترى. ساعتان على الأكثر فرق السرعة بيننا وبين عربات النقل.

ـ والله لن انتقل حتى أرى واذا لم تحضر المعدات فى مدى ثلاث ساعات . يكون عليكما عشائى.

ـ بل أنت الذى ستعشينا لأننا واثقان.

ـ ياخبر بفلوس. ضمنا عشاء.

ونادى أحد سعاته. وأمره أن يحضر كبابا لثلاثتنا ولايدفع ثمنه حتى يأمره فقط يبلغ محل الكباب أنه للمقاول. وحتى يجهز المحل الكباب عليه ان يذهب إلى سائق الآلة الرافعة فى منزله أو على المقهى ويرسله.

أخذ يحدثنا عما انجزه حول أرض أحمد وما فعله بالسبيل واتسعت رقعة الحديث بيننا فى مذاهب شتى، حتى جاء ساعيه بالكباب وأخبره ان السائق بالخارج، فطلب اليه ان يدخله. ولما دخل طلب اليه ان يستعد بمعدته لصحبتنا الى الأرض وأمره ان يحضرها أمام المكتب وأن ينتظرنا معها.

تناولنا عشاءنا وامتد بنا حبل الحديث إلى أن جاء ساع يقول لنا هناك من يسأل عنكما.

أمرته بإدخاله. كان المندوب المرافق للمعدات والبضاعة.

بادرته بقولى:

ـ الحمد لله على السلامة. أوصلت كل الشاحنات.

ـ نعم وأنا فى انتظاركما لنواصل طريقنا لأن العربات كثيرة وضخمة وقد أربكت الطريق أسفل المكتب.

فهز المقاول فمه دهشة وابتسمت ابنة امبابى وقالت:

ـ ادفع ثمن الكباب يامعلم.

ـ لن أدفع حتى أرى بعينى.

ـ تعال لترى، وعندى لك مفاجأة أخرى.

نزلنا نحن الثلاثة. والمقاول يتمتم:

ـ غير معقول ويكررها. صحبته ابنة امبابى حتى العربتين المحملتين بالمواسير وقالت:

ـ ما رأيك ، أتشترى؟

ـ بكم؟

ضربت ثمن الشراء فى ثلاثة . وطلبته نقدا. فقال:

ـ نصعد إلى المكتب لنتفاهم.

اتجهنا عائدين إلى المكتب، قابلنا المندوب ليعجلنا. فقال له المقاول:

ـ أنتم ضيوفى ولن تبرحوا حتى يتناول السائقون وأتباعهم العشاء ويرتاحوا قليلا.

والتفت إلى ساع كان يتبعه آمرا:

ـ ضع حراسة على العربات. واذهب بالسائقين الى المطعم وقل لصاحبه إنهم

ضيوفي.
واسقهم الشاى بعد العشاء ثم عد وأخبرنى لما يفرغوا.
صعدنا إلى المكتب ولما جلسنا قالت له ابنة امبابى مداعبة:
ـ ما هذا الكرم؟
ـ ماذا أصنع لك.. غراماتك كثيرة هذه الليلة ولاتريدين إكرامى فى بيعة المواسير. راحا يتماكسان حتى انتهيا إلى ضعف ثمن الشراء وقدم لها شيكا بالمبلغ لأنها أصرت على أن يكون الثمن نقدا وأوهمته أنها تهاونت معه فى الثمن لأنها فى حاجة الى نقود.
جاء الساعى ليبلغ بقضاء الواجب الذى أمر به المقاول نحو السائقين، ونزلنا فطلبت من المندوب أن يسلم المواسير الى المقاول. ويعود هو بالعربتين ومنحته هبة دسها فى جيبه ممتنا. وسحبته من يده بعيدا عن المقاول وقالت له:
ـ التجارة أسرار. ولا أريد ان يعرف أحد مصادرى. أمفهوم، وإن بلغنى أنك عرفت المقاول أو سواه بمصادرى فسأبلغ المعلم.
ـ اطمئنى ياهانم فلست غرا ثم إنى لست كفء المعلم حتى أخطئ هذه الخطيئة عن عمد.
ودعناه هو والمقاول وقدنا ببطء نتقدم باقى العربات حتى الأرض. وكانت الكلاب أول من لقينا متراقصة حول عربتنا. ثم تلاها أحد الحارسين الجديدين عرف ابنة امبابى فرحب بها ثم بى. طلبت إليه أن تظل الحراسة حسبما هى موزعة وأن يرسل لى أبناء عمومتى والسائقين ليساعدونا. وكان رأينا قد استقر على أن ننزل المعدات كلها فى مقر ورشة أحمد لأنها على الطريق مباشرة ولأننا لانعرف مايخصنا ويخصه ثم نتصرف مستقبلا بنقل مايخصنا إلى المصنع. وأن ننزل الملابس داخل مصنعنا.
جاء أبناء عمومتى فرحبوا وساعدوا فانتهينا من تحطيط الاحمال فى ثلاث ساعات. عرضت على السائقين الضيوف أن يقضوا بقية ليلهم معنا. رفضوا وقالوا إنهم يفضلون السفر ليلا، منحتهم هبات أرضتهم من أول وهلة وسافروا عائدين.

● ● ●

كثفت الحراسة على ورشة أحمد بعد أن أحكمت إغلاق بابها الضخم. ودخلت فصليت العشاء والفجر ولم أدر بنفسى الا على يد تهزنى قرب الظهر وصوت أحمد يقول:
ـ إيه .. اصح .. أنت نائم فى بئر؟!
ـ أهلا يا أحمد.
ـ الحمد لله على السلامة. المقاول .. أخبرنى بصفقته مع بنت امبابى وهو يرقص ويقول: لأول مرة يتمكن من الضحك عليها.
ـ بارك الله له.
ـ بنت امبابى نائمة هى الأخرى فى بئر. لم يوقظها دقى المتتالى على نافذتها.
ـ لأننا تعبنا أمس قضينا أربعا وعشرين ساعة مسافرين ويقظين ومستوفزين.
ـ لكن جدعان والله، ماكنت أتوقع عودتكما قبل أسبوع.
ـ ربك هو الميسر.

ـ ونعم بالله.
ـ قم فصل الصبح قضاء واحك لى.
ـ صليته حاضراً قبل أن أنام. مايهمنى الآن كوب من الشاى أكمل به استيقاظى.
ـ بنت امبابى نائمة. وكل التموين فى استراحتها.
ـ اطلبه من الحراس.
ـ خذ حماما ينشطك الى أن أعود أنا بالشاى.
قمت متثاقلا فانعشنى الماء البارد وأيقظنى كوب الشاى وأخذت أقص على أحمد ماحدث وتوفيق الله لنا حتى عودتنا.
علق أحمد قائلا:
ـ كل شئ تمام إلا حكاية الملابس هذه . مالنا نحن ومال الملابس المستعملة. مصيبة والله. بنت امبابى هذه مجنونة وستجننى معها. ربنا يرزقها بالفئران تقضى عليها حتى تحرم.
ـ يارجل .. ياأحمد حرام ياشيخ .. عدة ألوف من الجنيهات خسارة . وفى الواقع انها ارادت ردها من الطريق. إلا أنى وجدت أن هذا التصرف سيكون صغارا فرفضت.
ـ ياأخى . ولاصغار ولا غيره. مالنا نحن ولهذا الهم.
ـ ماشاء الله كان.
ـ ونعم بالله..
ـ تعال لأراجع أنا الطرود المستوردة.
قمنا إلى ورشته. طلبت من حارسنا الأول تجهيز طعام لنا لأن ابنة امبابى متعبة ونائمة.
راجع أحمد الطرود وحمد الله أن وصلت سليمة وتامة وسألنى عما دفعنا من رسوم. دهش دهشة بالغة لما أخبرته بالمبلغ وكان لايريد ان يصدق حتى اطلع على الإيصالات، وعلق قائلا:
ـ هذا المستخلص لقيه وهدية من الله لنا.
ـ تصور أنهم يلقبونه بشيخ المهربين.
ـ وظيفة جديدة هذه أم ماذا؟
ـ مهما يكن من أمره إلا أن به مرونة وتخليصا كما رأيت وهو شئ مفيد. فى اعتقادى أنه يخلط «عملا صالحا وآخر سيئا».
ـ والله يا أخى خير ممن لايعمل الا السوء ويصر عليه.
عدنا الى مكمن حارسنا الأول فقال: الطعام جاهز. ناديت على صبى الكلاب وأمرته أن يحاول ايقاظ ابنة امبابى. عاد بعد قليل ليخبرنا أن يده كلت دون فائدة. طلبت الطعام وجلست وأحمد نأكل قرب نهايته. دخلت علينا ابنة امبابى وسنانة تقول:
ـ يابخيل منك له.. تأكلان دونى .. إيه «والنعسان خبئوا وجهه» طيب إن ما طلعته عليكما جوعا. ثم اتجهت إلى الحارس وأردفت:

ـ وأنت ياحارس الغجر تتآمر معهما على. طيب إن أحضرت لك حلوى أو فاكهة ثانية. كلكم تآمرتم على .. طيب إن ما أريتكم كلكم.

وجلست تأكل هى الأخرى بعد ان وضع الحارس طعاما أمامها وبين لقمة وأخرى تتهددنا قائلة:

ـ طيب إن ما أريتكم.

حاولنا إفهامها أننا كنا حاولنا إيقاظها دون فائدة وأقسم لها صبى الكلاب أن يده كلت من الدق فقالت له: وحتى أنت تآمرت على سآمر كلابى ألا تفيدك بصيد ثانية. طيب والله لأرينكم كلكم.

استيقظت تماما بعد أن شربنا الشاى. وقالت لصبى الكلاب:

ـ ماحصيلة صيدك؟

رد عليها الحارس الأول: كثير، ربما مائة. يبدو أن هذه الأرانب موجودة بالمنطقة بشكل وبائى وأولاد عم خطيبك يقولون لابد من التصرف معها لأنها لولا الكلاب لأتلفت النبت.

رد أحمد:

ـ تكون كارثة لو كانت بشكل وبائى فى المنطقة وعلى كل سنرقب ونرى وسأحضر مجموعة من كلاب الصيد من عند زوج شقيقتى الذى زرتم أرضه لتساعد كلابنا فى المطاردة.

وأمر الصبى أن يذهب حتى المكان الذى حبس فيه الصيد ليعدها. عاد بعد قليل ليقول:

ـ مائة واثنان فى ليلتين.

ومد يده الى ابنة امبابى وقال: هات مائة جنيه واثنين. وإلا حملتها فورا إلى أقرب تاجر فبعتها بأضعاف هذا المبلغ.

ضربت كفه الممدودة بيدها وقالت:

ـ منشار .. يهددنى .. جاءك البلاوى. طيب اصبر إلى أن أستيقظ كل الناس هات .. هات.. هات.. ما من أحد يقول: خذى.

رد أحمد:

ـ حتى تعرفى أن الناس تستخيبك. وآخر من استخيبك المقاول.. يرقص طربا ويقول: لقد ضحكت على ذقن بنت امبابى فى بيعة كبيرة.

قالت:

ـ أقال هذا؟ طيب إن ما أريته هو أيضا. الحق على أنا التى تسرعت فى البيع.

قمنا إلى استراحتنا لنرتب أعمالنا القادمة. طلبت ابنة امبابى أن أقدم لأحمد كشفا بالمصروفات.

رد أحمد عليها:

ـ دعك من الكشوف الآن. لن نتحاسب إلا يوم أن نبدأ الإنتاج. كل ما أرجوه أن تحتملونى إذا كان حسابى مدينا لأنكما أدرى الناس بحالى وماكنت فيه.

ردت ابنة امبابى:

– عيوننا لك يا أحمد .. أنت أخونا .. لاتقل هذا.. الملآن فينا تحت أمر الفارغ. الدنيا بخير يا أحمد .. حذار أن تكون مصدقا لحكاية البخل هذه.

رد أحمد:

– ذلك عشمى يا أختى ووالله ما أعتز بأحد كاعتزازى بكما. أما حكاية البخل هذه فأنا أصدقها بالثلث والرقعة والنسخ.

ردت عليه متوعدة:

– طيب يا أحمد.

اتجهت نحوه تكز على أسنانها فطار من أمامها إلى الخارج وهو يبتسم وقال:

– مالى أنا حتى تعملى أسنانك فى لحمى. أبوك هو الذى يؤكدها.

ظلت تهدده لدقائق ولما رجوتها أن تعفو عنه قبلت فعاد أحمد متحسبا وقال:

– نعود لما كنا بصدده . تعود أنت إلى مراقبة الأرض ومشكلاتها وأول مشكلة ستصادفك هى الأرانب البرية .. إن حلتها كلابنا وكلاب الصيد التى سأستقدمها مع مدربها من غد نكون قد حولناها إلى مصدر ربح وإلا سنضطر لإبادتها وعلى كل سأبحث هذا الأمر مع بعض أساتذة الجامعة ونعمل بمشورتهم.

ثم التفت إلى ابنة امبابى وأردف:

– وأنت يابنة امبابى لقد أهملت موضوعين فى غاية الأهمية نبهتك لهما مرارا هما الهاتف هنا فى الأرض والكهرباء يجب أن تهتمى بالكهرباء وإلا سنكون كمن رقصت على السلم. أدخليها فى المصنع والورشة مهما تكلفت وعلى وجه السرعة. ثم افرغى لتجارتك وللمقلب الذى سقيته لنفسك فى بيعة الملابس المستعملة، وما تشائين من مقالب أخرى أنا مصر على رأيى الذى سبق أن أبديته وهو أنه لن ترجعى عن اندفاعك الأهوج فى التجارة إلا إذا انكسرت رقبتك، مالك أنت ومال الملابس المستعملة والمواسير التى يضحك عليك فيها المقاول ويأخذها منك بثمن بخس. طبعا اندفعت فى بيعها بالخسارة للتخلص من عبئها

ردت:

– سى بعضه يا أحمد لقد خدمنا كثيرا وماذا لو ملنا له فى بيعة.

– لاشئ.. لكن أرجو الا تكونى قد خسرت لأن المقاول لم يكن ينقصه الا أن يتحزم ويرقص وسط الطريق.

قلت:

– لم نخسر بل ربحنا فاطمئن.

رد أحمد:

– الحمد لله . وأرجو ان يوفقك الله يابنت امبابى وتربحى فى الملابس أيضا.انا لا أعرف من أمرها شيئا. لكنى واثق من أن ذكاءك الفطرى وخبرتك بالسوق سيدلانك على الطريق فلا تتعجلى بيعها قبل ان تعيدى النظر فى أمرها عشر مرات وتستشيرى أهل الذكر من تجارها.

قالت:

ـ سيكون بأمر الله.

وأردف أحمد:

ـ أما أنا فلا يكلفنى أحد بشئ حتى أنتهى من تركيب معدات المصنع والورشة.

ثم سكت وقال.

ـ آه .. نسيت.. يجب ان تبدأى من غد ايضا فى إجراءات ترخيص المصنع والورشة يابنت عمي امبابى والتوكيل الذى معك منى يجعلك لاتحتاجين إلىّ.

ثم صمت لفترة وأردف:

ـ والآن نعود إلى موضوع آخر: ماذا فعلت فى موضوع زواج أختك من ابن خالتى؟

قلت: لقد تعودنا على الصراحة. دعنى أسألك يا أحمد. أهو مقتنع بها تماما وأنتم معه؟ وهل ناقشتم هذا الأمر جيدا؟

ـ لم هذا السؤال؟

ـ لأن لها وجهة نظر.

ـ أحب أن أعرفها.

ـ ترى أنها لاتكافئه علما ولا اجتماعا ولامالا فلماذا يطلبها اللهم إلا أن يكون قد أراد خادمة لازوجة ؟ وأيضا عمى امبابى يرى ان بيئة كليهما مختلفة وعادات كل متنافرة، ولذا ستكون حياتهما صعبة التوافق فى أولها إذا قدر لهما الزواج وقد تنتهى الى فشل ستكون فيه القاضية عليها بعد فشلها الأول.

ـ كل هذا لم يغب عنا فى الأسرة وناقشناه معه إلا أنه ظل متمسكا بها. بل متلهفا عليها.

ـ لابد أن هناك سرا تخفيه عنا. صارحنا لنرتاح. أنت أخونا ونحن ستر وغطاء على بعض. وأنت تعلم ياأحمد أن أسرة عمك امبابى غدت اسرتى ومايصيبها من خير يسعدنى وإذا أصابها شر ـ لاقدر الله ـ فقد أصابنى أنا. وزوجتى . ألاتهمك. أليست أختك؟

رد مبتسما وهو ينظر اليها:

ـ ولا أعرفها. لم تبق الا شيخة البخلاء لتكون أختى.

ردت عليه:

ـ طيب يا أحمد .. قل .. قل مايحلو لك أخرج المستور . إن ما أريتك يا أحمد لا أكون بنت امبابى.

قال لها أحمد:

ـ ياعبيطة .. أنت أختى وزوجة أخى وتلميذى ولا أسمح أن يمس طرف ثوبك. لكنى أحب مشاغبتك ياشيخة البخلاء.

قلت:

ـ دعك من مشاغبتها وأرحنى. أراح الله قلبك.

ـ أقول لكما سرا. لكن أرجو أن يظل بين ثلاثتنا ولاتلمحوا به لمخلوق من قريب أو من

بعيد لا لابن خالتى ولا لأحد من أسرتى ولا لأختكما حتى تكشفه الأيام. الموضوع أن زوجة ابن خالتى أحبت وهى على ذمته شابا من النادى الذى كانت تتردد عليه وتمادت معه إلى حد الفحش فلما أحس ابن خالتى راقبها حتى ضبطهما متلبسين وكاد يقتلهما إلا أن إصابتهما لم تكن مميتة فبرئا وطلقها فهاجرت مع حبيبها إلى استراليا. وأقسم ابن خالتى ألا يتزوج إلا من أسرة تعرف العيب والحرام فلا تقربهما. وكانت أسرة عمك امبابى أول أسرة يصادفها ويستقر فى ذهنه أنها الأسرة المطلوبة له فتقدم يطلب يد أختكما بإصرار وإلحاح.

هززت رأسى.. وقلت:

ـ مسكين ابن خالتك هذا .. صدمة فظيعة.

تمتم أحمد:

ـ قدره. ونحمد الله أن نجاه من السجن. ما قولكما الآن؟

وردت ابنة امبابى: أنا الآن قد ارتحت. لقد أقنعت أختى وأسرتى بصعوبة. وقد قبلت بشرطين. أن تقيم فى مسكن مستقل. والا يعارض فى إتمام تعليمها الذى بدأته بعد طلاقها من زوجها الأول.

رد أحمد.

ـ كلا الشرطين مقبول منذ الآن. ولعلى قد أخبرتكما أنه يقيم وحيدا فى فيللا أكبر من فيللتنا فالشرط الأول متحقق بداءة. أما الشرط الثانى فأنا واثق أنه سيرحب به لأن من دواعى فخر الرجل أن تكون زوجته متعلمة. ما رأيكما فى أن نأتى مساء غد معه لنفاتح عمى امبابى بشكل رسمى ونحن تحت أمره فيما يطلب من مهر وشبكة.

ثم نظر إلى وأردف:

ـ وأنت ياولدى لم لا تعقد قرانك أنت أيضا يوم نعقد قران ابن خالتى. أنت ولد لكع ياساتر عليك .. حقيقة أن بنت امبابى زوجتك على سنة الله ورسوله لكن يبقى ان نوثق هذا الزواج. لم يعد أمامك عقبات فلم اللكاعة؟

ردت ابنة امبابى :

ـ قل له يا أحمد . قل له.. الله يخليك يا أخى. أثرهمته وخله يكف عن اللكاعة. وأعدك ألا اعضك مطلقا مهما عاكستنى.

قلت:

ـ كنت أنتظر حتى يتبلور موقفى المالى.

ـ وتبلور والحمد لله. وأفاء الله علينا رزقا كثيرا. فلم اللكاعة على رأى أحمد؟

قال أحمد:

ـ آه .. صحيح .. لم اللكاعة؟ اسمع رتب أمرك مع أسرتك على أن يكون عقد قرانك يوم عقد قران ابن خالتى. هذا أمر من أخيك الأكبر واذا كنت متحرجا من أبيك أسافر اليه أنا فأقنعه إن كان مترددا.

ـ لا أبى ولا أمى مترددين بل العكس هو الصحيح.

ـ إذن لاعذر لك . سيكون عقد قرانك كما حددنا وخير البر عاجله.

هززت رأسى موافقا. فأطلقت ابنة امبابى زغرودة عالية وجرت نحو أحمد فقبلت رأسه.

وبعد ان تركته. أشار إليها وقال:

ـ انظر البنت ملهوفة عليك. وأنت بارد . استح على عرضك . ربنا يكتب لكما السعادة ويرزقكما الذرية الصالحة.

قمنا معا لنعود الى اسرتينا. طلبت ابنة امبابى من صبى الكلاب أن يضع فى خزينة سيارة أحمد عشرة أرانب وأن يضع مثلها فى خزينة عربتنا. مد الصبى يده إليها وقال:

ـ حقى أولا.

ضربته على ظهره وقالت:

ـ كسر حقك. ولامليم هذا اليوم . لما أخذ من الدكتور أعطيك.

رد أحمد:

ـ تأخذين منى؟ لقد اصطدتم من أرضى.

ردت:

ـ بكلابى ورجلى.

ونظرت للصبى وأردفت:

ـ خلاص ياولد إذا لم يعطك الآن عشرة جنيهات، احبس الكلاب هذه الليلة فى أرضنا ودع زرعه نهبا للأرانب.

قال أحمد:

ـ فى عرضك، العشرة ها هى. وفوقها عشرة. وكل ماتريدين. ياساتر عليك أنت صعب، أعوذ بالله.

ردت :

ـ آه .. أأدفع أنا؟ وأنتم تأكلون ياحلاوة. ما هذا الهناء؟

ناول أحمد الصبى عشرين جنيها. على حين ابتسمت ابنة امبابى وقالت وهى تضرب الصبى على ظهره:

ـ حار ونار فى جسدك، كنز وانفتح لك.. هات الأرانب بسرعة جاتك البلاوى.

تابعنا أحمد حتى انفصل ملوحا بيده.

• • •

أردت أن أعود لأطمئن على عمتى، رفضت ابنة امبابى وقالت:

ـ لاتكلفنى أرقا حتى استطيع أن أواصل ما ورائى من عمل غدا.

لما أحضر البواب الأرانب من العربة قالت لأمها:

ـ هذا نصيب إخوتى. أرسلى لكل زوجا.

دخلت حجرتها فأبدلت ملابسى واستلقيت على الفراش، جاءت بعد حوالى ساعة وقد تزينت وتعطرت وقالت:

ـ أخبرت أمى.

فهمت أنها تقصد موضوع أختها. الا ان ذهنى تحول الينا عندما أردفت:
ـ وتقول لك مبروك.
ثم صمتت لهنيهة قالت بعدها كأنما تحدث نفسها:
ـ يارب يخليك يادكتور أحمد..
ثم صمتت وقالت:
ـ أرسلنا لأبى حتى لايسهر بالخارج كعادته لنرتب أمرنا.
ثم صممت ثانية وقالت:
ـ حبىَ ماذا تريد ان تاكل؟ أمى عندها فطائر باللحم وأنت لاتحبها. مارأيك فى قشطة وجبنة من جاموستى؟ وعلى فكرة السائس أخبرني أن العجلة بشرت للولادة وقد تلد بين ساعة وأخرى. أرسلته لابن جيراننا طبيب بيطرى ليساعدها.
ابتسمت وقلت:
ـ وعلى ماذا البيطرى؟ كان يمكن أن أساعدها أنا فكم رأيت أمى وأبى وهما يولدان مواشينا.
ـ وماذا يدرينى؟ لايضر .. له رزق.
سمعت صوت عمى امبابى يمسى على زوجته فى الردهة ويسألها عنا. أخبرته بمكاننا.
دخل علينا فاعتدلت واقفا احتراما له. دخلت زوجته خلفه. جلسا . بادرته زوجته بسبب استدعائه. نظر إليها وقال:
ـ لقد تراجعت ابنتك تماما. أخبرتنى بهذا أمس وطلبت الى الا أخبرك أنت أو اختها حتى لاتواصلا الضغط عليها.
قفزت واقفا وأنا أقول:
ـ دعوها لى ..
واتجهت لحجرتها. نقرات على الباب سمعتها تقول ادخل.. فوجئت بى لأنها لم تتعود أن أذهب اليها. رحبت وجرت فوضعت رداء على رأسها وأكتافها ، وعادت لتقول:
ـ أعلم ماجئت من أجله .. أنت أخى فلاتحرجنى. لقد قررت وانتهى الأمر ومبرراتى عقلية ومعقولة وأنت فى قرارة نفسك مقتنع بها فلا تحاول فتتعب نفسك وتتعبنى بلا فائدة.
لم يكن أمامى إلا أن أستعمل آخر ورقة وأبوح لها بما استأمننى عليه أحمد من سر. فقلت:
ـ وإذا كان هناك ماينسف وجهة نظرك. ألاتسمعين؟
ـ أسمع.
ـ حتى ولو كان فيه حرج؟
ـ وحتى، فكل حرج يهون أمام مستقبلى.
ـ وتعديننى بالكتمان حتى مع نفسك عدا أختك فهى تعرف؟
ـ أعدك.

ـ إذن فاسمعي.

وقصصت عليها ما أجبر أحمد هو أيضا على إخبارنا به. وفي النهاية.. قلت لها:

ـ ما رأيك الآن؟

ـ الأمر يختلف. لقد نسفت بحديثك هذا وجهة نظري. وأوجدت مبررا كافيا لطلب يدي.

ـ أقول مبروك؟

ـ على بركة الله.

عدت إلى أبويها الجالسين في حجرة ابنتهما فأخبرتهما بموافقتها فتجاوبت زغرودتان من أمها وأختها وهم عمي امبابي بالقيام وهو يتمتم:

ـ الحمد لله.

فقلت له:

ـ لحظة ياعمي امبابي.

نظر الي باندهاش . وقال:

ـ اذا كنت ستشكو من شئ من زوجتك . فرأسي ليست ناقصة.. اكسر ضلوعها وخلصني مائة مرة أقول لك هذا لكنك لا تأخذ به.

ابتسمت وقلت:

ـ أنا لا أشكو وإنما أرجو.

رد باستغراب:

ـ ترجو. وهل بين الابن وأبيه رجاء. افعل ماتراه صوابا بلا رجاء.

ـ إلا في هذه فلابد من موافقتك.

ـ أنا موافق حتى بدون أن أعرف شيئا. أنا أثق بعقلك. كل ماتريده أوافق عليه.

ـ أريد أن أعقد قراني رسميا يوم عقد قران ابنتك الأخرى.

ـ الآن اذا شئت. وتأخذها وتلقى بها في الجحيم الآن أيضا إذا أردت وتريحني من بخلها وكثرة مطاليها. يوم أن تخفى هذه البنت من بيتي سأكسر وراءها كل قلل المنزل. رتبا أموركما معا وأخبراني بها كالغرباء. فهي أمر من عشرة رجال ولا أخشى عليها شيئا. وأيضا عليكما ترتيب لقاء خطيب أختها وأسرته: فأنا لا أعرف نوق هؤلاء الناس وما يصح أن يقدم لهم ومالايصح. انظرا في الواجب وافعلاه وعلى الدفع فقط. ليس على إلا دعوة أعمامها وإخبار إخوتها الرجال لأقول آمين فقط.

ثم نظر إلى زوجته وأردف:

ـ أين العشاء ياولية.. أظنك تاركة الأولاد بدون عشاء حتى الآن أيضا؟

ردت عليه بانفعال:

ـ أهم صغار يا إمبابي. أم أنا مغلقة على الطعام .. الأكل أمامهم ومن يرد أن يأكل فليأكل .

نظر الي وقال:

ـ انظر ياسيدي حماتك . كلمة قلتها فما خلصت منها.

ثم نظر إليها وقال: الله يلعن أباك لأبى أولادك . هيا ضعى لى الأكل أنا والاستاذ.
جلست ابنته لتأكل معنا فقالت له:
ـ أبى. أريد شيئا.
ـ أعرف ماتريدين .. تركت مع أمك عشرة آلاف قسمة بينك وبين أختك لتتجهزا بها.
ـ لم أقصد الى هذا . وأنا متنازلة لأختى عن نصيبى.
ـ أمعقول؟ أنت تتنازلين ؟ لابد ان الدنيا انقلب حالها . أو أنى لا أسمع جيدا. إيه، أغاضبة. المبلغ لايملأ عينك؟
ـ أبدا ياأبى .. ربنا يخليك.. أنا أتكلم بجد.. أنا متنازلة لأختى عن نصيبى حتى تتجهز بجهاز يليق بزوجها ويرفع رأسنا أمام أسرته.
ـ إذن ماذا تريدين؟
ـ أريد كوائين.
بدت الدهشة على ملامح الرجل وقال:
ـ ماذا ؟كوائين. هذا هو الناقص؟ لم أتفتحين محلا للكواء؟
قلت:
ـ إنها ورطتنا فى بيعة ملابس مستعملة واردة من الخارج أعتقد أنها تريد تجهيزها للبيع.
ضرب الرجل كفا بكف. ونظر إليها قائلا:
ـ يابنت الكلب يامغامرة. والله لن ترجعى حتى نفلس مالنا نحن والملابس المستعملة. إن لها رجالها بوكالة البلح. بيعيها لهم جملة واخلصى منها.
ونظر إلى وأردف:
ـ وأنت أين كنت عندما فعلت هذا. لم لم تكفها؟
ـ الحق أنها حاولت ردها. لكنى عارضتها لأن ردها لن يكون فى صالحنا مستقبلا.
قال:
ـ الأمر لله . مادامت غلطتك أنت.
ثم وجه حديثه الى ابنته. وأردف:
ـ سأرسل لك غدا آخر النهار عمك فلان أكبر الكوائين سنا. وكل كوائى الحى والأحياء المجاورة إما صبيانه أوصبيان صبيانه. تفاهمى معه فيما تريدين.
قام فدخل حجرته ودخلت أنا وابنته الى حجرة ابنته المطلقة ولحقت بنا أمهما وراح الثلاثة يتصورون ماسيكون ومن سيكون فى حفل الخطوبة ومايريدونه من لوازم.
أرادت أمها ان تلقي بها علي كاهل ابنتها، رفضت متعللة بما وراءها من مصالح، وقالت لأمها: ابنك عندك بدلا مما هو فرقع لوز يفعل شيئا مفيدا لأجل أخته.
ردت أمها:
ـ أنا لا أقدر عليه. وإذا طلبت من أبيك تكليفه فسيقلبها على رأسى غما لأن أخاك لايستجيب له. كلفيه أنت فهو يحبك لأنك خط إمداده بالنقود من خلف ظهرنا ولن يتوانى عن أمر لك.

قامت إلى الهاتف وتتبعته فى مكان وجوده عند أصدقائه حتى عثرت عليه فطلبت اليه ان يحضر لأنها فى مشكلة وتطلب مساندته.

سرعان ماجاء مهموما. فلما وجد أن كل شيء هادئ قال لها:

ـ أوتضحكين على؟

قالت:

ـ يافرقع لوز أنت ألا نستفيد منك بشئ، خطوبة أختك غدا ولاتقف بجانبها. أخ هزأة صحيح.

أحرج أمامي وقال:

ـ كفى والا ضربتك .. لن تستعبديني بنقودك أو تحتمين بخطيبك، وهل كلفتنى أختى بشئ ورفضت. ونظر إلى أخته المطلقة وقال:

ـ ألف مبروك ياأختى .. أنا تحت أمرك لكن البنت قليلة الأدب هذه لن أسمع كلامها.

قالت له المطلقة:

ـ هذا أملى فيك .

وخطفت الكشف من يد أختها وناولته له. وقالت:

ـ تقضى هذه الأشياء لنا صباحا. وستعطيك أمى النقود.

دس الكشف فى جيبه بضيق واندفع خارجا. فقالت أمه:

ـ ياباى .. الولد كاننا كلفناه بحمل جبل.

قلت:

ـ اسكتى حتى لايسمعك فيعود فى كلامه.

قالت بضيق:

ـ يعود أو يتـزفت على دماغـه. أخـرج أنا أقـضى كل شئ. الوالدة تنجب ظانة أن أولادها سيريحونها. فلا يكون وراءهم الا وجع القلب . عيال وقرف.

● ● ●

خرجت صباحا أنا وابنة امبابى يممنا شطر البنك فقدمت «سند» المقاول ليضيفه البنك لحسابها بعد عمل المقاصة مع بنك المقاول ودفعت باسم شيخ المهربين ثمن المواسير وخرجنا فأبرقنا إليه بالدفع ورقم الايصال واسم البنك. طلبت أن أتجه الى وكالة البلح لم تكن تعرف أحدا من تجارها عرضت بضاعتها على كثيرين إلا أنهم أخذوا عرضها بحذر وبعضهم وعد بالحضور لفحص البضاعة، وبعضهم عرض شراءها بأجل طويل. حاولنا معرفة بعض وسطائهم إلا أننا فشلنا تماما.

طلبت منى أن أتجه الى هليوبوليس لم أسألها لماذا. لأننى ظننت ان لها مصلحة بها. عندما وصلت صارت توجهنى حتى وقفت امام عمارة ضخمة حديثة البناء. نزلت وطلبت إلى النزول وإغلاق العربة، ما ان وقفت أمام العمارة فى انتظارى حتى أسرع اليها رجلان حزرت أنهما بوابا العمارة بدءاها بالتحية. تأخرا عنها وتقدمتهما الى الداخل وقلت فى نفسى: لابد أنها عميلة معروفة لأحد سكان العمارة من التجار. لما وصلت. أسرع أحدهما ففتح باب المصعد وأغلق وراءنا وداس أعلى الأزرار كأنه يعرف الى أين

نتجه . لما نزلنا مدت مفتاحا فى باب فخم فتحته. وقالت:

ـ تفضل.

دخلت الى مكان،رحب وجرى مرافقنا يزيح الستائر فبانت فخامة المكان ورحباته وطرافة أثاثه.

أشارت إلى إحدى الثلاجات وطلبت من الرجل ان يحضر منها أى شئ بارد. وضعه أمامنا. وقال:

ـ أية خدمة ثانية ياهانم؟ شكرته. فأردف:

ـ سأوافيك حالا بإيجار هذا الشهر فقد حصلته، قالت له:

ـ أغلق وراءك الى أن تعود.

ونظرت إلى وقالت:

ـ قم فانظر إن كان يعجبك هذا المكان ومافيه من أثاث، حين بنيت تلك العمارة من حوالى سنة حجزت لنفسى هذا الدور بكامله وأثثته، كما ترى ولم يكن باقيا إلا أنت، ومالت فقبلتنى.

ـ أمعقول . أتلك عمارتك. وتلك شقتك؟!

ـ وماذا قل عقلها؟

ـ لأنك لم تخبرينى.

ـ أردتها لك مفاجأة.

ـ أنا سعيد بحبك.

ـ وأنا أكثر سعادة.

ـ لكن الشقة رحبة جدا علينا.

ـ سأجعلها تغص بأولادك.

ـ يارب.

ـ أتحب الأولاد.

ـ إذا كانوا منك وفى ذكائك وخفة روحك.

ـ حذار وإلا أخذت فى نفسى مقلبا. تعال لترى ملابسى.

ـ غير ماعندك فى منزل أبيك؟

ـ طبعا كلها جديدة ولن ألبسها إلا لك.

لاحظت ان هناك ملابس رجالى. سألتها ماعندك لمن فأجابت:

ـ لما ملأت يدى منك وعرفت مقاساتك وذوقك أحضرت لك ما قد تكون فى حاجة اليه. لم أتمالك أن أقبلها. وكلى سعادة بها وبحسن تفكيرها.

رن جرس الباب الخارجي اتجهنا لنفتح.. دخل البواب ناولها نقودا كثيرة. وقال:

ـ ثلاثة آلاف وستمائة. وحضرتك تعرفين الحسبة. ناولته ثلاثين جنيها وقالت اقتسمها بينك وبين زميليك.

ثم نظرت الى وقالت:

ـ أتحب أن نقضى يومنا هنا أم نخرج لقضاء بعض المصالح.

ـ يستوى عندى مادمت معك.

أمرت البواب أن يرخى الستائر وأن يغلق الأنوار. وخرجنا فأغلقت الباب ونزلنا فركبنا. جلست بجوارى وقالت الى الأرض أولا لنطمئن على مالنا. سألتها فى الطريق:

ـ أكل هذا المبلغ الذى أعطاه لك البواب إيجار العمارة.؟

ـ بل الستمائة فقط. عشرون شقة فى ثلاثين . أما باقى المبلغ فإيراد مأوى السيارات بأسفل العمارة. إنه ثلاثة أدوار تحت الأرض. ويعمل لحسابى . ولو كنت أعلم ان الايراد سيكون كبيرا الى هذا الحد لجعلت العمارة كلها مأوى للسيارات.

ـ لكن أحدا من أسرتك لم يذكر أمامى سيرة هذه العمارة. الا يعرفها أحد؟

ـ لا.. لقد بنيتها دون أن أخبر أحدا ..لأنى مطمع أهلى كما رأيت ولو علموا لزادت مطامعهم وأولهم عمك امبابى. ثم يتهمنى بالبخل. مال التجارة مستور، أما الثوابت فالعيون مفتوحة عليها. و«دارى على شمعتك».

ـ وعندما يعرف أبوك وأظنه سيعرف قريبا جدا.

ـ ساعتها أكون فى عصمة رجل فلا يملك عمك امبابى إلا أن يغضب قليلا ثم يصطلح . وربما لايغضب مطلقا لأنى أنفع له من أولاده الصبيان.

وصلنا الأرض فلم تغادر العربة . وسألت عن الأحوال. فلم يكن فيها جديد عن أمس. الا ان أحمد أحضر من ساعة عشرة كلاب للصيد مع مدرب لهم. طلبته فحضر. سلم علينا وقال:

ـ أحاول من ساعة أن حضرت أن أوجد ألفة بين كلاب الحراسة التى عندكم وكلاب الصيد ولا أظنها ستقوم بين يوم وليلة.

قلت له: لكن الحراسة مهمة.

ـ وكلاب الصيد تنبه الغرباء لكنها لا تستطيع تثبيتهم ككلاب الحراسة. لذا اتفقت مع صبيكم على أن يدعها بجواره جاهزة للعمل فإذا ما نبهت كلاب الصيد لشئ أطلقنا كلاب الحراسة.

كان صبى كلاب الحراسة واقفا سألته:

ـ وما حصيلة ليلة أمس من الصيد. فأجاب أربعون.

ـ هذا شئ لا يبشر بخير.

رد أحمد:

ـ ربنا يستر وربما استطاعت كلاب الصيد قطع دابرها.

قلت:

ـ على الله.

أمرت ابنة امبابى الصبى أن يحضر أكبر عشرين ويضعها فى خزينة العربة. وأن يركب معنا. سألتها:

ـ لمن؟

ـ لبيتى المأمور وضابط المباحث.

اتجهنا إلى المدينة القريبة التى بها المركز ومررنا أولا على بيت المأمور فأرسلت

الصبى بعشرة فأطلت علينا زوجته وطلبت أن نصعد. شكرناها وانصرفنا إلى بيت ضابط المباحث فأرسلت العشرة الثانية. مع اعتذار عن عدم إمكانيتنا الصعود ثم طلبت العودة فقلت:

ـ أمرك عجب ياحبى تأتى بنا خصيصا لنقدم هدية . كان يمكن أن تنتظر!

ـ كنت قادمة فعلا لقضاء أمر الهاتف وتوصيلة الكهرباء لكن سأرجئها لغد.

ـ لم؟ ومازال أمامنا أكثر من ساعة على مواعيد انصراف الموظفين يمكن أن نقدم فيها طلباتنا.

ـ لأنى سأستعين بالمأمور فى هذا الصدد. وأريد أن يكون توجيهى عقب توصيته مباشرة.

ـ الأرانب إذن لم تكن هدية خالصة لوجه الصداقة.

ـ يكفى أنها هدية.

هززت رأسى غير مقتنع بمنطقها فقالت:

ـ تهزها أو لا تهزها. لكل طريقته التى يراها موصلة. وتلك طريقتى.

ـ خاطئة.

ـ لكنها تقضى المصالح وتوطد الصلات.

• • •

أسقطنا الصبى أمام الأرض وواصلنا عائدين ضاق صدرى فجأة أحسست بأنى أختنق بلا سبب تركتها متعللا بشدة شوقى لعمتى تركتنى لما أقسمت لها أنى لن أغيب عنها إلا بمقدار ما أرى عمتى.

اتجهت إلى مسجد الخواص، لم يكن الشيخ محمد موجوداً وكان أمامنا ساعات على العصر لذت بالصلاة علها تشفى ضيق صدرى، بعد أن صليت نوافل ماشاء الله أن أصلى مددت يدى إلى كتاب من كتب الله المهداة إلى مسجده واستلمت واحداً فتحته حيثما اتفق واستغرقت فى التلاوة وتأمل المعانى العظيمة.

جاء الشيخ محمد وجدنى مستغرقا فى التلاوة، أشار لى محييا وتركنى حتى أذن العصر فصليته فى جماعة خلف شيخ المسجد الذى سلم على عقب الصلاة بشوق ظاهر. انتقلنا إلى حجرته التى طالما ذاكرت فيها عامى هذا وأتانا الشيخ ببراد الشاى المنعنع، شكوت إلى شيخ المسجد ضيق صدرى المفاجئ فنصحنى بمداومة تلاوة القرآن أولا ثم استبطان نفسى ثانيا فإذا ما وضعت يدى على سبب الضيق فقد برئت. حذرنى بأن الأسباب مخادعة والنفس أمارة. دعانى إلى حضرة الليلة. وعدته إن استطعت .. تركته وانصرفت يلازمنى الشيخ محمد حتى باب منزل عمتى. حدثنى ونحن نسير الهوينى عما دار فى حارتنا طول الفترة التى لم يرنى فيها. كان ما أخبرنى به أن الإشاعة ملأت الحارة وتجاوزتها إلى الحى بأن لوزة نزيلة الخانكة وأن بطاطة وبطاطاية يكتمان الأمر. عزمت عليه أن يصعد معى قال إنه بوده لولا أن رئيسه فى المسجد وحيد، نفحته بما فيه النصيب .. شكر وانصرف.

صعدت لأتلقى عتاب عمتى وابنتها. لذت بجوار عمتى. فتسللت الراحة إلى نفسى

شيئا فشيئا وأنا أتناول لقيمات من طعام وضعته ابنتها أمامى، كانت أهنأ لقيمات تبلعت بها من أيام كفيت مؤونة سؤالها عن الأحوال وأخذت أقدم تقريراً وافياً عما مر بى مع ابنة امبابى وأسرتها، عندما وصلت إلى ماحدث من ابن امبابى مع أمه وأختيه برق فى ذهنى فجأة سر ضيقى.

أخبرت عمتى بمخاوفى على مستقبل ابنتها من لامبالاته وأنانيته تبينت أن عمتى تعانى من هذه المخاوف هى وزوجها لكنها تعرف أن ابنتها تحبه وعبثا نحاول فك خطوبتها وأخبرتنى أن هذا الموضوع استغرق تفكيرها لشهور ومسته مع ابنتها أكثر من مرة وفى كل مرة كانت تجدها أكثر تمسكا به من سابقتها.

كانت ابنتها تنظر وتسمع. وفى النهاية حسمت بأن قالت:

ـ أريحا نفسيكما سأتزوجه ولو كان به خرط الزفت.

ابتسمت وقلت:

ـ الحب هبل.

ردت ابنة عمتى:

ـ وحبك لابنة امبابى هبل؟ وحب لوزة ونزيهة لك هبل؟

قلت:

ـ عين الهبل والله.

قالت: إذن لست وحدى من أصابها الهبل. الدنيا كلها هبل فى هبل.

ردت عمتى عليها بانفعال:

ـ هبل يلمك. ملقوفة. تنقرصى فى لسانك بحق جاه النبى.. ثم وجهت كلامها لى:

ـ حالها كما رأيت ما إن تسمع شيئا عنه حتى ينتابها الهبل الحقيقى.

سمعنا صوتا نسائيا كأنه صوت ابنة امبابى ينادى من أسفل:

خرجت ابنة عمتى. سمعتها تقول:

ـ اطلعى يا إمبابية ياصغيرة .. نعم .. موجود.

عادت جريا لتردف موجهة حديثها لى:

ـ الحق ياأخى هبلك افتقدك لما غبت عنه لساعة فأتى يبحث عنك.

دخلت ابنة امبابى، قامت إليها عمتى مرحبة وتبادلت معها القبلات هى وابنة عمتى.

قالت لى ابنة امبابى:

ـ لم تبر بيمينك وتعود فور لقاء عمتك؟

ردت عمتى:

ـ إنه داخل لتوه يا ابنتى. لم يقض معنا إلا بمقدار اللقمة التى أكلها. والطعام مازال أمامه.

سألتنى ابنة امبابى:

ـ قل لى أين لففت ودرت؟

ثم وجهت حديثها الى عمتى قائلة:

ـ سليه ياخالة بطاطاية أين كان يتسكع وقد تركنى بعيد الظهر.

نظرت لى عمتى قائلة:

– مالك حق ياولد .. لا إلينا جئت ولامع حبك بقيت. فأين كنت؟

ثم نظرت إلى ابنة امبابى وأردفت:

– لاعليك ياابنتى.. الرجال هكذا. لهم شطحاتهم غير المفهومة أو المبررة.

توعدتنى ابنة امبابى وقالت:

– قم لنحضر مطالب ضيوفنا.. لأن أخي فعلها وأعاد نصف ما أخذ من أمى دون أن يقضى شيئا.

تبادلت وعمتى النظرات .. وقمت إلى الحمام فاغتسلت وغيرت ملابسى ونزلت مع ابنة امبابى لنقضى مطالب أسرتها.

قلت لها ونحن نداف إلى عربتها:

– إلى متى يظل أخوك هكذا ألا يعبأ بمسئولية؟

– والله لا أدرى. ولد مقرف لكن الذنب ليس ذنبه. ذنب أمى. أتلفته بيدها السائبة معه. أتعرف أنى أخشى على ابنة عمتك من الحياة معه مستقبلا. بنت سى الفل مع إنسان لايبالى . تكون كارثة. ليتها تراجع نفسها بشأنه. وليت عمى بطاطة يرد عليه شبكته. فأنا لا أريد مستقبلا أن تكون سببا لأدنى تنغيص بينى وبينك.

– لا أعتقد أن عمى بطاطة فاعل، إذ سيضع فى حسبانه غضب أبيك وحزن أمك. وزواجى بك وكسر خاطر ابنته.

– لأن ينكسر خاطرها الآن أفضل من أن تضيع تماما مستقبلا وتسبب لى ولك مشكلات لاتتناهى. والله لولا أنى أخشى أن يؤول كلامى منها، ومن عمتك تأويلا سيئا لحدثتها وحاولت إقناعها برمى شبكته . إنها بدر ومتعلمة وبنت تاجر محترم ومن بطن سيدة سيرتها عطرة. فألف من يرغب فيها خير من أخى.

وصلنا الى أول محل فاشترينا وتتالى وتوقفنا وشراؤنا حتى غصت العربة بأحمالنا، عدنا لنجد بيتها غاصا بأعمامها وإخوتها وأولادهم وزوجاتهم. ولنجد أباها قلقا على الباب ما إن رآنا حتى حمد الله وراح يتوعد ولده ما يرى وجهه ويدعو لابنته ولى.

أخذنى من يدى وعرفنى بأقاربه، قدمنى على أنى زوج ابنته الصغيرة شرعا وشريكها تجارة وأن أبى هو الذى أهداه المهر المعلم وأن.. وأن.

بعض أقاربه قابلنى بترحاب وأغلبهم بدا عليه الفتور، راحت عيناى ترصد وذاكرتى تسجل. قدم بطاطة وأسرته فانضم لى ولعمى امبابى ولبعض أولاده فى وقوفنا أمام المنزل انتظارا للضيوف.

غصت الحارة فجأة بالعربات الفارهة . كان أحمد أول النازلين. تولى أحمد وعمى امبابى مهمة التعارف بين الأسرتين ونشطت حركة عمال عمى امبابى يحملون الواجب بين الناس، قام والد أحمد بمراسم الخطبة وجاوبه عمى امبابى مرحبا. وانتقلت الأسرتان إلى حديقة المنزل الداخلية التى أقيمت بها المأدبة فحصل كل على نصيبه، ثم تناثروا على الكراسى تحت الأشجار المزينة بالثريات، وامتدت بهم السهرة حتى منتصف الليل. وقبل أن ينفضوا مال أحمد على عمى امبابى ورجاه أن ينتظره صباحا

لتخليص بقية الأمر.

• • •

ودعنا الكل وانصرفت مع أسرة عمتى رغم أنف ابنة امبابى فحملت أسرة عمتى فى عربتى وعدنا لأنام ملء جفونى.

يبدو أنى تأخرت صباحا إذ فتحت عينى على صوت عمتى وهى توقظنى وشعاع الشمس يتسلل عبر صيص النافذة. بادرتها بالصباح فقالت:

ـ قم.. أحمد هو وعديلك عندنا، سأقدم لهما الشاى والإفطار حتى تتهيأ.

سرعان ما كنت معهما مرحبا. أخذ أحمد يقص على ابن خالته نتفا مما كان يحدث بينه وبين عمتى لما كان عمر وابن خالته يغرق فى الضحك على أحمد وهو يقلد عمتى حين كانت تغضب عليه أو ترضى أو تترضاه بعد غضبها أو وهى تحميه من جام غضب لوزة عليه وترد عليها شتمها له بأقذع مما كالت له. ويقلد ابنة عمتى وهى تضحك عليه وتترضاه ليشرح بعض دروسها الصعبة. ويقلد عمى بطاطة وشجاره مع بطاطاية ثم صلحهما.

تنهد فى النهاية وابتسم وهو يقول:

ـ برغم قساوة المحنة إلا أن فضل الله على أنه جعلها أحاديث.

عندما هممنا بالنزول أقسمت عمتى عليهما بكل غال أن يتناولا غداءهما عندها إلا أن أحمد تخلص واعدا بأن ذلك سيكون فى يوم آخر قريب.

عندما نزلنا إلى فناء المنزل عرج أحمد على مرقده لما كان عمر وأراه لابن خالته. وقال له:

ـ تخيل أنى أيامها كنت أسعد حالا. لأنى كنت إما نائماً فورا وإما يقظاً لا أفكر إلا فى مرضاة لوزة التى كانت دنياى جميعا.

لمحت الأسى على وجه ابن خالته برغم محاولته لإخفائه. لما كنا أمام باب المنزل وقف أحمد متطلعا إليه وقال: بيت عزيز على نفسى كبيت أبى سواء بسواء، جاءت نسوة الحارة سلمن على أحمد ودعونه بعمر، وأخذ يداعب هذه ويحيى تلك ويذكر الثالثة بنادرة له معها لما كان عمر وكلهن يتبارين فى دعوته لشرب الشاى عندهن. وهو يعد بأيام قادمة.

دخلنا على عمى امبابى الذى كان بانتظارنا ومعه أولاده الذكور جميعا. رحبوا وجاءت امبابيته الكبيرة فحيت هى الأخرى، وعزموا بالإفطار، أكد أحمد أننا أفطرنا عند بطاطة واستشهد بى زورا لأنهما اعتذرا لعمتى عن الإفطار.بدأ أحمد الحديث قال ناظرا لعمى امبابى:

ـ أنا بالنيابة عن ابن خالتى ياعمى امبابى تحت أمرك فى كل ماتطلب من مهر وشبكة.

رد عم امبابى:

ـ وأنا لا أطلب منه شيئا ياأحمد ياولدى إلا أن يكرم ابنتى لما تكون فى كنفه. وأن يعاملها بمودة ورحمة وأن يضع فى حسبانه دائما أنه رجل وهى أنثى مهيضة الجناح.

أما المهر والشبكة فهذه آخر ما أفكر فيه. لى خمسة رجال، وأشار إلى أولاده. وربحت السادس وأشار إلى وها أنا أربح السابع وأشار الى خطيب ابنته، فمن مثلى. سبعة أجنحة أطير بها، بل سبعة عكاكيز تسندنى اذا شخت، سبعة بيوت مفتوحة فمن قدى؟ لا أريد ان أرهقه لتدخل ابنتى فتجده عامرا برغيف العيش ذلك مبدأى فما استطاع فأهلا بلا رهق ومالا يقدر عليه فأنا لا أطلبه. وعنى فقد أفردت لجهاز ابنتى عشرة آلاف. كانت خمسة. إلا أن أختها الله يسترها هى والأستاذ . وأشار الى تنازلا لها عن حقهما فصارت عشرة، أعتقد انها كافية لتأثيث منزل قد لايليق بالدكتور. وأشار الى خطيب ابنته - فالدكاترة مقامهم كبير. إلا أنها مايمكننى وهى تملك المصاغ والسجاد والتحف والصينى والملابس والفضيات وكل هذه الرفائع أى ان العشرة للأخشاب فقط ويستطيع أن يصحبها هى وأختها وأحد إخوتها الرجال إلى أى محل يرغبه فينتقيان ما يوافق ذوقيهما. فالجماعة الفنانون مثله ومثلها لهم ذوق خاص. وعن الدخلة فلتكن عندما يرغبان. ومن الآن لايحمل هما لوليها فهما فى عينى وعين أمها لا نفرط فيهما لأنهما يملآن البيت علينا وبدونهما يكون البيت كالمقبرة لاحس ولاخبر.

وصمت منتظرا ردا.

فقال له ابن خالة أحمد:

- أنا سعيد بنسب رجل حكيم مثلك ياعمى امبابى، وماكنت أظن أن أولاد البلد يملكون هذا القدر من الحكمة.

قاطعه عمى امبابى:

- اسمح لى ياولدى إنك لم تأخذ بالك فالحكمة ميراث أجيال ورثناها أبا عن جدا. أنتم فقط يابكوات الذين لاتعرفوننا.

واصل ابن خالة أحمد قائلا:

- والحمد لله أن عرفت. ماكنت أصدق أحمد لما حكى لى عن نبلكم وكرمكم ومروءتكم. إلى أن بدأت أرى بنفسى وأحمد الله أن عوضنى خيرا بكم. أما عن الشبكة فقد أحضرتها معى أسورة من الذهب وخاتم من الماس وأمل أن تليق بها.

ومد يده فى جيبه أخرج أسورة وخاتما خطفا أبصارنا وتناقلتهما أيدينا وحين أمسكتهما امبابية الكبيرة أطلقت زغرودة.

قال له عمى امبابى:

- لم ياولدى ترهق نفسك؟ كان يكفى أحدهما. فنحن أناس يرضينا القليل.

فتابع ابن خالة أحمد:

- وأما عن الجهاز ففيللتى أعدت تأثيثها من شهور قليلة بعد زوجتى الراحلة. وأرجو أن تسمح لابنتك بزيارتها مع من تشاء من إخوتها فإن كان جهاز الفيللا يعجبها فبها ونعمت.. وأكتبه لها. وإلا فلتشتر ماتشاء وأنا جاهز بثمنه.

رد عمى امبابى:

- عداك العيب ياولدى. عين العقل.

فتابع ابن خالة أحمد:

ـ أما ماتقدمه أنت لابنتك من نقود فسأدفع مايناظره ونضعه باسمها فى أى مصرف ليغل لها عائدا معقولا. لأنها درويشة فن وبدلا من أن ترهقنى بمشترياتها من التحف تكون نقودها معها وهى حرة فيها.

وأما عن ولديها فأنا متمسك بهما ولن يتعبانا فى شئ وسيعيشان مع ابنتى ومايجرى عليها يجرى عليهما والفيللا واسعة جدا تستوعبهما هما والقادمون بإذن الله.

قام عمى امبابى فقبله ونادى ابنتيه. فوقفتا خلف أمهما. وجه حديثه إلى ابنته المطلقة:

ـ الدكتور أحضر معه الشبكة . اجلسى بجواره ليلبسها لك.

تخليت لها عن مجلسى فجلست بين زغاريد أمها وأختها. وحاول أحمد أن يزغرد فأضحكنا. ألبسها الدكتور شبكته. وقبل جبهتها. فقال له عمى امبابى:

ـ حاسب ياولدى .. ليس أمامنا . باق قليل على هذا.

ضحكنا واحمر وجهها وغضت طرفها وهزت الزغاريد أرجاء البيت. وسحب أحد إخوتها مسدسه وخرج إلى الشرفة يطلقه فلحقت به أنا وأختها بمسدسينا فحولنا الحارة إلى ميدان رماية لما انضم إلينا عمى امبابى أيضا. بعد أن شبعنا إطلاقا. عدنا إلى الداخل لنتناول مرطبات واندفعت بعض النسوة والبنات من الحارة جذبهن صوت الرصاص فأخذت عروستنا تطلعهن على شبكتها القيمة. وفجأة غص المكان بغناء ورقص. اضطرنا نحن الرجال أن نخليه لهن ونخرج الى ظلال أشجار الحديقة لنكمل حديثنا.

سأل ابن خالة أحمد عمى امبابى:

ـ متى يسمح له بالبناء.

رد عمى امبابى.

ـ عندما تكونان جاهزين ومن جهة ابنته لاعقبات.

تدخل أحمد فقال:

ـ لى اقتراح ياعمى امبابى. لم لايكون بناء لابنتيك مرة واحدة؟

رد عمى امبابى:

ـ ياليت ياولدى على الأقل ترتاح رأسى. لكن الدور على أخيك وتلميذك الصغير. دائر هو وزوجته تائهين وراء الكسب وناسيين نفسيهما.

قلت:

ـ وما لها حجرتى.. على قدنا. ندخل فيها «أنا مع القمر».

قال عمى امبابى.

ـ طيب مادمت تتحدانى..

ووجه حديثه إلى ابنه الصغير.

ـ ناد أختك ياولد لأطردهما الآن على بيت بطاطاية أو على بيتهما فى القرية أو حتى إلى أرضهما فى الصحراء.

وقف ابنه لايتحرك. فنهره أبوه فقال لأبيه:

ـ قلبك أبيض ياأبى.

وذهب ليعود بأخته.

• ورد أحمد:

ـ الطيبات لله ياعم امبابى.

قال عمى امبابى:

ـ أنا مصر.

قال ابن خالة أحمد:

ألا نسمع دفاعه حتى لانظلمه.

قال عمى امبابى:

ـ من أجل خاطرك يادكتور. نسمع.

جاءت ابنة امبابى فوقفت بجانبى مبتسمة.

قال أحمد:

ـ سأمثل دور النيابة.

قالت ابنة امبابى:

ـ أنت ياأخى تمثل دور النيابة ظننت أنك ستكون محامينا.

قال أحمد:

ـ إلا فى هذه أنتما متهمان بأنكما ولد وبنت لكيعان.. تسوفان فى بناء بيت الزوجية بالرغم أنكما ميسور الحال. وانكما تائهان وراء الكسب ومهملان لوضع حياتكما الاجتماعية عن موضعها الصحيح بالرغم من أن النيابة وجهت نظركما إلى هذا من قبل.

قالت لى ابنة امبابى:

ـ ترد أم أرد أنا.

قال أبوها:

ـ دعيه فهو بسبعة ألسن وغلب قضاء الأعراب من قبل.

قال أحمد:

ـ النيابة توجه نظر عمى امبابى لعدم التدخل والا اتهمته بأن قلبه يحن لأولاده حنانا متلفا. ووقعت عليه أقصى الغرامات.

قال عمى امبابى:

ـ أسف أعتذر للنيابة.

قال أحمد:

ـ النيابة تقبل الاعتذار وتأمر المتهمين بأن يرافعا عن نفسيهما.

قلت:

ـ اعترف بأن النيابة وجهت نظرى إلى ماتتهمنى به، ومن يومها ونحن نستعد لتلافى هذا التقصير حتى عدنا فى الوضع الأمثل للبناء. فعندنا الآن بيت الزوجية كامل الفراش. وفى مكان متميز بهليوبوليس. وإذا أرادت النيابة أن تتثبت بنفسها فلتصحبنا الآن وسينشرح صدرها حين تراه. ولعل هذه النقطة تسقط كل نقاط الادعاء الأخرى

من لكاعة وتوهان فى الدنيا. لذا نطلب من النيابة أن تطلب من عمى امبابى أن يجعل الفرح فرحين.

قال أحمد لعمى امبابى:

– ما رأيك .. أتوافق؟ وتمنحهما فرصة حتى يوم الفرح أم تصر على طردهما.

قال عمى امبابى:

– سى بعضه الطيبات لله.

قالت ابنته:

– يارب يخليك ياأبى.

رد أبوها:

– إيه يااختى .. اضحكى على عقلى اضحكى. والله ستكون آخر إقامة لكما فى بيتى يوم فرح أختك فقط ولا ساعة بعده سواء أكان كلام زوجك صدقا أو كذبا. هيا اخفى من أمامى ساعديهم فيما يحتاجونه منك.

أشار إلى أنا وأحمد وابن خالته. تحلقنا حوله. ووجه إلى حديثه قال:

إن كنت تبغى البناء بزوجتك حقا فوفق أمرك مع أمر عديلك. وأنا أفضل هذا.

ثم التفت إلى أحمد وتابع:

– وأنت يادكتور أحمد.

علق أحمد:

– أحمد فقط ياعمى امبابى فأنا ولدك الثامن.

فقال عمى امبابى ذلك يسعدنى يا أحمد ياولدى وعليك أن تصحب ابنتى ومن شاء من الأسرة عقب الغداء لترى ابنتى رأيها فى جهاز الفيللا، وأعتقد أنها عاقلة ولن تكلف زوجها شططا. وخذ من خالتك امبابية عشرة آلاف. فإذا لم يعجبها أو كانت تريد اضافة شئ فاتجهوا فورا إلى المحلات التجارية لشرائه اليوم «وخير البر...» ثم نظر إلى وقال:

– وأنت ياولدى، اتفق مع عديلك على الوقت المناسب لكليكما وأبلغنى لأرتب الفرح على طريقتنا. وإن كان الدكتور عديلك لايعجبه فرحنا أو يخجل أن يدعو أحدا من الدكاترة البكوات إلى حينا. فليعقد قرانه ويأخذ زوجته ويقيم فرحه حيث يشاء.

رد ابن خالة أحمد:

– لاتقل هذا ياعمى امبابى، فلقد ناسبت رجالا شرفاء بحق أفخر بهم وأتشرف.

شكره عمى امبابى، وانشغلنا بأحاديث أعقبها طعام اعقبته زيارة لفيللا ابن خالة أحمد التى أبهرتنا بما فيها من ذوق ورياش. جعلت ابنة امبابى تقول لى:

- نحن بجواره لاشئ ياولد.

أجبتها: «من نظر إلى حياة غيره...»

لم تطلب ابنة امبابى المطلقة أية اضافة. جلسنا فى حديقة الفيللا فأعاد أحمد الآلاف العشرة إلى صاحبتها وقام ابن خالته فأتاها بعشرة مثلها. تمنعت .. أصر.. أمرها أحمد بأخذها.

ناولت الكل لأختها وقالت لها:

ـ أضيفيها غدا لحسابى بالبنك.

كنت أثناء الطريق قد تشاورت مع ابنة امبابى وهى إلى جوارى فى العربة على الوقت الذى يناسبها واتفقنا على أن نمنح أنفسنا أسبوعا نرتب فيه أمرنا وننذر فيه أسرتى حتى لاتفاجأ، ثم يستوى بعد ذلك أى يوم.

لما تشاورت مع عديلى اتفقنا على أن يكون فرحنا معا بعد عشرة أيام.

سألتنى ابنة امبابى ونحن عائدان عما استقر رأينا عليه، أخبرتها، قالت: معقول ومن غد نرتب أعمالنا بحيث تسير بدفعنا لها دفعة قوية حتى نعود من إجازة زواجنا. لما عدنا أخبرت عمى بما استقر رأينا عليه فقال:

ـ على بركة الله.

وأخبره أولاده بما رأوا فى الفيللا فقال:

ـ ربنا يعوض صبرك خيراً يا ابنتى يامظلومة ويجعل زوجك أهنأ من سكنك ليكون هو السكن.

أجلسنى بجواره وسألنى:

ـ إن كنت أريد شيئا؟

ـ بل ماذا تبغى أنت منى من مهر وشبكة.

ـ مهر وشبكة. أنت مهرها وشبكتها، تعريضك نفسك للقتل مرات بسببها مهر. وحمايتك لصالحها مهر. وترفعك عن مالها مهر ولولا أنه عيب لأمرتها بأن تعطيك أنت المهر. وهل بنت الكلب البخيلة هذه تحتاج إلى مهر.. ماذا ستفعل بمال قارون الذى عندها. والله ياولدى لاأدرى من أين أتت بكل هذا المال؟ بنت كلب رزقها فى رجليها كالقطط. رزقها واسع حتى فى الزواج أخذت رجلا بحق. رجلا برقبتها ورقبة من خلفتها. إنها ابنتى وأنا سعيد من أجلها لكن وصيتى لك من الآن لأنك أنت أيضا صرت فى معزة الصبيان أن تظل قابضا على المقود. المرأة تحب الرجل القوى فى كل شئ.

واذا لم تعمل بنصيحتى ثم جئت تشكو سأكسر رأسك أنت لا رأسها هى.

ـ ربنا يستر..

ـ يستر بنا وبتصرفنا . لكن أن نتصرف خطأ ونقول ربنا يستر فهذا هو الخطأ بعينه. سأكون سعيدا جدا اذا شكت هى من صلابة رأسك. عودها على أن تخضع لرأيك ولو خطأ. ولايخيفك مالها وثراؤها. فكل أموال الدنيا لامرأة بلارجل لاتساوى شيئا. ثم صمت. أردف بعدها: أريدك أن تمر على بالمقهى غدا آخر النهار ولاتخبرها بذلك. وأرجئ كل شئ هنا غدا وسافر لأبيك فأخبره إذ من الواجب أن يكون هو وأمك أول من يعلمان بالموعد حتى يستعدا. وإذا كان لهما رأى فخذ به بلا تردد فأبوك رجل حكيم وأمك سيدة عاقلة. وأخبر بطاطاية الليلة فهى هنا أمك وأبوك.

قمت فدخلت حجرة ابنته، جاءت فسألتنى عما قاله أبوها. لم أشأ أن أكذب: قلت:

ـ كان ينصحنى لحياتنا المستقبلة.

قدمت لى ملابس البيت فقلت:

– بل سأبيت عند عمتى الليلة وأسافر غدا لأخبر أسرتى بموعد زفافنا.
– لكن وراءنا بعض المشاغل فى عملنا. تقضيها ثم سافر.
– اقضها أنت فلقد قسمنا العمل وعلى منه المزرعة ولا أعتقد أن بها مشاكل تحتاج تواجدى.

قمت.. اعترضتنى .. أزحتها برفق وأنا أقول:
– تصبح على خير ياحبى.

دخلت على عمتى جلست معها ومع عمى بطاطة الذى كان يتناول عشاءه. وأشار لى على الطعام. قلت: سبقتك.

أخبرتهما بموعد زفافى.

رنت زغاريد كثيرة من عمتى وابنتها. رجوت عمتى أن توقظنى مع الفجر. لألحق بأبى قبل خروجه إلى الحقل.

• • •

كنت مع أول ضوء أمام منزلنا بالقرية. كان بابه مازال مغلقا. قدرت أن أمى ستكون فى حلب مواشيها وأبى يقرأ أوراده. دققت بطريقتى التى كانت أسرتى تعرفها وتميزنى بها عندما أكون بالخارج.

سمعت صوت أبى آتيا من الداخل يقول: طيب ياولدى.. الحمد لله على السلامة.. وفتح الباب واحتوانى بين ذراعيه وهو يقول دون أن يعطينى فرصة الرد:
– خيراً ياولدى.. أحدث شئ؟.. كيف حال عمتك؟ وكيف حال أسرة عمك امبابى؟ ماذا أتى بك مبكرا هكذا؟
– لاشئ .. فقط أردت ان ألحق بك قبل خروجك.
– ياولدى .. كاد قلبى ينخلع عندما ميزت دقتك.
– أين أمى؟
– فى المنزل الفلاحى تحلب. أنت تعرف برامجها الصباحية.

قفزت من جواره فقال:
– عيل. ولاتريد أن تكبر .. ياولدى انتظر حتى تفرغ أمك..

لكن ومن ينتظر؟! فوجئت بى أمى وهى جالسة تحت الجاموسة وقد أمسكت القعب بين رجليها والضرع بيديها. كانت عاجزة عن الحركة. فأشبعتها تقبيلا. وهى تقول:
– ياولدى اصبر .. ياولدى سيندلق.. ياولدى حمداً لله على السلامة.. ياولدى .. الجاموسة ستجفل وتنكر اللبن..

تركتها حتى انتهت وقامت فقدمت القعب من شفتى وقالت:
– اشرب ليكون يومك كهذا اللبن.

ثم نحت القعب. جانبا واحتوتنى بين ذراعيها وراحت تطمئن على كل من بالمدينة. سرت معها حتى خزينة اللبن. فأدخلت القعب وناولتنى صحفة مليئة بالقشطة ، وأخرى بالجبن. وقالت:
– خذ واسبقنى إلى أبيك حتى أوافيكما بالخبز والعسل لتفطرا معا.

عدت إلى أبى أحمل كلتا الصحفتين. قال لى أبى عندما ما رآنى داخلا عليه:

ـ لحست أمك ياولد لغاية ماشبعت!؟ ما من فائدة ستظل طفلا. وطبعا أنت سعيد لأنها حملتك هذه الصحاف كما كانت تفعل بك وأنت صغير.

دخلت أمى قائلة:

ـ ماذا جرى ياحاج. وهو مهما كبر أيكبر على أمه؟! سيظل صغيرا ولو كان عنده أولاد أطول منه.

قال لى أبى:

ـ لن نفرغ من أمك.

ووجه كلامه لها:

ـ هات ياأختى الخبز هات. وضعت أمى الخبز والعسل وخرجت فعادت بالموقد المشتعل ودست فيه إبريق الشاى.

وجلست تأكل معنا.

قال لى أبى ونحن نأكل:

ـ لكن لم تخبرنى ماذا جرى لتأتى مبكرا هكذا؟

ـ أبدا .. لقد حددت موعد زفافى بعد عشرة أيام وأردت أن تكونا أول العارفين، تركت أمى الطعام لتطلق زغاريدها. وتتناول عصا أبى المحلب فترتكز عليها وتدور حولها راقصة.

جلبت زغاريد أمى المبكرة أقاربنا المجاورين وجيراننا الأقربين فامتلأت المندرة بهم وشارك بعضهن أمى رقصها. وتلقيت وأبى تهانى كثيرة.

مال أبى على وقال:

ـ الولية المجنونة ملأت علينا البيت وعطلت الناس عن أعمالهم.

ورويدا رويدا استأذن الرجال ليذهبوا إلى حقولهم، وخرج أغلب النسوة ولم يبق مع أمى إلا بعض قريباتنا اللصيقات جدا. صرف أبى عماله بعد أن وزع عليهم أعمال الحقل وأخبرهم أنه ربما لم يتمكن من الذهاب لهم فى يومه هذا، أخذ أبى بيدى وصعد بى إلى «المقعد» وتركنى لدقائق عاد بعدها ممسكا بربط مالية. وقال: خذ ستة آلاف ادفع منها مهرك وقدم شبكتك وانفق على فرحك. هى كل ما أملك ياولدى ووالله لو أن معى غيرها لأعطيتك إياها.

ـ لم آت لنقود ياأبى وإنما جئت معلما حتى تستعدا.

ـ ولو .. انه لك. مالى هو مالك. فمن يرثنى بعد أن أموت إلا أنت. واستفادتك به وأنا حى تغمرنى سعادة.

حاولت أن أبين لأبى أن موقفى المالى جيد وأنى وزوجتى لانحتاج لشئ. إلا أنه صمم وانتهى.

وراح يقدم لى خلاصة تجاربه فى الحياة ويدعو لى، ومن عجب أن دموعه كانت تنحدر وهو يحدثنى، ذلك الطود الذى ما رأيته يبكى قبل إلايوم مات جدى ويوم ماتت جدتى.

سألته:

– مايبكيك ياأبى؟

– دموع الفرح ياولدى ولا أستطيع حبسها.. كان بودى ياولدى أن تتعلم وتأتى لتتوظف فى مدينة قريبة وتملأ بيتك وأرضك بنفسك ونفس أولادك. لكن ماشاء الله كان.

– إذا كان هذا يرضيك ياأبى أفعله. وآتى بابنة امبابى لنقيم معك فنوجع رأسك بأولادنا.

– ياليت ياولدى. لكن مصلحتك فى غير هذا وأنا أدركها جيدا. ومثل ابنة امبابى لاتطيق الإقامة معنا كلية يمكنها أن تتحملها أياما أو اسابيع. لكن أبدا. لا. هى نمط من النساء غير بناتنا. كل ما أرجوه أن تجعلا لى نصيبا فيكما. كلما وجدتما فراغا. سيسعدنى ذلك أنا وأمك. احفظ هذه النقود فى جيبك وهيا ننزل لها.

كانت متشاغلة فى طيور تنظفها بعد أن ذبحتها. كانت كثيرة.

سألتها:

– لم يا أم كل هذا؟

– أتأكل وحدك هنا ولاتأكل عروسك هناك. لنا ولعروسك ياولدى. غدت منا ومحسوبة علينا كما نأكل تأكل وعمتك أيضا لها علينا حق وواجب.

لم يطق أبى صبرا على البقاء فى البيت. فقال لى على مسمع من أمى:

– هيا لنشق الحقل معا ونعود إلى أن تعمل أمك لنا الطعام قالها وما خلص من أمى:

– ماذا جرى يارجل؟ الحقل سيطير؟ سينتقل إلى حقول الآخرين؟ تستكثر على أن يظل ولدى ضناى معى ساعات..؟!! اذهب أنت أما ابنى فسيظل معى.. عجيبة والله بطلوا هذا واسمعوا هذا.

رد أبى:

– وهذه هى الحتة الك. ولية بنت.. لسانها متبرئ منها ، والله لو لم يكن من أجل خاطر ابنك لكنت قطعته لك.

دخل أبى فأحضر فرسه وركبها . وقال لى وهو خارج لولا أن فكرة طرأت ماخرجت وتركتك لكنى سأعود حالا.

ظلت أمى تخلط عملها بالغناء والرقص . والرائحات الغاديات من قريباتنا يشاركنها وأنا جالس قربها. لما اطمأنت إلى أن كل شئ غدا كما تبغى. قالت لمساعدة لها:

– خل بالك يابنت. وسحبتنى من يدى إلى منزلنا الفلاحى دون أن تنبس. ودخلت بى حجرة ما كنا نطرقها لأنها غاصة بسقط المتاع بعد أن أمسكت بيدها منقرة، وكانت أمى دائمة الإشاعة أن الثعابين تقطن متاعها المهمل، أغلقت دوننا الباب وأزاحت بعض الأمتعة إلى أن ظهرت الأرض التى تحتها فأزاحت بعض الأتربة بالمنقرة فظهرت علبة معدنية فتحتها وأخرجت منها وفكتها فظهرت ثانية وثالثة حتى بدا من داخل الرابعة جنيهات كثيرة.

ناولتها لى وقالت: خذ ألفى جنيه كنت أحتفظ بها لك ليوم زواجك. أعرف أن ما مع أبيك ليس كثيرا. وأنت مقدم على أمر يحتاج لنفقة وحتى تظهر أمام الخلق بأحسن مظهر وحتى تملأ عين عروسك من أول يوم وحتى لايقول أهلها عنا أننا دونهم مالا.

ـ دعيها معك ياأمى فقد اعطانى الكثير. فضلا عن أنى لا أحتاج أصلا لهذا المال فما معى كثير.

ـ زيادة الخير لاتضر. فدعها معك فأنت لاتدرى مايطرأ . لكن لاتخبر أباك فهو لايعرف عن هذه النقود شيئا فهى من مدخراتى أنا.

وجدت أن رفضها فيه كسر لخاطر أمى فأضفتها إلى ما اعطانيه أبى بعد أن قبلتها.

خرجنا من حجرة الثعابين هذه بعد أن عرفت سر شائعة أمى عنها. قالت لى:

ـ ياليت ياولدى كان معى ما هو أكثر ، الحمد لله أن جعلنى أعيش حتى تقر عينى برؤيتك وأنت تتزوج وليته يتم نعمته على بأن يمد فى عمرى حتى أرى أولادك.

وجدنا أبى قد عاد وسأل أمى:

ـ أين كنت ياولية؟

ـ وأين كنت يارجل؟ كما خرجت لشأنك. كنت أنا فى شأنى.

ـ أنت اليوم لسانك طويل .ياولية تحتمين فى ابنك.

ـ ربنا يخليه ويحمينى.

ـ طيب يااختى يخليه ويبارك فيه.. تعالى أقول لك.

انتحى بها جانبا وأسر إليها بكلمات. رأيت وجهها يشرق وثغرها يبتسم . وسمعتها تقول له:

ـ ربنا يخليه لك ويخليك له ولايحرمنا منك أبدا. طول عمرك أبوالمفهومية. أيقنت أنها مؤامرة على. لم أعرها التفاتا لأنها بلاشك موصلة لخير.

عاد أبى فأخذ بيدى ودخلنا المندرة، وضعت أمى لنا الطعام وما كان طعام إفطارها الدسم قد غادر بطنى بعد. لكن هل يمكن ان أعاف طعام أمى. كانت تكون كارثة لو فعلت. توارد أقارب لنا أثناء طعامنا فطعموا معنا وتوارد غيرهم عقبه فشربوا معنا الشاى وتولى أحدهم أمر الموقد وغلاى الشاى ليقدم لكل حاضر تحيته.

لما اقترب العصر بدأت أستأذن من أبى لأعود لموعد عمى امبابى إلا أنه ظل يرجئنى إلى أن صليت معه العصر فسمعت نفير عربة مغاير لنفير عربتى..

قال ابى لأمى:

ـ العربة قدمت . فقومى ياولية، وأخذ هو أحد أقاربنا وغادر المندرة.

أيقنت أن خيوط مؤامرته مع أمى بدأ تنفيذها. أرحت نفسى من متاعب الاستطلاع وظللت جالسا أحادث بعض أقاربنا فحتى لو كان مايصنعان لايوافق هواى إلا أنى لا أستطيع دفعه فإصرار أبى قضاء لايمكن رده.

عاد أبى بعد قليل. وقال لى:

ـ إذا شئت أن تسافر فلا مانع الآن.

غمرتنى أمى بقبلات كثار ودموع تنحدر وسط زغاريد تتالى وأطبقت دون وعى منها على يدى التى سلمت بها عليها وماتركتها حتى غدوت أسلم على ذوى بيدى اليسرى.

لما خرجت وجدت عربة النقل محملة بعجل سمين وجوالى أرز ودقيق وإناء سمن كبير وأجولة صغيرة أخرى وطلب إلى أبى أن أفتح خزينة عربتى فوضعت فيها إحدى

مساعدات أمى سلتين، قالت أمى عن إحداهما إنها لعمتك.

يبدو أن ملامح الاعتراض ظهرت على وجهى فقال لى أبى هامسا:

– نسيبك رجل يحب الفخر. وذلك شئ يرفع قامتك ويسعد زوجتك وستصيب أسرتك التى تحضر فرحك منه الكثير فلا تزم وجهك.

سلمت وركبت، وظلت مع السلامة ترن فى أذنى طول الطريق. تتبعنى عربة النقل. حتى وقفنا أمام مقهى عم امبابى لترن فى أذنى الحمد لله على السلامة.

• • •

أمر عمى امبابى بعض تابعيه بإنزال أحمال العربة التابعة ورصها أمام مقهاه بعد أن ربط العجل بجوارها بادى الفخر، كما قال أبى يقول لكل من يقدم عليه:

– ياسيدى الحاج والد زوج ابنتى الصغيرة مغرقنى بأفضاله. ياسيدى. كلما سافر إليه الأستاذ زوج ابنتى الصغيرة عاد بمالا نستطيع رد مثله .. ياسيدى الحاج والد الأستاذ مرسل هذه الأشياء ، ماذا أفعل لهذا الرجل .. ياسيدى .. ياسيدى وظلت ياسيدى، تتردد أكثر من ساعة. بعد أن أصر على أن ينقد العربة التابعة أجرها من جيبه .ثم قال لأحد جلسائه بصوت أسمع كل من فى المقهى: خل بالك من هذه الأشياء إلى ان أذهب مع الأستاذ لغاية الصاغة.

فقلت له: لم لا ترسلها إلى البيت قبل أن نذهب.

– اسكت ياولد ياأهبل.

لما ركبنا العربة. قال:

– أبوك رجل يقرأ أفكارى ويعلم أنى أريد أن أغيظ خلقا كثيرين فى حينا أتعرف ياولدى. هذه اللفتات من أبيك بالدنيا عندى. أتعرف ياولدى أنى لما أركب المهر الذى أرسله ويمشى بى متراقصا أحس أحيانا أنه يرقص فوق قلوب كثيرين فيصيبها بالكمد. أتعرف ياولد أن حماتك أرسلت يوما قعب لبن إلى حماة ابنتى المطلقة هدية لتغيظها. فطبت الولية بنت الكلب مريضة من الغم. أتعرف .. أتعرف.. لماذا وقفت؟ آه .. وصلنا الصاغة. دعك منها وجل بنا حتى القلعة وعد. مد يده فى جيبه فأخرج خاتما ماسيا وأسورة شبيهين بما أحضره عديلى لابنته. وقال:

– خذ هذين واحتفظ بهما إلى ليلة الدخلة فألبسهما أمام الناس كلهم لزوجتك. ياولدى البنات تغير من بعضها ولقد خشيت ألا تقدر على مثلهما فاشتريتهما لك حتى لاتكون أقل من عديلك وحتى لاتغير ابنتى من أختها. لكن اجعلها مفاجأة لها وعاهدنى ألاتخبرها بأنى أعطيتهما لك.

مددت يدى ففتحت صندوق العربة الذى وضعت به نقود أبى وأمى، قدمتها له. وقلت:

– أبى أرسل هذه النقود لك مهرا لابنتك. لقد أصر على ذلك وجعل اتمام زواجى منها فى كفة وقبولك هذا المهر فى كفة.

– ياولدى هذا كثير من أبيك والله .صمت قليلا ثم سألنى:

– كم ما تعرف ابنتى أنه معك من نقود؟

– حوالى ألف جنيه.

ـ إذن اسمع .. دع ما أرسله أبوك معك. وعندما نعود إليها الآن اطلبنى واطلب حماتك فى حجرتها واطلبها وقدم لى هذه النقود أمامها. سأظهر دهشة ومعارضة وأقول لك يكفى ماغرمته الآن فى الصاغة فأخرج الخاتم والأسورة وقدمهما لها. سيكون لذلك أثر فى نفسها أبد الدهر. ستشرح صدرها وتسعدها وتظل تذكرها ما عاشت معك فيحل لك ذلك مشكلات كثيرة.عدنا إلى المقهى فأمر أحد اتباعه أن يحضر عربة «كارو» وأكد عليه أن تكون من عربات شيخ العربجية الذى طلق ابنه ابنته. نظرت إليه دهشا فقال:

ـ اطلبها قصدا ليذهب العامل فيخبره فيغتم.

عاد تابعه ومعه العربة فأمره وآخر ان يضعا عليها ما أحضرت من أحمال وأن يربط خلفها العجل، ونادى ثالثا فناوله شومته وقال له:

ـ زف أنت وبعض الشباب هذه الأشياء إلى منزلى واربط العجل أمام المنزل وضع له طعاما حتى أعود.

راحت نفسى تحدثنى: ياك من مغيظ ياعمى امبابى. إنك لست سهلا بالمرة. من أين لك هذا التفكير كله وأنت الذى لم يتعلم. تلقيت منك ومن أبى هذا الأيام دروسا فى الحياة لاتقدر بمال. طنزاً فى التعليم بجانب هذا الذى فعلتماه. تلك هى الحياة وهذه هى تصاريفها . وطنزا فيما أعتقده فى نفسى من ذكاء إنه بجانب خبرتكما قطرة فى بحر. إنكما..

قطع عمي امبابى سلسلة حديث نفسى عندما طلب إلى أن نقوم. ركب بجوارى لنلحق بالزفة التى أمر بها تدخل حارة البيرقدار التى بها بيته لنقطع الأمتار القليلة من أول الحارة حتى بيته خلف الزفة فى أكثر من ساعة.

لما ركنت العربة رأيت الامبابيات كلهن حول العجل يزغردن وجرت ابنته نحوى فأمسكت بيدى ولولا الحياء أمسكها لاحتوتنى بين ذراعيها. أما أمها فقبلتنى أمام كل النسوة المحيطات بها.

أمر عمى امبابى السائس أن يربط العجل فى حلق باب المنزل وأن يضع له الطعام ويظل بجواره حتى يأمره. دخلنا لأتلقى عتابا فرحا من حماتى لما كلفته لأسرتى، تذكرت ما فى خزينة العربة فخرجت إليها لأعود بسلة ثقيلة فاقدمها لحماتى التى قالت وهى تبتسم: والنبى أمك مالها حق.

ونظرت لابنتها وهى تخرج مافى السلة وقالت:

ـ يالهناءك بحماتك يظهر أنك عزيزة عليها.

لما انتهت حماتى من استخراج ما فى السلة وأرسلته إلى مطبخها مع إحدى تابعاتها. نفذت ما أشار به عمى امبابى بحذافيره فأنست الفرحة ابنة امبابى نفسها أمام أبويها وتعلقت برقبتى مقبلة.

قالت أمها:

ـ استح على عرضك ياشعنونة.

وقال أبوها:

ـ وأمامي يابنت ال.. يامن خلعت برقع الحياء.
انتابها الخجل فاختبأت خلف ظهري وقالت:
ـ الله ياأبي أنت وأمي .. إيه زوجي وأحبه ماذا فيها لما أقبله. انهدت الدنيا.
قام أبوها خارجا وهو يبتسم ويقول:
ـ كلوا بعضا الأولاد لا حياء ولا خجل ماذا جرى في الدنيا جيل آخر الزمن. ارحمنا يارب.
هممت بالانصراف لأوصل لعمتي ما أرسلته أمي لها.
فقالت ابنة امبابي:
ـ على الطلاق مثل الرجال ما أنت بتاركي الليلة.
ومدت يدها لتنضو ثوبي عني غصبا وتخلع حذائي غصبا. وتقف أمامي ممسكة بالمنشفة وتأمرني بأن أقوم لأغتسل فقد ألقت القبض علي وانتهى الأمر.

• • •

استلقيت على الفراش لاستجم وجلست هي على طرفه قبالتي وقالت:
ـ لي عتاب معك .. أولا لم أخذت من عمي هذا المبلغ الطائل برغم أنك تملك الكثير.
ـ وماذا فيها؟ أصر ورضخت . تعرفين أبي جيدا من يقدر عليه؟ أتقدرين أنت على عمي امبابي؟
صمتت فتابعت:
ـ عمي امبابي أكثر مرونة في إصراره عن أبي . ثانيا: أنا ابنه وماله مالي. فيها ماذا لما قبلت منه؟
ـ لاشئ لكني أريده مستورا أمام أهلي. فذلك فخر لي. لاتتخيل وقع هداياه على أهلي وعلى ناس الحارة أسعدت كثيرين وغمت كثيرين وأريد ان يظل بيت القرية ملاذا عامرا.
ـ ياحبيبتي. سيظل مستورا بحول الله. فأبي ليس على الحديدة.
ـ ماقلت إنه على الحديدة . وبعد الشر عنه من الحديدة. لكنه سيتأثر بهذا المبلغ الضخم فالخاتم والأسورة لايقل ثمنهما عن خمسة آلاف.
برق في ذهني فجأة عدل عمي امبابي مع أولاده. لقد أعطى ابنته ما قدره بدءا ولكن بطريق أكثر ذكاء ولباقة وأشد إسعادا لها لما تنازلت لأختها عن نصيبها، ياك من شديد المراس ياعمي امبابي.
ـ إيه ياولد سرحت في ماذا؟ تغيظني لما تسرح وأنا أكلمك.
ـ لاعليك ياحبي. ماذا كنت تقولين؟
ـ أقول إنك أرهقت كاهل بابا الحاج بأكثر من ثلاثة عشر ألفا فلم هذا؟
ـ قلت لك «من يقدر على عمك الحاج» أريحي نفسك وأريحيني فقد انتهى الأمر.
ـ نقطة أخرى. لماذا كل هذا المصاغ وقد رأيت على منه الكثير، وهذه الخزينة التي أمامك فيها الكثير وقد رأيته أيضا.
ـ وهل أنت أقل من أختك؟ أم ترأفين بحالي لأني أفقر من زوجها؟
ـ أهذا كلام.. عندما تكون في سنه ستكون أغنى منه مائة مرة.. وما عنده لم يحصل

عليه بجهده وكفاحه وإنما هو ميراث عن أبيه وأمه. فأنت أفضل منه ألف مرة عندى..

– ياحبى.. حبك قدم لك مايعبر به عن حبه لك. مالزوم الأسئلة والاستجوابات. كفى عن السخف ياحبيبتى.

– لافائدة إذن فى كلامى.

– نعم لافائدة أريحى نفسك ، وروضى نفسك مستقبلا على ألا تستجوبينى على شئ فعلته.

– قراقوش أنت؟

– فيما تم .. أما فيما لم يتم فيمكن أن نتناقش ونصل إلى قرار معا.

– طيب.

– هكذا تكون حبى بحق.. أما أن تتحولى إلى وكيل نيابة يكون دمك ثقيلا.

– طيب. قل لى ياحبى كيف قضيت يومك؟

– ذهبت إلى الأرض ووجدت أنه غدا عندنا حوالى خمسمائة أرنب أطبقت عليها كلاب الصيد.

– كارثة هذه الأرانب على الزرع. ربنا يلطف.

– تصور أن بعضها حفر أنفاقا تحت السور وتسلل إلى أرضنا.

– ياللمصيبة. وماذا حدث؟

– لم تحدث خسائر كثيرة إذ سرعان ما أطبقت عليها الكلاب فاصطادت بعضها وهرب البعض الآخر.

– وماذا أيضا.

– انجزت موضوع الهاتف والكهرباء بمساعدة المأمور وضابط المباحث. وربما تم التركيب لكليهما غدا.

– إذن أتت هدية الأرانب بنتيجة سريعة.

– أبدا والله . إنهما ذوا مروءة وبدون الهدية كانا سيساعداننا. على فكرة لاتنس دعوتهما على فرحنا.

– ثم ماذا؟

– جاءنى شيخ الكوائين عصر اليوم وسيوافينا صباحا ليعاين مكان العمل ويحضر مساعديه لما نجهز له معدات العمل.

– ألم ترى أحمد؟

– أبدا. لكنى صادفت المقاول. وأخبرنى أنه طلب إليه أن ينشئ له مكتبا واستراحة فوق مبنى الورشة وعنبرا مكونا من عشر حجرات صغيرة بمنافعها كمأوى لعماله. وطلب منى المقاول مبلغا تحت حساب هذه الإنشاءات فأعطيته له فأضاف خمسة آلاف فى حساب أحمد.

– ألم يعد ابن عمى الذى ذهب ليرى حديقة أحمد؟

– أبدا . وبقية أبناء عمك متذمرون. ويقولون إنه: دائر يلعب وتاركهم للهم. ويريدون أن يشكوك لعمتك وعمتهم.

ـ آه فكرتنى. لم نرسل سلة عمتى لها. أقوم لتوصيلها. وأعود.

ـ دع عنك هذه الحيلة للهرب، لن تفلت منى. أين مفاتيح العربة لأرسلها، أنا مع أحد رجالنا.

قامت ففتشت جيوبى واستخرجت منها مفاتيح العربة وخرجت وعادت حاملة صحفة عليها صحاف وقالت:

ـ قم لتأكل.

رفضت إذ كانت معدتى مرتبكة من طعام أمى الذى دخل على طعام. فرفضت، انضمت أختها وأخوها الذى عاد مبكراً على غير عادته حتى غلبنى النوم وهم جلوس . فلم أدر إلا وهى تهزنى وقد غمر الكون ضوء النهار.

• • •

صحبنا شيخ الكوائين إلى الأرض حيث الملابس المستعملة، وجدنا عمال الهاتف يركبونه. منحتهم ابنة امبابى هبات وطلبت منهم أكثر من توصيلة داخلية، رفضوا بدءا لأن طلبها غير مشفوع بتوصيلات داخلية . كان للنقود سحرها . أنشأوا التوصيلات على أن تشترى هى عددا لها وتقدم طلبا آخر بها فى أقرب فرصة.

وجدنا حصيلة الأرانب تكاد تتضاعف. نشأت مشكلة جديدة هى إطعامها وتسويقها.

تركتها تذهب مع شيخ الكوائين لمعاينة موقع عمله وجلست مع أولاد أعمامى، عاتبونى لأنى أترك قريبهم يلعب عند أحمد ويقومون هم بعمله، امتصصت غضبهم بوعد منى بزيادة عددهم وخرجت فعاينت السبيل، أخبرنى ابن عم لى أن ماشية الأعراب وردته أمس لأول مرة وأن بعض العربات المارة بدأت تقف لتتزود منه بالماء، طرأت على ذهنى فكرة إنشاء محل مجاور نبيع فيه الأرانب، عدت فاستبعدت الفكرة لأنها قد تسبب لنا متاعب وتلزمنا بعامل إن دام كلفنا وإن قطعناه قد يشاغبنا، واستقر ذهنى على بيع تلك الأرانب جملة ولو بثمن بخس.

سألت بعض عمال المقاول الذين كانوا يمدون السلك الشائك حول أرض أحمد عنه. فأخبرنى بأنه على وشك الوصول كما وعدهم، عدت إلى استراحة أولاد عمى، واحدا منهم قد شغل بتجهيز أرانب طعاما لنا كلنا.

جاء المقاول يتبعه أحمد قلت لأحمد:

ـ هناك شكوى ضدك من أولاد عمى. هى أنك أخفيت فى ظروف مريبة ابن عمهم وكبيرهم فى العمل.

غمز لى بجانب عينه وهو يقول:

ـ ماذا أعمل إذا كانت سنارته شبكت مع زهر اللوز. أعجبته فلصق بها.

رد أحد أبناء عمى:

ـ لوز؟ لوز ماذا يادكتور؟ ماسمعنا أن مصر بها أشجار اللوز.

أجابه أحمد: عندى شجرة يتيمة أعجبته، فانجذب إليها، تعالوا إن كنتم جدعان بحق فانتزعوه منها.

رد عليه ابن عم لى:

- لاتسرح بنا يادكتور. قل إنك أغويته وأغريته وتركتنا نتعب نحن فى أرضك وأرض ابن عمنا.

قال أحمد:

- الله أعلم. ومبلغ علمى أنه هو الذى غوى فهوى.

سمعنا صوت ابنة امبابى تولول وهى قادمة تقول:

- ما كان يومك يابنت امبابى ما كان يومك . يالهوى. يالهوى عليك بدرى يابنت امبابى.

ابتسمنا وقال لى أحمد:

- ماذا جرى لامرأتك؟ لم تولول؟

- والله لا أدرى. ذهبت هى وشيخ الكوائين من ساعة لتريه ما سيعمل به، وما كان بها شئ، قفزنا إلى النافذة لنراها قادمة مستمرة فى الولولة تقول:

- عوضك على الله يابنت امبابى عوضك على الله. يالهوى يالهوى.

كانت تشلشل بما رأينا (كالباروكة) إلا أننا استبعدنا أن يكون كذلك.

سألنى المقاول:

- ماذا فى يدها. أكان معها «باروكة»

- من أين لها «الباروكة».

لما اقتربت قال أحمد:

- فى يدها باروكتان لا باروكة واحدة . عجيبة والله.

دخلت مستمرة فى الولولة والشلشلة. قلت لها:

- ماذا جرى؟

- الحق زوجتك حبيبتك. وأنت ياولد ياأحمد الحق أختك وانت يامعلم الحق زبونتك. تعالوا كلكم لتروا الهنا الذى أنا به. ما كان يومك يابنت امبابى ما كان يومك، ياخسارة فلوسك يابنت امبابى ياخسارة فلوسك. عوضك على الله يابنت امبابى عوضك على الله.

انتهرتها قائلا:

- كفى عن الولولة وأخبرينا. ماذا جرى؟

- الحق زوجتك ياحبيبى وفلوسك وفلوسها.

رد أحمد بانفعال:

- فى ستين داهية الفلوس . انهدت الأرض. كفى. ما الأمر؟

- طيب ياولد ياأحمد الملابس وقلنا يمكن نجد لها حلا. أما أن تكون أول «بالة» أفتحها كلها «باروكات» فهذا هو الذى لاحل له.

ابتسم أحمد وقال:

- يبدو أنهم عرفوا أنك قرعاء فقالوا نعطيها «بالة باروكات» كاملة حتى لايغضب عليها خطيبها.

- والله ما أقرع غيرك..

قلت وأنا أمسك نفسى عن الضحك بصعوبة:

ـ لا ياأحمد عرفوا أن عندها أرانب كثيرة فقالوا نزوقها لها بباروكات لتبيعها.

نظرت إلى بغيظ وقالت:

ـ أنا فى ماذا وأنت فى ماذا؟ الحق فلوسك.

قال أحمد وهو مغرق فى الضحك:

ـ إى والله تخيل بنت امبابى على رأس صف طويل من الأرانب وكل أرنب على رأسه باروكة. تقليعة جميلة. ندعو لعرض لها بين أغنياء العالم باسم بنت امبابى.

ـ تعرف ياولد ياأحمد أنا ماذا سأصنع بها. سأنقلها إلى أول حارتنا وأجلس فوقها، وكل ماتمر فتاة أعطيها واحدة. سيدة واحدة. رجل أصلع واحدة. رجل أقرع واحدة. ياللهنا.. ياللهنا. رضينا بالملابس القديمة والملابس مارضيت بنا. ثم نظرت إلى وأردفت: قلت لك نرجع فى البيعة. قلت عيب. طيب اشرب الباروكات بدلا من العيب.

قلت: وأشربها أنا؟ لماذا؟ من اختصاصك التجارة، تشربينها أنت.

ـ طيب اشرب معى ولو باروكة واحدة تخفف عن معدة حبك، عوضك على الله يابنت امبابى، عوضك على الله، يالهوى يالهوى ما كان يومك يابنت امبابى ما كان يومك.

رأيتها متمادية فانتهرتها فكفت وقلت لها:

ـ دعى الباروكات. سأتصرف أنا بشأنها.

ـ شاهدون يارجال. أه هذا عدل.. والملابس أيضا لاشأن لى بها، لأنك أنت الذى قلت عيب.. والتجارة ليس فيها عيب.

ـ كفى واخصمى ثمن الملابس من حسابى. وليس لك شأن بها، ربحت أم خسرت.

ـ اخصم أنت .. أنت الذى يمسك بالحساب .. أه هكذا العدل.. والله حتى ما أنا بداخلة المكان الذى هى به حتى تذهب بها فى ستين داهية.

غمز لى أحمد بعينه ففهمت أنه يريد التمادى فى إغاظتها وقال لى:

ـ لكن أنت ماشأنك. لقد قسمنا العمل والتجارة من اختصاصها فلم تدبس نفسك؟

قلت:

ـ إى والله .. صحيح . أنا ماشأنى. أنا رجعت فى كلامى ياأختى.

قالت:

ـ طفل أنت لترجع فى كلامك؟

قال أحمد: طفل.. طفل لكن لاتدبسيه.

قالت:

ـ أحمد .. اخرج منها أنت خليها تعمر.. أنا لن أنظر الى تلك البيعة.

قلت لأحمد:

ـ مارأيك؟

قالت:

ـ أتشاوره ولاتشاورنى.

قال أحمد:

– الغيرة مرار. تدبسين الرجل وتريدين أن يشاورك.
قالت:
– من أجل خاطرى ياأحمد فأنا أختك .. اشهد معى.
قال:
– وتعطينى عدة أزواج من الأرانب مجذعة.
قالت:
– كلها ياأخى بس خليك معى.
قال لى:
– لن ترجع فى كلامك وسنتولى معا هذا الأمر.
جلسنا نطعم كلنا عدا الحراس. جاء حارس ونحن على الطعام فأخبرنا أن أحد رجال الكهرباء بالخارج يريد مقابلتى. سمحت له بإدخاله. عزمت عليه ليطعم معنا. تمنع بدءاً إلا أن الإلحاح ومنظر لحم الأرانب المحمر أغراه فطعم.
قلت عقب الطعام لرجل الكهرباء:
– خيراً؟
– خير، جئت أتفاهم معكم فى بعض الأمور.
قال أحمد:
– مثل ماذا؟
قال:
– ليس بالمخازن أسلاك نحاسية فإن كنتم مصرين عليها. نتصرف لكم فيها من السوق وتدفعون الفرق وإلا مددنا لكم أسلاكا «ألمنيوم» واسترددتم الفرق.
رد أحمد:
– تصرفوا وندفع الفرق.
قلت لأحمد:
– وماذا فيها لو كان «ألمنيوم»؟
أجاب أحمد:
– النحاس أجود توصيلا والمصنع والورشة لن يعملا بكفاءة تامة مع الألومنيوم.
تابع رجل الكهرباء:
– نريد أن نوفر عليكم ثمن الأعمدة إكراما لخاطر المأمور ونمد لكم أسلاكا أرضية. لكن ليس عندنا عمال، فإذا شئتم مددنا الأسلاك سطحية. أو فتولوا أنتم الحفر بأنفسكم أو اصبروا حتى تتوفر لنا العمالة أو اغرموا ثمن الأعمدة وأمركم لله.
أجابه أحمد :
– سنتولى نحن الحفر.
قال رجل الكهرباء:
– نريد حجرة توزيع كبيرة وحجرتين صغيرتين واحدة بجوار المصنع والأخرى بجوار الورشة والثالثة داخل الأرض بجوار مضخات الرى.

أجاب أحمد:

ـ سنجهز كل ذلك.

قال الرجل

ـ متى لنبدأ؟

نظر أحمد إلى المقاول مستنجدا. فقال المقاول:

ـ سيكون كل شئ جاهزا الليلة.

ـ تعال معى لترينى مكان ماتريد من حجرات ومكان بداية الحفر.

خرجا ومعهما أحمد وابنة امبابى، فالتفت إلى شيخ الكوائين ، وقلت:

ـ وأنت ماذا تريد لتبدأ عملك وتنتهى منه على وجه السرعة.

ـ أولا: لم نتفق على الأجر.

ـ لن نختلف. كم تريد فى القطعة؟

ـ خمسة قروش.

ـ فى مثل هذا الكم خمسة قروش؟ ما الفرق بينه وبين من يكوى قطعة واحدة؟

ـ الفرق أن القطعة يدخل فيها البدلة والبالطو والفستان كبر أم صغر.. وهل القروش الخمسة أجر بدله أم بالطو أم فستان كبير؟

وجدت حديثه مقنعا فوافقته. ثم سألته:

ـ وماذا تريد من معدات؟

قال: مناضد بطول متر ونصف للواحدة. عشر على الأقل لأنى سأكثر من العمال ما استطعت حتى أنتهى، وتكون عريضة حتى يعمل كل اثنين من العمال على واحدة، ومائة بطانية قديمة ومشاجب كثيرة وأحبال لنعلق عليها ما نكويه وأقمشة عازلة، وتضمنون لنا المبيت ومن يجلب لنا الطعام مادمنا سنعمل هنا. والجاز، أما باقى معداتنا فسنحضرها معنا.

ـ ومن أين المشاجب والبطاطين القديمة. والمناضد؟

ـ اذا شئت صحبتك غدا فاشترينا كلا من سوقه.

ـ وهو كذلك. توافينى صباحا فى منزل المعلم امبابى لتصحبنى. وما رأيك فى الباروكات.

ـ أفكر فى أمرها من ساعة أن رأيت حزن الهانم على مالكم ، وربما وافيتك غدا بمن يخلصكم منها بثمن مناسب.

ـ ولك العمولة.

ـ المعلم امبابى خيره علينا فلا عمولة ولاغيره. وأريد أيضا كاتبا من طرفكم ليرصد ماننتهى منه أولا بأول ويتسلمه ويغلق عليه مكانا. فأنا لا أضمن أمانة العمال، ولا أريد أن يحدث مايغير المودة بينى وبين المعلم امبابى.

عاد أحمد ومن معه. وسأل رجل الكهرباء المقاول إن كان سيعود إلى مدينته، فأجابه بالنفى.

فقمت وقلت له تعال لأوصلك. عندما خرجت والرجل جرت ابنة امبابى ورائى وهمست

لى بأن أرضى خاطره. سألته أثناء الطريق إن كان يعرف تاجر دواجن كبيراً، فأخبرنى أن أكبر تاجرة لها بالمنطقة عمارتها تجاور مقهى الترعة. شكرته وأرضيت خاطره كما أرادت ابنة امبابى. تمنع بدءا وقبل نهاية، وأومأ إلى أن هذا له فماذا للعمال؟ فأجبته عندما ينجزون سيأخذون طلب أن ندخل المدينة، فأنزلته واتجهت إلى تاجرة الدواجن. سألت عنها بواب العمارة فقادنى إلى شقتها، وانتظر معى إلى أن جاءت تحمل وتجر وكرشها يحمل ثالثا يسبقها. سلمت على بيد تحمل مالا يقل عن رطل من الذهب مبرزة صدرا ينوء برطل ثان، حادثتنى بتوجس، فلما علمت ماقدمت له عزمت بأن أدخل. رفضت إذ كانت رائحة شقتها تذب حتى ذوى النفوس الحلوة.

وافقت من حيث المبدأ وسألت عن الموقع فعرضت عليها أن تصحبنى، فأجابت بأنها ستقدم خلفى بعربتها وميزانها وأقفاصها، فوصفت لها المكان فعرفته بالسبيل الجديد. أفهمتها اننا به حتى الغروب، وبدءا من صباح بعد غد إذا حال بينها حائل اليوم. أكدت أنها ستكون خلفى.

عدت لأجد أحمد واقفا مع المقاول فوق سطح ورشته وقد فرد رسما بين يديه، وأخذا يتدارسانه معا. صعدت إليهما فأسرنى منظر الأرض المخضرة من عل.. تركتهما لشأنهما فاستغرقت فى المنظر حتى توحدت معه فصار كل مافى نفسى أخضر، واستهنت بكل مالاقيت من عنت أو ما ألاقيه مستقبلا مهما عظم. انتزعنى صوت نسائى ينادى: يا أستاذ .. يا أستاذ، نظرت لأجد تاجرة الدواجن وقد جاءت بقضها وقضيضها نزلت فصحبتها، حتى الأرانب. عندما رأتها بسملت، وصلت، وقلبت، وتركت، وأمسكت، ثم سألتنى وقد جاءت ابنة امبابى من استراحتها لتقف معنا:

– أتربونها هنا؟

– شئ كهذا؟

– جبلية الأصل؟

– نعم.

– إنها تقاوم الأمراض.

– فعلا وكفاك الله شرها.

– أنت الذى ستبيع؟

– نعم.

– صل على النبى.

– اللهم وصل وسلم وبارك.

– الكيلو بجنيهين.

– يفتح الله..

ونظرت إلى صبى الكلاب، وقلت:

– أغلق عليها ياولدى أغلق.. نأكلها أفضل . أوحتى نطعم بها الكلاب.

ردت التاجرة:

– طيب حلمك .. أزيد ربعا.

– تفضلى لنخرج فتأخذين واجبك.
– ما رأيك فى نصف؟
– ولاحتى بأربعة.
– تتغالى جدا.
– انها أرانب تربية لو علم بها المربون لتخاطفوها.
– لكنكم تركتم معظمها يسمن أكثر مما يرغب فيه المربون.
– نجيعها أسبوعا فتعود مرغوبة.
– سأقول لك آخر كلمة.
– إلا ربعا.
– تفضلى لنخرج.
– ياساتر أنت صعب جدا يابك.. دعنا نلقى من ورائك لقمة خبز.
– و«لاتبخسوا الناس أشياءهم».
– طيب على كيفك.
خرجنا فركبت بجوار سائقها، وأنا أخشى ان ترحل دون أن تتم البيعة. ففى الواقع كنت أماكسها وأنا أمسك قلبى بيدى خشية أن ترحل، وتطل المشكلة برأسها من جديد. وكانت ابنة امبابى تلكزنى لأوافق حتى آلمت جنبى من مرفقها.
لما ابتعدت قالت لى ابنة امبابى:
– كنت بعت وخلصتنا.
– لكل اختصاصه وليست الأرض من اختصاصك.
ـ دمك ثقيل.
– على قلب حبيبى سى العسل. ثم قلت اشاغبها مقلدا لها: ما كان يومك يابنت امبابى، ما كان يومك. يالهوى يالهوى.
ابتسمت وقالت:
– أبراج عقلى طارت لما رأيت «الباروكات» الولية رجعت، بع لها وخلصنا.
– الزمى حدك ياهانم من فضلك ولاتتدخلى فى شأنى مادمت هلوعا .. كنت أظن قلبك أرسخ من جبل، فإذا به فى خفة الريشة.
– الله بقى.. أنت ستمسكها لى ذلة؟ والله أروح فأحرقها كلها ولايهمنى ثمنها.
– وتثبتين جنونك بشكل رسمى.
– مجنونة .. مجنونة بس عاجبة حبى.
نزلت التاجرة ووجهت حديثها لابنة امبابى:
– ياهانم خل بالك معنا حبتين أحسن البك يده ماسكة جدا.
قلت:
– الهانم لاشأن لها. وبين الشارى والبائع يفتح الله.
– طيب وربع.
– آخر كلام ونصف .. وأنت حرة.

ـ الأمر لله. من سيساعدنا.

ـ الرجال كثيرون.

أمرت صبى الكلاب أن يتولى تعبئة الأقفاص. وأشرت لحارسين من حراسنا، فقدما وحاسبنا وقبضت ستة آلاف. جاء أحمد وأنا اعدها. فقال:

ـ بالنصف.

قالت ابنة امبابى:

ـ كلها لك ياأحمد.

قال:

ـ ياسلام على الذوق والإنسانية والظرف .. ما كان يومك يابنت امبابى ما كان يومك يالهوى .. يالهوى.. يالهوى.

ـ كف ياولد أنت وأخوك والا انت تعرف ماسيحدث لكما من أسنانى.

أجابها:

ـ يالهوى.. يالهوى.. يالهوى.

طارت وراءه، وحاورها حتى كلت فجلست تلهث. ثم عادت فأسرت إلى أن أمنح الرجال من ثمن الأرانب شيئا يشجعهم على العمل. جمعتهم كلهم ومنحت الصبى والمدرب الربع مناصفة وسلمت الربع الثانى لأحد أبناء عمومتى ليقسمه بالتساوى بين الرجال.

خرج المقاول ليرتب تنفيذ مطالب رجل الكهرباء واتجهت أنا وهى وأحمد إلى استراحتى.

طلب منها أحمد فنجانا من القهوة، وانضممت إليه فى طلبه. ذهبت لتجهزها. سألنى أحمد:

ـ ماذا صنعت مع شيخ الكوائين؟

ـ لم تعد هذه هى المشكلة. لقد انحصرت الآن فى الباروكات.

ـ وهذه أيضا لن تكون مشكلة.

ـ كيف.

ـ لعدة أسباب. أولا خسارة ثمن «بالة» يمكن ان تعوض «بالة» أخرى.

ـ معقول.

ـ وثانيا أنت لم تستعمل شيئا مهما.

ـ ماهو؟

ـ الاعلان عن بيعها فى الجرائد.

ـ إى والله كانت تغيب عنى هذه الفكرة.

ـ لكنى سمعت مرة من نزيهة أنها اشترت باروكة بخمسة عشر جنيها.

ـ لاتكن كبنت امبابى.

ـ الله يكرمك. أنا كبنت إمبابى؟

ـ أقصد فى التفكير .. انها دائما تجرى وراء المكسب الكثير.

ـ أو هذا عيب؟
ـ لا مادام من حلال. لكنه متعب وفيه خطورة.
ـ الدنيا كلها تعب وخطورة.
ـ تأثرت بابنة امبابى وانتهى أمرك.
ـ دخلت ابنة امبابى وهو ينطق جملته الأخيرة فردت عليه:
ـ مالها ياأحمد بنت امبابى. تغيظك بنت امبابى. مفلفل أنت من بنت امبابى.
رد عليها مقلدا لها:
ـ يالهوى ..يالهوى .. يالهوى.
قالت له مهددة:
ـ طيب والله ما أنا بمقدمة لك القهوة .. سأرجع بها.
فقال بتزلف:
ـ أنا أخوك حبيبك.
ـ لكنك تغيظنى.
قلت لها:
ـ حقك على أنا.. لن يغيظك ثانية، أتعهد لك بذلك، عادت فوضعت القهوة أمامنا وجلست تشاركنا فى شربها سألت:
ـ فى ماذا كنتما تتكلمان؟
ـ أحمد يقترح أن نعلن فى الصحف عن بيع الباروكات.
ـ آه .. وافتح على نفسى باب الضرائب. وهل أنا خالصة منهم كل سنة يلهفون منى خمسة أو ستة آلاف.
رد أحمد:
ـ وماذا فى هذا إنه واجب علينا كلنا لبلدنا.
قالت:
ـ آه يا أخى .. واجب على الغلابى الذين مثلنا. أما البكوات فلا واجب، تصور أنى ذهبت الى المأمورية التى أتبعها لأدفع أنا أكثر من ستة آلاف فى اللحظة التى دفعت فيها شخصية كانت وزيرا وهى الآن تعمل بالاستيراد والتصدير وأنا واثقة أنها تملك فوق المليون. دفعت بضع مئات . أهذا هو الواجب الذى جئت تقول عليه لما نكون كلنا فى الواجب سواء أدفع ولو كل مالى.. لا..لا.. لن أستعمل الجرائد.
قام أحمد متجها إلى عماله بالمدينة القريبة ليطمئن ـ كما أخبرنا ـ على بعض ما عهد إليهم بإنجازه.

• • •

وقمت أنا وابنة امبابى عائدين إلى مدينتنا.. أكدت على أحد سائقينا أن يوافينى صباحا على بيت عمى امبابى باحدى عربتينا. ركب معنا شيخ الكوائين وراح طول الطريق يطمئن ابنة امبابى إلى جدوى ما اشتريناه من ملابس قديمة، وأننا سنربح فيه الكثير وأنه سيتولى تسويقه لنا أولا بأول بعد إعداده فى المظهر الذى يغرى المشترى.

سمعت صوت عمى امبابى ونحن نعبر حديقة المنزل الداخلية. قلت لابنته:

ـ أبوك بالداخل مبكرا . ليست عادته.

ابتسمت وقالت:

ـ لابد أنه اشتاق لحماتك.

ابتسمت وقلت:

ـ سيصبح مزهرا، وتصبح أمك تشكو آلام ظهرها.

ضربتنى على ظهرى مبتسمة وقالت:

ـ انت بقيت سليطا ياولد. من أين أتيت بهذه السلاطة؟

مسينا وهممت بالدخول إلى حجرتها لأبدل ثيابى فاستبقانى عمى امبابى، وأمر ابنته بالجلوس.

توجست منه خيفة إذ كان مستوفزا هو وزوجته. قلت فى نفسى: ياساتر استر. بدأ:

ـ بالذمة. هذا كلام.. أو عقل منكما أنتما الاثنان.

أجبته:

ـ لم ياعمى امبابى .. كفى الله الشر؟

ردت زوجته:

ـ اثنان سيدخلان بعد أسبوع وتائهان فى الدنيا، طائران طيرانا وراء الفلوس، الله يلعن الفلوس على من اخترعوا الفلوس.

ردت ابنتها:

ـ ماكنا عالا ياأمى . ماذا جرى؟

رد أبوها:

ـ جرى يابنت الكلب ياشعنونة . رابطة الولد على طرفك ومن الشرق للغرب. طيب ما ذنبه هذا المسكين معك؟

قالت لأبيها:

ـ وهل اشتكى لك ياأبى؟

رد أبوها:

ـ أمن اللازم أن يشكو .. طيب هو ذوق .. يبقى نحن عندنا نظر . قولى لى أين ستدخلان؟ أظن ستقولين : فى الفندق. أو فى شقة مفروشة . أو حجرتك أو حجرته.

ردت:

ـ يا أبى.

قاطعتها أمها:

ـ أب نحل ينحل وبرك.. الفلوس على قلبك شئ ماله آخر. وناوية تفضحينا يا كلبة مع عيلة الاستاذ التى لاتستأهلين أن تنتسبى إليها.

وتابع أبوها:

ـ وتصغرين بزوجك أمام عديله. ماذا يكون موقفه أمام عديله لما يكون لعديله فيللا بسم الله ماشاء الله وهو مقيم بك فى حجرة عند عمته أو حتى فى حجرة فى بيت أبيك

يابنت الكلب.

قلت:

– ياعمى..

قاطعنى:

– لاتدافع عن بنت الكلب.. أنت وعائلتك عملتم مايجب وزيادة. لو أن واحدا غيرك كانت النقود التى أتيت بها مهرا وشبكة لبنت الكلب التى لاتستأهلك قد وزعتها بين كل هذا وبين الشقة أيضا وقال لنا: هذه إمكاناتى. ماذا كنا نقول له؟ لابد أن تفيق بنت الكلب ولاتقصر رقبتنا.

وأكدت زوجته على كلامه بقولها:

- أه معلوم.. لابد أن تفيق ومن بكرة لا أرض ولازفت مغلى على دماغها، وتنزل تشترى الجهاز هى وأبوها بالمهر الذى على قلبها وتدخلان مؤقتا فى الشقة التى كنا حاجزيها لأخيها الصغير، إلى أن نجد لكما حلا فى شقة أو حتى فى فيللا. إيه أقل منها يابنت الفرطوسة بالفلوس أكوام أكوام على قلبك. أنت أقل من أختك يافرطوسة، تصغرين رجلك، وتصغرين رقبته كالسمسمة أمام من يسوى ومن لايسوى. وتشمتين به ابن التربى ياكلبة.

وتلقف أبوها الخيط فتابع:

– أه يابنت الكلب يامن ليس عندك نظر. والله ولولا أنك ابنتى ماكنت تتحصلين على ظفره. رجل سى الفل برقبتك يابنت الكلب، وابن راجل له قيمته فى قريته وجيرته، وله مستقبله فى رجليه. والله لا أعرف لماذا رضى بمثلك؟

تابعت أمها:

– صحيح صدق من قال «مرآة الحب عمياء».

كان هذا الهجوم المفاجئ قد بهتنى فلم يرم نظرى عن عمى امبابى وزوجته إلا أنى سمعت تشنجا من خلفى، فالتفت لأجد ابنة امبابى تنثال دموعها مدرارا فى صمت. اضطرب قلبى من أجلها كما لم يضطرب من قبل، ولولا أن أمها وأباها هما اللذان يوبخانها لأطحت فيهما، قمت واحتويتها وقبلت رأسها:

فقال أبوها:

– كف عن تدليلك لبنت الكلب هذه فتفسدها أكثر وأكثر. ولابد أن ترد علينا الآن.

– وهل أعطيتمانا فرصة للرد ياعمى امبابى.

– قل ولاتدافع عنها.

– إذن هيا بنا أنت وخالتى امبابية.

– إلى اين؟

– لأريكما شقتنا.

قالت زوجته:

– شقتكما؟

– نعم شقتنا هيا.

توليت القـيـادة على حـين تكومت ابنة امـبـابى بجـوارى تبكى طول الطريق إلى هليوبوليس.

كان بوابا العمارة يجلسان أمامها ما إن لمحا ابنة امبابى حتى أسرع أحدهما يفتح لها باب العربة ويحييها. وجرى الآخر ليحضر المصعد .مشت بجوارى متعثرة متشنجة والدهشة بادية على أبويها لفخامة مدخل العمارة وعلى البوابين لبكائها. سألها البواب ونحن فى المصعد عما يبكيها فلم ترد ، لما نزلنا من المصعد ناولته مفتاح الشقة ففتح وتقدمنا فأضاء الأنوار. واتجه إلى الداخل فأحضر بعض زجاجات باردة فوضعها أمامنا، وسألها إن كانت تريد شيئا فلم ترد عليه، فخرج ليقف أمام باب الشقة اتجهت إلى الحمام متثاقلة فغسلت وجهها، وعادت تقول لأمها وأبيها والعبرات تخنقها من جديد: تفضلا حتى تعرفا أنكما ظلمتمانى. هذه هى شقتى وتلك عمارتى، ووالله ما أنا براجعة معكما ولا بمعتبة بيتكما ثانية. ونادت البواب وقالت له:

ـ اذهب ياولد فأحضر المأذون.

دهش البواب وتسمر فى مكانه. نهرته وصبت على رأسه كل انفعالاتها وسبت جدوده حتى سابع جد فجرى يتكفأ ثم وجهت حديثها لأبويها. أنا لست بقاصر وسأعقد قرانى الآن بنفسى وأظل بشقتى. واذا عتبت بيتكم فلكى آخذ نقودى ومتاعى. واذا رأيتم وجهى ثانية فاضربونى بأحذيتكم.

قال لها أبوها:

ـ ايه ياأختى! «خذيهم بالصوت» تبقين مخطئة من قمة رأسك لأخمص قدمك ولك عين تغضبين. ماذا أدرانا نحن بأنك مجهزة حالك.

وقالت أمها:

ـ ولم تخفين علينا؟ أكنا اعداءك. أم كنا حسادك. ماأحب على قلبينا أن تكون لك الدنيا كلها. انت بنت طول عمرك خبيثة وقلبك أسود. لم تخفين عنا؟ ولما تخفين عن أبيك وأمك من تعلمين؟ ووجهت حديثها لزوجها:

ـ قم يارجل ودعك منها.

ثم التفتت الى ابنتها مردفة:

ـ يخونك صدرى الذى رضعتيه وتخونك بطنى التى حملتك وتتحرمين على السبع حرمات ما أعرفك فى الطريق ماشية. قال البنت تخبئ عن أمها وعن أبيها؟ بنات مايعلم بهم الا المولى. ياساتر عليك بنت . الولد الغلبان زوجك أمه داعية عليه لأنه رزق بواحدة كلها خبث ولؤم الفلوس أعمت قلبها.

قلت:

ـ اهدئى ياحماتى بس..

قاطعتنى:

ـ ولاحماتك ولاغيره. وأنت ايضا يامن كنا نظن ان كلك طيبة، تهاودها على لؤمها وتخبئ عنا. طيب هى لئيمة. مالك بلؤمها .. تعال ولو فى السر بينى وبينك أو بينك وبين عمك امبابى وطمئننا.

قلت:

– لقد أردنا ان نعمل منها مفاجأة لكما.

رد عمى امبابى:

– مفاجأة . أية مفاجأة ياعاقل يابن الرجل الحكيم؟! خطأ فى خطأ هذا الذى فعلتماه.

قلت:

– أسف ياعمى وغلطان. وأعتذر عنى وعن ابنتك.

قالت أمها:

– وهى لم لا تعتذر وتقوم فتقبل رأس أبيها ويده ورجله وتقول له سامحنى يأبى أنا غلطانة.

سحبت ابنة امبابى من يدها وقد عاودها التشنج من جديد فقبلت رأس أبيها فاحتضنها وقبلها. وقبلت أمها واعتذرت لكليهما.

فقالت أمها:

– الآن يمكن ان أتفرج على الشقة. وربنا يملأها لكما بالرزق والأولاد.

قاما يجوسان خلال الشقة وقد احتضن عمى امبابى ابنته التى تزفر بين أن وآخر، وأخذت أمها تبدى لها بعض الملاحظات حول بعض المحتويات وترتيبها. لما وصلنا الحمام امرتنا أمها ان نعود الى مجلسنا فى البهو. وأغلقت دونها الباب هى وابنتها. غابا حوالى الساعة رحت خلالها أؤكد لعمى امبابى أنى لم اعرف بأمر هذه الشقة الا من أيام ولم أرها الا مرة واحدة. وأنى عارضت أمر اخفائها. وأن الفكرة من اخفائها ان تكون مفاجأة للأسرة وملامح الرجل تشى بأنه بين مصدق ومكذب. لما عادتا الينا بعد تلك الساعة كانتا تبدوان مجلوتين من أثر الحمام وكانت المياه الساخنة قد فعلت فعلها فهدأت ابنة امبابى تماما.

داست ابنة امبابى زرارا ونادت أحد بوابيها فرد عليها فطلبت اليه ان يقدم . لما قدم اعطته نقودا وأمرته ان يحضر «تورتة» وبعض «الجاتوهات» من محل مجاور بعينه سألها أبوها:

– لمن؟

– ليس لأعز وأغلى منك ومن أمى.

وصمتت قليلا ثم أردفت :

– وحفاوة بأكبر علقة نالتنى منكما.

قام أبوها يقبلها ويقول:

– والله والله أنت غالية عندى مثل أغلى صبى من صلبى ولولا خشيتى عليك وخوفى على مستقبلك وقيمتك بين الناس ماحدثتك فى شئ. قدرى يا ابنتى ان ماحدث انما هو من قبيل حرص الآباء على ابنائهم.

وربتت امها على ظهرها وقالت:

– «يابخت من بكانى وبكى على» يا ابنتى.

عاد البواب الأول يصحب المأذون. قابلته وقدمت له تحيته وكدت اصرفه متعللا بإرجاء الأمر ليوم آخر. الا ان عمى امبابى قال لنا ماعقد الدهشة على وجوهنا ومن يقدر على عصيان عمى امبابى وبخاصة عقب تلك العلقة قال:

ـ ربنا هو الذى يفعل ويرتب. أتعرفون ياأولاد ان الناس كلها فى الحى عندنا تعرف أنكما زوجان وهذا حق شرعا. الا ان الناس وبخاصة الحساد منهم لو احسوا بأنه زواج شرعى فقط لتقولوا علينا الأقاويل كلها.. لذا كنت عازما على ان أصحبكم قبل عقد قران ابنتى الأخرى الى مكتب اى مأذون بعيد واعقد قرانكما فيه حتى لا تلوك الألسنة سيرتنا. اما والفرصة متاحة لنا الآن فلنعقده على بركة الله.

ابتسمت وقلت:

ـ وساعتها تكون ابنتك فى حماى ولاتقدر ان تقول لها ولا نصف كلمة.

فقال بتأكيد:

ـ لا أقدر؟ انت وهى أولادى واذا أخطأتما أو حتى بدون خطأ اذا عن لى يمكن ان أضعكما على قلب بعض وأطيح فيكما ضربا .. آه.. اعملا حسابكما على هذا طالما أنا حى.

قلت:

ـ ربنا يبارك فى عمرك . بس بدون ضرب. ونظرت لابنته وقلت لها:

ـ أما رأيت الهنا الذى نحن فيه أبى فى القرية وأبوك هنا. سنلاقيها من هناك أم هنا؟

ردت زوجته:

ـ احمد الله واشكر فضله انهما يعيشان ويحملان همكما.

سألنى عمى امبابى عن بطاقاتنا الشخصية قدمناها له أضاف اليها بطاقته. أمسك الكل فى يده وانتقل الى الحجرة التى بها المأذون رحب به وقدم البطاقات له وقال له:

ـ هيا يامولانا توكل على الله.

طلب المأذون بطاقات الشهود. قدم له البواب بطاقته واسرع فأحضر زميلا له ببطاقته.

سأل المأذون عن المهر عاجله وآجله. نظر لى عمى امبابى وهم بالقيام. فهمت مقصده أجلسته وقلت له:

ـ أنت أبى وأبوها وانا راض بما تفعل لأنها ستكون بأمر الله زيجة كزيجة النصارى لافراق الا بالخناق.

رد المأذون: ربنا يبارك فيها وفيكما يا أستاذ.

أملاه عمى امبابى:

ـ اكتب يامولانا. المقدم ربع جنيه والمؤخر.

جعل يردد الكلمة الأخيرة عدة مرات ثم نظر الى مستنجدا وقال:

ـ ياولدى قل شيئا ولاتحيرنى.

ـماينطق به لسانك ياعمى.

ـ والمؤخر يامولانا خمسة آلاف.

فملت على ابنته التى كانت لصيقة بى وهمست لها:
ـ ابقى تعالى قابلينى ان طلتيه.
نلت منها قرصة فى ذراعى عقابا فوريا. ولاحظت أمها ذلك. فقالت تزجرها: يابنت.. يابنت. وأشارت الى الحضور. فالتصقت بى ابنتها أكثر. طلب منى المأذون ان اضع يدى فى يد أبيها وأجرى مراسمه ومد لنا قلمه فوقعنا وكان البواب قد عاد بالحلوى فقدمتها أمها لنا فأكلنا كلنا وسط زغاريد أمها التى عبقت جو الشقة بالسعادة.
دس عمى امبابى فى يد المأذون منحته يبدو أنها كانت كريمة اذ ارضت المأذون بمجرد ان نظر اليها.
جمعت امها مابقى من حلوى فأعطتها للبوابين. ودخلت هى وابنتها الى المطبخ. فأعادتا نظامه وقام أحد البوابين بنظافة الحجرة التى جرت بها مراسم العقد ولم يبق الا ان نعود لبيت عمى امبابى بعد ان تقدم الليل.
قام عمى امبابى وقال:
ـ هيا بنا.
غمزت لابنته وقلت:
ـ الى اين؟
ـ نعود لبيتنا.
قلت: عودا أنتما. أما انا وابنتك فسنظل هنا.
ونظرت اليها وأردفت.
ـ أليس كذلك ياحبى؟
قالت:
ـ نعم. انا معك حيث تكون.
دهش عمى امبابى وقالت زوجته لابنته:
ـ أتطبقين مثل جحا.
قالت ابنتها:
ـ كما طبقته انت من قبل ياأمى.
قالت أمها:
ـ شوفى ياأختى البنت وطول لسانها آه يامقروصة.
قال أبوها:
ـ اعيدانا وارجعا.
قلت:
ـ وعلى ماذا؟ ظلا انتما معنا. الشقة ثمانى حجرات فاختارا ماشئتما منها وعسكرا فيه.
وقالت ابنته:
ـ اى والله صحيح ياأبى.. اهربا من المنزل وابدءا شهر عسل جديد معنا.
ـ عسل فى عينك قليلة الحيا. هيا يابنت أوصلينا.

قالت لي:
ـ مارأيك؟ أنوصلهما له.
ـ سى بعضه حتى يخلو لنا الجو.
قالت أمها:
ـ هكذا؟ يخلو الجو؟ طيب ان قدمت لكما المخبأ عندما تزوراني.
قلت:
ـ لن نهون عليك ياحماتي. ياحماتي أنا عائل همك أنت وعمي امبابي وأريد ان تصبحا مزهرين.
قالت:
ـ استح على عرضك ياولد.
قلت:
ـ انت حرة. على كل حال عمي امبابي موافق لأنه ساكت.
رد:
ـ اى والنبي ياولدى . الواحد نفسه. لكن ماذا اعمل لحماتك التي جمعت كل أوجاع الدنيا في جسدها. ماعادت تنفع ياولدى . اصنع معروفا فى عمك ياولدى وابحث عن بنت بختم ربها تعيده الى صبوته.
ردت عليه زوجته بانفعال :
ـ أهكذا يبحث لك عن بنت بختم ربها بعدما خلصت على أنت وأولادك. آه منكم ياصنف الرجال.. انت ولا الجن كان يطيقك عيني على .. خلصتم على وأنا كنت سى الوردة وكان كل الشباب فى حينا وأنت أولهم ستجنون على جنانا.
رد معاكسا لها:
ـ بأمارة ماذا؟
ـ بأمارة المائة خناقة التي دخلتها من أجلي وأخرها خناقك مع بطاطة.
قال مستمرا فى معاكسته:
ـ كان .لكن نحن أولاد الآن. انذار بمجرد ما استر على البنتين سأبحث لى عن بنت صغيرة تعيدنى لأيام الصبا.
قالت له منفعلة:
ـ على ماذا ستأخذك ياحسرة. تأتى فتسألنى.أنت أيضا صارت صحتك أردأ من صحتي. قل بعد ماتستر عليهما نبحث لنا عن شفاخانة نعالج فيها من أوجاعنا.
وضع يده على كتفها وضحك عاليا وقال:
ـ ربنا يخليك لى يا امرأتي ياحبيبتى. هل سأجد من هى أفضل منك؟
صفقنا أنا وابنته وقلنا فى نفس واحد:
ـ الله الله على غزل العواجيز.
قال عمى امبابى:
ـ عواجيز فى عينكم .. هيا انجرا أمامى فلأوصلانا.

عدنا نضحك طول الطريق. دخلنا الحارة وقد تقدم الليل فلم يصادفنا ديار اللهم الا بواب بيت عمي امبابى الذى تعود الايغلق بابه مادام أحد من أهل المنزل بالخارج.

جاءنى سائقنا بعربة النقل صباحا. ركبت بجواره أنا وشيخ الكوائين الذى حضر حتى قبل ان استيقظ وجهنا شيخ الكوائين الى مظان وجود مايريد من أشياء. كنت أسمع بسوق الكانتو حتى وأنا صبى يلعب بالقرية، كانت هناك استحالة فى ان تدخله عربة النقل فوقفت على مبعدة كبيرة منه. جسنا خلاله أنا وشيخ الكوائين. كان يمكن ان نشترى مانشاء فى دقيقة ونخرج الا انى أبيت الا ان استطلع هذا العالم الغريب الغاص بكل قديم من الملابس التى تباع فيه أو تشترى بقروش زهيدة. لايرفض تجاره شيئا ولا يتمسكون بثمن معين. المماكسة أساسية لكنها تنتهى الى بيع. سألت شيخ الكوائين:

– اما كان يمكن ان نبيع هنا ماعندنا؟ فأجابنى ممكن وفى دقيقة لكن بخسارة كبيرة فالأشياء هنا لاتباع ولكن يرمى بها رميا. ان بيعا أوشراء. سوقكم الطبيعى هو وكالة البلح.

وقر فى ذهنى ان مالايصلح لبيع عندنا يمكن ان يباع هنا بدلا من اشعال النار فيه.

تسهل لى الشراء فى القلعة اذ تصادف ان وقفت الى محل فإذا بصاحبه ممن نازلت فى لعبة العصا احتفى بى حفاوة كبيرة وأعطانى سعرا لم أكن لأحلم به وعرض ان يشترى ماباع لى بعد ان أقضى منه وطرى بل حتى أقسم بالطلاق الا يأخذ نقودا فى يومه ليجبرنى على زيارة ثانية.

سافر السائق بالأحمال الى الأرض وعدت وشيخ الكوائين بالمواصلات العامة طلب الرجل سلفة ليعطى عماله منها مايتركونه لذويهم قبل ان يغادروهم. فضلت ان أشاور عمي امبابى فى الأمر مررنا عليه بالمقهى ولما شاورته قال:

– اعطه بضمانى ثم اردف بفخر عمك امبابى يحمى أخلاطه جيدا ولايفكر أحد فى أكله.

قبل ان يغادرنا شيخ الكوائين قال لى جهز وسيلة نقل لثلاثين فردا على الأقل غدا صباحا سنتجمع فى مقهى عمك امبابى لنتحرك فى العاشرة.

كان أمامى إذن تدبير وسيلة النقل وتدبير الوقود الذى نسيت ان أعهد الى المقاول بتدبيره من مدينتهم. استأذنت عمي امبابى وذهبت الى عمتى جلست معها قليلا طرأ على ذهنى خاطرة : لم لاتكون ابنة عمتى هى الكاتب. انها هكذا تتسلى وتستفيد بدلا من باقى أجازتها. عرضت على عمتى الأمر رفضته من أول وهلة. وقالت انه يتناقض مع قيم عمك بطاطة وقد يغضب خطيبها.

صادفنى الشيخ محمد وأنا خارج فاستوقفنى يطلب سلفة يعالج بها ابنة مريضة. سألته:

– ألك أجازة فأجابنى: بأنه لم يحصل على يوم واحد أجازة من يوم أن عمل من سنوات كثيرة. قلت له:

– إذن اطلبها وابدأها من غد لتستفيد خلالها بمال لأولادك.

وطلبت اليه ان يتجهز لاقامة خارجية قد تطول ما طالت الأجازة وأن ينتظرنى صباحا بمقهى عمى امبابى. انثال لسانه بدعوات وأناأنطلق مبتعدا عنه.

تذكرت أسماء أكثر من شركة للنقل السياحى الا أنى لا أعرف مقر اى منها هدانى تفكيرى الى استعمال دليل الهاتف . عرجت على مكتب له بميدان قريب. نقلت من الدليل أكثر من عنوان ورقم هاتف فكرت فى استعمال الهاتف للتفاوض المبدئى فى الأجر. كان هاتف المكتب متعطلا.

جبت الميدان حتى عثرت على هاتف أمام محل استأذنت صاحبه واستطعت بعد عدة مكالمات مع عدة مكاتب ان أكون فكرة عن الأسعار. يممت شطر أول مكتب حاولت أن أنزل بالأجر قليلا الا أنه تمسك وفقت مع الثالث. أعطيته عربونا. وطرت الى مدينة المقاول. كنا قبيل الغروب فوجئ بى [illegible]

ـ أثمة شئ؟ وأين نصفك الآخر؟

طلبت اليه تدبير برميل من الوقود وارساله الى الأرض من ليلتنا ليبيت فيها دهش لهذا المطلب الذى رآه هينا ولايستحق ان أتعب نفسى لأجله. استدعى أحد عماله وكلفه بما طلبت. أخبرنى بأن معداته انهت حفر مكان خط الكهرباء أمس وأن عماله بنوا فى الصباح الحجرات المطلوبة وأنه ترك أحمد يراقب ويوجه مهندس الكهرباء الذى تبين انه أحد تلامذته بالكلية. وأخبرنى ان هجوم الأرانب ليلة أمس ـ كما علم من العمال ـ كان شديدا وأنها لم تدع الكلاب تهمد للحظة طول الليل وأن أحمد أحضر معه سموما واراد رشها حول الأرض الا ان العمال رفضوا ذلك حتى يتلقوا أمرا منك وأن أحمد غضب منهم وتوعدهم لكنه عاد فترضاهم خشية ترك الأرض مساء للأرانب.وأخبرنى ان دعوة وصلتنى على الأرض من أحد الأعيان لحضور مجلس صلح بعد غد بين عائلتين فى قرية مجاورة وأن أحد تجار وكالة البلح قدم لمعاينة الملابس القديمة الا ان ابناء عمى رفضوا فترك لى رقم هاتفه مع أحد أبناء عمى لأتصل به. وأخبرنى ان ابناء عمك متذمرون فعلا من ثقل العمل عليهم وأنهم تحدثوا معه فى هذا الأمر واشتكوا من أنك تهمل رغبتهم باستقدام من يساعدونهم. وأنه وعدهم باقناعى بذلك.

سألته: ان كان يمكن ان يمدهم بعمال مؤقتين يضمن ولاءهم. أجاب: بأنه لايضمن أحدا لكنه سيرتب لهم عمالة متغيرة بين ليلة وأخرى حتى لايعطى لأحد فرصة تبييت شئ. وإن شئت مددتهم من الليلة. أبديت له موافقتى ورجائى.

طلب نقودا. لم يكن مامعى يغطى مطلبه. أعطيته ما معى ووعدته بالباقى فى الصباح. عرض على ان أبيت عنده. شكرته وعدت لتستجوبنى ابنة امبابى بأين كنت ومن قابلت وما فعلت ولماذا تأخرت. طلبت منها ان تعد لى حماما دافئا يريح أعصابى التى أرهقتها كثرة الحركة وتناولت عشائى معها واستلقيت على الفراش أسمع معها لموسيقى خفيفة. غلبنى النوم مبكرا، أيقظتنى لتخبرنى ان خطيب أختها قدم لزيارتهم وطلبت الى ان أقوم مجاملة له. لما يئست منى تركتنى لأواصل حتى الصباح.

• • •

وصلت مقهى عمى امبابى قبيل الثامنة لأجد عربة السياحة تقف أمامه وتحجبه عن

الطريق صبحت على من فى المقهى. جاء شيخ الكوائين فأخبرنى ان عماله متكاملون وقد وصل عددهم الى أربعين لم أجد الشيخ محمد سألت عنه أحد عمال المقهى ان كان قد رآه. قال:

- ترك سلته وذهب يحضر شيئا نسيه من المنزل.

انتظرناه حوالى ربع الساعة. لما وصل كال له عمى امبابى شتائم ثقيلة لأنه عوقنا. قابل شتائم عمى امبابى بصمت مطبق.

طلبت منه أن يركب بجوارى فى عربتى. طلبت من قائد عربة السياحة أن يتبعنى وانطلقنا. لما وصلنا سألت شيخ الكوائين عن يوم اجازتهم لأربط مع عربة السياحة لتعود بهم وتعيدهم. أخبرنى بأنها من آخر نهار الأحد الى صباح الثلاثاء من كل أسبوع. حاولت ان انبه على السائق بذلك الا انه أبى الا أن أعود للمكتب لأتفق معه من جديد واعتذر بأنه غير مفوض من صاحب المكتب بالاتفاق على شئ.

طلبت أحد سائقى عربتى النقل وخصصته أمامهم بقضاء مطالبهم من المدينة القريبة. أكدت عليه ذلك أمامهم كلهم حتى لايكون لأحد تعلة بشئ. وقلت لهم رتبوا مطالبكم ليذهب لقضائها مرة واحدة ويحسن أن ترسلوا معه مندوبا عنكم ليكون مسئولا أمامكم.فإذا لم تعينوا مندوبا منكم فلا شكوى من سائقى حتى ولو اشترى لكم ترابا.

أما عن شايكم وقهوتكم فيمكن ان تتفقوا مع الشيخ محمد ليصنعها لكم. إما على هيئة اشتراك بينكم وإما شراء منه. أنتم بالخيار، ولاخروج فى الليل مطلقا فمن المغرب تغلق الأبواب ولن يسمح الحراس بالخروج أو الدخول ولاتجوال كذلك فى الأرض حتى لاتهاجمكم الكلاب فتؤذى أحدا. وسأحضر لكم من غد جهازى «تليفزيون» و«فيديو» لتسليتكم أثناء العمل.

حسابكم مع شيخكم كل أسبوع هو يتقاضى منى ويحاسبكم ولاشأن لى بأحد منكم فى حسابه مطلقا. وسأمنح كل أسبوع ستين جنيها مكافأة لأحسن ثلاثة يؤدون عملهم بجد ويعينهم لى الشيخ محمد. الأول ثلاثون والثانى عشرون والثالث عشرة وحارس البوابة سيفتش أى خارج فلا تأخذوا الأمر بحساسية. وقبل ان أغادرهم سألتهم ان كانت لهم مطالب. فقال أحدهم: مطالب لصالح العمل نسيتم أكياس البلاستك التى نحفظ بها انتاجنا من التراب.

فتمتم شيخهم: عندى أنا هذه لقد فاتتنى.

سألته عن مصادرها ومقاساتها وكمها. فأخبرنى فوعدته من غد تكون موجودة.

خرجت فجمعت حراسى وأفردت أحدهم للمبيت فوق ظهر المصنع تحسبا لأى طارئ. ونبهت على من يتولى منهم أمر الباب بتفتيش من يخرج من الكوائين حتى ولو كان شيخهم.

وأخذت أولاد عمى وذهبت الى استراحتى وعاتبتهم على شكواهم للمقاول حاولوا أن يتعللوا بتعبهم. بينت لهم أنى سوفت مطلبهم لأنى كنت أريد ان استقدم لهم رجالا ان لم يكونوا من أقاربنا فمن قريتنا.

حاولوا ان يترضونى فقبلت ترضيتهم لكن مع إبداء غضب ولوم. ثم صرفتهم لعملهم

بشئ من الكلفة والسخف. وجلست أرصد بعض حساباتنا وحسابات أحمد معنا. جاءنى حارسنا الأول فأخبرنى أن المقاول أرسل أمس ستة رجال ظلوا يساعدون أولاد عمى طول الليل.

أمرته أن يرصد الأعداد التى ترد. ولايسمح لأحد الغرباء أن يتكرر حضوره لأكثر من ثلاث ليال متوالية. سألته عن حصيلة الأرانب فأخبرنى أنها تكاد تقارب ما بعناه منها. أمرته ان يبيع للتاجرة إذا حضرت فى غيبتى وأن يحتفظ بالنقود معه. قمت فعاينت توصيلة الكهرباء التى كانت قد وصلت حتى ورشة أحمد ولما تصل الينا بعد. سألته:

ـ أية معوقات صادفت رجال الكهرباء فمنعتهم من إكمال وصلتنا؟

ـ دخلهم الليل فمنعهم الظلام والدكتور أحمد طلب إليهم ألا يأتوا اليوم إلا بعد الظهر حتى يكون حاضرا معهم.

نظرت فى ساعتى كانت تقارب الثانية غلب على ظنى أن رجال الكهرباء لن يأتوا اليوم. عدت الى مكمن الحارس وسألته عما عنده من طعام قال:

ـ نصف ساعة وتكون الأرانب جاهزة.

جاء أحد ابناء عمومتى يعزم على بالغداء معهم. رفضت فألح فأصررت على رفضى. ذهب وعاد بالآخرين يلحون وأنا متمسك برفضى حتى قال لهم الحارس:

ـ دعوه فمن حقه أن يرفض طعامكم كالغرباء. لأنكم وانتم الذين من دمه تشكونه للغريب. أهذا يصح؟ لقد أخطأتم خطأ كبيرا فدعوه حتى تصفو نفسه.

خرجوا ولومهم لأنفسهم باد على ملامحهم. وضع لى الحارس الطعام وما ان بدأت حتى حضر أحمد ومعه تلميذه مهندس الكهرباء فشاركانى فيه. أخبرنى أحمد بأن العمال بالخارج يواصلون عملهم وسألنى عن بنت امبابى ولم لم تحضر؟ وأخبرته بلقائى مع المقاول أمس وما قاله لى. قام بعد الغداء هو وتلميذه المهندس يتابعان العمال. سألته ان كان يريدنى أم أعود أنا؟ فاستبقانى.

ذهبت الى استراحتى فغفوت حتى ايقظنى أحمد بعد حوالى ساعة. ناديت حارسنا الأول وطلبت شايا. نظرت لأحمد وابتسمت فقال:

ـ تريد ان تعرف أخبار ابن عمك؟ ستجده الليلة عند عمتك يحادثها فى خطوبة لوزة له. وربما وجدتها معه. عارضه وعارض عمتك بقوة حتى تندفع لوزة أكثر نحوه عندما تراه متمسكا بها. ليس ذلك رأيى وانما رأى طبيبها وبذلك يكمل شفاؤها لما تجد نفسها مرغوبة غاية الرغبة من رجل ترغبه.

ـ أترغبه؟

ـ جدا لقد غرقت فيه حتى رأسها ولقد مثلت دور الرافض له. فأحالت على كل من فى المنزل بدءا من أولادى الصغار.

وهو ايضا فاتحنى فسوفت لما علمت منه ذلك خاصمتنى ثلاثة أيام. فقابلت خصامها بإهمال الى ان جاءت فجلست أمامى باكية واتهمتنى بأنى أنا ايضا أريد ان يميل حظها أكثر مما هو مائل.

اثبت على موقفك من الرفض يوما أو أكثر فذلك لصالحها.

انتقلنا الى موضوعات أخرى حول الأرض والمصنع والورشة وعمله. أخبرنى أنه حجز اليوم شقة بالمدينة القريبة لتكون مكتبا لأعماله التى تشعبت بالمنطقة وأنه سيفتح مكتبا آخر فى بيت لأمه قريب من الفيلا.

جاء مهندس الكهرباء يطلبه لحضور التجارب قمت معه فحضرت اجراء التجارب وأخذ أحمد يجرى بعض القياسات بجهاز معه حتى رضى. ووقع نيابة عنا باستلام الكهرباء.

منحت رئيس العمال الذى زارنا من قبل هبة له ولمن معه من العمال واحترت ماذا أقدم للمهندس فلم يكن الا قفصا من الأرانب فرح بها كطفل وقال انه سيربيها لأنه من هواة تربية الدواجن.

أخبرنى أحمد أنه سيقوم بتوصيل تلميذه. مررت على الكوائين لأطمئن وجدتهم قاربوا الانتهاء من أول (بالة).

غادرت الأرض دون أن أعير أولاد عمى التفاتا.

لما وصلت قدمت تقريرا سريعا بما دار فى يومى لابنة امبابى منعا لاستجواباتها. طلبت منها قهوة فأخبرتنى وأنا احتسيها أن عمتى أرسلت فى طلبى أكثر من مرة. غيرت ملابسى وقمت لأتجه الى منزل عمتى. أكدت على وأنا خارج بضرورة العودة اليها حتى لاتقضى ليلتها مؤرقة.

• • •

دخلت على عمتى فوجدت ابن عمى ولوزة جالسين معها والسعادة بادية على ثلاثتهم. ما ان رآنى ابن عمى داخلا حتى هب مندفعا نحوى مبديا سعادة برؤيتى. سلمت على لوزة معا تبا لها بكلمات. عاتبت ابن عمى لأنه لصق عند أحمد وترك الأرض مدة طالت فى الوقت الذى يعلم ان الأرض فى حاجة اليه وشكوت له أولاد عمه لتبرمهم من كثرة العمل بالرغم من كرمى لهم بمال يعلمه وآخر لايعلمه له فيه نصيب مع واحد منهم برغم غيبته. أبدى قرفا منهم ومن نكرانهم وتوعدهم بعقاب عندما يراهم. حاول أن يبرر طول غيبته بأنها كانت رغبة أحمد الذى يعلم أنه أخ عزيز وصديق حميم.

– لاتضحك على لأن أحمد حكى لى كل شئ.

– وقد جئت الى عمتى ولك لنخلص هذا الأمر.

قلت له منفذا خطة أحمد:

– لكنى لا أوافق.

شهقت لوزة وفغرهو فمه دهشة. وتمتمت عمتى:

– لم ياولد؟

وقالت لوزة:

– «جبتك ياعبد المعين»

تجاهلت ذلك ووجهت حديثى له:

– لاتدهش فهى لاتصلح لك وأنت لست بصالح لها.

تمتمت لوزة:

ـ يالهوى.

ورد هو:

ـ لم؟

قلت بغاية الهدوء:

ـ لأنها بنت مدينة وبنات المدينة لهن من القيم والتصرفات والجرأة مالايرضى الفلاحين أمثالك. وأنت فلاح جاد الطبع حاسم الرأى تعودت أن ترى سيادة الرجل بادية على المرأة وتعودت أن ترى المرأة متفانية فى الرجل وتحت أمره مطلقا وهو مالا تقبله بنت كلوزة.

ردت لوزة:

ـ ومن قال لك أنى لن أخضع لزوجى لقد رأيتنى أقف على شعرة من رأسى للزينى لما كنت زوجته وأتمنى له الرضا ليرضى.

ـ نعم. لكن ذلك كان محاولة منك لاستقطابه نحوك لأنه كان مهملا لك طائرا وراء محبوبته.

فقال ابن عمى:

ـ لكنك تزوجت بنت المعلم امبابى وأنت فلاح وهى مدنية.

ـ ثمة فرق بينى وبينك لقد تعلمت قليلا والتعليم يجعل الانسان أكثر مرونة فأنا الآن انظر للحياة بمنظار مغاير لك فقد أقبل مثلا محاورة من زوجتى حول أمر وقد أقبل رفضها لشئ أو إصرارها على شئ لأنى أوقن أنها انسانة مثلى تماما. كل ما هناك ان وظيفتينا فى الحياة متغايرة. هيأها الله لأشياء وهيأنى لغيرها وكلانا يكمل بعضنا بعضا. فهل تقبل انت الفلاح ان تعارضك لوزة حتى ولو كانت على حق. ستمتد يدك فورا لتحطم وجهها وفى هذه الحالة هل ستبتلع لوزة اهانتك وترتفع فوقها ام ستمسكان فى شواشى بعض ولانخلص نحن من جلسات الصلح ومحاولة التوفيق بينكما. انظر للمستقبل يا ابن عمى.

ردت لوزة:

ـ لكنى أنا وهو متفاهمان ولا أعتقد انى سأعصى له أمرا فى المستقبل.

قلت:

ـ تقولين هذا الآن لأنك مازلت على البر. لكن الطبع يغلب التطبع يالوزة.

قالت:

ـ ماذا يعنى كلامك؟

قلت:

ـ يعنى أنكما لاتنفعان لبعض.

قالت:

ـ أرح نفسك أنت وأحمد الذى وسوس لك وملأ رأسك وسلطك علينا. لقد اتفقت مع ابن عمك وأنا متمسكة به وهو متمسك بى ولسنا قاصرين وسنكمل مشوارنا معا رضيت أنت والدكتور صاحبك أم كرهتما.

وقالت عمتي:

ـ ياولدى خليك محضر خير. ومادامًا مصرين«فإن فات عليك الغصب».

قلت:

ـ ياعمتى إنما أعارض انطلاقا من مصلحتهما معا لوزة لاينفعها الا ولد ابن بلد مثلها وابن اخيك لاينفعه الا فلاحة مثله..

قالت:

ـ ياولدى..

قاطعتها:

ـ إنما أقول هذا الكلام ياعمتى لأننا سنحتاجه مستقبلا.

قال ابن عمي:

ـ ان شاء الله لن نحتاجه.

قلت:

– يجب ألا يعميك الحب عن المشاورة.

قال:

– أنا الذي سيتزوج لا هم.

قالت عمتي لي:

– الحب جنون فدعك منه.

قلت

ـ هو حر .. يشاروهم.. يدعوهم ذلك شأنه فهو أكبر منى وله عقله ويعرف طبائع أهله. أما أنا فخارج هذه اللعبة غير مأمونة العواقب تماما.

قال لعمته:

ـ ما رأيك ياعمتى لو سافرت معى لتساندينى لأنى أحببت لوزة ولن استغنى عنها.

أخرجت لى لوزة لسانها. وطحنت لى بييدها. وقالت:

ـ وأنا ايضا لا أستغنى عنك رغم أنف الكل كلالة وأولهم ابن عمك والدكتور أخوه. ياساتر على التعليم الذى خلاهم عقدا فى عقد. الواحد منهم لايترك شيئا لقلبه كل شئ عندهم عقل فى عقل وتفكير لغاية ماعقدوا حياتنا الحمد لله الذى لم نتعلم.

قلت له:

ـ وهناك أمر آخر أرجو ألا تأخذه بحساسية هو ان لحم لوزة ولحم زوجتى لايستويان فى قدر واحد فإذا تزوجت لوزة لن تكون لك صلة بالأرض. لا أقول هذا رفضا لك فأنت تعلم كم أعتز بك وأحزن لفراقك لأنك دمى ولحمى وانما أقوله إراحة لرأسى ورأسك.

نظر الى الأرض وتمتم:

ـ كما ترى ياأخى . لكنى لن أستغنى عن لوزة.

اتسعت أشداق لوزة بيسمة وعاودت اخراج لسانها لى.

فقالت لها عمتى:

ـ يابنت استح على عرضك.

قالت لعمتي:
ـ الله ياخالة بطاطاية. أغيظه كما يقف فى طريق سعادتى.
قامت عمتى فوضعت أمامنا طعام العشاء وجرت لوزة فأحضرت أشياء اضافتها الى مائدتنا. كان التفكير باديا على ابن عمى لدرجة أنه لم يتبلع الابلقيمات قليلة لايكاد يسيغها. عقب الطعام قال لى:
ـ والنبى ياأخى توافق .. لأنى أحس أنى لا أستطيع ان أعيش بدون لوزة.
فعاودت لوزة طحنها على يديها لى واخراج لسانها. تجاهلتها وقلت له:
ـ كما تشاء مادمت مصرا. ومددت يدى فى جيبى فأخرجت ألف جنيه قدمتها له وقلت خذ هذا المبلغ نقطة زواجك وربنا يتمم لك بالخير مادمت مصرا.
أطلقت لوزة زغرودة جاوبتها ابنة عمتى بأخرى وردت عمتى بثالثة على حين تمنع هو فى قبول المبلغ وأصر وراح يتمتم:
ـ هذا كثير ياأخى.. هذا كثير انا لم أفعل لك شيئا أستحق عليه كل هذا.
انتهرته عمتى قائلة:
ـ خذه من أخيك .. إذا لم تتساندا وأنتما لحم بعض نأتى بالغرباء ليسندونا استح على عرضك ولا ترد يد الخير من أخيك.
ناول النقود لعمته لتحفظها له.
هممت بالقيام سألتنى عمتى الى أين؟
قلت:
ـ الى بلد جحا ياعمتى.
ردت:
ـ وأم جحا وأخته وابن عمه أليس لهم فيه نصيب؟
قالت لوزة:
ـ دعيه ياخالة بطاطاية .. والا أعطته سيدة الحسن والجمال محضرا. ورقعته علقة لرب السما تنكد عليه عيشته.
رد ابن عمى عليها:
ـ لسنا من الذين يرقعون العلق يالوزة.
قالت له:
ـ أنت يارجلى جائز .. أما ابن عمك فاسألنى أنا عنه. أصابعك ليست مثل بعضها.
قلت له:
ـ سامع ياسيدى.. اعمل حسابك من الآن على مثل هذا اللسان الطويل.
قال:
ـ سى بعضه ياأخى .. صحيح أن لسانها طويل لكن دمها خفيف.
قلت:
ـ ربنا يوفق.
هممت بالخروج فاستبقانى وقال:

ـ أمام عمتك وامام ربنا .. أشهد الله أنى لن استغنى عنك وسأظل فى خدمتك. رضيت لوزة أم كرهت . ونظر اليها وأردف:

ـ سامعة يابنت إنه أخى وأفديه بروحى .. نحن عائلة فيها خير لبعضها ولاتطيق ان تفترق عن بعضها. واعملى حسابك من الآن على لم لسانك عن زوجته. أفاهمة؟

ردت:

ـ على عينى وعلى رأسى أمرك يارجلى ياشهم .. لكن أخاك دائم الاغاظة لى ويجننى أحيانا حتى ينفلت لسانى.

قال:

ـ ابلعى لسانك معه. والا سأقطعه لك. سامعة؟

قالت:

ـ سامعة ياسيدى ياسيد الكل.

قال لعمته:

ـ شاهدة ياعمتى عليها؟

ردت عمتى:

ـ شاهدة يا ابنى . بس لوزة. ليست لها كلمة تحافظ عليها.. اعمل حسابك على هذا من الآن.

ـ تبقى رأسها مكسورة ان شاء الله.

خرج ابن عمى يسير بجوارى نتحدث فيما تم فى الأرض أثناء غيبته الى ان وصلنا الى مدخل بيت عمى امبابى. عزمت عليه بالدخول رفض. طلبت اليه ان يوافينى صباحا ليصحبنى الى الأرض وطلب هو الا أخبر ابناء عمه الآخرين بأمره مع لوزة حتى تكون مفاجأة سارة لهم فى حينها وقبل ان يلتفت راجعا. أكد بإحضار نقود معى صباحا لنشترى معا السماد الذى تحتاجه الأرض. لاحظت ان هناك عربة غريبة أمام بيت عمى امبابى. قدرت أن أجد عندهم ضيوفا.

دخلت لأجد خطيب ابنة عمى امبابى الأخرى جالسا فى الردهة بين الأسرة رحبت به وجلست معه حتى أخذ جلسته وانصرف.

لما أويت الى حجرة زوجتى سألتنى عن عمتى وماذا كانت تريد. أخبرتها ان ابن عمى الذى كان فى خدمة حديقة منزل أحمد عاد من عنده وأراد أن يرانى.

ـ وهل بيتنا جدران بلا باب؟

ـ يبدو ان الخجل هو الذى منعه.

ـ جاءك هاتف من أحد تجار وكالة البلح.

ولماذا لم تتفاهمى معه فيما يريد.

ـ كنت ساعتها أحلب الجاموسة واختى هى التى ردت عليه.

ـ نسيت ان أخبرك أنه ذهب الى الأرض وعاين البضاعة فى غير تواجدى وطلب ان اتصل به لكنى نسيت ذلك تماما.

ـ ألن تسهر معى؟

ـ هدني التعب ياحبي. ماذا أفعل لك ولاختراعاتك التي لاتنتاهي.

سحبت على الغطاء ومالت فقبلتني وردت الباب وخرجت. لم يغز النوم أجفاني بسرعة وراح شريط ما ينتظرني في الغد من أعمال يلح على ذهني ويباعد مابيني وبين النوم برغم رهق جسمي الذي بلغ حد أني لم أرغب في أكثر من التنفس. دخلت على الحجرة أكثر مرة على اطراف اصابعها لقضاء بعض أغراضها في كل مرة كانت تميل فتقبلني وهي تظن أني في سابع نوم وفي كل مرة تحكم الغطاء الذي ليس في حاجة الى احكام.

أيقظتني صباحا لتخبرني أن ابن عمي بانتظاري في المندرة. واصلت النوم فعاودت ايقاظي. فعاودته من جديد فانتزعتني من الفراش ثالث مرة وهي تقول:

ـ عيب ان تلطع ابن عمك ثلاث ساعات. ان كنت متعبا فقم واعتذر له وعاود النوم كما تشاء.

● ● ●

برغم حمام الصباح الدافئ وصلاة الصبح وكوب الشاي الا ان الخدر كان يحتويني. ساعدتني على ارتداء ملابسي وناولتني ماطلبت من نقود ثمنا للأسمدة التي يتطلبها الزرع وقبلتني مؤكدة على بالتزام الحذر عند قيادة السيارة لأني على حد تعبيرها: كالمخدرين .

اعتذرت لابن عمي وانطلقنا الى المدينة القريبة من الأرض نبتغي الأسمدة فشلنا في الحصول عليها لأننا ليست لنا حيازة زراعية. حاولت إنشاء الحيازة لأرضنا وأرض أحمد الا ان المختص رفض بحجة ان ارضنا خارج الزمام ولم تربط عليها عوائد بعد.

لما رأى حيرتي وشدة رغبتي في الأسمدة. نصحني بالالتجاء الى مصنع الأسمدة مباشرة وشرائها منه بسعر أغلى أو الالتجاء إلى السوق السوداء. صحبت ابن عمي واتجهنا إلى مصنع الأسمدة بالسويس . قابلت مسئول المبيعات فأغلق الباب في وجهي بقوله:

ـ اما ان تكون تاجرا ونحن لانبيع الا للجمعيات الزراعية واما ان تكون مزارعا وحصتك ستجدها في الجمعية التي تتبعها أرضك.

حاولت افهامه ان ارضنا مشتراة حديثا من الدولة وانها لم تعود حتى يحق لنا استخراج بطاقة حيازة زراعية والاشتراك في الجمعية الزراعية فضلا عن انها خارج الزمام. فقال أمرك عند الوزير قدم له طلبا بما تريد. هناك أمثالك جاءتنا طلباتهم من الوزير موافق عليها وأعطيناهم ماطلبوا. لابد أنك مثلهم من الواصلين ابتسمت بحرارة وقلت:

ـ جدا.

عدت محبطا وكان لابد ان أمر بالمدينةالقريبة من الأرض. كنت اريد احدا أشكو له بثي ليشاركني في همي . سألت عن المقاول فاخبروني أنه بالمنزل ذهبت اليه ويبدو أني كنت متجهما لأنه عندما رآني قال:

ـ ياساتر .. ياساتر ماذا بك؟

ـ لاشئ.
ـ كيف وعروق جبهتك كلها نافرة من التجهم. تخانقت؟ ضربت من هذه المرة؟
ـ ليتنى ضربت أحدا اذن لارتحت.
ـ ومن سعيد الحظ الذى تريد ان تضربه.
ـ الذين يعقدونها وهم جالسون بالمكاتب.
ـ اى والله. وضعت يدك على وجيعتى. والنبى عندما تحددهم تماما قل لى لنبحث معا عن «برطوشتين» قديمتين فنرقع بهما أصداغهم معا. أأكلت؟
ـ نفسى تعافه.
ـ وما ذنب ابن عمك الذى معك .. لقد ألهيتنى عن الترحيب به.
ونظر الى ابن عمى وأردف:
ـ منظر قريبك وهو داخل على ألهانى.. أنا آسف حمدا لله على السلامة. ونادى ابنته التى مرضت يوما ابنة امبابى فسلمت وأمرها ان تضع لنا الطعام واعتذر عن الأكل معنا لأنه سبقنا.
سألنى وأنا ألوك الطعام:
ـ ما الأمر؟
أخبرته .فقال:
ـ بسيطة.
ـ كيف؟
ـ المثل يقول «ما تعرف ديته» السوق السوداء مليئة بزيادة جنيه فى الجوال. لايهم فى سبيل مصلحة الزرع الليلة يكون عندك ماتشاء . وراح بعدها يتحدث مع ابن عمى وضيق أقاربه لطول غيبته عنهم.
جاءتنا ابنته بفاكهة وشاى. سألته:
ـ وكم سندفع جملة؟
ـ لاأعرف. لكن ليس قبل ان يصلكم طلبكم.
ـ اذن خذ جزءا تحت الحساب.
ـ ولافوقه. ولن تدفع الا بعد بيع المحصول.
ـ كيف؟
ـ ذلك هو العرف المتبع فى سوق السماد السوداء. فقط ستعطى صكا بالمبلغ عندما تصلكم البضاعة. ومادمت أنا فى الطريق فلا صك ولايحزنون.
ـ لكن المبلغ جاهز.
ـ مادامت هناك تسهيلات فى الدفع فلم لانستغلها. الا يأخذ التاجر زيادة، هذه بتلك.
سأل ابن عمى عن العدد والنوع فأخبره فأمسك بهاتفه ونادى تاجرا فحدثه بما نطلب قال له أرسل ويضمانى وتلقى منه إجابة بأنه سيرسلها فورا فالتفت الينا قائلا:
ـ يحسن ان تكونا فى استقبال عربات التاجر التى ستتجه اليكم الآن وسأمر عليه أنا مؤكدا.

اتجهنا الى الأرض والشمس تكاد تختفي خلف الأفق. نبهت حارس البوابة بأن يسمح لعربات السماد بالدخول عندما تصل. ولم أعر أولاد عمي التفاتا وتركتهم منشغلين بالحفاوة بقريبهم وأخذت الحارس الأول تحت إبطى واتجهت الى مبنى المصنع لأطمئن على سير عمل الكوائين.

راح الحارس يقدم لى تقريرا عما حدث أخبرنى بأن أحمد مر بالأرض سراعا من حوالى ساعة ولم ينزل من عربته ولما عرف أنى لم أحضر سأله ان كان يريد شيئا فأجابه بالنفى فانصرف . وأن تاجر وكالة البلح جاء حوالى الظهر ومعه أخر وتفرجا على ما أنجزه الكواءون ووقفا طويلا أمام «الباروكات» وقلباها وفحصاها وأحصياها. كما فحصا أيضا ما أنجزه الكواءون وأخذ شيخ الكوائين يغريهما بالشراء. وأكدا انهما سيتصلان بك مساء فى المنزل. وأخبرنى ان تاجرة الدواجن أرسلت تسأل عن بضاعة فلما أخبرها بتواجدها قال الرسول ستأتى المعلمة غدا بعد الظهر لأخذها. وأخبرنى ان أولاد عمى تخاصموا مع بعضهم بسببى وراح كل يلقى اللوم على الآخر.

لما دخلنا عند الكوائين. رحب بى شيخهم وراح يقدم لى تقريرا عما أنجز وعن تاجرى وكالة البلح وسألنى بعضهم عن التليفزيون والفيديو فتأسفت لهم اذ كنت قد نسيت تماما.

ووعدتهم ان يكونا عندهم فى الغد.

وقال لى شيخهم انهم اتفقوا مع الشيخ محمد على ان يصنع لهم طعامهم فرفضت لأنى لم أحضره لتلك المهمة. فقال الشيخ محمد:

ـ اذن أحضر معك الولية والأولاد غدا زيادة فى استفادتى وأنا أعلم أنك تحبنى وتعطف على ولاتكره ان استفيد.

لم أعده بشئ ومنحت نفسى فرصة التفكير.

لاحظت ان كل ما انجزه الكواءون ينحصر فى بدل وبلاطى. سألته:

ـ أما صادفكم شئ أخر؟

ـ ولماذا تريد شيئا أخر؟ أنت شاب ابن حلال. وياليت تكون كل البالات من هذا القبيل يكون رزقك واسعا.

قدم لى ورقة بخمسمائة دولار سألته عن مصدرها . أجاب بأن أحد الكوائين عثر عليها فى جيب «بدلة» وكان أمينا فقدمها له ليعطيها لى فهى فى ملكنا ولاتحق له.

ناولته مقابلها بالعملة المصرية وطلبت اليه ان يوزعها على عماله بعد ان يفرد النصف لمن عثر على الورقة الدولارية جزاء أمانته.

تبارى الكواءون فى شكرى جاء صبى الكلاب يخبرنى ان هناك عربات نقل وردت للأرض محملة بالأسمدة وابن عمى الكبير يطلبنى لأعدها وهى مرصوصة قبل ان تنزل.

تركت الكوائين وهم يلحون فى احضار زوجة الشيخ محمد حتى لا يتعطل أحدهم فى انجاز الطعام وأنهم سيتحملون هم أجرها.

تعاون عمال المقاول الطارئون مع رجال الأرض فى إنزال جوالات الأسمدة نظير أجر بالغوا فيه نوعا لكنى قبلته اذ لم يكن باليد حيلة الا ذلك. فعدد الأجولة كثير وليس من

رجالى من هو حمال أصلا.

هممت بالانصراف عائداً الى مدينتنا بعد ان اطمأننت تماما على الأسمدة. الا ان ابن عمى الكبير اعترضنى طالبا ان أبقى قليلا لأنه يريدنى.

سبقته الى استراحتى لأرصد بعض المصروفات. جاء بصحبته أبناء عمى وعمه ومعهم حارسنا الأول وشيخ الكوائين والشيخ محمد. بمجرد أن رأيتهم فهمت مقصده. وعزمت على الا يكون ذلك سهلا تأديبا لهم.

أخذ ابن عمى ومن معه من الغرباء يتحملون على كى أرضى عن ابناء عمى الا انى أخذت فى مماطلتهم أكثر من ساعتين حتى غضب منى الشيخ محمد وهددنى بالمقاطعة وغضب ابن عمى الكبير ووسمنى بسواد القلب. ظللت كذلك حتى سويت اجنابهم لوما ثم تنازلت وقبلت الصلح معهم ودفعهم ابن عمى الكبير فقبلوا رأسى فقبلتهم وأصر الحارس الأول ان يولم لنا أرانب بمناسبة الصلح وبذا انداح الليل. حتى توسط . هممت بالرحيل فاعترضنى ابن عمى الكبير وقال:

– الطريق طويل والعربة غير آمنة من الأعطال والمال معك كثير . لايمكن ان تسافر الليلة. وعلام السفر اذا كنت عائدا الينا صباحا. أهو بقية سواد الليل نقضيه معا على الأقل لا أرق عليك. وحرام ان تدعنى قلقا حتى أراك ثانية. انسيت ان لك خصوما مهما أبدوا من صلح الا ان جانبهم لايؤمن.

كلامه ترك الخوف يتسلل الى نفسى فخلعت ملابسى وأخذ يرغو معى حول لوزة ونزهاتها معه والأماكن التى ارتها له فى مدينتنا وأهل الله الذين زاراهم معا والمطاعم التى طعما فيها معا والملابس التى انتقتها له.

لما كاد يغلبنى النوم قام فسحب على الغطاء واخرج مسدسا من جيبى فدسه تحت وسادتى وأغلق على وخرج الى أبناء عمه الذين يراقبون عمال المقاول فى عملهم الليلى.

فتحت عينى على نقرات على النافذة المجاورة لفراشى انها نقرات ابنة امبابى التى اعرفها تماما، لكن أمعقول ان تكون قد حضرت مبكرة هكذا. وما الداعى لذلك ان كانت هى. ان نور الشمس لم يبزغ بعد ومازلنا فى عماية الصبح. سمعت صوتها تحدث الحارس الأول انها هى. تمتمت:

– اللهم اجعله خيرا.

فتحت ومازلت مترددا فاذا بترددى ينزاح واذا بها امامى ثائرة لأن كل من فى منزلها أرق لما وجدوها أرقة قلقة من أجلى. أخبرتنى ان اباها كاد يأتى ليطمئن على الا انها منعته لأنه متوعك منذ الظهر.

قابلت ثورتها بهدوء وحب وتركت مهمة الرد عليها لابن عمى الكبير الذى تبعها وللحارس الأول. هدأت حدة غضبها لما أخبرها ابن عمى أنه هو الذى منعنى من العودة أمس وأصر على منعى خوفا على من أخطار الطريق قالت:

– الآن أنام أنا.

وانسلت الى استراحتها لتحصل على وجبة نوم.

نفعنى مجئ ابنة امبابى لأنه جعلنى أكسب صلاة الصبح حاضراً واتجهت الى مكمن

الحارس الأول فشربت معه الشاى. واضطجعت فاستمرأت خشونة الأرض وأحسست بأن ظهرى يسترخى شيئا فشيئا وأجفانى تثقل ، ولم ادر الا وهو يوقظنى مخبرا بأن تاجرى وكالة البلح فى الخارج فطلبت اليه ان يدخلهما قابلتهما مرحبا الا انهما قابلا ترحيبى بكبرياء. التمست لهما عذرا فربما كانا من الذين مردوا على لقيا المكاتب الفخمة. أخذا يصعدان فى النظر كأنى سقط متاع مما يتاجران فيه. اغتظت والتمست العذر لابنة امبابى لما كانت توغل فى تحدى كبار التجار لتجبرهم على احترامها مستقبلا سألنى أحدهم ان كنت صاحب البضاعة التى عايناها أم أنى أعمل عند صاحبها ولم يدع لى فرصة الرد بأن أردف:

ـ إذا لم تكن صاحبها فلا تضيع وقتنا وقابلنا بصاحبها.

ـ إذن اخرجا واطلبا مناديا يبحث عن صاحبها فيما حولنا من صحراء فقد تاه فيها.

هم الحارس ان يقدم لهما الشاى فأمرته ان يرجعه حتى يشربا شايهما عند صاحب البضاعة وأشرت الى الباب وقلت:

ـ تفضلا فابحثا عن صاحب البضاعة فى الخارج.

قال الثانى:

ـ أو تطردنا ياسعادة البيه؟

ـ لافقط أدلكما على الطريق فقد أخطأتما فى العنوان.

رد الثانى:

ـ لم يقصد شريكى إهانة وانما تلك طريقته فى التبسط.

ـ وأنا ايضا تلك طريقتى فى التبسط.

قمت وتابعت:

ـ لما تجدا صاحب البضاعة تعاليا فأخبرانى عنه.

قال الأول:

ـ أنت حساس جدا ياسعادة التاجر.

جاء صبى الكلاب فأخبرنى أن تاجرة الدواجن بالخارج تريد استلام بضاعتها. سألته:

ـ كم عندك لها؟

ـ حوالى مرة ونصف مثل المرة الأولى.

ـ اسألها ان كانت مستعدة بالنقود.

أطلت برأسها من الباب قائلة:

ـ صباح النور على البنور الاستاذ الذى حظه سى اللبن الحليب.

ـ تفضلى يامعلمة خذى الشاى.

ـ لا.. أنا واخدة على خاطرى منك ياأستاذ.

ـ لم كفى الله الشر.

ـ لأنك مستهتر بالناس الغلابى سى حالى. يصح ياسعادة البيه تقول للصبى اسألها ان كانت مستعدة بالنقود؟ صحيح نحن أناس غلابى لكن مستورة والحمد لله. خذ

ياسعادة البيه اثنى عشر ألف جنيه وسنزن البضاعة تقطع بتسعة بعشرة بثمانية. والباقي يظل أرضية معك حتى لاتبيع لغيرنا.

– عداك العيب يامعلمة اشربى الشاى والا لن تكون هناك بضاعة.

– شايك مشروب ياسعادة البيه. والله أنت نوق ونوارة نشرب هات ياشيخ الخفر الشاى نهارك نادى.

أمسكت بكوب الشاى ترتشفه بصوت عال فأجهزت عليه بسرعة ثم قالت:

– بإذنك ياسعادة البيه نعبئ البضاعة أنا والعفريت الصغير هذا حتى ترى مصلحتك مع ضيوفك.

أخذت صبى الكلاب من يده خرجت وراءهما. وناديت ابن عمى الكبير أن يذهب معهما ليزن الفوارغ أولا. لم أعد الى التاجرين متعمدا وانما يممت شطر استراحتى لأحفظ النقود التى تركتها التاجرة وأرى ان كانت زوجتى قد استيقظت. نقرت على بابها بخفة فلم ترد فأيقنت أنها مازالت نائمة. حفظت النقود.

وتعمدت التلهى بمراجعة بعض الحسابات مقدرا انها واحدة من اثنتين مع هذين المتكبرين. اما ان يكونا راغبين فى البضاعة فيبقيان وعندها أبيعها لهما بثمن مشرف بعد ان ألقنهما درسا فى الكمال. واما ان يكونا غير راغبين وانما جاءا واهمين أنهما وقعا على صيد غر يمسكان به بسهولة. اذ لاشك أنهما عرفانى أنا وابنة امبابى حين قابلا شيخ الكوائين الذى ربما أخبرهما أننا متلهفان على التخلص من البضاعة. فرسما الترفع والكبرياء عندما قابلانى ليحطما نفسيتى فأقع فى قبضتهما بسهولة صح ما توقعته اذ وجدتهما يطلان من النافذة وبصحبتهما الحارس الأول وشيخ الكوائين.

حاول شيخ الكوائين ان يترضانى. صبرت عليه الى ان فرغ، ثم قلت له:

– أنت رجل كبير ولك احترامك لكبر سنك فضلا عن أنك تخدمنا فأى مطلب يمكننى أن ألبيه.

– الا تكون قد أخذت على خاطرك من التجار.

– أسمع يأسطى باشا الانسان يأخذ على خاطره من قريب أوصديق أوحتى مجرد معرفة. وهؤلاء - وأشرت اليهم - ليست لهم أية صفة مما وصفت. فلماذا آخذ على خاطرى منهم. مابيننا مجرد بيعة على الطائر تتم أولا تتم لايهم. ونظرت اليهم. وقلت:

– أحدكم فقط يحدد مطلبه ويسمعنى سعره.

رد أصغرهم:

– نشترى فى الكل. الملابس والباروكات.

– يمكن ان أبيعك ماجهزت أما مافى البالات فلن أبيع حاليا حتى تجهز. ذلك لصالحنا معا.

– معقول.

– نبدأ بالباروكات.. بلغنى أنكما عاينتما وعددتما. وأنا أيضا عددتها من قبل. أتشتريان بالقطعة أم كلالة.

رد الصغير:

ـ كلالة. بخمسة آلاف.

ـ أى ان الباروكة التى ثمنها عشرة تأخذونها بجنيه.

ثم نظرت الى شيخ الكوائين وأردفت:

ـ ألم أقل لك يا أسطى أنهما ظنا أننا حبة صغار فجاءا يضحكان علينا.

والتفتُ إليه وأكملت : اسمع يا معلم أو ياحاج سى مايعجبك . لن أقول لك ما قاله الله {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} ولكن أقول لك كما يقول التجار والكلمة الثانية.

رد:

ـ كما سمعت أولا.

ـ يفتح الله. وتشرفنا ولاتعطلا نفسيكما وتعطلانى معكما.

قال الكبير:

ـ أنت سمعت منا. فدعنا نسمع منك.

ـ لقد سمعت .. يفتح الله.

أراد شيخ الكوائين التدخل، فقاطعته. قائلا:

ـ ياأسطى أرح نفسك انهم أناس جاءوا يتنزهون. على كل حال. شرفتمانا وعن اذنكما لأرى المعلمة التى تركت نقودها معى. اذا سمحتما نخرج معا.

خرجنا وأغلقت الاستراحة جيدا. فسارا متأخرين عنا يتشاوران.

وجدت تاجرة الدواجن فى انتظارى لأحاسبها بعد ان وزن بضاعتها ابن عمى الكبير. قدم لى كشفا بأرقام الوزنات والتضريبة. راجعته بسرعة. وقلت لها: اذن باق لك فى ذمتى ثلاثة آلاف الا مائة.

فقالت:

ـ أخوك الذى وزن لى كانت يده جافة ياسعادة البيه. ولم يترك لى طعمة فى أية وزنة. فاكرمنى بشئ.

ـ اذن يكونون ثلاثة آلاف بالتمام والكمال. أراضية.

ـ ربنا يرضيك ياسعادة البيه .

ركبت عربتها وانطلقت مع بضاعتها. والتفت لابن عمى وقلت:

ـ يارجل خل فى يدك شربة لله.

ـ إنها امرأة مزعجة لو تهاونت لأكلت فى كل وزنة أكثر من كيلو. كفى أنى كنت أترك لها كسور الكيلو.

سمعت صوت التاجر الصغير من خلفى:

ـ ونحن ياسعادة البيه ألا تخلصنا.

ـ أترى أن أرمى بضاعتى؟

ـ ماقلنا هذا؟ لكن نريد نحن ايضا أن نأكل من ورائك لقمة حلالا.

ـ مارأيك فى أن نحسبها؟

ـ أوافق.

قلت: أى تاجر جملة كم يستهدف ربحا؟
ــ عشرة فى المائة.
ــ جميل. وتاجر القطاعى؟
ــ خمسة وعشرين.
ــ هذه البضاعة بخمسين ألفا أدع لكما منها خمسة وثلاثين بالمائة. أى ان الباقى اثنان وثلاثون ألفا ونصف. هاتها وخذ البضاعة.
رد الكبير:
ــ انك لم تدع شيئا لقطعة تتلف أو لقطعة لحقتها العث.
ــ أدع لك الاثنين ونصف وهات الثلاثين.
رد شيخ الكوائين:
ــ ولأجل خاطرى.
قلت له:
ــ أنت فى صفى أم فى صفهم.
ــ فى صفكما. أنت ترتاح من تجهيزها كما نجهز الملابس. وهم يجدون تشجيعا حتى يحملوا منا الملابس أيضا.
قلت:
ــ ماتحكم به.
ــ ولاترد كلمتى.
ــ إذا لم يردوها هم.
نظر اليهما وقال:
ــ مارأيكما؟
ــ حكمك على عيننا ورأسنا ياأسطى.
ــ واثنان ونصف أخرى يتركها سعادة البيه.
ــ دعه يبارك لنا.
ــ الله يبارك.
أخرجا ربط الأوراق المالية من جيوب سحرية فى ملابسهما وعداها فأجريت مراجعة لواحدة وأعطيت ابن عمى أخرى ليراجعها. ثم قلت لهما أمعكما عربة نقل بالخارج لحملها.
قال الكبير:
ــ توصلها إحدى عربتيكم وندفع أجر النقل.
أمرت ابن عمى ان يحملها لهما على احدى العربتين، بعد ان يتفقا مع السائق على الأجر. ودخلت مكمن الحارس لأشرب عنده الشاى. على حين ذهب معهما شيخ الكوائين وابن عمى الكبير، عادوا بعد قليل دهشت وسألت:
ــ ايه.. هل تراجعتم؟ نقودكم مازالت أمامى..
رد الكبير:

ـ أتظننا أطفالا حتى نتراجع..

عاد عقلى بسرعة الى ما ابديته لابنة امبابى عندما همت بالتراجع فى تلك البيعة. كان شيخ المهربين سيقول عنا اننا أطفال رأيى اذن كان فى محله وعلى الانسان أن يتحمل نتيجة قبوله.

ـ العفو يامعلم .. فقط قصدت تراجعتم عن نقلها اليوم وتريدون نقودكم الى ان تحملوا بضاعتكم.

رد الكبير:

ـ لا..لا.. مادمنا سندفع أجر نقل .. قلنا بالمرة نخلص معك فيما أنجزه شيخ الكوائين وعماله ليكون حملا يستحق عربة.

ـ اذن تفضلا .. اجلسا.

ونظرت الى حارسنا الأول وقلت:

ـ الشاى ياشيخ الخفر.

ثم وجهت حديثى لهما مردفا:

ـ أظن أنكما عرفتمانى من البيعة الأولى فلا داعى لشغل التجار المهرة جدا. التقارب من المعقول منجز فلا تتعبوا انفسكم وتتعبونى معكم.

رد الصغير:

ـ وهو كذلك .. ونطبق القاعدة التى طبقناها من قبل.

ـ وأنا موافق.

قال الكبير: البلاطى تدور بيعا فى القطاعى بحوالى ستة جنيهات تزيد قليلا أو تنقص قليلا هززت رأسى موافقا. فتابع والبدل تدور بحوالى عشرة جنيهات وقد نزلت الوكالة ورأيت بنفسك.

ـ لكنى رأيت البدل بين خمسة عشر وعشرين. ولم أر شيئا بعشرة إلا بدل الأولاد.

رد الصغير:

ـ اذن نجعلها فئتين فئة بعشرة وفئة بخمسة عشر.

ـ معقول.

ـ اذن ضرب حسابنا على هذا الأساس. وسلمنا.

نظرت لابن عمى وقلت:

ـ ناد لنا الشيخ محمد بدفتره اذا سمحت.

خرج ابن عمى فقال لى الكبير:

ـ يقولون انك مازلت طالبا.

ـ نعم.

ـ وأنك فلاح الأصل.

ـ نعم.

ـ لكنك أمر ممن نشأ فى بيت تجارى صرف.

ـ مكره والله يامعلم. زوجتى هى التاجرة. وقد دبستنى فيها ونامت.

ابتسم وقال:
ـ النساء هكذا. يستدرجن الرجل حتى اذا ما أتت رجله وقفن يتفرجن عليه. ونحن معشر الرجال «نندب كما الرطل» أنا ايضا ياولدى كنت مجرد فاعل صعيدى هارب من ضيق الأرض فى نواحينا نزحت الى المدينة الكبيرة بحثا عن الرزق. يوما أوقعنى سوء الحظ أو حسنه لا أعلم فى «شغلة» فى محل والد زوجتى. وكانت هى تدير محل أبيها فتشابكت حبالى مع حبالها وهى الآن جالسة فى المنزل ولايعجبها العجب أو الصيام فى رجب ما فى فمها سوى خائب ونائب مهما ربحنا. فاعمل حسابك من الآن على أنك ستكون خائبا ونائبا مثلى.
دخل ابن عمى مع الشيخ محمد. وأنا ابتسم وأقول:
ـ ربنا يستر.
نظرت الى الشيخ محمد وقلت:
ـ أرنى دفترك ياشيخ.
قدمه لى نظرت فيه وقلت لهما:
ـ ما أنجز تسعمائة بدلة وألف بالطو.
علق الشيخ محمد:
ـ عدا ما فى أيدى الكوائين.
رد الصغير عليه:
ـ إذن دعهم يكملون البدل الى ألف ليكون الرقم متساويا.
نظرت الى شيخ الكوائين وقلت:
ـ تلك مهمتك.
تركنى وذهب إلى عماله وهو يتمتم:
ـ حالا الى ان تضربوا حسابكم أكون قد أنجزت.
هممت بأن أجرى حساباتى فقال الكبير:
ـ وعلام القلم انها محاسبة نفسها. إنها تقطع بثلاثة عشر وستمائة وخمسين هاك خمسة عشر. ومد لى خمسة عشر وأردف الباقى يبقى أرضية للبدل والبلاطى فقط. وكلما يجهز منها ألف خابرنا. أوأرسله مع السائق ولاينزل البضاعة الا اذا قبض. أمعقول.
ـ معقول يامعلم.
ملت على ابن عمى الكبير وسألته:
ـ هل سلمت كل الأرانب للتاجرة.
ـ حجزت حوالى خمسين خشية ان يفاجئنا ضيفان فنتحير فى إطعامهم.
ـ دع صبى الكلاب يضع عشرين فى سلتين الى ان نعود من تسليمهما البضاعة.
نادى ابن عمى الكبير صبى الكلاب وأمره بما أردت ولحق بنا.
عندما هم التاجران بركوب عربتهما، قدمت لهما الأرانب هدية وكانت ابنة امبابى تيقظت وحضرت وأنا أشير للتاجرين مودعا.

عاد ثلاثتنا الى استراحتى أعطيت ابن عمى مافرضته للعمال من بيع الأرانب ورجوته أن يقسم بينهم كما قسمت بينهم أول دفعة حصتهم.

جاء شيخ الكوائين ووضع أمامى خمسمائة جنيه. دهشت وسألته:

ـ ما هذا؟

ـ عمولة أعطانيها التاجران.

ـ ولم تضعها أمامى. ما شأنى بها؟

ـ ليست لى وحدى. ولكن لرجالك فيها نصيب وأخشى ان اقسمها بمعرفتى فتغضب، اقسمها أنت بيننا.

مددت يدى فقسمتها نصفين. أعطيته نصفها وأعطيت ابن عمى النصف الآخر. وقلت له:

ـ هذا المبلغ لك أنت والحارس والشيخ محمد فقط.

خرج ابن عمى ليتولى القسمة، وبقيت أنا وابنة امبابى.

قلت لها:

ـ خذ ياوزير الخزانة . أولا هذا المبلغ ثمن الأسمدة لأننا اشتريناها بالأجل حتى يحين الحصاد.

ـ غير معقول.

ـ وماذا قل عقله. ذلك هو نظام البيع لأننا اشتريناها من السوق السوداء.

ـ ولم السوداء؟

ـ لأنه لاحق لنا فى البيضاء حتى الآن. وقد سهل لنا المقاول المهمة ووردت لنا بضمانه. ثم قدمت لها ماخصنا من بيع الأرانب وأنا أقول:

ـ وخذ ثانيا نصيبنا من بيعة الأرانب.

ـ وللتاجرة فى ذمتنا ثلاثة.

وقدمت لها ثمن الملابس و«الباروكات» وأردفت:

ـ وخذ ثالثا ثمن الباروكات ومابعنا من بدل وبلاط.

أحصتها وقامت ترقص وتغنى وتقبلنى. أحببت ان اداعبها فقلت: ما كان يومك يابنت امبابى ما كان يومك .. يالهوى .. يالهوى .. يالهوى.

ـ قل ماتشاء . يالهوى.. كان يومك .. كان الحمد لله .. الحمد لله .. ألف حمد لك يارب وألف شكر. غدا نرسل لشيخ المهربين بقية حسابه. ألف حمد لك يارب . أشكرك ياخلاف الظنون يارب. تعرف ياحبى .. أنى كدت أصاب بالنقطة.

ـ يالهوى ياحبى .. كنت أموت أنا فورا.

ـ صحيح ياولد أنت تحبنى هكذا؟

ابتسمت وقلت مداعبا:

ـ لاتصدقى .. أنا أضحك عليك.

ضربتنى على ظهرى وقالت:

ـ ضربة ياولد .. لا أنت تحبنى.

ـ طبعا ياحبى فمن لى غيرك الآن .لكنى واخد على خاطرى من حبى.
ـ لم ياحبى.
ـ لأن حبى تاركنى. أوحل فى اختصاصه فضلا عن اختصاصى.
ـ حبك استقال من اختصاصه.
ـ هذا ظلم ياحبى.
ـ ابدا .. عين العدل.
ـ كيف؟
ـ ألست رجلى؟
ـ يقولون هكذا.
ـ و«الرجال قوامون على النساء».
ـ صدق الله العظيم.
ـ خلاص ياحبى. ربنا هو الذى قسم. أنت تعمل حتى تكفر من العمل. وأنا أجلس فى المنزل أربى أولادك وانتظرك الى ان تعود حاملا لنا رزقنا.
ـ آه ياتنبل السلطان. أهكذا؟
ـ طبعا .. أو تظن أنى سأظل دائرة فى ساقية الرجال كما الثور.. لاياعم من الآن يفتح الله.
ـ لكن لم يكن هذا اتفاقنا.
ـ وحتى لو كنا اتفقنا فأنا طفلة ورجعت فى كلامى.
ـ وسأكون سعيدا براحتك ومايسعدك ياحبى.
عادت فقبلتنى.. رأنا أحمد من النافذة فقال:
ـ طيب ياغجر . أغلقا الشباك.
ردت عليه:
ـ ياباى.. ربنا مايجعل لنا جارا وله عينان.
دخل يقول:
ـ يالهوى .. يالهوى.. يالهوى.
ردت عليه:
ـ لهوى من ؟ خلصنا منه والبركة فى حبى بالعند فيك.
قال:
ـ الرجال فى الخارج يحصون نقودا كثيرة. ما الأمر؟
قلت:
ـ لأنهم قبضوا نصيبهم من بيعة أرانب.
ـ مشكلة لن نخلص منها. أريد ان أحيط الأرض وما جاورها بمبيد لهذا الوباء.
قلت:
ـ إذا فعلنا أغضبنا الرجال لأنها غدت مصدر رزق جيد لهم . وهم كما ترى لايمكن تعويضهم .. ومادامت الكلاب تقوم بمهمتها جيدا فلاخطر. فضلا عن أنها رزق ساقه

الله الينا نحن ايضا. وياسيدى مايباع منها فثمنه كله لك.
ـ أنا .. أنتم ما الفرق؟
ـ إذن . دع الأمور على ماهى عليه الى ان تتبلور أكثر من ذلك وساعتها نتصرف على ضوء مايظهر.
ـ على فكرة أنا مكلف برسالة لكما من والدتى. والرسول لايضرب ولايهان ولايغضب منه. أمى ترجوكما ان تقبلا شقة بعمارتها التى فى شارعنا لتدخلا فيها واذا أعجبتكما وراق لكما ان تظلا بها فلا مانع عندها على الأقل نكون قريبين من بعض.
تبادلنا النظر أنا وابنة امبابى وانفجرنا ضاحكين. ودهش أحمد ونظر الينا وقال:
ـ أراقتكما الفكرة؟ كنا نتحدث عندنا فى البيت وجاءت سيرة دخولكما القريب ولما سألنى أبى أين ستدخلان؟ وأجبته ياأبى لاأعرف. وتوقعنا أنكما لم تدبرا هذا الأمر. عرضت أمى اقتراحها ذاك.
قلت:
ـ نحن نضحك على شئ مخالف تماما.
ـ ما هو؟
قالت ابنة امبابى:
ـ توارد هذا الخاطر نفسه على ذهن عمك امبابى وخالتك امبابية. وحاكمانا محاكمة شديدة من أجله.
وأردفت:
ـ ولم يهدأ لهما بال الا بعد أن رأيا منزلنا المقبل.
ـ اذن تدبرتما هذا الأمر.
أجبت:
ـ دبرته هذه الأوربة من مدة.
ـ الحمد لله. كان هذا الأمر يقلقنى جدا. كما أقلق أسرتى بكاملها. سيهدأ بالهم الليلة.
قلت:
ـ اشكرهم نيابة عنا على اهتمامهم بنا.
ـ شكر؟! وعلام؟ إذا لم نحس بمشكلات بعضنا ونتدخل حتى بدون استئذان لحلها فلا كانت أخوتنا.
قلت:
ـ ربنا يديم المودة ياأحمد.
وأردفت ابنة امبابى:
ـ ويخليك لنا أخونا الكبير الذى يحمل همنا ويسأل عنا دائما. لكن ياأحمد هناك أمر يحيرنى وأخشى ان أحدثك فيه.
قال:
ـ تخشين ؟ منذ متى الأدب والذوق يابنت عمى امبابى؟

قالت:
ـ كلى أدب وذوق ومفهومية طول عمرى غصبا عنك.
رد:
ـ مايشكر فى نفسه الا إبليس.
قالت متوعدة:
ـ كف ياولد انت. والا انت تعلم ماذا يجرى لك لو طالتك أسنانى.
رد:
ـ ربنا يكون فى عون الولد زوجك . قولى ياأخية ماذا يحيرك؟
ردت:
ـ استوردت المعدات وأحضرناها وتركتها فى صناديقها حتى الآن. فلا ركبت المصنع ولا الورشة ولا مددت خطوط الرى. أنت كسول ياأحمد.
قال:
ـ أبدا الأمر يحتاج الى مهندسين وعمال من نوعية خاصة وكلاهما لم يتوفر لى بعد ولا أظن أنه سيتوفر قبل ان أؤثث مكتبى الذى بالمدينة القريبة وأهيئ لهم الإقامة هنا. والمقاول لم ينته بعد لا من استراحتى ولاحتى من سكن العمال.
قلت:
ـ الاستراحات عندنا كثيرة وخالية. لم لاتستغلها لعمالك ومهندسيك ولو بشكل مؤقت الى ان ينتهى المقاول.
ـ كنت أظن ان توصيلة الكهرباء ستتأخر وقتا يكون فيه المقاول قد فرغ من مسكن العمال. الا ان «الجن» واشار إلى ابنة امبابى أنهى مايستغرق شهورا فى أيام. أنا لاأرى والله كيف تفعل ذلك هذه الجنية؟
ردت عليه:
ـ فتح عينك تأكل ملبن.
قال بغضب:
ـ أى أنك لم ترتدعى عن طرق الأبواب الخلفية.
قالت:
ـ الخلفية هذه هى الأمامية مادمت لا أوذى أحدا. وقد تركت لك ياعمى أحمد بن حنبل الأبواب الأمامية فهى لاتسعنى وتسع شغل الحنابلة أمثالك.
رد أحمد:
ـ كيف لاتؤذين أحدا وأنت تفسدين الأخلاق برشاواك.
ردت بأنها جاهزة الفساد ولاأنا ولا أنت نستطيع اصلاحها الأمر أعمق من ذلك بكثير ولايقدر عليه الا ذى سلطان قوى.
قال:
ـ لافائدة من اقناعك . المهم . أنى سأبدأ خلال الأيام القادمة فى تركيبات الورشة أولا لأننا قد نحتاج عملها فى تركيبات المصنع والأرض.

قلت:

ـ على بركة الله. المهم ان نعود من أجازة زواجنا لنجد خطوة الى الأمام.

ـ ان شاء الله.

قلت: وهناك أمر آخر.

ـ ما هو؟

ـ ستتولى انت الإشراف على كل شئ فترة غيابنا. وسأجعل ابن عمى الكبير مشرفا على الكل ومسئولا امامك مدة غيابنا. مارأيك؟

ـ معقول . لأنه انسان شديد اللماحية محب لك غاية الحب ويعرف مابينى وبينك من أخوة لذا أطمئن اليه.

قالت له ابنة امبابى:

ـ ووزير الخزانة سيكون فى أجازة والخزينة ستغلق الى ان يعود فان كنت تريد من الخزينة شيئا فخذه من الآن.

قال:

ـ الخزينة تديننى بالكثير ولا أريد ان يتضخم حجم دينى أكثر من ذلك. وقد دبرت أمرى ولن أحتاج لشئ.

• • •

عدنا فرادى اذ كان لابد ان أقود عربتى وتقود ابنة امبابى عربتها قلت لها قبل ان تتحرك معك نقود كثيرة ولاداعى لجنون السرعة وسأتبعك، لكن أقول لمن . سرعان ما أخرجت يدها ولوحت لى ولأحمد واختفت عن ناظرينا.

عاقبتها بأن ركنت عربتى خلف عربتها أمام منزل عمى امبابى ولم أدخل . وأمرت البواب ان يخبرها أنى ذهبت لقضاء مصلحة. مشيت حتى منزل الشيخ محمد فنبهت على زوجته بالاستعداد للرحيل معى اليه صباحا هى والأولاد. وتركت لها بعض النقود لتدبر نفسها وتشترى بعض آنية المطبخ الكبيرة وموقدين وأدوات للغرف. ذهبت الى مسجد الخواص فلحقت العصر بصعوبة وانتظرت حتى صليت المغرب فى جماعة وسلمت على شيخ المسجد ووعدته أن أحضر حضرة الليلة. مسيت على الطباخة وقدارة واعتذرت لهما عن الدخول عندهم وصعدت الى عمتى فتناولت عشائى وانتظرت حتى حان موعد حضرة الذكر فأخبرت عمتى باتجاهى وخرجت فاغتسلت من أدران التعامل مع البشر بالخشوع لله والتفانى فى أسمائه الحسنى.

صادفت عودتى عودة عمى امبابى على مدخل حارة البيرقدار. لما رأتنى ابنته داخلا مع أبيها. قالت بانفعال:

ـ عدت فى حماية أبى.. أين كنت من المغرب حتى الآن؟

انتهرها أبوها فانسحبت مهددة متوعدة ظللت جالسا مع أبيها عازفا عن الحديث مع أحد إذ كنت فى حالة من خفة الجسد والروح والرضى لا أريد ان ازايلها ولا بكل كنوز الأرض. لم يعد فى الردهة سواى إذ انصرف كل الى فراشه. جاءت ووقفت أمامى قالت:

ـ هل ستظل ساهرا؟

لم أرد عليها. بل قمت فدخلت حجرتها . قالت:

ـ لم لاترد ؟

واصلت صمتي. فقالت:

ـ لم تتناول عشاءك. أأكلت بالخارج؟

وصمت مني. فتابعت:

ـ هل أنت متعب؟

وصمت.

ـ أنا ذاهبة لأنام.

ـ تصبحين على خير.

أطفأت النور وردت الباب. استلقيت على الفراش محدقا في الأنوار الخافتة التي تتسلل عبر صيص النافذة من الخارج. عاودت تسبيح الله من أعماقي أحسست كأن الحجرة عبقت برائحة زكية.. وأن بها من يذكره سبحانه غيرى اندمجت فى تسبيحى معها حتى مطلع الفجر قمت فصليت وعاودت التسبيح . غشيني النوم عندما بدأت الحركة تدب في بيت عمي امبابى فتحت عيني عندما سمعت زوجتي تقول:

ـ أما تقوم؟

وفتحتها ثانية عندما سمعتها تقول:

ـ لقد تأخرت.

وفتحتها ثالثة عندما سمعتها تقول:

ـ امرأة الشيخ محمد فى انتظارك.

وفتحتها رابعة عندما أحسست بيدها تتحسس جبهتي فقالت:

ـ حرارتك عادية قم.

وفتحتها خامسة عندما احسست أنفسها قريبة من وجهي تقول:

ـ ان كنت متعبا أخبرني لأستدعى لك الطبيب.

نظرت فى ساعتي وجدتها حوالى الحادية عشرة. قالت:

ـ صباح الخير. ماذا بك؟

ـ لاشئ؟ أنا كمهر أبيك. ابتسمت وقالت:

ـ لكن مهر أبى يركب وأنت من يركبك؟

ابتسمت وقلت:

ـ أكثر من ركوبك ياحبى.

قالت:

ـ ماعاش من يركبك ولو كنت أنا. هيا لنلحق بالبنك فنضع لشيخ المهربين حقه.

ـ وأنت ياحبى لم لاتضعينها؟

ـ ليست لى رغبة فى عمل شئ مطلقا.

ـ والله أنت ياحبى صرت من تنابلة السلطان.

ـ أنا سعيدة هكذا؟ لن أخرج الا الى بيتى.
ـ تنبل بحق وحقيقة.
ـ الحمام جاهز.
قمت فاغتسلت وتوضأت لأكون جاهزا لصلاة الظهر وقدمت لى حلوى مع كوب من الشاى حملت بعدهما زوجة الشيخ محمد وأحمالها وتحركتُ قاصدا أولا الى البنك. ولما كنت على مدخل الحارة وجدت أحد رجال عمى امبابى يشير لى .. فوقفت .. قال لى: عمك امبابى يطلبك على المقهى. أركبته بجوارى وواصلت حتى عمى امبابى.
صبحت عليه وعلى من معه. سألنى:
ـ امرأة الشيخ محمد معك لماذا؟
أخبرته هز رأسه هزة محيرة لم أفهم منها أموافق هو أم رافض جلست ولم اسأله عن سبب استدعائى برغم لهفتى للحاق بمواعيد البنك. تركنى وقام لبعض شأنه أسلمت أمرى لله وقلت فى نفسى: ليكن البنك غدا لما عاد جاء بكهل معه. قدمه لى على أنه صديقه وأنه من هواة تربية الدواجن وتجارها ويريدنى أن أبيع له إناث صيدنا بأعلى مما نبيع للتاجرة التى تشترى منا.
ـ طيب بعد الدفعة القادمة اذ ان معنا للتاجرة مقدمة ثمن.
ـ وهو يريد أن تخصصوا له مكانا يبنى مزرعة دواجن وربحها مناصفة بينكما.
ابتسمت وقلت:
ـ لما أشاور.
ـ تشاور من؟
ـ وهل غير ابنتك؟
ـ هى ترى ماتراه أنت. وعلى فكرة قررت أن تلقى بالحمل كله عليك فاحذر.
ـ الله هو المعين ياعمى امبابى. وبالنسبة لموضوع صديقك سأدرسه وأرد عليه بعد الدخلة بأمر الله.
قال صديقه:
ـ أنا على استعداد لتحمل كل الانشاءات فمشكلتى أنى رجل وحيد . ولا أملك أرضا قريبة. وأنت متوفر عندك الأمران. أما التكلفة فهى متوفرة عندى.
ـ أفكر وأرد.
قال عمى امبابى:
ـ انه يريد ان يزور الأرض معك اليوم.
ـ مرحبا به.
وأشرت اليه وأردفت:
ـ تفضل.
ركب بجوارى وراح يرغو عن علاقته بعمي امبابى وصداقتهما الوطيدة واعتزاز عمى امبابى بى والخوف الذى ينتابه عندما أتأخر فى الخارج وأنه خائف من ليلة الفرح ودائم الدعاء بالستر لتمر هذه الليلة بخير. وأنه أخبره ان لى حسادا كثيرين من أولاد

الحى وبخاصة أصدقاء ابن التربى والزينى وابن العربجى الذى يكاد يجن لما علم ان مطلقته خطبت لأستاذ كبير المقام من أصدقائى. وأن عمى امبابى دائر من الآن يدعو تلامذته فى لعب العصا من جميع الأحياء المجاورة لحراسة ليلة الفرح. وأنه أخبره ان أخوف ما يخافه هو ضرب النار ليلة الفرح اذ قد يتعمد أحد خصومى إطلاق الرصاص على. وتحتار الشرطة فيمن أطلق. وأنه يفكر فى ان يركب جهاز تكييف فى المندرة ويخصصها للكوشة حتى يحد من الخطر ما استطاع. وأنه ذهب الى مأمور الحى وطلب إليه أن يرسل قوة شرطة الحراسة للفرح ومنع ضرب النار فيه وأنه أتى للمأمور بتوصية من أحد الوزراء الذين معه فى الاتحاد الاشتراكى. وأنه يخشى ان ينصب كمين خلال الأيام القادمة لتسكن المستشفى قبيل الفرح. وأنه سعيد جدا لتلهيك بالعمل حتى لاتوجد لأحد فرصة فى عراك معك وهو لايخشى عليك من التحدى المباشر بقدر مايخشى عليك من الأخذ على غرة وأنه هم أكثر من مرة أن ينبهك لكنه خشى أن تتوتر فتطلق الرصاص على أحد بدون روية عند أول استفزاز. وأنه خصص رجلين من رجاله يلازمانك كظلك لحراستك عندما لاتستعمل عربتك دون ان تشعر بهما .. وأنه.. وأنه وأنه.

قصر حديث الرجل الطريق فلم أشعر به الا وأنا على رأس الأرض .. نزلنا فاستدعيت الشيخ محمد ونبهت عليه وعلى زوجته بالا يدعا أولادهما يعبثان بالزرع. وأنى اذا كنت اريد لهما الخير فليس معنى هذا انى سأتسامح فى اى إتلاف يحدثه أولادهما. واذا بلغنى اتلافهما لأى زرعة فسأخصم ثمنها من أجرهما . وقلت لأولاد عمى أمامهما اذا رأيتم من يعبث بالزرع حتى ولو كان ابنى فاضربوه لوت زوجة الشيخ محمد وجهها ومشت فى صحبة زوجها وهى تضرب أولادها وتقول لهم:

– سامعون يامقصوفي الرقبة أنت وهو وهى. لاتقطعا عيشنا. قطيعة تقطع اليوم الذى جئتم فيه للدنيا.

أرسلت مرافقى مع ابن عمى الكبير ليجوب الأرض. ويوافينى على الاستراحة. جاء معى حارسنا الأول فأخبرنى أن سيل الأرانب الجبلية كان شديدا فى مهاجمته هذه الليلة لدرجة ان الكلاب ومدربها لم يهمدا حتى أشرقت الشمس. وأن المكان الذى يحبسون فيه الصيد يكاد يعمر من جديد. وأنه بدأ يميل إلى وجهة نظر الدكتور أحمد فى استعمال المبيدات برغم أنه يستفيد من تلك الأرانب لكنه يخشى على الحرس من التلهى بها طول الليل فتعرض الأسوار لهجوم خصم لدود أو لص طامع. أو فلنزد عدد الحرس على ان يتحمل الصيد أجره وخسائر أرض أحمد، وأنه حادث الرجال فى الثانية وأنهم من هذا الرأى اذا ارتأيته.

• • •

جاءنى حارس أخر فأخبرنى ان عربة نقل بالخارج وعليها بضاعة لنا قادمة من الاسكندرية.

سألته:

– أتأكدت أنها لنا؟ نحن لم نطلب بضاعة.

ـ أكد رجل على هيئة المعلمين يركب بجوار السائق أنها لكم وهو يعرفكم بالاسم أنتم وابنة المعلم امبابى.

لم يرد لذهنى مطلقا ان من بجوار السائق هو شيخ المهربين أو انها السيور لأننا طلبناها من مدة قصيرة لايمكن ان تكون قد لحقت الوصول فيها الى الميناء. وخشيت ان يكون كمينا من خصم وبخاصة ان الخوف داخلنى من حديث تاجر الدواجن صديق عمى امبابى ، قمت معه لأطمئن بنفسى فاذا بى أمام شيخ المهربين جالسا بجوار سائق له. ما ان رآنى حتى قفز نازلا من العربة يسلم على وأنا أرحب به وأقول:

ـ غير معقول .. المعلم بنفسه .. يامرحبا.. ما هذه المفاجأة .. أهلا وسهلا .. تفضل يامعلم .. والله أنت ابن حلال لأنك فى ذهنى من أمس لليوم لولا ظروف خاصة أحاطت بى لكنت دفعت لك ثمن الملابس بالبنك .. ومادمت قد شرفتنا تأخذها أنت، أهلا وسهلا، آسف فالمكان لايليق بك لأننا فى حقل . لو علمنا أنك قادم لأحضرنا فرشا يليق بك .. تفضل يامعلم تفضل دخلنا استراحتى. وأمرت أحد حراسى أن يدخل العربة فى أرضنا ويكرم سائقها وتابعه. ما ان دخل شيخ المهربين حتى قال:

ـ وعلام الجلوس هنا، الخضرة فى الخارج ترد الروح.

ونظر الى حارسنا الأول الذى كان معنا. وأردف:

ـ افرش لنا ياولدى على الأرض أمام الاستراحة. أو حتى بدون فرشة. فنحن منها واليها.

أسرع الحارس فأحضر بساطا قديما مما نفرشه فى أرضية الاستراحة ونفضه وفرشه وأحضر وسائد وزعها على أجناب البساط، قال له شيخ المهربين:

ـ شكرا . أريد شايا لكن على الكانون هنا امامنا شاى مدمس سى شاى بلدنا ولو عندك جوزة تبقى ولدا مولدا تماما.

أسرع حارسنا الأول يلبى مطلبه فقلت له:

ـ أرسل ابن عمى الكبير ليشارك المعلم شرب الجوزة حتى يكون لها طعم.

رد المعلم:

ـ اى والله القعدة حلوة وتحلو ويبقى نهارنا سى الفل. عن إذنك ياولدى أفرد لأريح العظمتين لأنى تعبت من جلسة العربة.

ـ خذ راحتك يامعلم.

استلقى على البساط نصف مضطجع. وهو يقول:

ـ الله.. الواحد من سنين لم يجلس فى مثل هذا الهواء الجاف المنعش.

ـ اسكندرية كلها ولم تجلس فى مثل هذا الهواء!

ـ اسكندرية .. طترا فيها وفى زحامها ورطوبتها .. أنتم عندكم حبة هدوء مملكة.. الله.

ـ لكن أما كان من الأفضل ان تبلغنا بمقدمك حتى نتهيأ لما يليق بمقامك عندنا.

ـ حلاوتها فى مفاجآتها . أنا لقيت نفسى فارغا، قلت ياولد فك فرز الشباب واستروح ولو ليوم فى مكان لايعرفك فيه أحد بعيدا عن المشكلات والتليفونات. وحاضر وطيب

واعمل وسو، وايضا لأزور جماعة كانوا أحبابى وأكلت معهم عيشا وملحا من سنوات فى منطقتكم ثم صاروا أعدائى. تذكرتهم لما عادت العربات من عندكم فى المرة القادمة ووصف لى السواقون المكان. اشتقت اليكم واليهم. لكن لا أدرى ان كانوا أحياء أم أموات. قلت:

– أرى.

جاء ابن عمى الكبير فقلت له:

– تول أنت الشاى والجوزة. وهمست فى أذن حارسنا الأول ان يسرع بشراء ذبيحة ثم ذبحها وشوائها أمامنا.

حاول ان يعترض ويقول:

– الأرانب.

لم أترك له فرصة ونهرته بقولى:

– افعل ما آمرك به.

انطلق الحارس لمهمته وتولى ابن عمى مهمة اعداد الكركرة.

قال له شيخ المهربين:

– ايه؟ حاف؟ أما عندكم قرش أو قرشين. انكم فى عين القروش كلها.

قلت له:

– وما أدراك؟

– أدرانى ان هذه المنطقة حفيت أقدامى من السير فيها أول ما هجرت قريتى لضيق الرزق. وقعت فى قبضة مهرب مخدرات كبير فى منطقة السويس ويتعامل مع الأعراب الذين فى هذه النواحى. فكنت حمالة اليهم سنوات عملت فيهم قرشين عال. فاشتغلت لحساب نفسى سنوات مع هؤلاء الاعراب الى ان قدمنى أحدهم هدية للشرطة فاستضافنى السجن سنوات لكن بعد ان كنت قد «تريشت». هؤلاء الاعراب لاصاحب لهم ولا أمان ومع ذلك انا أذكر بعضهم بكل خير لأنى ربحت من ورائهم ثروة ليست هينة استطعت ان أبدأ كبيرا بالميناء بها بعد ان خرجت من السجن.

ونظر الى ابن عمى وقال:

– يارجل قم فابحث لنا عن حاجة تبسطنا.

قلت له:

– ابن عمى لايعرف . لكنى سأتصرف.

– هكذا تكون حبيبى فأنا مدمن كبير من يوم ان كنت حمالا.

أرسلت ابن عمى لصبى الكلاب فجاء به. قلت له مستدرجا:

– يقولون انك خبأت عنى شيئا عثر عليه كلب المخدرات فى الأرض المحيطة بنا من فترة. لذا قررت ان أحرمك من كل مكافأة مستقبلا اذا لم تحضره حالا.

قال:

– ابن الـ .. مدرب كلاب الصيد. طيب والله ما أنابسامع كلامه ثانية. والله ياسعادة البيه كنت سأقدم هذا الكيس لك الا انه قال لى ياخائب ماذا سيعود علينا من تقديمه

لك. وأغراني بإخفائه. أنا غلطان ياسعادة البيه. والله لأرقعنه علقة يحلف بها. حالا. سأحضر لك لكن سماح.

جرى فأحضر «تربة» حشيش فناولتها لشيخ المهربين، وقلت له:

ـ كلها من أجلك فلا أحد هنا يتعاطاه. فتحها. وأخذ يتشممها. ويقول: والله زمان ماشربت صنعا جيدا مثل هذا.

ظلوا يدخنون طوال تجهيز الشواء وانضم اليهم سائق عربة شيخ المهربين وتاجر الدواجن بعد ان عاد من جولته.

استدعيت بقية أبناء أعمامي وتناولنا غداءنا مع شيخ المهربين الذى أكل وكأنه لم يتذوق طعاما من أيام.

هم تاجر الدواجن ان يفتح موضوعه ونحن على الطعام. فطلبت اليه ارجاءه الى وقت آخر طلب شيخ المهربين تحطيط حمولة السيور حتى ترجع العربة الى اسكندرية لأن المكتب فى حاجة اليها. رجوته ان تعود بطريق مدينتنا وأن تفرغ حمولتها عندنا فى المنزل لأن السيور مجال بيعها المدينة.

قال:

ـ لاتفرق.

وأمر السائق بالتنفيذ دون ان يطلب توقيعا بالاستلام وسحب منه بطاقة التعامل هممت بتقديم منحة السائق له الا انى خشيت ان تتكرر الهبة من ابنة امبابى سألت السائق ان كان يعرف العنوان فأكد ذلك ، أعطيته لها رسالة مؤداها ان شيخ المهربين معى وأنى سأرتبط به الى ان يسافر وعليها الا تقلق ، وأكد عليه شيخ المهربين بضرورة ارسال عينته الخاصة له صباحا ليعود بها.

عرضت على تاجر الدواجن ان يعود معه اذا رغب فقال:

ـ بل سأظل معك الى ان نعود معا كما جئنا معا فأنا فى حاجة الى راحة، بعد ان سافرت العربة بالبضاعة.

طلب شيخ المهربين ان نذهب لزيارة أصدقائه الاعراب، فقلت:

ـ تقول ان السنين باعدت بينكم وأرى ان نرسل من يخبرهم بوجودك فان كان عندهم وفاء قدموا هم ذلك أكرم لمقامك. فمثلك يسعى اليه ولايسعى هو لأحد.

لاحظت الانسجام على وجهه وقال:

ـ هذا هو الصح. جذع يا أستاذ. كانت ستفوتنى تلك النقطة أنت صغير لكنك كبير المفهومية.

أعطيت مفاتيح عربتى لأحد السائقين وأمرته ان يتجه هو والحارس الأول الى مضارب الأعراب وكتبت اسم شيخ المهربين. وقلت للحارس سل عن هؤلاء الأعراب وأخبرهم باسم ضيفنا وقل لهم انه عندنا. وأنى أدعوهم للقائه واذا أحبوا ان يعودوا معكم فى العربة فاصحبوهم معكم.

عادت الجوزة تكركر من جديد. فاستأذنت من شيخ المهربين وصحبت ابن عمى وجلسنا فاطمأننت على الكوائين، وطلبت من أحد الحراس أن يغلق الباب تحسبا

للطوارئ وألا يفتحه لأى قادم الا بعد ان ينبهنا.

صادفنى صبى الكلاب فتوعدته بأن حسابه سيكون ثقيلا بعد ان ينصرف الضيف هو ومدرب كلاب الصيد. صليت الظهر والعصر وعدت الى شيخ المهربين الذى كان فى غاية السعادة بجلسته البسيطة.

عاد الحارس والسائق مصحوبين بثلاثة من الأعراب الذين لم يسبق لى احتكاك معهم لكنى تذكرت ملامحهم فقد كانوا ممن حضروا جلسة الصلح. رحبت بهم واحتفوا هم بشيخ المهربين وراحوا معه يتذكرون أياما خلت ويسألهم عن أحوالهم ويسألونه عن أحواله. كانت هناك استحالة فى شواء آخر يقدم لهم كما أخبرنى حارسنا الأول. خشيت ان يظنوا بى البخل فاتفقت مع حارسى الأول على تمثيلية أمامهم مؤداها اعتذار منه عما كلفته به من إكرام للضيوف مع غضب منى عليه. فلما رأى شيخ المهربين جام غضبى ينصب على رأس الحارس دافع عنه والتمس له العذر ودافعوا هم ايضا عنه مبينين لى استحالة مطلبى بعد ان عاد الرعاة ببهمهم وقال شيخ المهربين:

ـ ياولدى . نأكل أى شئ أو حتى لانأكل بالمرة فنحن نقدر أننا فى أرض زراعية ولسنا بمنزل.

قلت لهم:

ـ مارأيكم فى أرانب مشوية؟

قال شيخ المهربين:

ـ أفضل لخفة لحمها بالليل.

راح الاعراب يحكون له عما كان بينى وبينهم ويسألونه عن سبب تعارفى معه. سهر الأعراب معنا وتناولوا عشاءهم عندنا. ولما أوغل الليل قاموا منصرفين بعد ان دعونى أنا وأبناء عمى مع شيخ المهربين على وليمة عندهم فى الغد أمرت سائقى بتوصيلهم. وشيعتهم بحفاوة حتى خارج الأرض وعدت لشيخ المهربين فرأيته قد نام فى مكانه. أيقظته وطلبت اليه ان يرتاح على الفراش بداخل الاستراحة. رفض. ألقيت عليه غطاء هو وتاجر الدواجن وصليت العشاء. وخصصت حارسا على ضيوفى، ونمت.

عندما خرجت اليهما صباحا وجدتهما يحتسيان الشاى مع حارسنا الأول وطلبت منه أن يأتينا بإفطارنا.

ـ صبرا .. سيأتى حالا فقد عملت حسابه من أمس ساعة أن ذهبت لإحضار الذبيحة.

جاء أولاد عمى يشاركوننا الشاى وراح ابن عمى الكبير يخبرنى بما تم فى الأرض ليلة أمس.

قدمت علينا صبية تحمل فوق رأسها صحفة مغطاة بملاءة نظيفة ما ان كشفناها حتى هل علينا المشلتت الساخن وعسل النحل والجبن القديم.

فى دقائق نسف ما عليها نسفا.

قام شيخ المهربين يمر معى فى الأرض أريته مصنعنا وعندما رأى الكوائين اخبرته بأننا اضطررنا الى ذلك حتى يمكننا بيع الملابس لأن تجار الجملة يتثاقلون علينا فى

الشراء. استحسن فكرتنا. ثم قال لى فلماذا أنت عجل بالثمن اذن ويمينا بالطلاق منه الا يتقاضى شيئا الا بعد ان يبيع كل البضاعة.

لما خرجنا نجوب الأرجاء المحيطة بالأرض رأى ورشة أحمد منفصلة على رأس أرضه سألنى:

ـ لماذا لم تضما هذا المبنى الى مبنى المصنع.

ـ لأنه ليس لنا وهو وما أمامه من أرض محاطة بأسلاك شائكة لصديق بلغت صداقته مبلغ الأخوة.

ـ وما سيصنع فيه؟

ـ ورشة انتاجية ولامانع من الصيانة فيها.

ـ أهو اسطى ممتاز.

ـ بل استاذ سابق بكلية الهندسة.

صمت قليلا ثم قال:

ـ عندى لك فكرة تتكامل مع هذه الورشة وتجعل تعاملنا معا دائما وتشجعنى على دوام زيارتكم.

ـ خير.

ـ تنشئ فى أرضكم على الطريق مباشرة مبنى كبيرا يكون معرضا للسيارات مختلفة الأحجام وللجرارات الزراعية وللموتورات وطلمبات الرى، وأنتم عليكم تولى البيع والتحصيل لأننا سنبيع بالأجل وأنا على التمويل. والربح بيننا مناصفة.

ـ لكن مثل هذا المشروع يحتاج الى أموال طائلة.

ـ أنت مستهتر جدا بى يا أستاذ. العبد لله يحتكم على كبشة ملايين عقبال عندك. فلا يهمك المال موجود والحمد لله. بس انت ياولدى هات شغل. وان كنت تريد من غد السيارات وغيرها أرسلها لك. اطلب انت فقط. عمك عنده البضاعة تلالا وكلمته نافذة على كل تجار الاسكندرية.

وهناك شئ يحول فى يدنا التراب الى ذهب مادامت عند صاحبك هذه الورشة هو شد العربات والآلات القديمة واعادة بيعها. عندنا بالجمرك ثلاث أو أربع مرات كل سنة يعملون مزادا على مايستورد مخالفا لقانون الأمن والمتانة والآلات ويخرج فى المزاد بتراب الفلوس وكانت نفسى من سنين تتوق الى الدخول فى هذه المزادات. ولكن ما كان يمنعنى هو أن حفظ هذه الأشياء يحتاج الى أرض واسعة ليست متوافرة عندنا. ولم يصادفنى الصانع الأمين الممتاز الذى يريح رأسى لما تخرج قطعة الشغل من يده. وأنتم يتوافر عندكم الأمران فلم لا نضع أيدينا فى ايدى بعض ولو أدى الأمر الى شراء أرض أخرى هنا وأظنها لاتتناسب بينها وبين الأرض فيما يحيط باسكندرية فى السعر. أما النقل من الجمرك الى هنا فلن يمثل لى مشكلة لأنى أملك أسطولا من عربات النقل. مارأيك؟

ـ سأرد عليك بعد ان أدرس الأمر مع صديقى.

ـ متى فأنا رجل عملى. والحق بى وأنا متحمس للشغل قبل ان يأتى شئ يغطى على

هذا الحماس. الحق ياجدع عمك المعلم. هيا لا تدع الفرصة تخرج من يدك.

وقفت عربة مرسيدس من آخر طراز بجوارنا . ونزل منها سائق نظر اليه شيخ المهربين وقال حمدا لله على السلامة ياأسطى ، جذع مادمت قد عرفت الطريق، فهمت أنه سائقه فطلبت اليه ان يدخل العربة فى أرضنا. ورحنا نكمل جولتنا الى ان طلب هو العودة وتصادف مرورنا على المكان المحبوسة به الأرانب وكان بابه مفتوحا وصبى الكلاب يضع لها بعض الطعام.

وقف شيخ المهربين. يتمتم:

ـ بسم الله ماشاء الله .. اللهم صل على النبى والله ما أنا بحسود.. ثم سألنى أهى التى تعشينا منها أمس؟

ـ نعم.

ـ تربونها.

ـ بل نصطادها عندما تهاجم الزراعة الخارجية.

ـ ياساتر يارب. بالفخاخ.

ـ بل بالكلاب.

ـ إذن كلابكم هى التى سمعت نباحها الكثير ليلة أمس؟

ـ نعم.

ـ والله أنتم عفاريت.

ـ كلاب صيد؟

ـ وحراسة.

ـ مدربة؟

ـ جدا. ولها مدربان دائما يرعيانها ويداومان تدريبها.

ـ هكذا الشغل وإلا فلا.

ـ واشتريتم كلاب الحراسة من أين؟ من كلية الشرطة؟

ـ بل من أحد مدربيها.

ـ وهى جيدة؟

ـ جدا.

ـ أتريها لى؟

ظل صبيها يستخرج أفانينه معها أمامه وهو معجب بها أكثر من ساعة. ثم التفت الى وقال: كلها عال الا واحدا.

ـ له مهمة أخرى.

ـ ماهى؟

ـ حمايتنا من دس المخدرات علينا.

وقصصت عليه حادثة دس المخدرات التى فعلها الاعراب لما كنا فى خلاف معهم ليودوا بنا لولا ستر ربنا. وأخبرته ان ماتعاطاه من حشيش أمس انما هو من صيده. دهش وأحب ان يرى. فطلب من الصبى ان يبتعد بالكلب وقام بإخفاء قطعة مما معه

من المخدرات. ثم نادى الصبى فاستطاع الكلب الاهتداء الى الخبئ بسهولة. تسلى بتكرار المحاولة لفترة. ثم مد يده فى جيبه واخرج هبة يريد اعطاءها للصبى.

وهو يقول لى:

ـ بإذنك .

وقف الصبى مترددا ينظر إلى. فقلت له:

ـ خذها ولو أنك لاتستحق. جاءتك البلاوى.

سألنى شيخ المهربين: أراك غاضبا عليه.

ـ لأنه كلب ككلابه. فقد تآمر على هو والكلب الآخر مدرب كلاب الصيد. ولولا تشريفك لنا لنجح تآمرهما.

وقصصت عليه قصة استخراج الحشيش منه أمس فواصل الضحك واستحلفنى ألا أوذيهما لأنه يحب الأشقياء. ونادى مدرب كلاب الصيد وأعطاه هو الآخر بعض النقود وهو يقول:

ـ حتى تجهز لى قفصا كبيرا من الأرانب أعود به للأولاد ولاتخش من الأستاذ فهو لن يمانع.

قلت:

ـ كلها اذا شئت وهى لاتليق بمقامك. ليت عندى ماهو أعظم منها فأقدمه لك. لأرد بعض أفضالك علينا.

ـ ياولدى لاتقل هذا والله يعلم أن قلبى انفتح لك أنت وشريكتك عندما رأيتكما أول مرة. لأنى أحب المغامرين وقلبكما الحديد فى التجارة أكبر مغامرة وانتما مازلتما صغيرين على مخاطر التجارة. على فكرة. أين شريكتك؟

ـ أهى قريبتك؟

ـ بل شريكتى فقط؟

ـ لم لاتجعلها شريكة فى البيت ايضا؟

ـ أترى هذا؟

ـ بلا تردد ياأستاذ بنت سى القشدة وماهرة وذكية وعملية وثرية وقلبها سى الحديد وتنظر اليك بحب. وأنت ولا أنت هنا ماذا جرى ياأستاذ .. خليك صاح. الحق قبل ان يلحق غيرك.

ـ اذن شرفنا لحضور دخلتنا يوم كذا القريب.

احتضننى وقبلنى. وقال:

ـ ها هى الرجولة. حتى ولو لم تكن تحبها فالحب يأتى بالمعاشرة. مبروك ياأستاذ

مبروك ياولدى. سأحضر مهما كان ورائى من مشاغل ألف.. ألف مبروك يتم الله بالخير. وأنت وهى مدعوان لقضاء شهر العسل فى أحد أكواخى على البحر.

ـ شكرا يامعلم.

ـ شكر على ماذا ياأستاذ. انتم شباب سى الفل ومعاملتكم سى الجنيه الذهب. وتقول لى شكر.. اتعرف ياولدى لماذا احببتكما أكثر وأكثر. لأن النقود لاتغريكما. لا أكتمك أنى فى أول بيعة بعتها لكما كنت ممسكا قلبى بيدى على ما بقى من مبلغ جسيم طرفكما يغرى ما هو أقل منه كثيرا من الرجال بأكلة.. فلما دفعتم .. قلت: بس هذا هو الشباب والا فلا. ولوطلبتم المحيط بعد هذا لأعطيته لكما. التاجر الكبير منا ياولدى يستشرف الى انسان أمين يعامله. التجارة لو رجعت سى زمان بكلمة الشرف لراجت وسعد بها المجتمع لأنها ستصنع حركة وبها تأتى البركة. لاتتردد ياأستاذ فى معرض السيارات والآلات الزراعية. ستريحنى بهذا من هم يثقل قلبى نحو هذه الناحية من الأرض لقد كنت من المفسدين فيها يوما. وأريد أن أكون من المصلحين فيها يوما آخر لعل هذه تمحو تلك وبالله حسن الختام.

ـ اطال الله عمرك يامعلم.

ـ طال أم قصر. لن أرى من الدنيا أكثر مما رأيت ولن أربح أكثر مما ربحت. ولن آخذ منها أكثر مما أخذت ولن أترك لأولادى أكثر مما تركت كل واحد منهم صاحب شركة أكبر من شركتى. وبعضهم لايستحيى ان ينافسنى، والبنات ربنا يستر عليهن وكل واحدة صارت فى قفا رجل محترم يحمل همها. وماذا اريد من الدنيا أكثر من هذا. والله ياولدى صار طولها قد عرضها عندى.

مايثقل قلبى ياولدى أن أساس مالى حرام فى حرام لكن ماذا كنت أصنع والفقر يقل الدين. كنت أريد ان أعيش فى بحبوحة كما يعيش كثير من الناس ولم يكن هناك تعليم يأخذ باليد ولا مال يستر. فماذا كنت أصنع. صحيح أنى تبت وأحاول ان أمد يدى بالخير للناس وأتسامح معهم لكن هل سيقبل الله توبتى؟

ـ فضل الله واسع.. ورحمته وسعت كل شئ.

ـ يارب .. أتعرف ياولدى .. لما حججت قالوا لى لن تنفع حجتك لأنها سحت. هممت ان أتنكر واقف على أبواب المساجد استجدى كفة‌كفة. لكنى خشيت ان يعرفنى أحد بالاسكندرية التى يعرفنى فيها الصغير والكبير. لأن عمك الحاج معروف سى الشمس ومسموع سى الطبل. فتكون الفضيحة فترددت كثيرا. ثم عزمت وذهبت لأنفذ لكن يبدو أن الله لايريدنى. لأنى دخلت المسجد لأصلى أولا الجمعة ثم أقف بعدها استجدى المصلين وقد غيرت من هيأتى تماما لدرجة أنى لم أعد أنا نفسى أعرف نفسى. فإذا

بالخطيب يتصدانى وتكون خطبته عن الاستجداء وأن الرسول قال عن المسألة «انها من الفواحش» أليس هذا تصد. ادع لعمك بالمغفرة ياولدى فما تركت معصية الا وارتكبتها عدا شئ واحد هو القوادة نفسى ياولدى أجد لقية أحج منها ثانية وأتعلق بأستار الكعبة باكيا لعل الله يقبلنى وأتمرغ على عتبات الرسول لعله يشفع لى يوم الدين.

ـ تدعونى بولدك أليس كذلك؟

ـ والله أنت مثل أولادى تماما. فقد انفتح قلبى لك لله فى لله.

ـ تعدنى اذن الا تغضب منى اذا عرضت عليك شيئا.

ـ وهل يغضب أب على أولاده؟

ـ جميل هيا بنا الى الاستراحة.

ـ دعنى فى هذا البراح.

ـ تعال معى ثم نعود فاجلس مكان ماتحب.

سرنا فى صمت الى استراحتى وأغلقت دونى ودونه الباب. وأخرجت مامعى من نقود كنت سأسدد بها ثمن الملابس المشتراة منه. فوضعتها أمامه. وقلت:

ـ مالنا كله من حلال. فخذ منه ما أحببت لتحج به.

انهار يبكى كطفل. تركته حتى اراح نفسه بالبكاء وأخرج شحنة ضيق ووضع فيه غله ولما هدأ تشنجة قليلا. سألته:

ـ ماذا يبكيك ألم نتفق على أنى كأولادك.

ـ يبكينى أن أموالى التى بالملايين لم تنفعنى مع الله. لم تصلح لآخرتى وان كانت قد نفعتنى فى دنياى الغائبة. سأدعها للغير يستمتعون بها ويستفيد بها غيرى وأنا حى وكلهم يدخلون الجنة ويلقى بى أنا فى جهنم.

ـ قلنا ان رحمته سبحانه وسعت كل شئ. والله يغفر الذنوب جميعا عدا الشرك به خذ هذه النقود كلها ان أحببت لتحقق أملك فى الحج المبرور. ولن أخسر أنا لأنى سآخذ أجر حجة مثلك.

ـ لكن عظامكم مازالت غضة ياولدى وقد تؤثر عليكم هذه النقود.

ـ أولادك ليسوا على الحديدة يامعلم فضلا عن أننا ربحنا من ورائك الكثير ولا فضل لنا عليك. وانما نرد لك بعض جميلك فلا تتحرج.

مد يده إلى النقود فاجتزأ منها خمسة آلاف. طلب مظروفا أو ورقة يعزلها بها عما فى جيبه ودسها فى طيات ملابسه. وعاود البكاء. حاولت التخفيف عنه. لكنه طلب الى ان ادعه حتى يريح نفسه. خرجت فجلست أمام الباب الى ان حانت صلاة الظهر فدخلت عليه ومازال يبكى فطلبت اليه ان يقوم ليصلى معى الظهر.

بدت الراحة عليه عقب الصلاة وأخذ يسترد مرحه شيئا شيئا . وقال هيا بنا الى الاعراب صحبت ابن عمى الكبير وحارسى الأول وتاجر الدواجن معنا وانطلقنا فى عربته.

ظل طول الطريق يتذكر المعالم ويتوقع ما سيصادفنا أحيانا يصدق حدسه وأحايين يكذب. وكنت متوجساً خيفة من الأعراب ضبطت نفسى أكثر من مرة أتحسس سلاحى.

زايلنى هذا التوجس بعد أن وصلنا إذ تسابق الأعراب إلى تحيتى وتقبيلى وكأنى أحدهم وسرعان ما دارت علينا أكواب القهوة المرة رشفة أو رشفتين فى قعر الكوب. وانتصبت حلقة كركرة الحشيش التى لم أشارك فيها ولا ابن عمى أو حارسى. نحرت الذبائح أمامنا وجهزت وخلطت بالأرز والتوابل ووضعت فى جرار كبيرة سدت فوهاتها بالطين ودفنت فى جمر متقد حوالى الساعة ثم نصبت المناسف الخشبية الكبيرة أمامنا واستخرجت الجرار من النار فمسحت أجنابها وقعورها بخرقة نظيفة وكسرت قعودها فوق المناسف لينزل منها ألذ طعام تذوقته فى حياتى وعيبه الوحيد أنى وابن عمى وحارسى عانت أيادينا وأفواهنا سخونته الشديدة.

استأذن لنا شيخ المهربين بعيد العصر. وقمنا لنعود ودعونا بحفاوة أبلغ من حفاوة اللقاء. وقدم أحدهم لشيخ المهربين «تربة» حشيش هدية له. لما وصلنا أمام الأرض عرضت عليه أن ينزل ليقضى ليلته معى ويسافر صباحا إلا أنه رفض لكثرة مشاغله. أمرت بما ملأ خزينة عربته والمقعد بالأرانب الكبيرة وحذرته مما معه من ممنوعات. فابتسم وقال:

- لاتخش شيئا سأخفيها فى مكان بالعربة لايصل إليه ولا حتى الجن الأزرق.

• • •

ألقيت ببعض التوجيهات لابن عمى وحملت معى تاجر الدواجن وكنت طول الطريق مشغولا على أحمد الذى لم أره ليومين متتاليين. ومضطربا لأن تاجر الدواجن يحمل هو أيضا تربة حشيش اشتراها من الاعراب لما كنا عندهم. عندما أنزلته قريبا من منزل عمى إمبابى. نطقت بالشهادتين وحمدت الله أن سلم وصممت على ألا أغامر ثانية بمجاملة فيها خطورة مهما كانت القرابة أو الصداقة أو الصلة دخلت على ابنة امبابى وقبل أن تبدأ استجوابها الذى تعودته طلبت حماما دافئا وصليت العصر والمغرب.

عرضت على الطعام فرفضته وبدأت فى تقديم تقرير واف ومفصل لرئيسى المباشر موفرا عليه وعلى نفسى مؤونة الاستجواب الذى لايدع شاردة ولا واردة.أخبرتنى

بوصول السيور. وتأثرت كثيرا لما أخبرتها بما فعلته مع شيخ المهربين لأوفر له رغبته فى الحج وقالت:

ـ أخلف الله علينا بالحلال. إنه يستحق كل خير. وما فعلته لن يضيع عند الله. سألتها عن أحمد وأخبرتها أنى لم أره بالأرض خلال اليومين الماضيين فقالت:

ـ إنه اتصل بها هاتفيا وأخبرها أنه مشغول ببعض الأبحاث حول نظام الرى مع بعض الأساتذة.

لم أكن قد انتهيت من تقريرى اليومى لزوجتى حين سمعت صوت عمى امبابى قادما من ناحية باب المنزل يسأل زوجته الجالسة فى الردهة أمام حجرتنا:

ـ أين هو؟

ـ من ؟

ـ الزفت الغبى زوج ابنتك؟

سألتنى ابنته:

ـ ماذا فعلت لأبى؟ أأغضبته؟

ـ وهل رأيته حتى أغضبه؟

ردت عليه زوجته:

ـ يا رجل عيب. لا تخطئ فى حق الولد.

ـ وما عمله اليس عيبا؟

ـ الولد فى غايه الأدب والكمال.

ـ والغباء أيضا.

لم أسمع ماردت عليه به . وإنما سمعتها تصرخ متأوهة وهى تقول:

ـ وما شأنى أنا لتضربنى. إنه عندك مع زوجته فى حجرتهما.

قالت لى ابنته:

ـ حذار فأبى ثائر ولا يهوش. فهو لا يضرب أمى حبه إلا إذا كان فى غاية الغضب.

تساؤل.

هل ترى ياعزيزي القارئ أن هذه الرواية التي فرغت من قراءتها تواً قد تمت فصولاً؟

إذا لم تكن فربما كان بمقدورك أن تتمها أنت، أو فانتظر مني رواية تالية قد أتم بها هذه الرواية أو لا أتمها. أنت وحظك ما دمت تحب القراءة.

المؤلف